

عبد القادر خليفي

محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة

1830-1962

ديوان المطبوعات الجامعية

عبد القادر خليفي

محطات

من تاريخ الجزائر المجاهدة
1830-1962

ديوان المطبوعات الجامعية

رقم النشر: 4.07.5121
رقم ر.د.م.ك(ISBN): 978.9961.0.1361.8
رقم الإيداع القانوني: 2010/2091

بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرّحِيمِ

*مِنَ المومِنينَ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدوا اللهَ عَليْهِ، فمِنْهمْ

مَنْ قضَى نَحْبَه ومِنْهُم مَنْ يَنْتظِرْ، وما بَدّلوا تَبْديلا.*

سورة الأحزاب: 23

المقــــدمة

يتميز تاريخ الشعوب المغاربية بالنضال الطويل والكفاح المستميت ضد قوى العدوان والإستغلال من رومان ووندال وبيزنطيين وفرنسيين في العصور القديمة والحديثة المعاصرة. لقد قُدِّر لهذه الأراضي أن تكون مطمحا للعديد من القوى العظمى في العالم على مر الأزمنة؛ لأن الله حباها بمميزات خاصة جعلتها مقصدا شهيا لهذه القوى العظمى. وتتمثل هذه المميزات فيما يلي:

1-مناخها المعتدل، لأنها ذات موقع متوسط بين المناطق الحارة جنوبا والمناطق الباردة شمالا، وهو مناخ البحر الأبيض المتوسط الصالح للإستقرار والإستثمار.

2-غِنى تربتها الزراعية مما أدى إلى تنوع منتجاتها من فواكه وخضر وحبوب، وتوفر المراعي بها لمختلف الحيوانات المنتجة للحوم والألبان، إلى جانب الغابات المنتجة لبعض الأنواع من الأخشاب المفيدة وفي مقدمتها أشجار الفلين.

3-توفر أراضيها على مراود معدنية عديدة أهمها الحديد والفوسفاط، وعلى مصادر طاقوية هامة كالبترول والغاز والأورانيوم.

وكانت فرنسا ضمن هذا النسيج الاستعماري الحديث، الذي شده الجشع والطمع للحصول على هذه الخيرات. وفرنسا هي التي استقرت بهذه البلدان المغاربية ودخلتها عُنْوَة، بين القرنين التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، واستغلت ما فوق الأرض وما تحتها بما في ذلك الإنسان الذي سلبته صفته الإنسانية، وأصبح بالنسبة لها مجرد أداة لتحقيق أكبر ما يمكن من الأرباح.

والجزائر جزء من البلاد المغاربية، قاست أكثر من غيرها من ويلات الاستعمار الحديث، لأن فرنسا اعتبرتها قطعة من أراضها، ولم تفكر بتاتا في

الإنسان المتواجد على هذه الأرض، فلم تمَكّنه من أي حق من الحقوق الطبيعية بصفته إنسانا. لقد نعتته بمختلف أنواع الصفات الذميمة، إنتقاصا منه وتحقيرا لجنسه عربيا كان أم بربريا، فالأمر بالنسبة لها سيان، واعتبرته مجرد شخص يتحرك لخدمة أسياده الأوربيين فهو بِيكُو وأهلي(أنديجان .Indigène) ليس له سوى الطاعة وتنفيذ الأوامر.

فهل خضع هذا "الأهلي" لمثل هذا الإحتقار والإستغلال والعبودية، وقَبِلَ بذلك الوضع الحقير؟

كلا، لقد واجه الجزائريون المحتل بكل ما أوتو من وسائل، وذلك حسب الظروف والتحديات، فمرة تتوفر لديهم إمكانيات القوة فيعلنون الكفاح المسلح، ومرة يفتقدون ذلك فيلجؤون إلى وسائل أخرى بديلة كالمداراة والملاينة، حفاظا على مقوماتهم الشخصية ودفاعا عن أراضيهم، ومرة ثالثة يزاوجون بين الوسيلتين، ولذا تلونت مواجهات الشعب لهذا الاستعمار بين فترة وأخرى.

وهكذا سنقسم هذا العمل إلى فصلين:

سنتطرق في الفصل الأول إلى نماذج من المقاومات المسلحة حينا، ومن النضال السياسي حينا آخر، وبخاصة من خلال بعض الكتابات الوطنية أو الأجنبية. وهكذا سنتعرض للأمير عبد القادر وللشيخ بوعمامة وللأمير خالد وللحركة الإصلاحية ولبعض المحطات من الثورة الجزائرية المجيدة.

وسنتحدث في الفصل الثاني عن المقاومات الثقافية الشعبية التي واجه بها الجزائريون الاستعمار الفرنسي في مختلف مراحل تواجد هذا الاستعمار، وهي مقاومة ذاتية صادرة عن الشعب، ليست من النوع الذي يتم برمجته والتخطيط له، بل هو عمل طبيعي وعفوي، ورد فعل بديهي، يشمل بطولة الشعب

الجزائري في شعره ونثره، ووحدته في واقعه ووجدانه وفي طرق إبراز تلك البطولة، وفي كيفية المحافظة على قيمه ومقومات شخصيته.

لقد جاء الكتاب تحت عنوان: "محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830 - 1962"، وبهذا فإن الكتاب ليس تاريخا أكاديميا كاملا يتتبع الأحداث والمواقف من تاريخ الجزائر طيلة الفترة الزمنية المذكورة، بل هي كما جاء في العنوان عبارة عن محطات وواقع محددة معينة، تعرضنا لها من زاوية معينة فقط.

أما كلمة "جهاد" الواردة في عنوان كتابنا هذا، فلابد من الإشارة إلى سبب ورودها، ذلك أن مقاومة الجزائريين للاستعمار الفرنسي كانت دائما ذات صبغة جهادية، لأن الاستعمار هو الذي أرغمهم على اتباع وسيلة القوة الحربية طريقا للدفاع عن النفس، فقد غزا الفرنسيون الجزائر بصبغة صليبية سواء كان ذلك عن طريق تصريحات قادة الدولة الفرنسية أو سلطاتها في الجزائر أو من خلال معاملة السكان بمحاربة مقوماتهم الشخصية والدوس على مقدساتهم، والعمل على تحويلهم مسيحيين إن أمكنها ذلك بواسطة رجال دين عزموا على التضحية بكل غال ونفيس لتنصير الجزائريين وبخاصة أبنائهم.

وكان الجهاد بالنسبة للجزائريين الوسيلة الأكثر نجاعة لتجنيد الجماهير الشعبية، والذي حمل لواءه رجال الطرق الصوفية، وهم الذين التفت حولهم الجماهير الشعبية للدفاع عن الحوزة الترابية والقداسة الدينية طيلة القرن التاسع عشر. كما أن الحركة الوطنية في القرن العشرين جعلت من المقومات الشخصية للجزائريين باعتبارهم مسلمين من أهم الركائز التي وحدت الشعب خلف زعامات وطنية مخلصة. أما ثورة أول نوفمبر 1954 فقد كان الجهاد بالنسبة إليها أهم عامل واجهت به قوى الشر والعدوان الاستعماريين، وكانت عبارة "الله أكبر" تمثل نداء الجسارة والإندفاع لرجال لم يكن أمامهم سوى النصر أو الاستشهاد.

الفصل الأول

مقاومة وجهاد مستمرين

ظل الشعب الجزائري صامدا في وجه الاستعمار الفرنسي، فبمجرد أن انسحب الحكام الأتراك، استلم الشعب زمام أموره بيده تحت قيادة زعامات قوية وأمينة من أبنائه البررة الذين اختلفت مشاربهم من زعماء دينيين محافظين أو إصلاحيين، إلى رجال سياسة محنكين.

ففي القرن التاسع عشر استعمل المستعمر أسلوب القوة والشدة للإستيلاء على الأرض وتسخير السكان لخدمة أهدافه، فواجهه الشعب بالأسلوب نفسه، ولكن ما كان ينقصه هو توحيد الجهود والعمل الموحد لضرب العدو يدا واحدة، لذلك كان مآل هذا الأسلوب الهزيمة في نهاية الأمر، فاتخذ أسلوب التقوقع على النفس وعدم مخالطة العدو واحتضان مميزاته وخصوصياته خوفا عليها من التلاشي والذوبان. وقد تلا تلك المقاومات الشعبية التي سادت القرن التاسع عشر، هدوء وصمت، لم يكن هدوء العاجز ولا صمت الجبناء، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

كان الشعب الجزائري ينتظر القيادة القديرة والزعامة التي تأخذ بيده إلى بر الأمان، عبر مسار طويل صعب تقوده لمجابهة عدوه الظالم ليحقق النصر المؤبد، ويُنهي كابوس الاستعمار الأليم من استعباد وفقر وجهل ومرض إلى الأبد.

وقد تميز النصف الأول من القرن العشرين باتباع الأسلوب السياسي الذي يتخذ من الأساليب المعاصرة وسيلة لتحقيق أهدافه، فكان اتجاه الإدماج وكان اتجاه المساواة وكان الإتجاه الإصلاحي وكان الإتجاه الإستقلالي، وبذلك تشعبت الآراء وتعددت أساليب المطالبة بحقوق الشعب الجزائري المنهار.

وفي بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد فشل كل الأساليب المستعملة حتى ذلك الحين، لم يجد الشعب خيارا غير خيار القوة والشدة، ولكنه لم يكرر ما حدث في القرن السابق من تشتت في القوة وتضارب في

الرؤى، بل توحدت الكلمة، وأصبح الشعب الجزائري كرجل واحد يوجهه تنظيم واحد، بهدف واحد، هو طرد المستعمر. وبذلك جاء النصر وجاء الاستقلال، وتبعا لذلك سنمر على بعض المحطات من تاريخ الجزائر النضالي طيلة الفترة الاستعمارية 1830-1962.

وتنحصر مواضيع هذا الفصل في محاور متعددة هي عبارة عن محطات من هنا وهناك، من تاريخ نضال الشعب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية.

فعن الأمير عبد القادر سنختار ما أورده محمد السنوسي في كتابه المعنون بـــ "الرحلة الحجازية،" والذي كان قد التقاه في دمشق ببلاد الشام في السنة نفسها التي توفي فيها الأمير وهي سنة 1883.

وعن الشيخ بوعمامة بطل مقاومة 1881 بالجنوب الغربي الجزائري، سنختار ما كُتب عن حركته سواء كان ذلك بأقلام جزائرية أو بأقلام أجنبية في الفترة المذكورة. وسنتناول نموذجا من المقاومة الجزائرية بإحدى مناطق الجنوب الكبير وهي عين صالح.

وعن الأمير خالد سنتحدث عن تاريخه من خلال مواقفه البطولية الرافضة للسياسة الاستعمارية الظالمة والهيمنة المتغطرسة في الفترة التالية للحرب العالمية الأولى.

وعن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي مثلت الحركة الإصلاحية سنتحدث عن دورها النضالي في تاريخ الجزائر المعاصرة.

وعن الثورة التحريرية سنتعرض لبعض المحطات من خلال ستة محاور هي: بعدها الإفريقي وسياسة ديغول خلال حكمه لفرنسا وموقفه من الثورة الجزائرية من خلال مذكراته، كما سنناقش أحد المؤلفات التي تتحدث عن هذه الثورة لكاتبين سوريين هما مصطفى طلاس وبسام العسلي. وسنتحدث

عن طرق التموين بالسلاح خلال المرحلة نفسها في المنطقة الجنوبية الغربية كنموذج عن عملية تهريب السلاح من الخارج إلى داخل الوطن.

وسنتحدث عن دور جبهة التحرير الوطني تجاه المهاجرين الجزائريين وأطفالهم خلال الفترة نفسها، وذلك من خلال يوميات طفل مهاجر.

وأخيرا سنعرج على إحدى محطات اتفاقية استقلال الجزائر المعروفة بـــ "اتفاقيات إيفيان،" وذلك من خلال قضية الصحراء الجزائرية وما مثلته من أهمية بالغة في مسار مفاوضات الطرفين الجزائري والفرنسي، وما تمثله هذه القضية من محاولات الاستعمار التمسك بمستعمراته السابقة بأساليب مختلفة يائسة.

أولا :الأمـــير عبد القادر مـــن خلال كـــتاب "الرحلة الحجازية"

الأمير عبد القادر هو زعيم المقاومة المسلحة ضد الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830. حارب الاستعمارَ طيلة سبعة عشر عاما (1832-1847). تولى القيادة بعد والده محي الدين الذي كان قد قاد المقاومة قبله لمدة سنتين (1830-1832). دوَّخ الأمير فيها القواتَ الفرنسية الغازية المدربة والمسلحة أحسن تسليح، وهزمها في عدة معارك، وفرض على قادتها الإعتراف بسلطته وعقد الإتفاقيات معه، كمعاهدة دي ميشال سنة 1834 ومعاهدة التافنة سنة 1837.

وبعد صراع طويل بين قوى غير متكافئة اضطر الأمير أمام الظروف الصعبة التي لقيته داخليا وخارجا إلى التوقف عن المقاومة ووضع السلاح أمام الجنرال لاموريسيار والدوق دومال Duc d'Aumale ابن الملك الفرنسي آنذاك في شهر ديسمبر من سنة 1847. وحمَلته الباخرة الفرنسية إلى فرنسا بدل السماح له بالإتجاه إلى المشرق حسب طلبه الذي وافق عليه ممثلو السلطات الاستعمارية. وبقي هناك إلى أن أطلقَ سراحَه نابوليون الثالث سنة 1852، فاتجه إلى بروسة بتركيا ومنها إلى دمشق التي بقي بها إلى أن وافته المنية سنة 1883.

أما كتاب "الرحلة الحجازية" لمحمد السنوسي[1] الذي نحن بصدد تصفح بعض محتوياته، والذي سنعتمده في هذا المحور، فيشتمل على ثلاثة أجزاء،

[1]هو محمد بن عثمان السنوسي (1851-1900)، ولد بتونس، نال شهادة التطويع من جامع الزيتونة سنة 1870، احتل عدة مناصب في الدولة، شاعر وكاتب له مؤلفات متعددة، عمل محررا لبعض الجرائد. إبتدأ الرحلة في 25 ماي 1882، أي بعد سنة من فرض الحماية على بلده من قبل فرنسا. وعاد إلى تونس في 5 فيفري 1883. لينكب على كتابة هذه الرحلة، وتوفي محمد السنوسي في 17 نوفمبر سنة 1900 بعد مرض عضال.

تعرض مؤلفه في الجزء الثالث منه لترجمة الأمير عبد القادر، وذلك في ستة وثلاثين صفحة، من صفحة 178 إلى 224 من الكتاب المحقق من قبل محمد الشنوفي والصادر سنة 1978 عن الشركة التونسية للتوزيع. استهله المؤلف بوضع صورة مكبرة للأمير عبد القادر وهي الصورة المعروفة عنه؛ حيث يظهر وهو واقف ببرنوسه الأبيض وصدره مزين بنياشين متعددة على الشق الأيمن من صدره.

وتشتمل المفردات المخصصة للأمير في هذه الرحلة، التي وضعها المؤلف نفسه، على ما يلي:

-ترجمة الأمير عبد القادر الحسَني.

-بيعة العروش والقبائل للأمير عبد القادر الحسني.

-حروب الأمير عبد القادر ضد الجيش الفرنساوي.

-عود إلى ترجمة الأمير عبد القادر الحسني.

-حماية الأمير عبد القادر الحسني لنصارى سكان جبل لبنان عام 1860.

-مؤلفات الأمير عبد القادر.

-كتاب من محمد بيرم الخامس إلى الأمير عبد القادر للتعريف بالمؤلف.

-منزلة الأمير عبد القادر الحسني لدى أهل دمشق.

-اجتماع المؤلف بالأمير عبد القادر الحسني.

-عود إلى ترجمة الأمير عبد القادر الحسني.

-مرثية المؤلف للأمير عبد القادر الحسني.

ففيما يخص العنصر الأول استهله محمد السنوسي بذكر سلسلة نسب الأمير قائلا: "هو الشيخ أبو محمد عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى...الخ، ذاكراً اتصال نسبه بالقطب الجيلي عبد القادر الجيلاني دفين بغداد، ثم بسيد

الكونين عليه الصلاة والسلام،[2] مبينا بهذا، شرف نسبه العريق، وعلى خِصِّيصِيَّة هذا البيت بمشيخة الطريقة القادرية بمدينة معسكر ببلاد الجزائر، وتميّز أفراده بالعلم والصلاح والجهاد في سبيل الله.

وفي العنصر الثاني تحدَّث عن البيعة فبيَّن الظروف المحيطة بها والأسباب الداعية إليها وتبيان ما اتفق عليه من قبل أهل الحل والعقد من مبايعة عبد القادر بن محي الدين أميرا عليهم من غير طلب منه للإمارة. وقد "أعلنوا بنصرته والدعاء له وأن يحموه مما يحمون به أنفسهم وأموالهم وأولادهم."[3]

وفي العنصر الثالث تحدث المؤلف عن حروب الأمير عبد القادر في مواجهة الجيش الفرنسي، فبدأ بمعركة مضيق سيدي مبارك التي حدثت في شهر ديسمبر من سنة 1835، ثم استيلاء الفرنسيين على مدينة معسكر. وتحدث عن معركة تلمسان واستيلاء الأمير عليها رغم وقوف جماعة الكراغلة ضده، والذين مالوا إلى جانب غريمه المزاري من قبيلة الدواير، الذي كان قد انضم بقبيلته إلى الفرنسيين؛ ثم اضطرار الأمير إلى ترك تلمسان أمام قوة الفرنسيين ومَن والاهم (الكراغلة والدواير)، ثم مهاجمة الأمير لمدينة وهران وانتصاره على القوات الفرنسية التي كان يقودها الجنرال تريزيل، ومسيرته نحو الشرق مرورا بالمدية التي استولى عليها. وعند عودته اعترض طريقه تريزيل وجرت معركة المقطع، التي كانت نصرا مؤزرا للأمير. ثم تعرض لعقد معاهدة تافنا[4] في ماي من سنة 1837، بعد أن فشل بيجو في الإنتصار على الأمير عبد القادر، مما جعل هذا الأخير يمتلك ثلاثة أرباع الأراضي الجزائرية.

---

[2] محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، الجزء الثالث، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978، ص:179.

[3] نفسه، ص: 181، 182.

[4] عقدت بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو في 30 ماي سنة 1837 بجوار واد تافنا في الطريق الرابط بين عين تموشنت وتلمسان. بنيت قرية بالمكان تدعى الأمير عبد القادر

وتحدث عن سيادة الأمن في البلاد مما جعل الأمير يتجه إلى عين ماضي سنة 1838 ويستولي عليها بعد انسحاب شيخها محمد الحبيب بن الشيخ التيجاني صاحب الطريقة التجانية.

كما ذكر المؤلف ما قام به الفرنسيون من نقض لمعاهدة تافنا سنة 1839 وعودة الفريقين الجزائري والفرنسي إلى التقاتل والحرب، ووصول الأمير إلى مشارف العاصمة، ثم تقهقره أمام قوة الفرنسيين، وانضمام مصطفى بن اسماعيل ابن أخ المزاري السابق الذكر للفرنسيين، وهو أحد زعماء قبائل الدواير، مما أضعف من قوة الأمير وشدَّ من أزر أعدائه.

ثم تحدث عن تحركات الأمير الكثيرة وتنقلاته العجيبة من مكان لآخر وغزوه للقبائل التي انضمت للفرنسيين، وفشل القوات الفرنسية وأعوانها في اللحاق به.

ويذكر المؤلف أن الأمير اضطر إلى الإلتجاء إلى المغرب الأقصى سنة 1843 لشدة محاربة الفرنسيين له ورفض السلطان المغربي مساعدته، بل إنه عمل على محاربته. وتعرض المؤلف لإحدى رسائل الأمير الموجهة إلى علماء مصر يستفتيهم فيها عن مسألة تدعيم سلطان المغرب للعدو الفرنسي، ثم تحدث عن خروج الأمير من الأراضي المغربية وإلقائه للسلاح والعودة إلى الجزائر في 22-12-1847 الموافق لسنة 1264هـ.

وفي العنصر الموالي تحدث عن كيفية نقل الأمير إلى فرنسا بدلا من تحقيق طلبه بالتوجه إلى المشرق، وبقائه فيها إلى سنة 1852، حين أذن له الامبراطور نابليون الثالث بالذهاب نحو بروسة بتركيا ومنها إلى دمشق حيث حظي باستقبال يليق بمقامه في كل من تركيا وسوريا.

ويذكر المؤلف الدور الذي قام به الأمير بحمايته للنصارى حين وقعت الفتنة بينهم وبين المسلمين في جويلية من سنة 1860، وآوى إلى بيته وفي القصبة الآلاف منهم، ووقف هو وأتباعه على حراستهم.

أما عن مؤلفات الأمير فيتحدث عن رسائله الكثيرة في أحكام الجهاد والهجرة وأجوبته الارتجالية في أذواق الصوفية -ويقصد به كتاب "المواقف في التصوف والوعظ والارشاد"-، ويأتي بإحدى قصائد الأمير حول معركة خنق النطاح، وهي تتكون من أربعة وأربعين بيتا، كما يأتي بقصيدة أخرى حماسية في مدح البادية وهي في ست وثلاثين بيتا وأخرى في الفخر، كما تحدث عن ابنيه: الكبير محمد باشا الذي ألف كتاب جياد الخيل تحت اسم "عقد الأجياد في الصافِنات الجياد"، وولده الثاني محي الدين باشا الأديب الشاعر الذي قرض كتاب شقيقه هذا.

كما بسط لنا المؤلف رسالة حملها إلى الأمير وهي من قبل بيرم الخامس[5] من تونس يتشوق فيها إليه ويوصيه بمحمد السنوسي حامل الرسالة خيرا على أنه من أفاضل جامع الزيتونة.

وذكر أن أهل دمشق يقدرون الأمير أحسن تقدير ويسمونه بـــ "السيد الأمير." كما ذكر أن هذا الأخير قد خص المؤلف ببيت كبير يستعمله للإجتماع مع الناس وببيت آخر بالعلو للنوم.

وتحدث عن لقائه بالأمير في دمشق التي دخلها في صفر من سنة 1300هـــ الموافق للتاسع من شهر جانفي سنة 1883، وأن الأمير رحب به هو وبعض العلماء ترحيبا كبيرا وخصه ببعض الأسئلة عن أهله وبلده تونس وعن راحته في نزوله.

---

[5] بيرم الخامس من أعيان تونس، عين سنة 1874 لإدارة جمعية الأوقاف في عهد خير الدين، وقد توفي بمصر سنة 1889.

ويصف المؤلف الأمير بصفات حميدة من "سعة العلم والأدب والصلاح والخيرية وسعة الفضل وكرم النفس والشجاعة ورغد العيش وطول اليد ونفوذ الكلمة وبرور الأبناء مع حسن الأخلاق العذب المذاق."[6]

وفي الأخير يُظهر تدهور صحة الأمير وهرمه إلى أن أدركته المنية في الثامن عشر من شهر رجب سنة 1300هـ الموافق للسادس والعشرين من شهر ماي سنة 1883م.

ويختم كل ذلك بمرثية له حول الأمير عبد القادر أرسلها إلى أبنائه بعد أن بلغه خبر وفاة والدهم، والقصيدة تتكون من تسعة وعشرين بيتا، مطلعها:

نَبَأٌ بِأَسهُمِهِ أصاب حناجـــري　　　وأفاض سيلا من دموع محاجري
وانْدَكَّ طود الصبر وقد عـــفا　　　رسم الحُلوم فلم نجـــد مــــن جابر
والناس في هرج طغى ثِيارهم　　　من روع فقدِ الغرم عـــبدِ القادر.[7]

نقـــد وتعـــليق

الكتاب هذا عبارة عن تقاييد رحلة قام بها صاحبها في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتالي فالمؤلف يتحدث عن أشياء عايشها ورآها في أغلب الأحوال، وهو يتتبع الأحداث بحسب معايشته لها.

وهو يشتمل على مباحث متعددة، كل عنوان يدل على حدث محدد أو قصيدة شعرية أو تعريف بشخصية أو غير ذلك. أي أنه ليس كتابا أكاديميا يشتمل على أبواب وفصول ومباحث ومطالب..الخ، لأنه كتب في القرن التاسع عشر فلا مجال إذن لأن يُخضِع المؤلف كتابه لمثل هذه المنهجية الحديثة، وبخاصة وأنه عبارة عن مذكرات خاصة بالرحلة.

[6] محمد السنوسي، ص: 219.
[7] محمد السنوسي، ص: 219.

أما عن اللغة التي قُدِّم بها الكتاب فهي لغة سليمة؛ وإن كان يغلب عليها أسلوب القرن التاسع عشر لما فيها من استطراد حينا ومدح مبالغ فيه حينا آخر، واستعماله لكلمات ومصطلحات ذلك العصر مثل: "المَحَلّة" ويقصد بها القطعة من الجيش، و"الفرنسوية" و"الفرنساوي" بدل المصطلح المعاصر: الفرنسية والفرنسي، واستعمال كلمة "المراحل" لتحديد المسافات بدل الكيلومترات، وكلمة "النصارى" بدل المسيحيين أو الأوربيين، واستعماله التاريخ الهجري في أغلب فقرات الرحلة.

يذكر عبد الله العروي عن مصطلحات القرن التاسع عشر أنه عندما شرع في قراءة وثائق القرن التاسع عشر كان لا يرى "فرقا بين الجهاد والوطنية، فلما صادف الكلمة فهم منها تلقائيا الدفاع عن حوزة الوطن." ويواصل في السياق نفسه: "بدأت بفهم المخزن في ضوء مفهوم الدولة المعاصرة، والعامة في ضوء الجماهير، والخاصة في ضوء النخبة، والشرف في ضوء النبل، والحرفة في ضوء النقابة، والزاوية في ضوء الحزب السياسي."[8] أي أن لكل عصر مميزاته ومصطلحاته؛ والمعروف أن اللغة في حركة دائمة، وهي في اندفاع لا أحد يمكنه إيقافها ووضع القيود والمعايير في طريقها، كما أنه لا قدرة لأحد على مخالفتها أو الخروج عن مقتضى التوافق معها، ولا يمكن اعتبار هذا التغير إلى الأحسن أو إلى الأسوإ، لكن المهم أن اللغة تؤدي دورها الاجتماعي بين الناطقين بها.[9]

أما فيما يخص الحديث عن الأمير عبد القادر فقد حاول المؤلف أن يرتب حديثه عنه بتتبع ترجمته تاريخيا، بالتعريف بنسبه وببيعته فحروبه ثم نقله إلى فرنسا ومنها إلى المشرق، وأخيرا اجتماع المؤلف به في دمشق. إلا أنه أدخل

---

[8] عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الجزء الثاني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1992، ص: 249.

[9] ينظر: محمد عيد، المستوى اللغوي، دار الثقافة، القاهرة 1981، ص: 29.

بعض الأحداث داخل سيرة الأمير لاعلاقة لها بها، منها مثلا: "ثورة محمد بن الطاهر الكبلوتي"، ومنها "نظرية المؤلف في اختيار الأمراء والوزراء"، ومنها "سفر المؤلف من دمشق إلى بيروت"؛ فكان حري بالمؤلف أن يخصص لهذه الأحداث مباحث أخرى غير هذه.

وعن ترجمة الأمير تحدث المؤلف عن نسبه وعمن اشتهر من أسلافه القريبين، وانتقل مباشرة إلى بيعته وحروبه..الخ. ولكنه أغفل الحديث عن الفترة التي سبقت مبايعته وهي النشأة والدراسة والعوامل المؤثرة فيه..الخ. وبذلك جاءت ترجمة المؤلف للأمير ناقصة غير كاملة، وكان بإمكانه الحصول على ذلك من الأمير نفسه أو من أبنائه خلال تواجده بدمشق.

وعن المصادر والمراجع التي اعتمدها المؤلف في تحرير كتابه، ليست هناك دلالات واضحة ماعدا بعض الإشارات، من ذلك قوله:

"وعندما أخذت بالإياب قراري، تعاطيت جمع ما وعته أسفاري..."[10]

وبعد أن يذكر ظروف احتجاز تقاييده ثم استعادتها فيما بعد، يضيف: "فما كان مني إلا أني راجعت ما إليه رجعت، وتعاطيت ما بذل من الهمة ما استطعت في جمع ما انتثر من تقاييد هذا الأنموذج المعتبر، وصيرتها إلى تأليف نستحسن موقعه في هذه العصور، وإن لن يخل باع جامعه من القصور، جمعت فيه ما شاهدته من الآثار مشروحة الأصول بما يفيد الإعتبار."[11] أي أنه اعتمد على ما جمع في رحلته ولم يبين لنا إن كان قد اعتمد على كتب ومؤلفات أخرى ساعدته على مؤلفه هذا.

---

[10] محمد السنوسي، الرحلة، الجزء الأول، ص: 42.

[11] نفسه، ص: 43. تعرضت وثائق المؤلف للإحتجاز ومنها تقييداته هذه، وذلك سنة 1885 على إثر تزعمه لحركة إحتجاجية ضمت حوالي ثلاثة آلاف متظاهر ضد الحماية الفرنسية، وقد نفي هو إلى مدينة قابس بالجنوب التونسي.

وفيما يخص نصوص البيعة يذكر مراجعه في قوله: "نورد هنا منها (بيعة العروش والقبائل) ما أمكنني الوقوف عليه من نصوص البيعة بخطوط أيدي أصحابها وهذا نصها..."[12] ويقدم مجموعة من النصوص التي أمضى عليها مختلف أعيان القبائل آنذاك.

أما من الجانب الشكلي فيستعمل المؤلف لقب الحسَني –بدل الجزائري مثلما هو متداول في العصر الحاضر- كلما ذكر اسم الأمير عبد القادر، وذلك في نهاية الاسم، وهي نسبة الأمير إلى جده الأعلى الحسن بن علي بن أبي طالب دون شك. وهو تشريف للأمير بهذه النسبة التي تربطه بأحد سبطي النبي صلى الله عليه وسلم (الحسن والحسين). وقد كان الأمير نفسه يذيل بعض رسائله بهذا اللقب أحيانا (المخلص عبد القادر الحسني)، وقد اطلعنا على ذلك. منها رسالتاه إلى كل من الوزير التونسي خزندار وخير الدين المؤرختين بسنة 1872 يستوصي فيهما خيرا بالمقرانيين.[13]

ومن الأمور الشكلية تسمية مدينة معسكر عاصمة الأمير بتسميتين أوردهما المؤلف ضمن كتابه، أولهما أم العساكر التي وردت في الصفحة 188، وأم عسكر التي وردت في الكتاب أربع مرات.[14] بينما نجد تسميتها في كتاب محمد بن الأمير صاحب كتاب تحفة الزائر، ترد على الشكل نفسه الذي تتسمى به المدينة حاليا وهو معسكر، لأن هذا الكتاب هو المصدر والمرجع لكل ما يكتب عن الأمير عبد القادر. ولعل التفسير الوحيد هو رغبة المؤلف في إعادة

---

[12] المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: 181.

[13] يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص: 357 و359 على التوالي. والمقرانيون هم الثوار الجزائريون الذين قاوموا السلطة الفرنسية سنة 1871 بزعامة الحاج أحمد المقراني بمساعدة الشيخ الحداد زعيم الطريقة الرحمانية، وقد لجأ بعضهم إلى تونس بعد القضاء على حركتهم في الجزائر.

[14] نفسه، ص: 179- 89- 190- 193.

التسمية إلى اللغة الفصحى؛ إلا أن الأمر لا يتطلب هذا التحويل، إذ يجب الإبقاء على التسميات على حالها مهما كان الحال، إلا إذا كانت المسألة تتعلق بمناقشة مصدر الكلمة واشتقاقاتها وأصولها اللغوية. ومن الأخطاء المشاعة التي يقع فيها البعض هو نطق بعض الكلمات العامية بالإعراب إذا ما وقع الاستشهاد بها في حال الكلام وبالخصوص في حالة الشعر الشعبي، إذ أن إعادة الكلمة إلى أصلها الفصيح يخل بالوزن الشعري وبالنغم الذي يعطي الشعر خصوصيته.

وبخصوص المحتوى نجد المؤلف عند حديثه عن حروب الأمير ينتقل مباشرة إلى ذكر معركة سيدي مبارك في ديسمبر 1835، حين كان تريزيل يقود الجيش الفرنسي.

وبذلك أهمل المؤلف أهم المعارك السابقة لهذه المعركة مثل معركة خنق النطاح الأولى والثانية ومعركة برج راس العين واتفاقية دي ميشيل. كما أن المؤلف لم يتعرض لواقعة سقوط عاصمة الأمير "الزمالة" بأيدي الفرنسيين في 16 من شهر ماي سنة 1843، وهي من الأحداث التي كان لها وقع سيء على تاريخ الأمير؛ بل هي من أخطر الضربات التي وجهت للمقاومة الوطنية آنذاك وأشدها ضررا، يقول عنها ابنه محمد: "وبالجملة فإنها (واقعة سقوط الزمالة) كانت من أعظم الوقائع التي لا تؤدِّي العبارة تفصيلها ولا يُدْرِكُ اللسان تَحْصيلَها.."[15]

ويذكر المؤلف أنَّ "وَلَدَ الأمير محي الدين باشا وهو أديب شاعر أيضا ألف في التعريف بوالده كتابا مُهِما ذكر فيه جميع أحوال والده وأطواره ومدائحه ومقاماته وأسفاره على وجه استوفى به جميع الغرض."[16] ويضيف:

[15] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الجزء الأول "سيرته السيفية"، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903، ص: 280.

[16] محمد السنوسي، ج الثالث، ص: 213.

"هكذا أخبرني أخوه وابن عمه." وكأني به يقصد هنا كتاب "تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر" لصاحبه محمد بن الأمير وليس محي الدين كما يقول. وهكذا وقع المؤلف في خطإ ثابت بنسبته لكتاب محمد بن الأمير عبد القادر لأخيه محي الدين. وهو لم يطلع على الكتاب ولكن قيل له فحسب، إذن فلا مجال للشك في وقوع الخطإ من قبل المؤلف.

وعن قضية المعارضة التي لقيها الأمير، يشير المؤلف إلى أن بعض أفراد عائلة الأمير قد "أبوا المبايعة وعلى الخصوص شيعة عمه علي أبي طالب، فإنه كان يتصدى لمقاومته، ولاقى الأمير من شقاق عائلته ما أفسد عليه كثيرا من الأعمال.."[17] بينما لا نجد لذلك ذكر في كتاب محمد بن الأمير "تحفة الزائر"، والذي يذكر مثلا أنه "اجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم وتداعَى صغيرهم وكبيرهم وخيموا بوادي فروحة من غريس عند شجرة الدردارة، وجاء سيدي الجد في بنيه وأقاربه وذويه...الخ"[18] ويواصل صاحب هذا الكتاب فيذكر أنه بعد مبايعة محي الدين لولده عبد القادر، "قام عمه سيدي الجد لأمي علِي أبي طالب (كان صهرا للأمير) وبايعه وكذا الإخوة وسائر القرابة ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء...الخ"[19] وأن جماعة من الأعيان المشاهير كتبوا على صك المبايعة "ما يؤذن بحضورهم للبيعة وشهادتهم على أنفسهم وعلى سائر من حضرها؛ فكتب العلامة سيدي الجد للأم، عم الأمير شقيق والده السيد علي أبي طالب بن مصطفى بن المختار مانصه: الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. بعد انعقاد البيعة للإمام المعظم والأمير الجليل المفخم ابن أخينا السيد عبد القادر بن محي الدين أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بأمور أهله

[17] محمد السنوسي ص: 188.

[18] محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص: 96 و97.

[19] نفسه، ص: 97. والمعروف أن زوجة الأمير هي ابنة عمه علي أبي طالب.

ودمر بهما الكَفرة أولي العناد، وأهْلك بسطوَتِهما أهل البغي والفساد. بايعناه على السمع والطاعة وامتثال الأمر ولو في ولد الواحد منا أو نفسه، وقدمنا نفسَه على أنفسنا وحقّه على حقنا، وإني أوصيه بتقوى الله وطاعته في السر والعلانية..الخ"[20]

ومن جهة أخرى فإن الأمير لما تمت بيعته "واستقام له الأمر اتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة، فاستوزر محمد بن العربي واستكتب ابن عمه السيد أحمد بن علي أبي طالب"[21] في أول حكومة أقامها.

ويذكر صاحب كتاب تحفة الزائر دائما –ابن الأمير– تهنئة عمه أبي طالب بعد معركة المقطع التي انتصر فيها الأمير على جيش الفرنسيين بقيادة الجنرال تريزيل في جويلية من سنة 1835 في قوله: "وكان عمه، سيدي الجد، علي أبي طالب، قدَّم إليه، ثاني يوم المقطع، قصيدة تهنئة يقول فيها:

هنيئا لك البشرى، نُصِرْت على العِدَى   ودَمَّرْت جيش الكفر، بالقتل والخسف

وحُزت مقاما، دونه كل باسل   يرى الحرب، ميدان الخَلاعة والقصف

بجيش عظيم، قد تفرَّد في الوغى   له سطوة غزَّت، وجلت عن الوصف."[22]

وبالإضافة إلى ذلك، يذكر أن أبا طالب عم الأمير هو الوحيد الذي بقي إلى جانبه ذات يوم في إحدى معاركه (معركة حرش مولاي إسماعيل) ويقول: "و لم يبق مع الأمير سوى عمه، سيدي الجد للأم، السيد علي أبي طالب، وهذه

---

[20] محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص: 99.

[21] محمد بن عبد القادر ، ص:103.

[22] نفسه، ص: 156. والقصيدة تزيد على سبعة عشر بيتا، وهي الأبيات التي ذكرت في كتاب تحفة الزائر.

النادرة الاتفاقية ذكّرتني ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين حين تفرقت جيوشه حتى المهاجرين والأنصار ولم يبق معه سوى عمه العباس آخِذاً بلحام بغلته صلى الله عليه وسلم التي كان راكبا عليها يومئذ."[23]

وعندما عَرَض الأمير أمر الصلح مع الفرنسيين، فيما سيسمى بمعاهدة تافنا (1837)، حدث اختلاف في المجلس الذي جمعه الأمير، بين معارض لعقد الصلح ومؤيد، تدخل عمه علي أبو طالب مؤيدا لفكرة الأمير بعقد الصلح وذلك في خطبة سجلها محمد ابن الأمير في كتابه المذكور. فبعد أن يذكر تسلط الفرنسيين على البلاد واضطراب الأمر يضيف قائلا: ".. فأظهر الله تعالى بلطفه، بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ابن أخي هذا، السيد عبد القادر بن محي الدين، فبذل الجهد في الذب عن الدين والوطن وأتى في ذلك من العجائب والغرائب ما هو به قمِن، فكم من حروب أضرمها وكم من كروب أزالها عن المسلمين وأطفأ أوارها.. فالنظر أيها السادة، إنما هو للإمام لا لغيره، وكيف تذهبون إلى أن عدم قبول الصلح أولى من قبوله! مع علمكم بقلة الأنصار والأعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الأقطار والأوطان..!"[24]

وبعد انتهاء عمه من الخطبة هذه اقتنع القوم بفكرة عقد الصلح واتفقت كلمة الجميع على ذلك ورأوا أن فيه مصلحة كبرى للأمة. فموقف كهذا من عم الأمير، وهو في أدق المواقف، من أكبر الدلائل على وقوفه إلى جانبه وليس ضده، فأين هي العداوة والمعارضة بين الرجلين!

والمؤرخ الفرنسي المعاصر برينو إيتيان Bruno Etienne في كتابه "عبد القادر" يذكر أنهم "كلهم هنا جالسين على شكل دائرة تحت سقف الخيمة التي كانت تعقد فيها الاجتماعات: أعمامه وإخوته وبعض عمومته، بنو طالب وبنو

---

[23] نفسه، ص: 151.

[24] نفسه، ص: 176.

تامي الذين جلسوا في المقدمة لأنهم يعتقدون في مرتبتهم العائلية المتميزة، ولأنهم لم يفهموا جيدا كل ما كان يشعر به ابن محي الدين..."[25]

إذن فمبايعة عمه ثابتة بعد والده محي الدين مباشرة، وتعيين ابنه أحمد كاتبا في حكومته، وتواجد عمه معه في ميادين القتال وتأييده له في المواقف الحرجة، تدل كلها على وقوف العائلة معه وليس ضده، وهي من الشواهد التي تثبت عكس على ما قال صاحب الرحلة، فأين هي الحقيقة؟ ومن أين جاء المؤلف بهذا الخبر؟ لقد فهم عم الأمير أن تآلف الأسرة وتكاتفها من أولويات العمل الناجح في ذلك الحين وفي تلك الظروف، ولذلك كان حاضرا في كل الظروف، وكان الفيصل في الكثير من المواقف.

لقد كان يرى أنه في مكانة والد الأمير، بعد وفاة محي الدين الوالد، الذي كان يمثل مستشار الأمير ودليله. وإلى جانب رابطة العمومة التي تربط بين الرجلين كانت رابطة المصاهرة رابطة أخرى تجمعهما ولا تفرقهما، لأن زوجة الأمير هي ابنة عمه على أبو طالب، والتي بقيت إلى جانبه رغم تخيير الأمير لها بين البقاء معه أو مفارقته لأنه سينشغل عنها لمصالح الأمة، فكانت نعم الزوجة الوفية والصاحبة الأنيسة.

وإلى جانب كتاب محمد بن الأمير فإن الكتابات الأخرى لا تذكر شيئا من ذلك، وبخاصة مذكرات الأمير وكتاب تشرشل الذي عاصر الأمير.

أما مذكرات الأمير عبد القادر فقد جاء فيها ما يلي: "فانعقدت البيعة وقتئذ يوم الأربعاء آخر شعبان سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف، وخطب له على المنابر، ورضي به الصغير والكبير والجليل والحقير... فأذعنت له الأعراش وجاءته الوفود بالهدايا من كل ناحية... وانضم الشمل واجتمعت الكلمة بأم

---

[25] Bruno Etienne. Abd el kader, Hachette, 1994. P/:انظر131

عسكر، وتعينت دار إمارة في جميع الأرجاء القريبة واستمع أهلها للأمر والنهي..."[26]

أما شارل هنري تشرشل صاحب كتاب "حياة الأمير عبد القادر"، والذي لقيه وتحاور معه طيلة خمسة أشهر في شتاء 1859-1860، فيذكر في الفصل الثاني،[27] أن الأمير "بدأ يتقبل البيعة من النبلاء والرؤساء الذين تجمعوا حوله، وقد انفجرت أصوات عالية من المجلس كله مرددة: الحياة والنصر لسلطاننا عبد القادر." وفي الفصل الثالث يذكر أن الظروف التي عُيِّن فيها الأمير سلطانا قد أثارت مشاعر الخصام بدل القضاء عليها، وذكر عدة أمثلة عن ذلك كسيدي العريبي قائد قبيلة فليتة والغماري قائد قبيلة أنجاد ومحمد بن نونة حاكم تلمسان من قبل سلطان المغرب ومصطفى بن إسماعيل الذي "عبر عن تقززه من تقبيل يد ولد ما يزال أمرد، حسب تعبيره."[28]

ويقول في مكان آخر إن الأمير "شعر أن الغيرة والتنافس الذين يحوطان به لا تمكن القضاء عليهما إلا بخوض المعركة، وأن كل الصعوبات الداخلية ستنتهي أمام النجاح.."[29] ولم يذكر تشرشل أي شيء عن الخصومة داخل أسرة الأمير مثلما ذكر مؤلف الرحلة.

يتبين من هذا كله أنه كانت هناك معارضة من قبل بعض الزعماء لسلطة الأمير عبد القادر، ومرجع ذلك أن هؤلاء رأوا أن نفوذهم سيتقلص إذا ما خضعوا له، كما أن الدسائس من قبل الفرنسيين كان لها مفعولها في إضعاف

---

[26] مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني ومحفوظ سماتي ومحمد الصالح الجون، شركة دار الأمة، الجزائر 1998، ص: 142.

[27] شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر 1982 ص:57.

[28] شارل هنري تشرشل، ، ص: 61.

[29] نفسه، ص: 64.

سلطة الأمير بين بعض القبائل. ولذلك حاولوا التصدي له بوسائل مختلفة، منهم بعض رؤساء القبائل وبعض شيوخ الطرق الصوفية، وذلك حفاظا على مكاسبهم ومراتبهم في السلطة والجاه، إلا أن دعم عائلته له كان أكثر من ضروري لمواجهة مختلف التحديات الداخلية والخارجية، فكيف إذن كانت هذه المعارضة من داخل بيته وبين بني عمومته!

ويخطئ المؤلف في تاريخ وفاة الأمير إذ يقول: "...إلى أن أدركته المنية ليلة السبت الثامن عشر من رجب الأصب ثلاث عشرة مائة الموافق للسادس والعشرين من مايه الإفرنجي سنة 1883 مسيحية." بينما يقول محمد بن عبد القادر الجزائري في التحفة، وهو المصدر الأصلي لكل ما يختص بحياة الأمير، كما ذكرنا ذلك سابقا، إن الأمير توفي "ليلة السبت التاسع عشر من رجب سنة 1300 والرابع والعشرين من أيار سنة 1883."[30] وهو كما نرى اختلاف في الأيام فحسب.

لقد اشتهر عن المغاربة تَوْقهم إلى المشرق حيث منبع النبوة ومواقع الأماكن المقدسة؛ أي أن دوافعهم كانت روحية "بهدف الحج إلى الأماكن المقدسة، على أن الحاجَّ قد يتجاوز هذا الهدف الأساسي.. ويفضي به الترحال إلى أماكن بعيدة.."[31] ومحمد السنوسي هذا زار بالإضافة إلى الحجاز، كلا من إيطاليا وتركيا وسوريا ولبنان ومصر ومالطة ثم عاد إلى بلده تونس. فقيَّدَ مشاهداته وملاحظاته، وتعرض خلال ذلك إلى كثير من المسائل وترجم لبعض الشخصيات وتحدث عن بعض العلوم والمخترعات. ومنها حديثه عن الأمير عبد القادر وذلك خلال تواجده بدمشق عاصمة سوريا في السنوات الأخيرة من عمر الأمير.

[30] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت 1964،، ص: 857.

[31] إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والإستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص:7.

وأخيرا يمكننا القول إن مثل هذه الرحلات تحوي بين سطورها معلومات كثيرة يمكن الاستفادة منها في مختلف المجالات، إلا أن ذلك لن يكون إلا بعد تمحيص وحذر. وقد فتحت لنا هذه الرحلة مجالا للدراسة والمناقشة والتعليق، وذلك ما تمكنا من ذكره آنفا.

ثانيا: مقاومة الشيخ بوعمامة في الكتابات الجزائرية خلال العهد الاستعماري

لقيت مقاومة الشيخ بوعمامة اهتماما كبيرا خلال العهد الاستعماري، من قِبل الكتاب الفرنسيين عسكريين ومدنيين على السواء، فكتبوا عنها الكثير، بينما لم تلق الاهتمام نفسَه من قبل الجزائريين بني جلدته آنذاك، وذلك حسب علمنا حتى الآن، إذ أن المخطوطات التي تظهر بين الحين والآخر من خلال بعض المحققين، هي التي قد تظهر لنا ما كان خافيا عنا، وقد تفاجَئنا فعلا ذات يوم بما لم نكن نتوقعه؛ حيث تعرفنا على أحدى المخطوطات التي تعرضت باقتضاب لحركة الشيخ، خلال مشاركتنا في أحد الملتقيات الجهوية بمدينة آرزيو سنة 2002، وقد قدمه أحد أساتذة قسم تاريخ الحضارة الإسلامية بوهران،[32] من خلال تعرضه لصاحب المخطوط (الجْباري) باعتباره أحد أبناء بلدة بطيوة التابعة لآرزيو، فوجدناه يذكر الشيخَ بوعمامة في إحدى المقامات التي قدمها، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

لقد جرت أحداث مقاومة الشيخ بوعمامة في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، أي أنها وقعت في منطقة بعيدة عن الأجزاء الشمالية ذات الحركية الكبيرة في كل المجالات، وبخاصة في القرن التاسع عشر، حين كانت وسائل المواصلات الحديثة نادرة أو قليلة؛ ولكن الوقائع الجديدة وما تكشفه لنا المخطوطات تجعلنا نغيِّر الكثير من مفاهيمنا لما كان يتم في أزمنة وأوطان نظن أنها كانت معزولة وبعيدة عن كل نشاط؛ وبالتالي فإن ما كان يحدث فيها لن يتجاوز حدودها القريبة.

---

[32] محمد بن معمر أستاذ محاضر بقسم التاريخ الإسلامي كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران.

ولكننا وجدنا أن أصداء مقاومة الشيخ بوعمامة مثلا، كانت أوسع من مجالها المكاني، والدليل على ذلك أن كُتابا جزائريين من الشمال الجزائري كتبوا عنها، رغم أن كتاباتهم لم تكن في مستوى تلك الحركة، أي أنها لم تعط للشيخ المكانة التي كان يستحقها، فلم تقدر جهوده حق قدرها، و لم تقل ما كان يجب أن يقال تجاه زعيم وقف في وجه التوسع الاستعماري الفرنسي، ووجدنا جل هؤلاء الكتاب يعيبون على الشيخ عمله ويصفونه بأقبح الأوصاف وينعتونه بأشنع النعوت، لأنه قام في وجه أناس كان هؤلاء الكتاب يظنونهم أفضل منه فهما وقوة وحضارة، أي أنهم كانوا مولعين بالأوربيين، وينظرون إليهم من موقع استكانة وخضوع، وأن ما كان يجب على الشيخ بوعمامة فعله هو الإذعان والخضوع ولا شيء غير ذلك.

إن انتقال خبر مقاومة الشيخ بوعمامة إلى المناطق التلية يدلنا على أن الاتصال كان واقعا بين مختلف أجزاء البلاد الجزائرية المختلفة مَهما بَعُدت المسافات، أي أن الخبر كان أسرع من المتوقع، فلقد تدرب الجزائريون على ذلك منذ أقدم الأزمنة. ومَهر مختلف أفراد وفئات المجتمع الجزائري في هذا الميدان، وبخاصة منهم التجار ومعلمي الأطفال (الطلبة)، هؤلاء الذين كانوا يتنقلون بين القرى والدواوير ليعلموا أبناء هذا أو ذاك، ليتركوه بعد مدة إلى غيره من الأوطان.

وقد اعترف الفرنسيون بعجزهم، رغم الإمكانيات التي يمتلكونها، من إيصال الخبر إلى المكان المرغوب في الوقت المناسب، بينما يفعل ذلك الجزائريون. إن معرفة الجزائريين بخبايا ودروب بلادهم جعلتهم أكثر قدرة من الفرنسيين على التنقل والحركة السريعة. وكان "الطالب" من أبرز هؤلاء، لأنه مثقف البلدة ومصباحها المضيء، أما الفرنسيون فيجهلون الكثير عن هذه البلاد، ولولا مساعدة بعض الجزائريين للفرنسيين ما استوطن هؤلاء البلاد ولا

تمكنوا من مغادرة الجزائر العاصمة بعد احتلالها سنة 1830 ولا تجاوزوا أطرافها.

أما عن الكتابات الجزائرية حول حركة الشيخ بوعمامة خلال العهد الاستعماري فقد تمكنا من تحديد ثلاث كتابات حتى الآن، هي لثلاث كتاب: المزاري والراشدي والجْباري. وقد كُتِبت الثلاثة مراجع في نهاية القرن التاسع عشر. وهذه المراجع هي:

1 - "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط". لأحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي:[33]

يتكون الكتاب الصغير الحجم والمحقق من قبل الأستاذ ناصر الدين سعيدوني من 106 صفحات ونشر بدار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1991. أما أهم المواضيع التي يتطرق إليها فتتمل بعض أوضاع الجزائر في العصور الحديثة مثل الحديث عن بعض البايات واستيلاء الاسبان على وهران ثم تحريرها، وعن الأمير عبد القادر وعن بعض القبائل والأحداث المحلية، ومواضيع أخرى كيوسف بن تاشفين ودولة بني مرين وعقبة بن نافع..

يبدأ الشقراني كتابه الصغير الحجم هذا، بعد التقديم مباشرة، بالحديث عن بوعمامة تحت العنوان التالي: "ذكر انتفاضة بوعمامة"، يَعتَبر فيه هذا الأخيرَ مجردَ طماع في السلطة، وأنه سفيه، ناهيك عن سكرته وغمرته، يعمل لمصلحته الخاصة ويتبع طريقا غير الكتاب والسنة، وأن "بوعمامة هذا قد سَوَّلت له نفسه الأمارة بالسوء أن الدولة الفرنسية ستخرب على يده، ويكون هو الخليفة على

---

[33] أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصرالدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.

زعمه ويفتح قواعد البلدان، ويسقي أعداء الله كؤوس الذل والأهوان (كذا) ..."[34]

ويتهمه بالخروج عن الأعراف بعد أن صار يهاجم القبائل التي عارضته ويقول: "ثم إنه صار يشن الغارات على من لم يتبعه من المسلمين وأباح فيهم القتل والسبي وأخذ الأموال عقوبة لهم على عدم بيعته ونصرته، وعلى امتناعهم من الدخول ذِلته وورطته وظن بهم الظنون.."[35] ويوضح أنه سرعان ما سيهزم ويتشتت شمله، وآنذاك سيدفع هؤلاء السكان الثمن غاليا للفرنسيين، إذ أنه سيضطر هو إلى الفرار ويتركهم في محلهم محابيس...

ويواصل الكاتب معارضته للشيخ بوعمامة بذكر أمثلة من العصور الخوالي عما كان للملوك السابقين وما آل إليه البعض من الذين لم يحسبوا حسابا للعواقب، كما يأتي بأبيات شعرية، منها قوله:

كناطحٍ صخرةً يوما ليقلعَها   فلم يَضرها وأوهى قرنه الوعل.

ثم ينتقل إلى ذكر الفرنسيين الذين خرجوا لتأديبه وقطع دابره وأمنيته، وأنهم ذهبوا إليه وهم كالجراد المنتشر.

ثم يبين من جهة أخرى قوة الفرنسيين وجبروتهم، وأنهم هدموا قبة سيد الشيخ[36] ودفنوا عظامه في البيض، ولو كان غيرهم ما فعلوا ذلك، أي أنهم

---

[34] المراجع السابق، ص:20.

[35] نفسه، ص:21.

[36] "سيد الشيخ هو عبد القادر بن محمد والمتوفى سنة 1616م/1025هـ، أحد أسلاف الشيخ بوعمامة ومؤسس الطريقة الشيخية، والولي الذي كان المقاومون يعقدون عند قبته العقود ويتفقون على إعلان الجهاد ضد الفرنسيين مثلما فعل قبل ذلك زعماء أولاد سيد الشيخ سنة 1864. وقد هدمها الجنرال نيقري في 15 أوت من سنة 1881، انتقاما من الهزيمة التي لحقت بالفرنسيين في معركة تازينة في 19 ماي 1881. وقد شهدت تلك الأيام حملة قامت بها الصحافة الفرنسية بالجزائر لدعم فعل الضابط الفرنسي والتنويه به والدعوة إلى جمع التبرعات لإهدائه سيفا شرفيا.

إنسانيون، لأنهم حملوا رفات الميت ودفنوها ولم يرموها أو يمثلوا بها، أما بوعمامة فهو جبان، فر من الميدان، وأنه "لم ينظر لهذه الدولة العظيمة والأمة الجسيمة والجيوش الغزيرة والإقامة الكبيرة التي من أعظمها البابورات البرية على سبائك الحديد ليلا ونهارا بقدرة الله القدير."[37]

وأن بوعمامة ندم، عندما جد الجد، على كل أعماله وبحث عن النجاة بنفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت ثم عدل عن أهدافه في الجهاد والرئاسة. ويعيد إليه ما عانى السكان من سخرة وشدة وتضييق وسفك لدمائهم وسبي لذراريهم ونسائهم من قبل الفرنسيين، كما أنه كان السبب في توغل الفرنسيين إلى أبعد الجهات وملئها بالعساكر والجيوش...

ولم يكتف بهذا بل هاهو يدافع عن الفرنسيين، بعد أن ينقل حادث ظفر الشيخ بفقراء السبنيول وضعفائهم- كما يذكر- وهم أجراء على خدمة الحَلفاء وقيامه بحرقهم بعد الظفر بهم والقدرة عليهم، ويقول عن الفرنسيين مدافعا عنهم: "ولم يبلغنا أنهم مثلوا بمسلم ولا حرقوه بإشهار، ولا فعلوا فعله مع أنهم كفار."[38]

ونسي الكاتب ما فعله الفرنسيون بقبيلة العوفية ذات يوم من أيام شهر أبريل من سنة 1832، بجوار العاصمة، التي أفنوها عن آخرها بعد مهاجمتها ليلا على حين غفلة من أهلها، وذلك برواية قائد الحملة نفسه الجنرال روفيقو في كتابه "الجزائر الفرنسية."[39]

كما أن الجنرال بليسي ارتكب جريمة كبيرة ضد أولاد رياح في جبال الظهرة، عندما قام بإحراق كل من اعتصم بإحدى المغارات فرارا من

---

[37] المرجع السابق، ص: 25.. وهو يقصد بالبابورات البرية هنا القطارات.

[38] نفسه، ص: 25.

[39] عبد الله شريط ومحمد الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص:206.

الاضطهاد، وكان عددهم حوالي خمسمائة شخص، وقد مات الجميع بالحرق والاختناق.[40] وغير ذلك كثير لا مجال لحصره على مدى تواجدهم بالأرض الجزائرية.

ويعتقد الكاتب أن بوعمامة تنبأ بزعامته في الأحلام فبادر إلى العمل؛ فيتوسع الكاتب في قضية المنام والرؤيا الصالحة وغير الصالحة، ويعتبر ما رأى بوعمامة مجرد تخيل في المنام ومن أضغاث الأحلام.[41]

ويتحدث عن الإمامة فيذكر أن بوعمامة لم يبايعه أحد، وبالتالي فلا حق له في قيادة جماعة المسلمين، ويتوسع في قضية الإمامة مدللا بأمثلة تثبت نظرته ورأيه في بوعمامة وحركته.

لقد نفى الشقراني عن الشيخ بوعمامة كل الصفات النبيلة، واعتبر أعماله لاغية لأنها لا تستند على الكتاب ولا على السنة، وفسر ما قام به عدوانا وطغيانا وجهلا بالأمور لوقوفه في وجه فرنسا القوية. يذكر ناصر الدين سعيدوني أن الشقراني تحامل على بوعمامة بشدة "ونعته بأحط الصفات، بل حاول أن يعطي للقارئ عنه صورة مُشوَّهة لا تتماشى ومواصفات هذه الشخصية الوطنية ولا تنطبق على الحركة التي قادها ضد الاستعمار الفرنسي في الجنوب الوهراني."[42]

وإذا كان الشقراني قد تجاهل الأهداف الحقيقية لحركة الشيخ بوعمامة، فإنه أظهر اعترافه للبعض الآخر من المجاهدين، الذين وقفوا في وجه التوسع الاستعماري الفرنسي، بنبل الأهداف مثلما فعل تجاه الأمير عبد القادر الذي

---

[40] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980، ص: 57.

[41] نفسه، ص: 20.

[42] نفسه، ص: 13 و14.

قدر موقفه وأثنى على جهاده، وأعطاه حقه من التقدير والتمجيد، وخصص له حوالي أحد عشر صفحة من مجموع 79 صفحة التي يتكون منها الكتاب.

وعموما فإن الراشدي الشقراني يدعو إلى التواكل وترك الأمر على عواهنه. ويمثل لذلك بالبعض من الذين فشلوا في مسعاهم لقيامهم ضد فرنسا، كما يمثل بآخرين من المسلمين الذين "ينتظرون الفرج وزوال الحرج. وانتظارُ الفرج واجب، والعُسْر لا يدوم على أحد."[43] وهو بذلك يعطي مَثلا سيئا ونصيحة انهزامية لا تصدر إلا من متعاون مع الأعداء أو فاشل رعديد.

2-"طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر". لإسماعيل بن عودة المزاري (الآغا):[44]

خصص المؤلف الجزء الثاني من كتابه هذا للحديث عن التاريخ الفرنسي، فبدأ بأصل الفرنسيين وأشهر مدنهم وخصائص بلادهم الطبيعية، وانتقل للحديث عن ملوكهم (نقلا عن كتاب الزياني دليل الحيران أحيانا) فاحتلال الجزائر في عهد الملك شارل العاشر وتوسع الفرنسيين في الجزائر شرقا وغربا، وظهور الأمير عبد القادر ومعاركه معهم إلى انتقاله إلى دمشق؛ كما تحدث عن بعض المقاومات الجزائرية الأخرى مثل مقاومة الشريف محمد بن عبد الله والثائر بومعزة.

وتحدث في إحدى صفحات الكتاب عن الشيخ بوعمامة من خلال التطرق لمرحلة حكم الرئيس الفرنسي جول فيري الذي تولى هذا المنصب سنة 1879، وذلك تحت عنوان: "ثورة الشيخ بوعمامة والحملة على تونس وغزو الطونكان"، ابتدأ بقوله إن جول فيري هذا "جهز جيشا للثائر بالصحراء وهو

---

[43] المرجع السابق، ص: 29.

[44] الآغا إسماعيل بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ط:1، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.

بوعمامة البوشيخي الدرقاوي تلميذ السيد محمد بن العربي العلاوي الفيلالي... فأجلاه من الأرض وجعل بالصحراء مدناً جليلة بها الحكام". وتكلم عن مقتل ونبرينير عند قبائل الجرامنة، وتجهيز قوات فرنسية لإخماد ما أسماه بـــ "الفتنة."

والكاتب هنا يتعرض للتاريخ من وجهة النظر الفرنسية، فهو يكتب للفرنسيين لا للجزائريين، هدفه إرضاؤهم وكسب ودهم، فيقول مثلا: "اتفق الأحرار الشراقة والطرافي والأغواط على التخليط والخروج عن الإذعان مع أبي عمامة."[45]

وقد جر المؤلف إلى هذا الموقف انتسابه إلى إحدى قبائل المخزن الموالية للسلطة الفرنسية (الدواير والزمالة والبرجية). فهو يبين موقف المخزن من مثل هذه المقاومات الشعبية، التي يعتبرها فتنة (تخلاط)، لأن قبائل المخزن كانت تتمتع بعدة امتيازات مقابل خدماتها للسلطة، مما جعلها تعتز بتلك المكانة الاجتماعية وذلك الموقع الإداري والسياسي الذي تحظى به. فالمخزن هو المناصر للدولة الذائد عن حياضها تجاه كل خارج عنها، والخارج عنها هو كل نابذ للقانون الفرنسي.

ولم يقصر رأيه هذا على حركة الشيخ بوعمامة بل وعلى بعض الحركات المناهضة للفرنسيين، من ذلك قوله في إحدى صفحات كتابه هذا، خلال حديثه عن الأمير عبد القادر: "وثار بالقلعة محمد بن حسن، وبسجرارة الحاج محي الدين بن مخلوف وعمت البلوة من الأصنام إلى مغنية، إلى أن فر الألف من المألوف ولم يبق على نصيحة الدولة إلا الأعراش الثلاثة المتوالية، وهم الدوائر والزمالة والغرابة في القولة الجالية."[46] وكأنه يشير إشارة اعتراف ومدح

[45] المراجع السابق ، ص: 265.
[46] نفسه، ص: 223.

لهؤلاء الذين بقوا إلى جانب السلطات الفرنسية و لم يقفوا في وجهها كما فعل غيرهم من القبائل التي أثارت الفتنة والبَلوَة.

وخصص للحديث عن الأمير عبد القادر ما يقارب نصف كتابه الثاني هذا، تحدث فيه عن ظهور محي الدين والد الأمير فمبايعة هذا الأخير بعد ذلك، وذكر بعض معاركه وعلاقته ببعض القبائل، وتحدث عن بعض تنظيمات دولته وتوقفه عن الجهاد واستقراره آخر الأمر في دمشق ونشاطاته هناك إلى أن توفي في 26 ماي 1883. وقد أثنى على الأمير وعلى أعماله وترحم عليه.

وقد ألف هذا الكتاب بعد مدة زمنية من صدور كتاب القول الأوسط السابق الذكر، لأنه اعتمد عليه في بعض المعلومات من ذلك قوله: "قال العلامة شيخ شيخنا السيد الحاج أحمد بن عبد الرحمان البوشيخي ثم الشقراني، أسكنه الله بفضله دار التهاني، في كتابه القول الأوسط في بعض من حل بالمغرب الأوسط." وذلك عند حديثه عن الأمير عبد القادر.[47] ومن المعروف أن المزاري مؤلف الكتاب قد توفي سنة .1897

3-كتاب مقامات العوالية في الأخبار العلالية على اللغة المغربية، لعبيد الله القاهر الباري محمد بن علي بن الطاهر الجْباري.[48]

تضمن هذا الكتاب مجموعة من المقامات المختلفة المواضيع، أما ما يهمنا هنا فهي "المقامة الأولى وتسمى الصحراوية" وتتضمن أخبار الشيخ بن عيسى، الذي كان سحّارا ويحدثنا عن "جولانه وتلطامه في الصحرا."

---

[47] المرجع السابق، ص: 107.

[48] أنظر:

-Faure-Biguet. G. et Delphin. M. G. Les séances d'el-aouali, textes Arabes en dialecte maghrébin ,Journal Asiatique, onzième série, Tome/2. juin 1913 et Tome/3. Janv-Fev. 1914.

يبدأ المقامة هذه بقوله: "حكى امحمد بن العربي قال كنت في زمان سعيد الكوكب وحال نلت فيه المطلب في اكتساب مال غير متعب...." إلى أن يقول: "فلما دقت بنّة العصارة وَجَدْت الربح يأخذوه الصحارة واختلطْتُ مع رفقة رايمين الأسفار لنواحي الفيافي والأقفار، فاعهدنا العهود والعدول، وأوجدنا الإبل لحمل الزاد والحمول، ودخلنا الصحرة بالفضول، فبقينا مدة نحن نتخير في عصا الجلب، ونميز في اغتنام الفوايد بالغلب، إلى أن سمعنا في يوم خبراً يطيّش النفوس ويفرّ منه الصابر والعبوس، بأن قيل أن أباعمامة قد نافق بأعلامة وطاح على الطرافي بازدحامة، وأخذ أولاد ابراهيم وخوض الإمامة...." [49]

ويذكر أن المؤلف لما علم بهذه الأحداث تفرق هو وزملاؤه شيعا، وقصد كل واحد منهم مكانا للاختفاء به، فمنهم من قصد المنقار الفوقاني (وهو يقصد مغرار الفوقاني) ومنهم من قصد المنقار التحتاني (وهو يقصد مغرار التحتاني) ومنهم من قصد بوسمغون ومنهم من بقي في العقلة، أما الراوي فقد قصد بلدة المشرية ليختفي فيها إلى أن يزول الخطر.

يتضح مما أورده صاحب المقامة أنه لم يكن على بَيِّنة من حركة الشيخ بوعمامة، فالمطلع على هذه المقامة وهذه الأخبار عن أبي عمامة يتبادر إلى ذهنه أن الشخص قاطع طريق، خارجا عن القانون ومتمردا على السلطة الشرعية.

ومن المعلوم أن الراوي ينتسب إلى عائلة تعود أصولها إلى بلدة بَطِّيوَة التابعة لدائرة آرزيو حاليا، ولكنه سكن بمدينة سعيدة ومعسكر وأخيرا ببلدة الدليمة (سان لوسيان) زهانة حاليا، عُرف عنه التنقل بين الحواضر المختلفة بحثا عن المزيد من العلم والمعرفة، بعد أن لم يجد ما يكفيه من العلم في البلدة التي كان يسكنها بين قبائل الغرابة حينا وعرش الزمالة حينا آخر –كما يقول–. [50]

---

[49] المراجع السابق ، ص: 303.

[50] نفسه، ص: 294.

ويتضح من هذا أيضا أن صاحب المقامة وقف الموقف نفسه الذي وقفه المزاري والشقراني من حركة الشيخ بوعمامة.

والخلاصة مما سبق، أن الكتاب الثلاثة المذكورين عاشوا في زمن متقارب وهو نهاية القرن التاسع عشر، وبالضبط في الثمانينيات والتسعينيات من القرن نفسه، لأن حركة الشيخ بوعمامة ظهرت سنة 1881 بالمنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، أو ما كان يدعى بالجنوب الوهراني لدى الفرنسيين.

وقد شهدت الحركة مرحلة قوة في سنتي 1881-1882 ووصل تأثيرها إلى منطقة سعيدة وتيارت ومعسكر شمالا، من خلال المسيرتين التين قام بهما زعيم المقاومة نحو المنطقة التلية في شهر جوان وجويلية من سنة 1881؛ ثم ضعفت بعد ذلك وانسحب الشيخ من المنطقة التي اندلعت بها المقاومة الشعبية المذكورة آنفا. وقد ناصرت الشيخ مجموعة كبيرة من قبائل المنطقة، و لم يكن في ذلك منفردا في حركته كما يصفه هؤلاء، كما أننا لم نجد لقضية حرق الشيخ لأسراه من الإسبان دليلا حتى في الكتابات الفرنسية نفسها المعاصرة له، مثل الضابط الفرنسي قرول Graule الذي وضع مؤلفا عن انتفاضة الشيخ بوعمامة، وكان من الضباط الذين شاركوا في مواجهة هذه الحركة المتمردة على السلطات الفرنسية،[51] ومثل غيره من العسكريين والصحفيين الذين كتبوا عن الحركة في حينها. ولو حدث مثلما يذكر بعض هؤلاء الجزائريين لما غفل عنه الكتاب الفرنسيون الذين كانوا الأولى والأجدر بتبيان أعمال بوعمامة المشينة والعمل على فضحها وإبرازها ليعلمها كل الناس. أما مهاجمته للقبائل الجزائرية التي لم تناصره فثابتة بالدليل والبرهان، وقد اتبعت مختلف المقاومات

---

[51] أنظر:

-Graule. E. Insurrection de Bouamama, Henri charles lavauzelle, Edition Militaire. Paris 1905.

والثورات الجزائرية النهج نفسه، لأنها الطريقة المثلى والملائمة تجاه الذين خرجوا عن الإجماع الشعبي ووقفوا إلى جانب الفرنسيين أعداء الشعب بدل مناهضتهم.

فهل كانت هذه النظرة العدائية من هؤلاء الكتاب ناتجة عن الصراع الطرقي آنذاك؟ حيث كان الخلاف على أشده بين مختلف الطرق الصوفية، وكل يدعو إلى طريقته ويُسَفه غيرها، وكل يعتبر شيخه هو حامل السر وغيره كاذب مدع بما ليس أهلا له! أم أنها وسيلة من وسائل التقرب من السلطات الفرنسية الحاكمة بمدح أعمالها والانتقاص من كل من يناوئها؟ أم أنها مجرد الغيرة والحسد الكامنين في النفس البشرية؟ وإذا كنا قد علمنا مقصد الشخصية الثانية وهي المزاري باعتباره من القبائل الموالية للسلطات الفرنسية فإننا نقف حيارى تجاه المقاصد لدى الشخصيتين الأخريين الراشدي الشقراني والجباري!

إنه لمن المؤسف حقا أن لا نجد، في القرن التاسع عشر، كاتبا جزائريا يقدم حركة الشيخ كحركة وطنية تعمل لصالح البلاد والملة.

لقد خضع الكثير من الناس قهراً للسلطات الفرنسية بعد انسحاب مثقفي البلاد على إثر السياسة الفرنسية التي اتبعتها تجاههم بالقتل في المعارك وبالنفي والتهجير، والذين كان منهم المفكر والمعلم والفقيه والأديب وآخرون؛ وبالتالي فقد انعدمت الكتابات الجادة ذات المستوى اللائق. أما ما بقي من بعض أنواع الأدب فقد ضعف مستواه ومثلته طائفة من الأدباء والشعراء الذين استغلوه لأغراض محدودة كالمدح والرثاء والمدائح النبوية، ولقد بلغ الأمر ببعضهم نتيجة الاستكانة والضعف أن مدح زعماء فرنسيين، مثلما فعل أحمد ابن الفكون وابن الصايم وابن القاضي وغيرهم... وهكذا لم يعبر الأدب الرسمي آنذاك عن طموحات الجماهير الشعبية الغاضبة، لذا لجأ الناس إلى التعبير الشفوي فراحت الكلمة الشفوية تسحل كل كبيرة وصغيرة وتوَلد عن كل حدَث حكاية أو شكوى ينقلها الناس من مكان إلى آخر.

لقد بلغ التقهقر الثقافي مداه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأصبحت البلاد بدون نخبة مثقفة، عدا من كَوَّنتهم المدارس الفرنسية، والذين كانوا يعملون في إطار الأمر الواقع والوضع القائم. وأصبح التعليم في الكتاتيب والزوايا والمساجد مقتصرا على تعليم الكتابة والقراءة وتحفيظ القرآن الكريم دون شرح أو تفسير سواء لضعف مستوى المعلمين أو لتدخل السلطات الفرنسية الاستعمارية بالتوجيه والمراقبة؛ حيث "أن التعليم بالزوايا على العموم حورب وحوصر بالمدرسة الفرنسية... وحاول الفرنسيون جر الجزائريين إلى إدخال أبنائهم في مدارس فرنسية في المدن أولا، وفي المرحلة الثانية أنشئوا ثلاث مدارس إقليمية لتمتص التلاميذ الذين كانوا من قبل يتوجهون إلى الزوايا الريفية وإلى المرابطين للتعلم أو يقصدون المعاهد الإسلامية خارج الجزائر."[52]

وهكذا أصبح المتعلمون من الجزائريين، آنذاك، يدعون إلى الخضوع للفرنسيين ويُسَفهون عمل كل من يقف في وجههم، بدل أن يقوموا بالدعاية من أجل الصمود والمقاومة، مثلما كان يفعل إخوانهم من الشعراء الشعبيين والمداحين ورواة القصص الشعبي و"الغزْوات" في التجمعات الشعبية المتعددة، الذين كانوا المعبرين حقا عن طموحات الجماهير الشعبية المقهورة آنذاك.

[52] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت 1998، ص: 172-173.

ثالثا :الشيخ بوعمامة من خلال
بعض الكتابات الأجنبية

يزخر تاريخ الجزائر، خلال العهد الاستعماري، بنسيج متلاحم من المقاومات الشعبية التي لانهاية لها، برزت فيها زعامات وطنية سطرت طريقها بشهب تضيء سماء الوطن السليب، واستمرت القوافل تتبعها القوافل تخط سيرها في طريق الجهاد والتضحية، واستمد المجاهدون عزيمتهم من تقاليد شعب كانت البطولة والفروسية دَيْدَنه وحياته اليومية في الأرياف والبوادي على ظهور خيول مطهمة جاهزة، على أهبة الإستعداد لخوض المعركة واختراق الصفوف وسباق الريح ، أو كما قال الشاعر الجاهلي:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبل مُدبر معا   كجُلمود صخرٍ حطه السيل من علٍ.

ويقول الأمير عبد القادر وهو أحد أبطال تلك المقاومات الباسلة:

وأشقر من تحتي، كلمته رماحهم   ثمان و لم يَشْكُ الجوى و ما التوى.

ويقول في مكان آخر:

لنا في كل مكرمة مجـــال   ومن فوق السِّماكِ لنا رجالُ
ركبنا للمكارم كل هول   وخضنا أبحرا ولها زجال.[53]

لقد كان الشيخ بوعمامة واحدا من أبطال الجزائر الذين فضلوا رفع التحدي في وجه عدو شرس، رافضين القبول بالأمر الواقع بالاستسلام والخضوع. خرج من عائلة أولاد سيد الشيخ "المْرابْطين،"[54] وتزعم حركة

---

[53] مجلة أمال، عدد خاص بالأمير عبد القادر، العدد 8- 5، جويلية 1970. ص: 58.

[54] المرابط: يعني صاحب طريقة صوفية أو ولي من الأولياء له قبة تزار أو شخص ذا نسب شريف، وأولاد سيد الشيخ يعود نسبهم حسبما هو متعارف عليه إلى أبي بكر الصديق. كما أن جدهم سيد الشيخ عبد القادر بن محمد هو مؤسس الطريقة الشيخية.

المقاومة ابتداء من سنة 1881، فحارب الاستعمار الفرنسي وناصبه العداء إلى أن توفي في منفاه الاضطراري بالمغرب الأقصى سنة 1908.

وقد ظهرت بعض الكتابات حول شخصية الرجل ومقاومته منذ اندلاعها وبخاصة من قبل الفرنسيين. أما الجزائريون فقد تأخر دورهم في الكتابة إلى ما بعد استرداد البلاد لحريتها واستقلالها، ما عدا بعض الإشارات التي ظهرت آنذاك من قبل أشخاص لم تكن أقلامهم وطنية فيما كتبوه عن الشيخ.

ويمكننا تقسيم الكتابات حول تاريخ الجزائر عامة إلى قسمين كبيرين: كتابات بأقلام وطنية وكتابات بأقلام أجنبية. وبما أن موضوع الكتابة هذا واسع فسنقتصر هنا على بعض الكتابات الفرنسية والمغربية باعتبار الدولتين معنيتين من قريب لهذا السبب أو لذاك بأحداث مقاومة 1881.

ففرنسا كانت هي الدولة المستعمرة للأراضي الجزائرية منذ سنة 1830، وقد حمل بوعمامة السلاح ضدها سنة 1881، وخاض عدة معارك، وكانت له معها مراسلات واتصالات. وقد مثل الشيخ خطرا دائما للسلطات الفرنسية سواء خلال تواجده في الجزائر أو بعد لجوئه إلى البلد المغربي الشقيق. وكان الخوف من قيام حركة معادية لفرنسا أمرا غير مستبعد.

أما بالنسبة للمغرب فهي الدولة المجاورة التي كان زعماء مقاومة أولاد سيد الشيخ يلجئون إليها، مثلما كان يفعل مقاومو الجهة الشرقية من الجزائر بلجوئهم إلى الشقيقة تونس كلما ضاقت بهم الأوضاع. وكان الشيخ بوعمامة قد ألتجا إلى الأراضي المغربية بنواحي فكيك سنة 1883/1882 وفي مطلع القرن العشرين عاد إلى المغرب ثانية وانضم إلى ثورة الجيلالي الزرهوني المعروف بـــ "بوحمارة"، الذي حمل السلاح ضد السلطان المغربي مولاي عبد العزيز

مدعيا أنه مولاي امْحمد أخوه الذي سلبه حقه في الملك. واتهم السلطانَ بموالاة الأوربيين المسيحيين، فانضمت إليه قبائل عديدة من شرقي المغرب وناصرت قضيته. والحقيقة "أن الجيلالي الزرهوني لم يكن متمردا يمتنع عن أداء الواجبات المخزنية بل كان ثائرا ذا برنامج يهدف إلى إحلال مخزن جديد محل مخزن مولاي عبد العزيز الذي ظهر عجزه"،[55] والذي ترددت عنه الشائعات هنا وهناك عن علاقته بالمسيحيين واستشاراته معهم في أمور المسلمين، كل ذلك أثار ضد مولاي عبد العزيز معارضة المحافظين من سكان المدن ومقاومة القبائل.[56]

وقد كتب مؤرخو هذين البلدين عن الشيخ بوعمامة وحركته عندما كتبوا عن تاريخ بلدانهم، أو من خلال الكتابة عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر. فجاءت كتاباتهم متماشية مع مصالح بلدانهم المناهضة لأعماله وبخاصة انضمامه إلى الثائر بوحمارة، لأنها كُتِبت من وجهة نظر معينة فجاءت المعلومات مغلوطة وغير كاملة.

فالفرنسيون كتبوا لخدمة الوجود الاستعماري في هذه البلاد وفي إطار التأريخ لأعمال الجيش الفرنسي وتاريخ فرنسا الذي دعوه بعد ذلك بتاريخ فرنسا المحلي[57] لخدمة ودعم وجهات نظرهم المتحيزة التي تستهدف تدعيم وتركيز الاحتلال الفرنسي.

أما المغاربة فكتبوا من وجهة نظر السلطة المخزنية لارتباط أغلبية الكُتاب بالقصر الملكي قديما وحديثا، الذين اعتبروا كل ثائر خارجا عن القانون. وبما أن

[55] علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991، ص: 34.

[56] المرجع نفسه، ص: 46.

[57] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996، ص:7.

الشيخ بوعمامة كان قد انضم إلى حركة الثائر "بوحمارة" المعادية للسلطان، فهو إذن فتان ولا همه إلا مصلحته وصديق العدو عدو.

ومن بين الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن الشيخ بوعمامة نجد ما يلي:

1-بيزي: Bezy (le citoyen)

بيزي هو محرر إحدى الجرائد الفرنسية بمدينة وهران في نهاية القرن التاسع عشر، والمسماة بـــ "Le petit fanal"، ألف كتيبا عما أسماه بـــ "انتفاضة الجنوب الوهراني"[58] سنة 1881، وقسم بحثه إلى أربعة فصول تعرض فيها للمقاومة بدائرة البيض، معيدا أسباب قيامها إلى التأثر بالحركة الإسلامية في المشرق العربي واستغلال فرصة انسحاب القوات الفرنسية سنة 1881 لاحتلال تونس، مبينا أهمية قبيلة أولاد سيد الشيخ في المنطقة، كما استعرض حياة الشيخ ونشاطاته في الإعداد للمقاومة، وشرح أوضاع قبائل وقصور منطقة البيض قبل المقاومة، ودور "مقدمي" الشيخ بين السكان، وتعرض لظروف مقتل الضابط وانبرنير Weinbrenner ولمعركة الشلالة. وأنهى كتابه ببعض الملاحظات والاستنتاجات كقضية الحاج قدور الصحراوي قايد قبيلة الأحرار ولمسألة الهدنة مع أولاد سيد الشيخ سنة 1883.

وقد اعتبر الكاتب مقاومة 1881 أقل أهمية وأثرا من مقاومة سنة 1864 على الأوضاع العامة للبلاد، مبينا أن "العرب لا يمكنهم التغلب علينا لمدة طويلة ونحن في حالة ضعف."[59] وقد قصّرَ الكاتب بحثه على منطقة البيض دون غيرها، بينما كانت المقاومة أعم وأشمل من ذلك، ولعله كان يعتبر البيض المركز

---

[58] أنظر:

-Bezy le citoyen, <u>Insurrection du sud oranais</u>. Publié par le citoyen Bezy. Oran- collect. 1884.

[59] IBID. P/ 57.-7-

الفرنسي الوحيد في الهضاب العليا[60] الذي وضع به الفرنسيون قوائهم قبل الاحتلال الأخير لمشرية وعين الصفراء(1881-1882).

2-قرول: Graule. E.[61]

ألف قرول كتابا عن "انتفاضة بوعمامة" قدم فيه عدة تفاصيل هامة باعتباره كان ضابطا عسكرا برتبة نقيب، مارس وظيفة رئيس مكتب عربي. وقد قسم المؤلف كتابه إلى تسعة فصول، تعرض فيها لحياة الشيخ ولأسباب الانتفاضة والظروف المحيطة بمقتل الضابط وانبرينر والإجراءات المتخذة من قبل السلطة الفرنسية لمواجهة الانتفاضة، كما تعرض لأحداث ووقائع بعض المعارك كمعركة السفيسيفة بمنطقة الشط ومعركة الشلالة (تازينة) ومعركة الخيذر ومعارك بني سمير ومعركة فندي وغيرها، كما استعرض مسيرة الشيخ إلى الشمال، ومحاولة الفرق العسكرية الفرنسية القبض عليه ووقف مسيرته. وقد اعتمد الكاتب في معلوماته على رسائل وتقارير وتصريحات ضباط وأشخاص حضروا الأحداث ورووها لهذه الجهة أو تلك، واستفاد منها قرول. وهو يبدي رأيه من حين لآخر معللا ومنتقدا، مبينا أن اندلاع مقاومة بوعمامة سببت جزعا في فرنسا والجزائر، وكانت مفاجأة غير متوقعة.[62]

ويعترف قرول بأن بوعمامة لم يكن "دمويا"، مثلما ذكر مرارا ، حيث أنه عندما علم بما فعلته مقدمة جنده مع ثلاثين من قوم أغاليك فرندة بإشراف قائدهم، في 20 ماي 1881، والذين كان يقودهم الفرنسي Bringard

---

[60] انظر: -Louis Rinn, Nos frontières sahariennes, in revue Africaine, N/ 30, 1886. P/ 178.

[61] انظر: -Graule. E. Insurrection de Bouamama, henri charles lavauzelle, éditeur militaire, Paris 1905

[62] أنظر: IBID. P/14

المكلف بمراقبة خط التلغراف الرابط بين فرندة والبيض، مع استطاعتهم أسرهم، أراد ترك رجاله والعودة إلى بلدة مغرار، ويذكر أن بوعمامة لم يقبل البقاء معهم إلا بعد إلحاح من "قِيادْ" الطرافي وتعهدهم بعدم تكرار مثل تلك الأعمال.[63] ويواصل التأكيد على خُلق بوعمامة الإنساني، قائلا: إنه عندما تمت إبادة أغلبية حراس وعمال ورشة الحلفاء من فرنسيين وإسبان، ببلدة خلف الله، والتي يسميها "مذبحة"، يوم 11 جوان، لم يعلم بوعمامة بذلك، سوى عند الوصول إلى الاعوج، عند ذلك أطلق سراح كل الأسرى، وقد وعده رجاله بطاعته.[64] كما أن قرول ينتقد العمل الذي قام به الجنرال نيقري بتفجير قبة سيد الشيخ في 15 أوت 1881 ويعتبر هذا العمل غير سياسي. وقد قصر الكاتب بحثه على أحداث سنتي 1881 و1882 ولم يتتبع حياة الشيخ أو نشاطاته بعد ذلك.

3- واشي .Wachi P :

واشي هو أحد الضباط الفرنسيين في تلك الفترة، كان برتبة مقدم، قام بعدة مأموريات في المنطقة الغربية من الجزائر وبخاصة الجنوب الغربي منها، فكتب ملاحظاته ومشاهداته وذكرياته خلال خط سيره في بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر.[65] ونشر ذلك في المجلة التونسية لسنتي 1901 و1902، تعرض لحركة الشيخ في المنطقة الجنوبية الغربية، وكانت له وجهة نظر

---

[63] انظر: IBID, P :52-53.

[64] انظر: ibid, P :76-77.

[65] انظر: Wachi.P. Notes et souvenirs pour servir à l'histoire de la province d'Oran. l'insurrection de Bouamama 1881-1882.in revue Tunisienne 1901 et 1902.

استعمارية، فهو يقول مثلا: "نحن نقاتل عدوا لا يعرف سوى لغة القوة، ولن نحقق النصر عليه إلا ببذل مجهودات كبيرة، وسنصل بذلك إلى توفير الأمن للمعمرين ولمستقبل المستعمرة."[66]

ويدعو السلطات الفرنسية إلى إنشاء منطقة حماية جد واسعة على حدود الصحراء حتى لا يتفاجأ الفرنسيون بأية حركة معادية، وحينذاك يمكن فلاحة الأرض في أمن وسلام واستغلال الهضاب العليا بطريقة مفيدة. ويصل في تحليله للوضع إلى أن الحقد الديني هو الذي يؤدي إلى ظاهرة الجهاد، ويتهم بوعمامة بأنه رجل متعصب صاحب مكائد، وأنه حقير لا يساوى شيئا.

وعندما يتحدث عن طفولة بوعمامة يذكر أنه لم يكن ذا شأن كبير، وكانت تنتابه حالات من الصرع والرعشات فيسقط على الأرض. وأنه كان يغيب عن أهله عدة أسابيع كان يلتحئ أثناءها إلى بعض قباب المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر. وقد وصف الضابط الفرنسي "بالاسكا" صاحب كتاب "أولاد بلحرمة" الشيخ بمثل هذه الأوصاف، إلا أنه استدرك في الأخير قائلا: نعتقد بأن بوعمامة لم يكن هستيريا ولا مصابا بالصرع، لكنه كان يتظاهر مرارا بالإعجاب الشديد بنفسه ليؤثر في غيره وبخاصة منهم الميالين إلى التصديق بكل ما هو عجيب. ويضيف بأنه ما يزال هناك من يعتقد بأن بوعمامة موكل بمهمة ربانية ورثها من بركة سيد الشيخ.[67] ويوجه هذا الضابط النصح إلى بني جلدته قائلا: "إنه من أجل التحكم في الفرد الجزائري يجب أن يكون صاحب السلطة شخصا إداريا بأتم معنى الكلمة، نزيها وذا تجربة جيدة، وتكون له سلطة قوية

---

[66] أنظر: IBID, revue Tunisienne, N/33.de 1902

[67] أنظر: Palaska, <u>Les oulad belhorma</u>, Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Alger 1906. P/8.

ومدعما برجال نشطين يملكون قدرات كبيرة ولهم ماض تليد، ويضيف قائلا: نحن في حاجة إلى حاكم يعرف البلد وحاجاته وتقاليده ويتابع تحولاته سواء كان مدنيا أو عسكريا.[68]

4-غي دو موبسان: Guy de maupassant

غي دو موبسان أديب فرنسي شهير عاش بين 1850 و1893، له عدة مؤلفات أصدر جلها بين سنتي 1880 و1890. نزل بالجزائر لأول مرة في 6 جويلية سنة 1881 بصفة صحفي، وزار الجنوب الغربي الجزائري، للإقتراب من منطقة المجاهة؛ حبث بقي حتى شهر سبتمبر من السنة نفسها، بعث خلالها 11 مقالا لجريدة Les gaulois التي نشرها بين 17 جويلية و19 أكتوبر.

كانت مهمة دي موباسان التحقيق الميداني حول انتفاضة بوعمامة، وقد اهتم الكاتب بالمشكلة ووسعها من خلال عدة تحاليل وباهتمام كبير للوضعية الاستعمارية، وقد جمع ذلك في طبعة Havard في جانفي 1884 تحت عنوان: Au soleil.

كتب عن بوعمامة قائلا: "كاذب من يقول، وحتى اليوم، من يكون بوعمامة، هذا المخادع الماجن، بعد أن أحدث الذعر في صفوف جيشنا الإفريقي، اختفى نهائيا وكأنه لم يكن موجودا.

ويواصل القول بأن هناك ضباطا من الذين اعتقدوا أنهم يعرفونه وصفوه لي بطريقة معينة، لكن أشخاصا آخرين متأكدين من أنهم رأوه، وصفوه لي بطريقة مغايرة."[69] ويصف بوعمامة بأنه مجرد زعيم لعصابة ككل العصابات،

---

[68] أنظر: Wachi, R.T. N/ 33 de 1902. P/ 317.

[69] أنظر: Guey de maupassant ; Ecrits sur le maghreb, minerve 1988, P : 55.

لأنه لم يقم بحركته بسبب التعصب الديني أو الحقد والكراهية وإنما السبب الحقيقي هو الجوع فحسب. وأن بوعمامة هو الذي أعطى الأمر لقبيلتي الحساسنة والأحرار لتقتيل الإسبان العاملين في ورشات الحلفاء ببلدة خلف الله. والقبيلتان كانتا ساخطتين على الإسبان الذين كانوا يعيشون على أراضيهم، وأن عدد القتلى بلغ 300 شخص.

ويتحدث عن العقيد إينوسنتي الذي قاد الفرنسيين في معركة تازينة في 19 ماي 1881، فيذكر أنه أَرْسِلَ للإنتقام لمقتل الضابط وانبرينير يدعمه آغا سعيدة. وأنه اتجه بعد المعركة نحو الخيذر لإعادة تنظيم طابوره وترك الميدان فارغا لخصمه الذي اغتنمه لصالحه.

وعن مسيرة الشيخ بوعمامة يذكر أنه أُعْلِنَ عن تواجده في ست نقط مختلفة في الوقت نفسه، من قبل ست رؤساء فرق من الذين كانوا يظنون أنهم سيمسكونه. ويتحدث عن كاريكاتور رسمه أحد المعمرين، يظهر فيه ضابط فرنسي يركز نظره نحو الصحراء وهو يتمتم: "إنهم هنا في مكان ما." ثم يوجه كلامه لضابط اتصال خلفه قائلا له بصوت قطعي: "أبْرِقْ للحكومة بأن العدو أمامي، وأنا أعمل على متابعته."[70]

وهو لم يصدق ما استقاه من الضباط الفرنسيين لأنهم في نظره لم يقوموا بواجبهم أحسن قيام، ويذكر أن المعلومات القريبة من الواقع هي التي استقاها من الأسرى الإسبان الذين فروا من أسر بوعمامة، وقد استمع إلى أحدهم المدعو Blas rojo pélisaire الذي أعتقل يوم 10 جوان وهو في قافلة تتكون من سبع عربات، وأنه سار مع طابور بوعمامة خلال ثمانية أيام، كانوا يسيرون فيها بطريقة حلزونية، وأنه تمكن من الفرار في غفلة من حراسه. وقد

[70] أنظر: IBID, P : 58.

ذكر أن بوعمامة اعتنى بالنساء الأسيرات فخصص لهن خيمة محروسة، وأنه منع زعيم إحدى القبائل الذي أراد إرغام إحدى الفتيات على الزواج منه.

ويعلق الكاتب على الجزائريين قائلا إن هؤلاء العرب لا يعرفون التعب تحت المناخ القاسي، يقطعون من 100 إلى 150 كيلومتر في اليوم الواحد، وهم بدون أمتعة ولا مؤونة، ينتقلون بسرعة ملفتة للأنظار. يمرون بين طابورين فرنسيين لمهاجمة إحدى القبائل التي تظن نفسها آمنة، ثم يختفون دون أن يتركوا أثرا، ويعودون فجأة في الوقت الذي نظنهم جد بعيدين، ويهاجموننا فنهزمهم، وربما دائما رغم شجاعتهم، وعندما ينسحبون لا نستطيع اللحاق بهم. هؤلاء الفرسان التائهون يذهبون ويعودون وهم من حولنا بسرعة مثل منقار طائر السنونو، يفرغون بنادقهم الطويلة الدمشقية وفجأة ينحرفون ويبتعدون مثلما جاؤوا، منحنين على بطونهم، تاركين علبة بيضاء تضطرب سقطت هنا كطائر جريح ما يزال دمه على ريشه.[71]

5-شارل روبير أجيرون: Charles Robert Ageron

حصص المؤرخ الفرنسي المعاصر شارل روبير أجيرون مبحثا عن مقاومة الشيخ بوعمامة تحت عنوان: "انتفاضة الجنوب الوهراني"، وذلك ضمن كتابه الموسوم بـــ: "الجزائريون المسلمون وفرنسا،"[72] لم يخرج فيه عن أمثاله من المؤرخين الفرنسيين الذين اعتبروا حركة الشيخ مجرد تمرد قامت به عصابات همها السلب والنهب، وفي هذا يقول: "إن العمليات التي قام بها بوعمامة تبدو

---

[71] أنظر: IBID, P : 60.

[72] أنظر:

Charles Robert Ageron, Les Algérins musulmans et la France, Presses universitaires de France, Paris 1968.

منذ أول مواجهة لها مع الفرنسيين على أنها غزو[73] واسع وليست حركة لمقاومة الاحتلال الفرنسي.[74] ومع ذلك فإن هذا المؤرخ يعترف بطول فترة هذه الانتفاضة بالمقارنة مع سابقاتها، إلا أنها ليست أكثر خطورة. ويستعرض في آخر هذا المبحث أقوال الجمهور والصحفيين الذين ربطوا هذه الأحداث بالحركات الإسلامية في المشرق، وبخاصة دعوة السلطان العثماني عبد الحميد وحركة عُرابي في مصر والحركة السنوسية في ليبيا والصحراء، الداعية كلها إلى وحدة المسلمين في مواجهة الغرب الصليبي، كل هذا ليبعد رفض الجزائريين للإحتلال والاستغلال الذي ارتكبه الفرنسيون في حقهم، ويريد أن يثبت، كغيره من المستعمرين، أن دافع هذه الحركة خارجي.

أما في كتاب "تاريخ الجزائر المعاصرة" للمؤلف نفسه فهو لا يوليها أية أهمية، بل يشير فقط إلى أن انتفاضة الجنوب الوهراني سنة 1881 هي عبارة عن غارة صحراوية في نطاق تاريخ أولاد سيد الشيخ المضطرب.[75]

وإذا انقلنا إلى الكتاب المغاربة فإننا نجد أن معظمهم قد هاجم الشيخ بوعمامة، وبخاصة وأنه ساند الروقي/بوحمارة في ثورته ضد السلطان المغربي مولاي عبد العزيز، صاحب السلطة آنذاك، فكان من الطبيعي أن ينظر إليه المغاربة بناء على موقفه من السلطة المغربية الرسمية.

ومن الأمثلة في هذا المجال نذكر ما يلي:

---

[73] يعتبر الضابط الفرنسي قرول الغزو: عبارة عن جماعة من النهابين، ويقدر عددهم بـــ 1000 رجل بين فرسان ومشاة. ص: 112 من كتابه السابق الذكر.

[74] IBID, P/ 63.

[75] شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص: 79.

1-مذكرات الحجوي[76]

محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي (1874-1956) أحد رجالات القصر الملكي في عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1894-1908)، شغل عدة مناصب، منها نائبا عن السلطان بإقليم وجدة وأمين ديوانه بالبلدة نفسها. كتب مذكراته تحت عنوان: "انتحار المغرب بيد ثواره"، تحدث فيها عن الأوضاع العامة في المغرب في مطلع القرن العشرين، وعن فساد الأوضاع في القصر الملكي في عهد مولاي عبد العزيز واستغلال ذلك من قبل الجيلالي الزرهوني المعروف بـــ "بوحمارة" ليعلن الثورة على المخزن بعد أن أنكر أفعال السلطان وشنّع بأعمال وزرائه، وقال إن المغرب بيع للنصارى فساندته قبائل منطقة الشمال الشرقي المغربي إبتداء من سنة 1902.

وانتقل إلى الحديث عن الشيخ بوعمامة، فبين كيف وصل مبعوثو الثائر بوحمارة إليه لطلب الانضمام إلى حركته لاستخلاص المغرب من يد الخونة والمفسدين، ويضيف قائلا: إن بوعمامة كان بطبعه ميالا للإفساد.[77]

وعن مقاومة الشيخ يذكر الحجوي أن بوعمامة اشتغل بالغارة على الإيالة الجزائرية، وكان له أتباع من بسطاء الناس يترلون معه ويعتقدونه ويقدمون فتوحات لزاويته.[78] وهو يعتبر بوعمامة من المضللين المشعوذن، وأنه هو وسلفه من المنحرفين عن الدولة العلوية، لكونها كانت تنكر فعلهم، إذ

---

[76] محمد بن الحسن الحجوي الجعفري الفاسي، انتحار المغرب بيد ثواره، مذكرات مخطوطة بالخزانة الوطنية للوثائق بالرباط، تحت رقم: ح/123.

[77] المصدر نفسه، ص: 41.

[78] نفسه، ص: 46.

لاشك أنها إنما تريد حفظ الأمن بالحدود على خلاف ذلك، وقد قبضت منهم ناسا ورحّلتهم لداخل المغرب وأعطتهم إقطاعات يعيشون بها.[79]

فالكاتب يعتبر الشيخ مجرد مشعوذ قام بعدة غارات على الفرنسيين وأنه محب للفتنة بسبب مساعدته للثائر بوحمارة، وأن السلطان كان يعارض محاربة فرنسا رغبة منه في استتباب الأمن على الحدود مع الجزائر حتى لا يجلب فرنسا لاحتلال بلاده.

2-عبد الوهاب بن منصور:

عبد الوهاب بن منصور جزائري الأصل أصبح مؤرخا للمملكة المغربية، عمل مديرا لإحدى مؤسسات حفظ الوثائق بالرباط. توفي رحمه الله سنة 2008 ألف كتابا من عدة أجزاء تحت عنوان: "أعلام المغرب العربي"،[80] هاجم في الجزء الثاني الشيخ بوعمامة بكل عنف متهما إياه بكل ما اتهمه به الفرنسيون، فهو يقول: "إن بوعمامة استطاع أن يجمع حوله بضع مئات من الرجال الأشداء مستعينا على إثارة غرائزهم الحربية وحميتهم الدينية بضروب من الشعوذة كان يجيدها، كإبراء المرضى وتحبيل العواقر والإخبار عن المغيبات وتفجير المياه وسط الرمال وإسماع أصوات وقرقعات من جوفه على غير معتاد."[81] وهو يتهم الشيخ بالطموح في إقامة مُلك على الأراضي المغربية والأراضي الجزائرية التي لم يحتلها الفرنسيون، "والتعاون على بلوغ هذا الهدف مع كل متآمر على هذه الوحدة (الوحدة المغربية) ليس هذا فقط، بل إن الرجل

---

[79] نفسه، ص: 46. لاشك أنه يقصد أولاد سيد الشيخ، وبخاصة بعد قيامهم بالإنتفاضة على الفرنسيين سنة 1864.

[80] عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1979.

[81] نفسه، ص: 73.

لا يأتي عملا من الأعمال أو يذره إلا بإيحاء من ضباطها (فرنسا) ورجال مخابراتها."[82]

هكذا يكتب هذا المؤرخ عن المجاهد بوعمامة، رغم أن المؤلف عاش في زمن اندلاع الحركات التحررية وعاش جزءا كبيرا من عمره في هذه الفترة، ولكنه لم يعترف لبوعمامة بالنضال والجهاد لسبب بسيط وهو وقوفه مع الثائر بوحمارة ضد البلاط المغربي. فهو يكتب من وجهة نظر السلطات المغربية وليس للتاريخ، وهو يحاول تبييض سلوكات وأعمال الملوك المغاربة في تلك الفترة في مواجهة الحركات الثورية الرافضة للتعاون مع الأجانب والخضوع لهم.

3-اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي:

هو مؤرخ مغربي معاصر من منطقة وجدة بشرقي المغرب الأقصى، ألف كتابا من جزئين تحت عنوان: "تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد"،[83] تعرض فيه لحركة الشيخ بوعمامة وذلك في جزئه الأول تحت عنوان: "فتنة بوعمامة" وذلك مثلما سمى حركة الجيلالي الزرهوني/ بوحمارة بـــ "فتنة بوحمارة". فبين نشأة الشيخ وانتقل إلى كيفية بروزه، وأنه اجتمع حوله رجال من بني جلدته ومن قبائل أخرى، فحاول اعتراض الجيش الفرنسي الذي كان يعزز زحفه بخط حديدي سنة 1881. وأنه اضطر إلى اللجوء إلى المناطق النائية، وكانت له مراسلات مع السلطات العسكرية الفرنسية، استنتج منها المؤلف أن بوعمامة كان جاسوسا لهذه السلطات يخبرها بما يفعله المجاهدون ضدها. ولا ندري من أين جاءت هذه الأفكار للاسماعيلي، كيف يكون بوعمامة قائد

---

[82] نفسه، ص: 77.

[83] اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1985.

الجهاد ضد الفرنسيين سنة 1881 جاسوسا في الوقت نفسه! ألأنه وقف مع الثائر الجيلالي الزرهوني وحارب السلطان مولاي عبد العزيز بعد التجائه إلى المغرب نتهمه بكل ما ينقص من قيمته كمجاهد حارب وعادى الفرنسيين طيلة حياته، رغم أنه كان يمكنه التمتع بالهناء والراحة مثل الذين استسلموا لهم سنة 1883 لو أراد ذلك، ولكنه كان يرفض التفاهم مع الفرنسيين أو عقد الهدنة معهم مهما كان الأمر. يؤكد هذا الرسائل العديدة التي كانت تأتيه من قبل الفرنسيين والتي كان يرفضها أو يتحايل في الرد عليها.

ويذكر المؤلف أن زاوية بوعمامة لم يكن لها إشعاع كبير في وسط الأهالي، "بل كانت في الحقيقة ملاذا لقطاع الطرق وأصحاب الأغراض المادية!"[84] إنه يصرح بعكس ما كان يقوله عنه الفرنسيون من أن نفوذه يتنامى بين سكان المنطقة الجنوبية الغربية، وقد صرحوا بهذا قبيل اندلاع حركته المسلحة، عندما كان شيخ زاوية فقط في بلدة مغرار التحتاني، وتحاشوا الإساءة إليه أو محاولة القبض عليه، خشية إثارة السكان الذين كانوا على استعداد للوقوف معه لو دعاهم إلى الثورة. فإذا كان هذا هو رأي الفرنسيين قبيل اندلاع مقاومته فماذا يقولون بعد اندلاعها سنة 1881 ووقوع معارك بين الجانبين؟ لقد أصبح بوعمامة يمثل للفرنسيين أهم عائق في انعدام الأمن والاستقرار في المنطقة الجنوبية الغربية.

لقد صدرت هذه الأحكام كلها ضد بوعمامة لأن هذا الأخير وقف إلى جانب الثائر بوحمارة الذي خرج عن طاعة السلطة المغربية المركزية، فالمؤلف لم يغفر للشيخ ذلك وهكذا ألصق به ما لم يكن فيه واتهمه بأشياء هو بعيد عنها كل البعد.

---

[84] المرجع السابق، ص: 228.

ورغم أن هذا المؤرخ يحاسب الشيخ على حربه ضد السلطان المغربي مما "أضعف سلطة المخزن وسهل بذلك، التغلغل الاستعماري الفرنسي في المملكة المغربية"؛[85] فإنه يعذر الشيخ لجهله بحقيقة الثائر "بوحمارة"، حيث يذكر أن مشاركة بوعمامة في فتنة بوحمارة ناتجة عن جهل محض بأصل وهوية ومقاصد هذا الرجل، لأنه في رسالة له بتاريخ 1904/05/19 للحاكم العسكري لدائرة مغنية أبلغه أن مولاي امحمد بن الحسن أحق بالملك من أخيه عبد العزيز، وأن على السلطات الفرنسية أن تلتزم سياسة الحياد إزاء الصراع الدائر بينهما. وينتهي المؤرخ المغربي هذا إلى القول بأن بوعمامة وولده الطيب كانا يخدمان أهداف الاستعمار الفرنسي في المغرب، لكنه لم يوضح ذلك من خلال أحداث ومواقف واضحة.

لقد استقر الشيخ وأتباعه في مطلع القرن العشرين بالمغرب الأقصى بنواحي عيون سيدي ملوك غربي وجدة بحوالي خمسين كيلومتر، مضطرا أمام زحف القوة الفرنسية، ومع ذلك ظل يبعث السرايا تلو الأخرى لإثارة الفوضى ضد الفرنسيين في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر بواسطة الشعامبة أتباعه المطيعين.

ولكن ما عسى الشيخ يفعل وقد سيطر الفرنسيون على بلدة بركنت المغربية سنة 1904 ثم وجدة في 29 مارس سنة 1907، والسلطان المغربي يدعو أتباعه إلى مهادنة الفرنسيين وعدم مواجهتهم بالحرب؟ لقد وقف موقفا حياديا عندما دخل هؤلاء البلاد المغربية، وكانت الموت قد عاجلته في أكتوبر من سنة 1908، أي في السنة الموالية لاحتلالهم لبلدة وجدة المغربية، فلم يكن له موقف آخر. أما ابنه سيد الطيب فقد هادن مع السلطات الفرنسية، إذ لم يكن أمامه

---

[85] المرجع نفسه، ص: عن الحجوي.

وتستهدف تحقيق نفس الأهداف الرامية أساسا إلى وقف الزحف الاستعماري داخل التراب الوطني، والتصدي لمسيرته التوسعية وضرب مصالحه وعرقلة مخططاته الاستغلالية.".[87]

وتعرض الباحث لما كانت تخلقه المقاومات الجزائرية من متاعب للمخزن المغربي مع السلطات الفرنسية، تطلبت من المخزن القيام بعدة مساع لتحقيق شروط المحافظة على الأمن ووقف كل ما من شأنه أن يثير المشاكل بجوارها لما التزم به المخزن في معاهدة طنجة سنة 1844.

أما وجهة نظر الكاتب عن وضعية المغرب، فيذكر أن الوضعية المزرية التي آلت إليها البلاد في عهد مولاي عبد العزيز قد أدت إلى ظهور مجاهدين داخل البلاد أعلنوا ثورتهم ضد المخزن وضد التغلغل الأجنبي، ومن بين هؤلاء نجد الجيلالي الزرهوني/بوحمارة، الذي توطدت علاقاته مع المجاهد بوعمامة. ويعلل سوء التفاهم القائم بين بوعمامة والمخزن بقوله: "ولعل إلقاء القبض على ابنه الطيب وسجنه بفاس وعدم استجابة مولاي الحسن لطلب أبي عمامة المتعلق بمده بالسلاح والعتاد لأسباب سياسية ودولية، عوامل من شأنها أن تعمق الشقة بين المجاهد الثائر في وجه الزحف الأجنبي وقواته الاستعمارية وبين مخزن يحاول بكل الوسائل الممكنة المحافظة على الأمن على حدود بلاده الشرقية وعدم إعطاء فرصة للاستعمار للتوغل داخل البلاد بحجة مطاردة الثوار المجاهدين."[88]

والخلاصة أنه كانت هناك وجهات نظر بعض الكتاب الفرنسيين والمغاربة حول حركة الشيخ بوعمامة، والتي ارتبطت كلها بمصالح الدول التي ينتمي إليها الكاتب أو المؤرخ، وهي في مجملها تصف الشيخ في طفولته بأوصاف مهينة، فهو خامد الذكر ناقص عقل، أما بعد اندلاع المقاومة المسلحة

---

[87] المرجع نفسه، ص: 414.

[88] المراجع السابق ، ص: 425

فهو خارج عن القانون ومتمرد وفتان وباحث عن الشهرة وعن مصلحته، ولا يتبعه إلا بسطاء العقول ومحبي خوارق العادات من الناس.

وإذا كانت هذه الأوصاف مألوفة في كتابات المؤرخين الاستعماريين وغيرهم من الصحفيين والسياسيين ذوي النزعة الاستعمارية، والذين وصفوا رجال ثورة التحرير الجزائرية الأخيرة أيضا بقطاع الطرق وبالخارجين عن القانون؛ فإن ما يحز في النفس هو رأي المغاربة وبخاصة منهم المعاصرون الذين عايشوا فترة الاستعمار الأوربي وشهدوا ظهور حركات التحرر المعادية له في مختلف أنحاء العالم. فقد كان الأحرى بهم إعطاء كل ذي حق حقه مثلما فعل الأستاذ زكي مبارك بإيجاد العذر للسلطان المغربي الذي لم يستجب للشيخ بوعمامة في مده بالسلاح في الوقت الذي لم يبخس الشيخ حقه، فاعترف به مجاهدا حارب الاستعمار وذب عن الوطن والدين.

ويبقى على الباحثين الجزائريين أن يولوا مثل هذه الآراء ووجهات النظر المتعددة كل عناية وأن يتعاملوا معها بما يفرضه عليهم الحس الوطني.

رابعاً :عين صالح وبعض معاركها

-معركة إينغـــر-

تعتبر عين صالح المركز الحضري لمنطقة تاديكالت،[89] تقع داخل سهل رملي محاط من الشمال بهضبة تادميت، ومن الجنوب الشرقي بمرتفعات مويدير. تتزود من المياه الباطنية المستخرجة عن طريق الفقارات المتواجدة على مسافة 120 كيلومتر. وتنتشر حولها واحات: فقارة الزوا وإيغوستن من الشمال والشمال الشرقي، وواحة مليانة وحاسي الحجر والساهلة الفوقانية وفقارة العرب، هذه الواحات الأخيرة لا تشتمل على قصر لكنها عبارة عن غابات من النخيل في جوف الكثبان الرملية تأوي منازل متواضعة. وعين صالح اليوم(2006) أكبر دائرة من دوائر ولاية تمنغست.

كانت في نهاية القرن التاسع عشر تشتمل على أحد عشر مجموعة سكنية متتابعة من الشمال إلى الجنوب، وتحمل أسماء متعددة هي: سيد الحاج بلقاسم، القصر الجديد، قصبة أولاد مختار، الدويرات، قصر الكبير(قصر العرب)، قصبة أولاد باجودة، آكبور، قصر المرابطين (قصر أولاد بلقاسم وقصر أولاد الحاج)، الدغامشة، زاوية الما، البرّكة.[90]

لم تكن لهذه القصور أسوار تحميها باستثناء بعض القصبات كقصبة أولاد باجودة التي كانت لها قيمة دفاعية حقيقية.

---

[89] تاديكالت تعني بالأمازيغية كف اليد، بحسب تصريح سكان عين صالح لنا في ملتقى "المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي بالجنوب الجزائري" بعين صالح من 22 إلى 25 ديسمبر 1997. وهو ما ينطبق على تضاريسها، حيث تتواجد بلدة عين صالح وسط مقعر أرضي محاط بمرتفعات من كل جهة، وكأن المنطقة كانت حوضا في العصور السالفة.

[90] أنظر: Jean charles humbert, La découverte du sahara, l. harmattan 1996. P/210.

وتمتد على الأطراف الجنوبية والغربية لعين صالح سبخة واسعة تزودها الأمطار شتاء وتجف صيفا، فيغطي سطحها بطبقة ملحية ظاهرة. وإلى جانب أشجار النخيل التي تبلغ عشرات الآلاف (170000 نخلة)، والتي تسقى بمياه الفقارات(27 فقارة) فإن عين صالح تشتمل على أشجار أخرى مثمرة كالتين والرمان والبرقوق وحتى الكروم، ويقوم السكان بزراعة بعض أنواع الحبوب كالقمح والشعير والسورغو والذرى والبرسيم المعد كعلف للحيوان.

كانت عين صالح سوقا كبيرة ونقطة مرور للمعادن الثمينة وريش النعام والعاج وذرة الذهب وصفائح الخشب وحَوَايَا المهارَى، كلها آتية من البلاد الإفريقية جنوبا، والتي كانت تشحن نحو غدامس وطرابلس شرقا ونحو المغرب الأقصى غربا.

أما السكان فكانوا يتكونون من عدة عناصر تعود إلى أصول عربية وبربرية وحراطين وسود وكلهم من الحضر. ولم تكن في المنطقة سلطة منظمة عندما وصلها الفرنسيون، إذ كانوا منتظمين حسب الأعراف في جماعات منفصلة تسيِّرها جماعة من كبار السن وحكماء الرجال، الذين يتداولون أمور الجماعة فيما بينهم. وقد كان لأولاد باجودة نوع من السيادة الواضحة. وهكذا فإن الحاج المهدي بن باجودة هو الذي قاد المجاهدين لمواجهة القوات الفرنسية الغازية، وقد قتل في معركة إيغوستن في ديسمبر 1899. ويتبع مجمل السكان أربعة طرق صوفية هي الطريقة القادرية والطريقة الطيبية والطريقة السنوسية والطريقة التجانية.

وقد سيطرت السلطات الفرنسية على المنطقة على إثر مقتل زعماء وأعيان العائلات الأكثر تأثيرا وغنى بعد معارك إيغوستن والدغامشة وإينغر، بعد أن استمالت بقية الأعيان إلى صفها، والذين قادوا أهاليهم تحت هذه السلطات سواء كان ذلك طوعا أو كرها.

كما أن موقع عين صالح المتوسط للصحراء قد سهل على الفرنسيين التوسع بطريقة سريعة في الجنوب الجزائري عامة.

احتلال الجنوب

لقد فكر الفرنسيون في احتلال الجنوب الجزائري قبل نهاية القرن التاسع عشر بكثير، وذلك من خلال رحلات المسكشفين، مدنيين كانوا أم عسكريين، للسيطرة عليه، وجعل الصحراء في خدمة الاقتصاد الفرنسي بالحلول محل القوافل المحلية التي كانت تربط شمال الجزائر ببلدة تمبكتو في داخل الصحراء الكبرى، وقد قدم كثير من المسكشفين أرواحهم في سبيل هذا الهدف.

وكانت المناطق الجنوبية تزداد انغلاقا في وجه الفرنسيين كلما اشتد إلحاحهم عليها بعد إصرار سكان الجنوب على مقاومة التغلغل الفرنسي.[91] إلا أن فرنسا تمكنت آخر الأمر من تثبيت أقدامها في هذه المنطقة بفضل حملاتها العسكرية المتتالية ولتفوقها عُدة وعَتادا. وكان للمدفعية دور خطير في حسم تلك المعارك لصالحها إلى جانب سياسة الأرض المحروقة التي اتبعتها للقضاء على كل كائن حي متحرك على وجه الأرض.

لقد فكر وزير الحربية الفرنسية منذ عام 1890 في إرسال بعثة فرنسية نحو الجنوب، وذلك لوضع حد للقلاقل والاضطرابات التي تثيرها قبائل الجنوب، ومنع الحركات الممونة من الأراضي المغربية تجاه الواحات الصحراوية، ووضع منطقة آمنة لتشييد سكة حديدية للنقل الصحراوي.[92]

---

[91] جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر 1994، ص: 146.

[92] أنظر: René Pinon, L'empire de la méditerranée, Perrin et c^{i} libraires éditeurs, Paris 1912, P/229.

وهكذا بعد إنشاء مركز فرنسي ببلدة المنيعة (القليعة) سنة 1891 بدأ التفكير فيما هو أعظم، بتوجيه طابور نحو عين صالح وآخر نحو إيغلي غربا للوصول إلى تيميمون.

ولتسهيل مهمة النقل والاتصال أقامت السلطات الفرنسية مجموعة من الحصون كبرج المي El mey وبرج برّصوف وحصن لالمند وحصن إينيفال وحصن ميري بيل وحصن ماك ماهون بين سنتي 1892 و1894.

وهكذا وتنفيذا لخطة وزير الحربية، كلف وزير المستعمرات الفرنسية السلطات العسكرية بالجزائر وعلى رأسها الحاكم العام لافيريار بإرسال بعثة علمية للتعرف على الطرق التجارية الواصلة بين بلدة تمبوكتو وتوات، ومعرفة الإمكانيات المائية الجوفية المتوفرة، عن طريق مسح جيولوجي شامل. وقد رأس البعثة الجغرافي فلامان الذي خرج في اتجاه منطقة تاديكالت وتادميت تحت حراسة مائة 100 جندي، تحت إمرة النقيب بان Pein مسئول المكتب العربي بورقلة لحماية البعثة وتوفير الأمن الفعال لها، كما خرجت فرقة من جند الصبايحية تحت قيادة النقيب جيرمان للتدخل وقت الحاجة من أجل حماية البعثة أيضا.

وقد خرجت البعثة من مدينة ورقلة في 28 نوفمبر 1899، وبعد قطع عدة مراحل وصلت إلى واحة إيغوستن الواقعة في أقصى شرقي تاديكالت، وهناك هوجمت يوم 27 ديسمبر من قِبل حوالي 200 رجل من أهالي عين صالح، لكن القوات المصاحبة للبعثة والمزودة بالأسلحة تمكنت من صد الهجوم. ثم تجمع سكان منطقة تاديكالت في عين صالح وقرروا التصدي للفرنسيين معتمدين على مساعدة السلطان المغربي الذي كان له نفوذ اسمي على المنطقة، ومن هناك بعث المجتمعون إلى باشا تيمي طالبين منه الاتصال بالسلطان المغربي كي يمدهم بالأسلحة والذخيرة التي كان يمنيهم بها.

ومن الضروري الإشارة بهذا الصدد أن المبادرة التي قام بها سكان مناطق قورارة وتوات وتاديكالت لدفع خطر الغزو الجاثم على هذه المناطق يجب أن تفسر في سياقها الظرفي، ولا يجوز أن تحمل أكثر مما تحتمل، فهي لا تحدو مجرد طلب دعم ومساعدة من أشقاء لدفع خطر أجنبي مرتقب غريب كل الغربة عن البلاد.[93]

وفي الوقت نفسه وصلت رسالة من قائد القوات الفرنسية إلى المهدي ولد باجوة، أحد زعماء المنطقة، طالبة منه إرسال وفد للتفاوض على أن يكون اللقاء في الفقيقيرة بأوغستن يوم 28 ديسمبر 1899، وبدل التفاوض وقعت المعركة بين الطرفين قتل فيها زعيم أولاد باجودة.[94] وسيطر الفرنسيون على الموقف خاصة وأن قوات "بان" تدعمت بقوات الصبايحية المصاحبة للنقيب جيرمان. وواصل الفرنسيون سيرهم في اتجاه عين صالح مرورا بعوينة سيسا الواقعة بين إينغر وعين صالح.[95]

أما سكان عين صالح فإنهم تجمعوا في البركة وتداولوا الأمر بينهم فوجدوا أن التسليم للفرنسيين أسلم لهم بعد أن لم تصلهم المساعدة المغربية المنتظرة، ورأوا أن مواجهة الفرنسيين في تلك الظروف تعتبر عملية انتحارية

---

[93] جمال قنان، المرجع السابق، ص: 146.

[94] جاء في الرواية الشفوية-الشقة الطيب، 54 سنة، المقابلة في عين صالح سنة 1997، عن والده عبد القادر المدعو قادي الحاج أحمد- أن الوفد انتظر الفرنسيين من وقت الزوال إلى العصر، ولما تراءى الفرنسيون للعيان أطلق أحد الحرطانيين النار معلنا قدوم الفرنسيين، فبادر الصبايحية بإطلاق النار على تجمع السكان وهم في أرض مكشوفة فقتل منهم الكثير وانسحب الباقون.

[95] أنظر: René pinon, P/229

وجلبا للتهلكة.[96] وبذلك دخل الفرنسيون عين صالح دون قتال في 29 ديسمبر 1899.[97]

في هذه الأثناء وصل الفرنسيين خبر تجمع طابور من سكان المنطقة بعدد ألف رجل من أهل إينغر وآولف وتيط وأقبلي، وأنهم اقتربوا من قصر الدغامشة الموجود على بعد ستة كيلومترات من عين صالح، وذلك يوم 4 جانفي من سنة 1900 وأن هدفهم مهاجمة الفرنسيين، فاستعانت القوات الفرنسية بأحد عملائها وفاجأت المجاهدين وهم في أرض مكشوفة بجانب قصر الدغامشة،[98] فأطلقت عليهم النار فاستشهد الكثير منهم ولم يبق على أرض المعركة سوى الجرحى الذين تراموا بين القتلى ليلتحقوا بقراهم بعد ذلك.

ورغم هذه الانتصارات الفرنسية فإن الفرق العسكرية بقيت في حرج، فلم تكن تحتل سوى موقعا واحدا، كما أن الذخيرة بدأت تنفذ واختلفت وجهات النظر بين وزارة الحرب ورئاسة المجلس ووقع تردد في اتخاذ القرارات المناسبة،[99] واستقر الأمر أخيرا على إرسال نجدة إلى المنطقة، رغم أن الرأي السائد كان يرى عدم التسرع في الاحتلال الفوري. وهكذا انضم طابور الرائد بومقارتن Baumgarten إلى الفرق الفرنسية المتواجدة بعين صالح.

---

[96] . جاء في الرواية الشفوية -عن الراوي الشقة الطيب السابق الذكر- عن والده جريح معركة الدغامشة- أن أهالي قصبة العرب وقصبة المرابطين بعثوا برسالتين شفويتين يرفضون فيها الاستسلام ويتحدون الفرنسيين للقدوم إليهم.

[97] يذكر جون شارل همبير أنه في السادس من شهر جانفي 1900 وصل إلى أسماعنا في الأوساط الرسمية وبدهشة، أن العلم الفرنسي قد رفرف فوق القصبة الرئيسية لعين صالح منذ 29 ديسمبر 1899.

[98] جاء في الرواية الشفوية أن المجاهدين كانوا يصطلون من حول النار في ليلة باردة ولم يكونوا على استعداد للرد. وكان معهم جماعة من أهل أقبلي وآولف وسالي والهبلة الذين جاؤوا لتهنئتهم لتصديهم للعدو الفرنسي، وقد استشهد من هؤلاء هذه المرة 55 شهيدا سلمنا الراوي الشقة الطيب قائمة بأسمائهم تحتفظ بها "جمعية 9 و10 مارس 1900"، وقد أحصتها في 10 مارس 1998.

[99] أنظر: Jean Charles H. IBID. P/210.

وفي 24 جانفي 1900 خرج الرائد نفسه بقواته من عين صالح في اتجاه آولف للتعرف على المنطقة والبحث عن مكان مناسب لرعي الجمال الفرنسية التي كانت تحمل أثقالهم، وقد لقي عدة مناوشات من سكان المنطقة خلال الثلاث أيام التي قضاها خارج عين صالح، ثم عاد إلى القصر الكبير.

معركة إينغر

إينغر كلمة أمازيغية تطلق على واد فسيح كثير الخيرات بين هضبتين، وهي اليوم دائرة، منذ سنة 1990 تابعة لولاية تمنراست. ظهرت حوالي سنة 1770م وكانت تعترف بسلطة باجودة في عين صالح إلى أن احتلها الفرنسيون سنة 1900 بعد معركة كبيرة. إن معركة إينغر تعتبر جزءا من مقاومة واحات تاديكالت وتوات وقورارة للتوغل الفرنسي نحو الجنوب. وهي تمثل نوعا من أنواع المقاومة الصلبة تجاه الغطرسة الفرنسية التي كانت تظن أنها ستدخل الجزائر وكأنها في جولة سياحية في أرض لا مالك لها.

لقد جاءت معلومات معركة إينغر دقيقة بسبب ما قام به الملازم الأول مارسيال .Marciel الذي شارك في العملية بصفته ضابطا في مجموعة القيادة، وذلك بفضل الأشرطة المصورة التي أخذها للمعركة والتي تم استغلالها فيما بعد كبطاقات بريدية، ولذلك يعتبر بحق أول مراسل للحرب الفرنسية في الصحراء.[100] كما لا يجب أن نهمل الرواية الشفوية التي رواها شهود عيان ونقلوها إلى أبنائهم وذويهم والتي تمثل نظرة سكان المنطقة إلى المعركة.

ففي بداية شهر مارس من السنة نفسها قدم مبعوث الباشا بأدرار إلى إينغر واعتذر للسكان عن عدم وصول النجدة من السلطان المغربي، لذا اجتمع

---

[100] أنظر: .Jean Charles h IBID..P/210

أعيان وشيوخ القبائل وقرروا نقض المعاهدة التي كانوا قد أبرموها مع السلطان المغربي، ورفضوا دفع الضريبة المعتادة وقطع كل علاقة بالمغرب.

وجاءت الأخبار للفرنسيين بأن باشا تيمي يسير نحو عين صالح صحبة ثلاثة آلاف مقاتل، وأنه جمع قواته في كل من تيمنطيط وتيموكتن للاجتماع بالناس. وردا على هذا قام الفرنسيون بتقوية حصن ماك ماهون وحصن ميري بيل، وتقرر إرسال طابور جديد كنجدة مع التموين الكافي لمائة يوم من المواد الغذائية تحت قيادة المقدم D'EU. واقترح الحاكم العام على الحكومة الفرنسية العمل بسرعة في توات، وذلك بتكوين طابور في تيمنطيط يأتي من عين صالح وطابور آخر يأتي من عين الصفراء مرورا بواد زوزفانة والساورة.

وفي 14 مارس عام 1900 أمر وزير الحربية بتشكيل طابور أساسي وآخر احتياطي للمساندة وهو مشكل من كتيبتين للرماة وكتيبة من الفيلق الثاني لإفريقيا ومن الفرقة الأولى لقناصة إفريقيا. وكانت قيادة طابور عين صالح بيد المقدم دو D'EU ونائبه الملازم مارسيال.

لقد اتضح للفرنسيين أنه لابد من الاستيلاء على واحة إينغر المتواجدة على بعد 50 كيلومتر إلى الغرب من عين صالح. وهكذا انطلق المقدم D'EU نحو البلدة على رأس طابور مجهز ومكون من الصبايحية والقومية، ومن فرق متعددة وبخاصة المدفعية والرماة وجنود الهندسة، وكان الجميع مزود بمئونة غذائية لمدة عشرة أيام.

وفي 18 مارس استقر الطابور على بعد 18 كلم من بلدة إينغر، وبدأت المناوشات بين الطرفين. وفي اليوم الموالي قرر المقدم D'EU مهاجمة إينغر(19 مارس). وهكذا انطلقت الفرق العسكرية على الساعة الخامسة صباحا يتقدمها الصبايحية الصحراويون، وبدأ القتال بالإشتباك المباشر لإجبار المدافعين على

الالتجاء إلى داخل القصبتين.[101] –قصبة العرب وقصبة المرابطين– وتقرر استعمال المدفعية في الوقت الذي تكوّن فيه طابوران للهجوم، ينطلق أولهما من اليمين على خطين وهدفه الاستيلاء عل المرتفعات للنزول فيما بعد نحو الواحة، وينطلق ثانيهما من اليسار، وكان عليه أن يسير في خط للانتشار أسفل كثيب رملي.

وعلى الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة فتحت المدفعية نيرانها على القصبة الشمالية–قصبة العرب– على مسافة 1175 متر، بقصف مكثف دون انقطاع حتى فتحت ثغرة مناسبة وقضت على خلق كثير، ثم وجهت المدفعية نيرانها نحو القصبة الجنوبية–قصبة المرابطين على مسافة 900 متر– ثم تقدمت الفرق الفرنسية نحو المنازل المتبقية بعد القصف، لكنها استقبلت بوابل من النيران، وكان قد قتل جنديان مدفعيان منذ بداية المعركة.

كانت مقاومة المحاصَرين عنيدة وشجاعة، رغم علمهم بأن نتيجة المعركة ليست في صالحهم. ولكن قوة الأسلحة والإستراتيجية المستعملة تغلبت على فرقة تعودت أن تقاتل في فرق صغيرة وبأسلحة تقليدية.

وعلى الساعة الواحدة زوالا أعلن باشا تيمي الاستسلام برفع الراية البيضاء، فتوقف القصف وأدى موقف الباشا هذا إلى استسلام كل المدافعين عن القصر، وكانت نتيجة المعركة قاسية على أهل القصر، قدرها الفرنسيون كالتالي: 600 قتيل من المدافعين عن بلدة إينغر وعدد من الجرحى وما يقرب من 450 معتقلا من بينهم الباشا، إلى جانب 20 من زعماء وكبار القوم. وقد قتل من الفرنسيين 10 جنود وتم جرح 46 آخر من بينهم ضابطان. واستولى

[101] كان سكان القصرين(قصر العرب وقصر المرابطين) يقيمون إلى عهد قريب احتفالا بذكرى المعركة يسمى السابعة. حسب الرواي السابق الذكر الشقة الطيب.

الفرنسيون على بندقية من نوع 1886 وبعض البنادق من نوع وينشستر.[102]
وسقطت إينغر بيد المقدم دو D'EU، ومنذ هذا التاريخ أصبحت تاديكالت كلها بيد الفرنسيين.[103]

وقد أبرم القائد الفرنسي معاهدة صلح مع أهالي إينغر نصت على ما يلي:

1-على أعيان وشيوخ القبائل الاستسلام مقابل حمايتهم من البرابر الذين كانوا يهاجمونهم باستمرار.

2-ألا تتدخل القوات الفرنسية في شؤون السكان من دين وعادات.

3-أن يعين الفرنسيون قائدا على البلدة بموافقة الأعيان وشيوخ القبائل، وقد تم تعيين ابابه الذي باركه أعيان البلدة.

وفي السادس من شهر أبريل سنة 1900 عاد الطابور إلى عين صالح وتم استجواب باشا تيمي وأعيان بلدة إينغر الذين أرسلوا إلى الأغواط، ثم أعيدوا إلى بلدهم.

وفي 10 ماي دخل الطابور بلدة المنيعة بعد أن ترك حاميات عسكرية في كل من عين صالح وإينغر وتيط.[104]

وهكذا أدت معركة إينغر إلى إخضاع بقية واحات تاديكالت وتوات، وانتهت المعركة التي كانت أكثر دموية في تاريخ الصحراء، كما نعتها الفرنسيون أنفسهم.

وقد خلد الشاعر الشعبي عبد النبي بن محمد بوتقي وقائع المعركة في قصيدة طويلة جاء في بعض أبياتها ما يلي:

---

[102] بعد المعركة تم إحصاء رمي 136 قذيفة مدفعية و12000 خرطوشة..

[103] أنظر: René pinon, P/233.

[104] IBID, P/233.

ابْعَــثْ بوشاطــته يطلب التسْيار[105]. وخلْــفْنا باليْــمِين لا صارَتْ عَنّــا
في أول رمْضان يُومْ جَمْعة آخر النهار قــلــنا لــه اللــي غْــدا ياتِــينا
وضْرَبناه من البَعد ورْجَعْ عْلى الادْبارْ ومْشَى غَضْــبان مْسَــوَّدْ المغبانــا
وارْقَدْ مُــوتاهْ فــوق بيــبان النجار وادْفَــنْهُم قبْــلة عين صالح جبّانــا
قْتَــلنا مَنْهم ثــمانــية الا قبطــان وعسكر وسْوِيرْيان[106] شِي ما سَوَّلنا.

ويذكر دور أحد العملاء الذي دعم الفرنسيين وكان دليلهم في المنطقة، وهو الذي يسميه "بوشاطته"، ويقول:

وارسل بوشاطته لَسْوَيْده[107] جنينار واجْمَعْ له القومان وجا مْفزّعْها لينا[108]
من قسنطينة إلى الجَزايَرْ وتلمسان وحْشَــدْهــم كامْلين وَاتى بِهُم ليــنا
حتى الباقور والغنم وحمــير كبار وتســمع حس الزّهِير[109] عَنْد الحنانا.

ويخلص إلى النتيجة التي انتهت بها المعركة ويقول:

مات زعــيــمنا وانقــطعت الاخــبار وخَلانا طايْحِين في هذا الطاجينــــا
ماتت الاطــفال مْعَ النسا وَشْيوخْ كْبارْ بالجُمْلة في الحفير راهُم مردومــــا
طاحَتْ الاسوار كلها وانْهَزْمَت الابطال وعادَتْ هذا البلاد خَرْبَة بَيْن الديار
وَايْنْ جْوامَعْ وَايْنْ خَمْــسات التــكْرار وَايْنْ قصابْ واش فيهُم مَنْ خَزْنَة
عــادوا كامْــلين في ايْدْ المَــزْنَة[110] وهذاك اللي امْكَتّبْ عْلِينا مُولانَا.[111]

---

[105] يقال سَيَّر بمعنى استسلم. والتسيار هو الاستسلام.

[106] سويريان تصغير لكلمة ساريان: يظهر أنها تحوير لكلمة Saharienne، وهي فرق مجندة من الجزائريين.

[107] سْوَيْده: تصغير لكلمة سيده وهذا للتحقير. وسيد بوشاطته هنا هو الضابط الفرنسي "جنينار".

[108] مفزع: في العامية تعني استنفر والقصد أن هذا العميل استنفر العدو إلينا.

[109] الزهير في العامية هي الأصوات الكثيرة. وهو يعني هنا أصوات آلات العدو الحربية من سيارات ومدافع وحتى أصوات العسكر.

[110] المزنة والمزان هم العملاء. وتستعمل الكلمة في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر أيضا.

وهكذا صاحَبَ الشعر حياة الناس في مقاومتهم للاستعمار، فعبر عن وجدانهم وصرح بآلامهم وآمالهم، كما أن سكان منطقة تاديكالت ما يزالون يتداولون وقائع معارك أسلافهم وبطولاتهم ضد الاستعمار الفرنسي.

[111] القصيدة للشاعر الشعبي عبد النبي بن محمد بن موسى المتوفى حوالي سنة 1920، وهو خال والد الراوي الشقة الطيب، أخذها هذا الأخير عن والده، وهو من عائلة بونقي. وتتكون القصيدة من 26 بيتا.

ملــحــق

نبذة من تاريخ عين صالح "أهل عزي"[112]

1-قصر المْرابطين

في القرن الرابع الهجري-11 ميلادي أسسه المرابطون من بني الحاج بلقاسم الموجود ضريحه بتيط شمال قبة أخيه عزي الحاج الشيخ عبد الرحمان، وهما الذان تمركزا بتيط عند رجوعهما من أداء فريضة الحج. أبوهما الحاج عبد الرحمان عزي صاحب القبة المشهورة بـــ "فنوغيل" قطنوها بعد إتيانهم من تافيلالت بالمغرب الأقصى، وقد وفدوا إليها من الحجاز والتي غادروها عندما مكثوا بها قليلا نتيجة سوء معاملة الأسرة المالك لهم آنذاك، وهم من سلالة سيدي محمد بن الحنفية بن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبن عم وخليفة الرسول صلى الله عليه وسلم، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزا له عن أخويه الاحسن والحسين.

سيدي محمد بن الحنفية هو الذي دعا لابنه مؤسس هذه القبيلة بقوله: "من أعززته أعزه الله ومن أهنه أهانه الله". وبهذه العبارة برز عُزّى(بضم العين وتضعيف الزاي والألف المقصورة). أما فيما يخص كلمة عَزّي بفتح العين وتضعيف الزاي بالكسر لتسهيل النطق محليا، وفي حي أولاد بلقاسم توجد قبة 70 صالحا أبناء عُزى، وهي عدد أولياء الله الصالحين من أبناء عُزى، و لم يكن بداخلها أي ضريح طيلة ثمانية قرون، في أول الأمر أبناء الحاج بلقاسم حاولوا

[112] مطبوعة يحتفظ بها الراوي الشقة الطيب، مرقونة بالآلة الكاتبة باللغتين العربية والفرنسية.(منقولة حرفيا)

عدة مرات أن يأتوا بجثة أبيهم من تيط ولكن برهان عمهم الحاج الشيخ منعهم، وهذا في حياته.

2-قصر العرب

في القرن الخامس الهجري -12 ميلادي أسسه المحامير بجانب قصر المرابطين/ رئيس المحامير هو اعمر بن ملوك استقر إلى جانب المرابطين وأسس قصر العرب. أنجب ثلاثة أولاد: با حمو -بابا عيسى -المختار، أتوا من الجبل الأخضر شرق بنغازي بليبيا، استقروا بعين صالح. أولاد باجودة فرع من أولاد با حمو كان لهم تأثير ديني كبير استثمره السلطة ملك المغرب إبان زعمه بأن المنطقة جزء من مملكته، وكانت تتداول بين ورثته(خلفائه) وحتى أثناء دخول الاستعمار الفرنسي جعل منهم قائد.

3-إينغر

اسم بربري لواد فسيح منعم بكل الخيرات وسط هضبتين(روضة) شعبها ذو شجاعة قوية ومتمسك بروح الإسلام والدفاع عن الوطن، الشيء الذي أدى به لمقاومة الاحتلال الفرنسي في عدة مجاهات أذكر منها: ضربة الفقيقيرة ومعركة الدغامشة وإينغر التي كبدت العدو خسائر فادحة في الأرواح، وتاريخ سقوطها يوم 10 مارس 1900. في أول الأمر مكث فيه عبيد فقدوا سيدهم حتى أتت قبيلة أولاد خليفة من عين الشعير بالمغرب الأقصى حوالي 1770م، وبعدها أتت قبيلة امحمد حدقي من أهل عين صالح سنة 1790م وأصبحت إينغر معمورة بعدة قبائل أتت من كل الجهات.

4-الساهلة التحتانية

أسسها أولاد دحيمين وهم مرابطون وشيخهم سيدي باسه.

5-الساهلة الفوقانية

حوالي سنة 1700 قطنتها قبيلة أولاد يحي، وهم بدو رحل أتوا من دلدول قورارة (تيميمون)، جدهم الشيخ موسى ذو قوة، تحالف مع التوارق وأبرموا الصلح على يد باجودة.

6-حاسي الحجر

حوالي سنة 1730 أسسه أولاد دحمان، أصلهم مغاربة وعندما هاجروا من المغرب تمركزوا في تيمي(أدرار) حتى أتتهم فصيلة من أعوان ملك المغرب أرغمتهم على مغادرتها. أولاد دحمان عارضوا دائما ولم يقدموا ولاءهم لباجودة.

7-فقارة العرب

أسسها أولاد المختار وهم محامير. والمختار هو أحد أبناء اعمر بن ملوك الثلاثة.

8-فقارة الزوا

سيد الحاج امحمد ابن سيدي الحاج بحوص تمركز في الساهلة الفوقانية حوالي سنة 1720م أين بنى قصر الزاوية وهو ابن الأبيض سيدي الشيخ من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم. حوالي سنة 1795م أسس أحفاد سيد الحاج محمد الزاوية الكبيرة التي أعطت نشأة فقارة الزوا.

وفي النهاية ابان الاحتلال الفرنسي:كانت منطقة عين صالح إبان آنذاك يحكمها خمسة أعراش:

-أهل عزي: يحكمها القائد بيلو، (وهو من أهلها)

-أولاد باحمو: يحكمها القائد السنوسي (وهو من غير أهلها)

-إينغر: يحكمها القائد ابابه وبعده القائد واني (وهما من غير أهلها)

-أولاد المختار: يحكمها القائد لحرش (وهو من أهلها). أولاد المختار تضم الضايا وفقارة العرب.

-أولاد يحي: يحكمها القائد الدور(كذا) وبعده القائد قدور (وهما من أهلها)

-أولاد يحي تضم: الساهلة التحتانية والفوقانية وحاسي الحجر وإيغوسطن والفقيقيرة.

خامسا :الأمير خالد بطل الجزائر

برز الأمير خالد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى على إثر ترأسه للوفد الجزائري الذي سافر إلى باريس لتسليم المطالب الجزائرية للرئيس ولسن في مؤتمر الصلح سنة 1919. وكان قد غادر الجيش الفرنسي برتبة ضابط أهلي. وعاد إلى الجزائر لينشيء "كتلة المنتخبين الجزائريين" من أجل المطالبة بإصلاح أوضاع الجزائريين الإجتماعية. وقد واجهه المستوطنون بالمعارضة الشديدة، وكان مصير الأمير خالد الطرد من الجزائر، فالتجأ إلى مصر. وفي سنة 1924 سمحت له الحكومة الشعبية اليسارية التي تولت الحكم في فرنسا، بالعودة إلى فرنسا. وهناك عمل على الإتصال بالزعماء المغاربيين من أجل توحيد الجهود لمواجهة العدو المشترك. لكن السلطات الفرنسية كانت له بالمرصاد ونفته إلى دمشق بسوريا التي بقي بها إلى وفاته سنة 1936.

يعتبر الأمير خالد من أبطال التاريخ الجزائري وزعيما من زعماء الكفاح التحرري في العالم العربي وإفريقيا، استطاع أن يشد الإنتباه إلى حركته زمنا كان الكلام فيه ممنوعا، فساهم بدور أساسي في نهضة سياسية واجتماعية كبيرة.

فما مدى هذه البطولة التي اتصف بها هذا الرجل الفذ؟

بطولة الأمير خالد:

البطولة غَلبة يرتفع بها الشخص عمن حوله من النـــاس العـــاديين ارتفاعا يملأ نفوسهم له إجلالا وإكبارا. والبطل هو ذلك الشخص المميز الذي كثيرا ما خلق منه الوجدان الشعبي مثاله ونوذجه في الحياة، أي لمـــا ينبغـــي أن يكون عليه الإنسان عامة. وميزة البطولة أو الزعامة أنها توحد الأمة وتشد زمام الشعب حول هذا الرمز.

وقد وُجد في التاريخ العربي أبطال نوذجيين بما أحيطوا به من قدرة وطاقة وفضيلة في السلم والحرب على السواء. ذلك أن الفروسية العربية، مثلا، لا تقوم دائما على تلك الشجاعة العضلية التي تَبرز وحدها في الميدان، ولكنها شجاعة مقرونة بالفضائل والمثل التي تحددها أطر الفروسية العربية ذات المضمون الأخلاقي التي تحقق لصاحبها حتمية النصر في النهاية مهما بلغ خصمه من قوة جسدية أو شجاعة عضلية.

ويحتل زعماء المقاومات المسلحة في تاريخ بلادنا مكانة رفيعة في الأوساط الشعبية باعتبارهم فرسان الميدان، المدافعين عن الحمى ضد العدو الغاصب الكافر، هؤلاء الذين ما تزال الذاكرة الجمعية تذكر مآثرهم وتتغنى ببطولتهم. "لقد أدت ظاهرة البطولة هذه إلى تأمين تماسك المجتمع خلال الأزمات الصعبة، لأن البطل يعزز اللحمة بين الأفراد، إذ هو يغذي بنسقه الجماعة ككل ويوحدها لهدف مشترك عام، يقبله الجميع ويقرون به."[113]

والبطل الذي يحبه الشعب يعيش في وجدانه فيجسد الشعب أحلامه وتطلعاته في ذلك البطل للتخلص من الوضع المزري الذي يعيشه.

إن بروز الزعامة الوطنية الجزائرية لم يكن سهلا أبدا في مرحلة السيطرة الاستعمارية، فشيوخ القبائل الكبيرة والعشائر وبعض شيوخ الطرق الصوفية والمستفيدون من امتيازات السلطات الحاكمة لن يقفوا مكتوفي الأيدي، لأن مثل ذلك سيفقدهم مكانتهم بين الناس، ويخسرون ما حصلوا عليه من امتيازات مادية أو معنوية تمتعوا بها طويلا، لذلك فإنهم سيعملون على الوقوف أمام هذه الشخصيات القائدة، وقد يصل الأمر بالكثير منهم وفي الكثير من

---

[113] علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت 1982، ص: 36.

الأحيان إلى مد يد العون للسلطات الاستعمارية للقضاء على هذا المغامر الذي يريد أن يصبح زعيما.[114]

أما المستعمر الحاكم فهو لا يرغب ولا يريد أن يجد رجلا يتزعم الأهالي، يوحدهم وينظمهم، يوقظهم من نومهم العميق، يشد أزرهم ويقودهم إلى الأفضل والأحسن، لذلك سيعمل المستحيل من أجل تشويه هذه الشخصية أمام الجماهير الشعبية، وسيزرع العقبات الشكلية والملموسة أمام هذا الزعيم، لا لشيء سوى لإسقاطه في فخ الخارج عن القانون وإبعاده من مجال سلطته وهيمنته.

ظروف ظهور الأمير خالد

لقد ظهر بطلنا الأمير خالد في فترة خرجت فيها الدولة الفرنسية منتصرة على أعدائها عسكريا، فترة كانت قد فقدت فيها المقاومة الجزائرية فعاليتها بعد أن جثم الاستعمار على الأرض الجزائرية، وأتم فيها تفكيك بُنَى المجتمع الجزائري وتفتيته، وقضى على مختلف الزعماء نفيا أو قتلا، وسيطر نهائيا على القطر الجزائري من أقصى سواحله الشمالية إلى أقصى جنوبه في مداخل الصحراء الكبرى، وانتشر مستوطنوه في كل مكان يستترفون موارد البلاد وينهبون مقدراتها.

ظهر الأمير خالد بعد الحرب العالمية الأولى، فأعطى للجزائر قيادة جديدة وفعالة خلال العشرينيات. وبهذا فإن عقد العشرينيات تميز "بولادة الحركة الوطنية في شكلها العصري الممثلة في الأمير خالد وبتأسيس نجم شمالي إفريقيا."[115]

---

[114] وقع مثل هذا للأمير خالد حين وقّعت مجموعة من الجزائريين الموظفين الزعماء على تصريح بالموافقة على نفيه من الجزائر(عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، ص: 474.)

[115] عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثه 1983، ص: 133.

وكان الأمير خالد المدافع والناطق الرئيس بلسان الجزائر المقهــورة، فهو وريث الماضي ومبشر المستقبل في آن واحد.[116]

أسلوبه في المواجهة

لقد واجه الأمير خالد الاستعمار بأسلوب جديد غيْر أسلوب الحرب الذي تميزت به مرحلة القرن التاسع عشر، إنه الأسلوب السياسي الذي ستتميز به مرحلة النصف الأول من القرن العشرين إلى قيام ثورة أول نــوفمبر 1954 الخالدة.

إن بطولة الأمير خالد لم تكن بطولة تهور وتسرع، بل كانت بطولة تعقل وسياسة. لقد خبر العالم وعرفه، فعمل في اتجاه يمكّنه من تثبيت أقدامــه ويسمح له بالإنطلاق نحو تحقيق مصلحة الأمة التي ينتمي إليها قلبا وقالبا.

لقد فرض الأمير خالد نفسه كبطل على عصــره وجيلــه فرضــا، وأصبح هذا البطل شيئا مميزا في تاريخ الجزائر، وبذلك أصبح شــيئا كائنــا في عصره، لأن من لا يكون شيئا في عصره لا يكون شيئا في العصور التي تليــه؛ فقيمة الشخص في تواجده في عصره وفي بيئته وفي كفاحه في ذلك العصر وتلك البيئة، وبذلك يكون جديرا بها. وهكذا برهن الأمير خالد على أنه ابن عصــره حقا وأنه أحبه بنكران ذات وأفنى نفسه لأجله.

نسبه ومؤهلاته

إن انتماء بطلنا إلى هذا الوطن العزيز وإلى هذا الشعب الأبي جعلــه يدرك مدى ما يقاسيه أفراده من ذل وقسوة وحرمان، فالمظالم طاغية والحقوق منعدمة والأحكام جائرة، فخرج إلى الميدان يُعلي صوته صارخا أن أنقذوا هذا الشعب. "لقد رأى خالد نجمه يعلو نهاية الحرب لاعتبارات تعود إلى أنه كــان

---

[116] انظر: Djeghloul abdelkader, Elements d'histoire culturelle algérienne, ENAL; Alger 1984, P/233.

من نسل الأمير عبد القادر، وأنه كان عارفا بالحضارة الإسلامية والأوربية، وأنه كان محاربا قديما، قضى زمن الحرب على الجبهة الأوربية."[117]

هكذا كانت للأمير خالد عدة مؤهلات سهلت له تقلد الزعامة في تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الجزائر، إن ذكرى جده كانت ما تزال في ذاكرة الشعب تحي في نفوس الأفراد ذكرى الآباء والأجداد الرافضين للذل والهوان، الباذلين جهودهم لصالح هذا الوطن وهذا الشعب. إن نسبه المرتبط بجده، رائد الكفاح المسلح، سهل عليه اكتساب شعبية معتبرة، وأمده بطاقة خلاقة يشق بها طريقه الصعب. لقد هيأت الأقدار الأمير خالدا لأن يكون له شأن، إنه وُلد حفيدا للأمير عبد القادر، ونشأ في وسط عائلي يطغى عليه احترام القيم والمثل العليا، وتذكره المأثورات العائلية بذلك المجد الخالد الذي سطره جده مع الخالدين من قادة هذا الشعب الأبي. في ظل هذه "الصورة الأميرية السامية، التي تجر وراءها ذكريات حية راسخة، عن مقاومة مجيدة باسلة، والسمعة التي زادتها أسطورة الشرق تضخما، وجد الفتى خالد، وعيناه تتقدان ذكاء وتتحرقان شوقا إلى المعرفة ومزيد من الإصلاح لدى جده رئيس الأسرة المالكة، شخصية القائد الذي لا يكل ولا يمل، والفيلسوف الورع الجذاب، والشاعر الذي يصغي إليه الفرس والفروسية معا."[118]

لقد استلهم الأمير خالد بطولته من جده رائد المقاومة الجزائرية في العصر الحديث مثلما استلهمها جده من أسلافه من عرب الجزيرة العربية الذين هدتهم الفطرة إلى لون من الحياة فتكونت لهم فيها بداوة وفيها فطرة، وتميزت لهم أخلاق فيها بأس وفيها شدة.

[117] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، ش و ن ت، الجزائر 1983، ص: 381.

[118] بوعلام بسايح، الأمير خالد حفيد عبد القادر، مجلة الثقافة، العدد 97، يناير/فبراير 1987، ص: 8.

وعندما ظهر الإسلام بدأت الفتوحات شرقا وغربا، فظهر أبطال للجهاد في سبيل نشر دين الإسلام، وصار الواحد منهم يعدل أمة في رجولته ورجاحة عقله ونفاذ بصيرته وتمام فتوته. وهكذا فتح هؤلاء الأبطال البلدان بأخلاقهم وهديهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وغلبتهم، هؤلاء هم القدوة وهم المثال. قال عليه السلام: "أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم."

وإذا كان الأمير خالد قد استبدل بطولة الحرب والطعان ببطولة النضال بالقلم واللسان، فإن ذلك ليس جبنا وتخاذلا، ولكنه التقويم الصحيح للظروف والمواقف وتكيف معها. لقد اختار خالد ميدان الشرعية، أي مواجهة الاستعمار ومفاجأته باستعمال الأسلوب نفسه والرجوع إلى مؤسساته الخاصة.

لقد خاضت الجزائر "سلسلة طويلة من الحروب لمقاومة الغزو الفرنسي تحت راية الزعامة الدينية أحيانا أو بدافع المحافظة على تراث القبيلة أحيانا أخرى، فلما جثم الاستعمار بكلكله في عهد الجمهورية الثالثة وتحطمت أركان المجتمع القديم.. استؤنف النضال على المستوى السياسي قبيل الحرب العالمية الأولى."[119]

لقد كان الشعب الجزائري مجبرا على تغيير وسائل كفاحه، من الكفاح المسلح إلى أسلوب النضال السياسي عن طريق إنشاء النوادي والجمعيات وتقديم العرائض والكتابة في الصحافة وغير ذلك من الوسائل السلمية. وهكذا كان الأمير خالد معبرا عن هذا الإتجاه وموجها له في سبيل الإعلاء من مكانة الشعب الجزائري ومحاولة إجبار السلطات الحاكمة على تغيير وجهة نظرها التحقيرية تجاه المواطن الأهلي.

---

[119] صلاح العقاد، المغرب العربي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1982، ص: 311.

ميادين نضاله

برز الأمير خالد كزعيم وطني خلال عام 1919، عندما دخل الإنتخابات البلدية، فحصل على 940 صوتا، مما أهله لأن يكون ناطقا باسم الشعب، وهكذا تجلت سمعته ومكانته في الأوساط الشعبية التي آزرته وشدت عضده واستعدت للسير حيث يسير واكتسحت تحت قيادته كل من أراد التعرض له في ميادين الإنتخاب. ونَظم اجتماعا شعبيا طلب فيه من المشاركين التوقيع على مذكرة موجهة إلى الرئيس الأمريكي ويلسن، هاجم فيها الاستعمار الفرنسي وطالب فيها بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه.

إنها الشجاعة عماد الفضائل، شجاعة جعلت من ضابط أهلي صغير يتجاسر للوصول إلى أكبر تجمع دولي في أكبر دولة استعمارية آنذاك، كيف أمكنه أن يفعل ذلك لولا ميزات الأنفة والكبرياء وروح التضحية والفداء التي اتصف بها بطلنا الزعيم. لقد فرض الأمير خالد نفسه على وجدانه وعلى محيطه، جزائريا كان هذا المحيط أم فرنسيا.

وفي سنة 1922 أسس الأمير خالد جريدة الإقدام ليفصح عن مطالب الشعب في الحرية والكرامة ونبذ الظلم والحقارة من قبل المستعمر إدارة ومعمرين، فكان لمقالاته دور بارز في الحياة السياسية لذلك العهد. لقد اتسم بطلنا بقدرة كبيرة على التأثير في الآخرين.[120] وتمكن من شد أواصر الجماهير بخيط ملتهب قابل للإنفجار عند الضرورة، فيه من العقلانية رصيد ومن اللهب رصيد، وكان عليه أن ينمي إرادة الجزائريين في التحرير، ويجعل منهم أناسا حقيقيين بعد أن أذلهم الاستعمار.

---

[120] كسب تعاطف عدد من من الأحرار في فرنسا وحتى في الجزائر أمثال فكتور سبيلمان من جريدة تري دي نيون، والناشر باريكاند.

لقد رفعت جماهير الشعب قائدها البطل إلى مقام الزعامة ووقفت إلى جانبه تسنده وتسير معه مندفعة بحماس فياض، أعاد إليها الإحساس بالكرامة وتحقيق الآمال المكبوتة في النفوس منذ أجيال. وأصبح البطل خالد رمزا للنضال والكفاح في نظر شباب الجزائر كمثل يحتذى به للعمل على استمرارية كفاح أبطال سبقوه ما تزال ذكراهم تستثير في قلوب السكان المقهورين آمال الشعب الرافض للإستسلام.

لقد كان صراع الأمير خالد ضد الظلم والإستبداد وضد الجبن والإنكفاء والضعف، هو صراع لما هو سيء ولأجل ما هو أحسن، هو مقاومة للواقع ضد كل جمود في سبيل التغيير لما هو أفضل.

لقد دافع الأمير خالد عن الشخصية الجزائرية ورفض الإدماج الذي كانت تطالب به فئة من الجزائريين بغرض الحصول على حقوق المواطنة، ورفض ذلك رغم ثقافته الفرنسية العالية وانتمائه إلى جماعة النخبة المتأثرة آنذاك بالحضارة الغربية، رفض الإدماج لأن أصالته كانت أرجح وأثبت في وجدانه وحياته.

لقد صرخ ذات يوم عندما كان طالبا بمدرسة سان سير العسكرية عام 1893 قائلا: إنني عربي وأريد أن أبقى عربيا، لا أتخلى أبدا عن قناعاتي ومطامحي.[121]

موقف السلطات الفرنسية

هكذا كان للأمير خالد دور كبير في جمع الطاقات الجديدة في الجزائر المحتلة، فما موقف السلطات الاستعمارية من ذلك الإنتصار الذي حققه الأمير خالد؟ لقد هالها ما حققه الأمير خالد من نصر، فراحت تكيد له بوسائل

[121] بوعلام بسايح، المرجع السابق، ص: 8.

المكر والمؤامرة، وشنت عليه صحافة المعمرين حملة شعواء متهمة إياه بالتطرف والخطر والقيام بنشاطات معادية لفرنسا. لقـــد أرهبـــت الإنتخابـــات الإدارة الفرنسية وأخافتها من إمكانية القضاء على نفوذها في الجزائر، فســـارعت إلى إلغاء نتائج الإنتخابات بدعوى عدم كفاءة مرشحي الحزب. وانتهت الحملـــة ضد الأمير خالد إلى إجباره على مغادرة الجزائر للإستقرار بالمشرق العربي بعد تقديم استقالته من عضوية المجالس المحلية.

وقبل أن يغادر الأمير خالد الجزائر كان له موقف بطـــولي يتســـم بالشهامة والكبرياء، أبرز من خلاله شيم الفروسية النبيلة، لقد عرضت عليـــه الإدارة الاستعمارية، على يد الحاكم العام (م. ستيغ)، مركزا عاليا يليق بمقامـــه إن هو توقف عن القيام بأية إثارة سياسية. فكان رده صريحا واضحا، حيث قال للحاكم العام: "إن اقتراح حكومتك مهين. إني أرفض رفضا باتا كجزائـــري مسؤول انتخبه الشعب، وأبقى مخلصا للجزائر."[122]

ونتيجة لهذا الموقف المفعم بالوطنية قرر الحاكم العام تطبيق أوامـــر حكومته بنفي الأمير خالد نفيا مؤبدا عن الجزائر وانتقل الأمير خالد وعائلتـــه على ظهر سفينة حملته إلى مدينة الإسكندرية بمصر سنة 1923.

وهكذا يتبين لنا كيف كانت سلطات الإحـــتلال تنـــاور وتقـــدم العروض والمغريات، مغريات المهانة والخضوع لإبعاد زعماء الحركات الوطنية عن أهدافهم، فعلت هذا مع من ثاروا ضدها خلال القرن التاسع عشر، وهـــا هي تعيد الأسلوب نفسه مع زعماء القرن العشرين. وإذا كانت قد وُفقـــت في ذلك أحيانا فإنها لم توفق مع الأبطال الحقيقيين ممثلي الشعب الحقيقيين في أحيان أخرى.

---

[122] عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، دار الثقافة، بيـــروت 1980، ص: 474.

لم يضعف الأمير خالد إذن و لم تلن عريكته أمام تهديدات السلطات الفرنسية وأمام عروضها المشينة الداعية إلى خيانة القضية الوطنية والتمتع بالمنصب والجاه، بل واصل نضاله خارج الوطن بعد نفيه، وعندما سمح له بالإقامة في فرنسا سنة 1924 جدد نشاطه هناك،[123] واتصل بالجالية الجزائرية ينظمها ويعبئها للمطالبة برفع المظالم عن الشعب، وألقى عدة خطب، وقدم العرائض إلى رجال الحكومة بباريس الداعية إلى المساواة في الحقوق والواجبات والإهتمام بقضايا المواطنين الجزائريين، وقام بعدة اتصالات مع الحركة العمالية الفرنسية وبالحركة العمالية العالمية.

ونتيجة لمواقف الأمير خالد الصلبة قامت حملة فرنسية شعواء تبين الأخطار المحدقة بفرنسا، والتي يثيرها "حفيد عدو فرنسا"، كما عبر عن ذلك نائب قسنطينة مورينو في تدخله، ووجهت إلى الأمير عدة تهم وصف فيها بمختلف الأوصاف المعادية لفرنسا.

الأمير خالد في المنفى

ولقد وسع البطل خالد نضاله ليشمل كافة أقطار المغرب العربي. لقد كانت نظرته أوسع من الوطن الصغير إلى وطن إقليمي أوسع تسيطر عليه القوة الاستعمارية نفسها، فكان اتصاله بالأمير عبد الكريم الخطابي من أجل توحيد الجهود للدفاع عن بلاد إفريقيا الشمالية كلها أدى إلى تهجيره آخر الأمر إلى البلاد السورية عام 1925،[124] وهو معلق الجسد والفكر تجاه وطنه العزيز. وهكذا "فإن حركة الأمير خالد لم تمت نتيجة نفيه واعتقال أصحابه وعزل

[123] تولت الحكومة اليسارية بزعامة إدوارد هيريو.

[124] اتهم بحمل جواز سفر مزور ومحاولة الهرب من منفاه إلى أوربا.

حزبه، فقد استمر خالد، سواء في باريس أو في المشرق الأدنى، في إبقاء شـعلة نار الحركة الوطنية والإيحاء إلى أتباعه بحملها إلى الأمام."[125]

ولم يكن مكوثه هنا أو هناك بعيدا عن وطنه مأساة يقاسـي فيهـا مختلف أنواع الهموم والأحزان، بل كانت بالنسبة إليه أوضاعا يجد فيها سـعادة وشرفا، وهذا ما جاء في إحدى رسائله: "إني لسعيد فيما قاسيته في سبيل الوطن ولا يزيدني ذلك إلا قوة وأملا وفخرا وشرفا..."[126]

الشعراء يخلدون خالدا

لم يكن الأمير خالد سحابة صيف زائلة، بل كان لبنة من لبنات هذا الوطن العزيز، سجل اسمه في سجل الخالدين، وترك بصماته في مختلف مظـاهر حياة الشعب الجزائري، فتغنى بمجده الشعراء، والشعر وسيلة لتمجيد مواقـف الأبطال النبيلة، يصاحب قضايا الناس فيأخذ ويسجل، والشعر للأمة "هو وحده سجل فخرها وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها."[127]

وها هو الشاعر الجزائري محمد السعيد الزاهري يقول في إحدى قصائده، بعد أن تم نفي الأمير من الجزائر:

ألا يا بني شعب الجزائر بدرنـا ... تبلـج ثـم لم يـدم أن تـغيـبا
سلام على شعب الجزائر بعدما ... نـأى عنه من كان العذيق المرحبا
سلام علـيه بعدما بان خالـد ... سلام علـيه بعـدما انحلت الحبا
تنأى ولكن ليـس يبرح خالدا ... جمـيل ثناياه بينـنا ضاربا خبا.[128]

---

[125] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 293.

[126] عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص: 479. جاء ذلك في إحدى رسائله إلى أحـد أصدقائه.

[127] زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف بمصر 1961، ص: 6.

[128] عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص: 474.

أما الشاعر محمد العيد آل خليفة فقد رثى الأمير خالدا غداة وفاته سنة 1936 بقصيدة رائعة جاء فيها:

ما أطول المـوت باعا | لم يخش حق السباعا
سطا علينا بسوط | من القضاء فراعا
وأودع الترب نجما | منه اقتبسنا شعاعا
وصارماً هاشميا | به هشمنا القلاعا
اليوم يا قلب فاهلك | تحسرا والتياعا
واليوم يا طرف فاذرف | منك الدموع تباعا
ابك الزعيم المفدى | ابك الأمير المطاعا
ابك الكريم المسجى | ابك الغيور الشجاعا

إلى أن يقول:

قل للجزائر أدّي | حق الزعيم المضاعا
هلا اصطنعت جميلا | لدى الجميل اصطناعا
هلا ذكرت كفاحا | مضى له وصراعا
كم ذاد عنك وقاسى | فيك الأذى والنزاعا
وكيف ناب وُثوبا | بصدقه واقتناعا
وكيف نادى فدانت | له الرؤوس اتباعا.[129]

هكذا مجد الشعراء مواقف البطل، كما مجده الشعب في واقعه ووجدانه، وذكروا ما كان أهلا له، فخلدوه مع الخالدين، وأصبح حري بنا نحن اليوم أن نقدم للأجيال الصاعدة صور بطولة الآباء والأجداد، حتى نربط بين حاضرنا المرموق وماضينا التليد، وحتى يجد النشء في سيَرهم الحافلة مُثلا عليا يعجب بها وينسج على منوالها فيظل النور منبعثا من الماضي يضيء الطريق للسائرين نحو مستقبل أفضل.

[129] ديوان محمد العيد آل خليفة، ش و ن ت، مطبعة البعث، قسنطينة 1967، ص: 463 و464.

سادسا : الــدور النضالي للحركة الإصلاحية

عانت الجزائر، خلال العهد الاستعماري، من محاولات المسخ والتشويه لمقوماتها الشخصية تمهيدا لدمجها في الوطن الفرنسي. وفي هذا المجال قضت السلطات الفرنسية على المراكز الثقافية التي كانت مزدهرة في عدة مدن جزائرية، وأغلقت مدارس التعليم بمختلف مستوياتها، وطاردت المعلمين والمثقفين، وعملت على منع فتح المدارس الحرة إلا بشروط معينة، وفي المقابل فتحت مدارس لتعليم اللغة الفرنسية لتحقيق سياسة تعليمية استعمارية. وكان لرجال الدين المسيحي دور مهم في محاولات نشر المسيحية تحت ستار المساعدة الصحية والغذائية والتعليمية.

ولكن الشعب الجزائري قاوم هذه السياسة الاستعمارية بكل ما أوتي من قوة مادية ومعنوية، فأعلن المقاومة المسلحة خلال القرن التاسع عشر، كما واجهها بمقاومات سياسية وإصلاحية منذ مطلع القرن العشرين.

وتعتبر الحركة الإصلاحية التي تمثلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أبرز المقاومات التي حملت مشعل التغيير والثورة في القرن العشرين. لقد وضعت الجمعية نصب عينيها الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري هدفا تسعى إلى تحقيقه لتحصين الأجيال وإعدادها للمستقبل من أجل تحرير الجزائريين من ربق العبودية والإستغلال.

ظهرت الحركة الإصلاحية في وقت اطمأن فيه المستعمر على فريسته، واحتفل بمرور قرن من الزمن على ذلك الإنتصار الكبير، وصرح قادته بأن زمن المقاومة قد ولى، وانتهى أمر هذه البلاد وأهلها، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية الفرنسية القوية المتجبرة.

لقد نشأت جمعية العلماء سنة 1931 وصرح زعماؤها بأنها جمعية دينية إرشادية تهذيبية لمحاربة الآفات الإجتماعية، وأنها لا تتدخل في الأمور السياسية؛ إذ جاء في المادة الثالثة من قانونها الأساسي أنه "لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية."[130]

فهل كانت جمعية العلماء كذلك؟ أي ليست سياسية ولا تتدخل في أمور السياسة؟

إن نظرة متأنية إلى منهج الجمعية وخططها المطبقة ميدانيا تبرز حقيقة أهدافها القريبة والبعيدة. لقد وجد علماء الإصلاح أن العمل في الميدان السياسي يعرض أعمالهم للمتابعة والقمع من قبل السلطات الفرنسية مما يعيق عملهم ويحول بينهم وبين مقاصدهم، ووجدوا أنه لكي تنجح الأفكار السياسية لابد أن تبنى لها أرضية صلبة تكون لها منطلقا ودعما، كلما لقيتها صدمات أو أصابها وهن وإحباطات، ووجدو أن التعليم بكل أبعاده هو الأنسب في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر؛ إذ لا قوة لمن لا شخصية له، ولا صمود لمن كان خاوي الوفاض من قوة روحية تزرع فيه الأمل وتنمي فيه الرغبة في النصر. يقول محمد خير الدين وهو أحد الأعضاء الرئيسيين في الجمعية ما يلي: "لقد اختارت الجمعية قبل الحرب العالمية الثانية الطريق الشاق، طريق الإعداد الدائم والحركة المستمرة والمد الزاحف الراسخ المتصل."[131] فلم تهادن الاستعمار الفرنسي ولم تهاجمه صراحة بحرب سافرة، بل عملت على توعية الأمة وتكوين المواطن الصالح وتبصيره بحقوقه في الحرية والإستقلال.

وقد برزت أعمال رجال الإصلاح في مجالات عديدة نذكر منها ما يلي:

---

[130] أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 265.

[131] محمد خير الدين، مذكرات، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر بدون تاريخ، ص: 243.

1-في ميدان محاربة البدع والخرافات

كان رجال الإصلاح قد تعلموا تعليما دينيا متفتحا على العصر، فلاحظوا ما كانت تعيشه بلادهم من تخلف وجهل أدى إلى انتشار كثير من المفاسد والمعتقدات الخرافية أدت إلى سيادة ظاهرة الخنوع واللامبالاة، إلى جانب حياة الفقر والجهل والمرض. وهي حالة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الإبقاء على الوضع الراهن، أما التغيير والتطور فيتم بالقضاء على كل أسباب الوهن بسياسة رشيدة متأنية. وهذا ما "دعا المصلحين إلى ضرورة العودة إلى إصلاح العقائد الاسلامية وشرح المصطلحات، وحل القضايا عى نمط سلفي واضح؛ بصريح نص الكتاب والسنة الصحيحة، لا برأي الجبرية والقدرية وغير ذلك من الآراء الفلسفية.."[132]

لقد كان الناس يلجأون، لقضاء حوائجهم وتفريج كربهم وتحقيق آمالهم، إلى القباب والأضرحة يتمسحون بها. وهم عند زيارتهم لهذه الأضرحة المتميزة يذبحون الذبائح قربانا لتقبل رغباتهم، وفي اعتقادهم أن ذلك العمل هم من الدين الصحيح، وأن تقديس الأولياء وتقديم النذور لهم من أوجب الواجبات، وأن كل خارج عن ذلك هم خارج عن دين الإسلام.

كما ظهرت طرق صوفية عملت على تكريس هذه المعتقدات،ولعبت دورا كبيرا في ترسيخ معتقد القضاء والقدر بطريقة سلبية، كما كانت عونا للاستعمار الذي دعم بعضها لتقوم بتخدير الجماهير الشعبية للقبول بالأمر الواقع، واستمالها المستعمر إليه مغذيا فيها روح التفسخ الديني، وأخذ يغدق

[132] عبد الحميد بن باديس، العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، رواية وتعليق تلميذه محمد الصالح رمضان، منشورات المجلس الاسلامي الأعلى، الجزائر 1424هـ، ص:11.

عليها الأموال في هذا السبيل لإقامة الحفلات والولائم مسيطرا بواسطتهم على جموع المريدين البسطاء.[133]

وقد أخذ العلماء على رجال الطرق الصوفية البدع التي خلقوها كالغلو في الشيخ بالتحيز له وخدمته والخضوع اللامشروط له، إلى جانب اتباعهم لطقوس بعيدة عن الدين الصحيح مثل الخلوة والتوسل والبركة، ولادعاء بعضهم الإتصال مباشرة بالنبي صلى الله عليه وسلم والكشف عن الغيبيات، ورأوا أن ظهور الطرق الصوفية أدى إلى انقسام الأمة وإلى التحزب لهذا وذاك بدل الأخوة الإسلامية الواحدة، وأنهم نشروا بدعا كثيرة كالزيارات وتقديم الهدايا للمرابطين والأولياء. وبذلك ابتعد هؤلاء "عن واقع الشعب ومعاناته اليومية وأصبحوا عن وعي أو غير وعي أداة بيد السلطة الفرنسية لإبقاء الجماهير خامدة سهلة الإستغلال والسيطرة الاستعمارية."[134]

ولهذا رأى زعماء الإصلاح أن محاربة هذه الطرق أمر لا بد منه لأنه انطلاقة نحو مستقبل أفضل، وأن عليهم تعريف الناس بحقيقة الأمور للإبتعاد عن كل معتقد مشين يضعف من الأنفة والعزة والإباء، والوصول بهم إلى الإعتداد بالنفس وطلب العلا.

وهكذا نشب الصراع بين العلماء ورجال الطرق الصوفية في جهات متعددة من القطر الجزائري، واستعمل العلماء المصلحون مختلف ما بأيديهم لتوضيح الرؤيا للشعب الجزائري من خطب ودروس ومحاضرات في النوادي والمساجد والمدارس والصحافة.

---

[133] أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص: 60.

[134] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص:93.

وكان لا بد من أن تتغير الأفكار الخاملة والنفوس الساكنة بالأمر الواقع وتخرج إلى نور العلم والمعرفة بالإعتماد على النفس ومعرفة الحياة على حقيقتها، لأن البقاء للأقوى والأفضل، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. والشاعر العربي يقول في هذا المجال:

وما نيل المطالب بالتمني   ولكن تؤخذ الدنيا غلابا.

وقد عانى علماء الجمعية الأمَرَّين، لأن إزالة المعتقدات الراسخة في الذهنيات ليس بالأمر اليسير، في الوقت الذي كان الاستعمار بوسائله الضخمة يعمل على تشجيع روح الإتكالية والخنوع بدعم أعوانه ومساندهم، وكان الأمر شاق وطويل، يتطلب عقودا من السنوات لنبذ البدع والخرافات ومعرفة الإنسان نفسه لتقييم وضعه، والإحساس بما يقاسيه من مظالم وعبودية، فيعمل على تغيير ذلك عندما يحين الوقت وتدق ساعة الخلاص.

لقد غيّر بعض رجال الطرق الصوفية الأهداف التي نشأ من أجلها التصوف عامة وطرقيته خاصة، والمتمثلة في الزهد في مباهج الدنيا والإشراف على التعليم وإيواء المحتاجين والجهاد في سبيل الله وغير ذلك من الأمور الشرعية، ومالوا نحو قضاء مصالحهم المادية بالتقرب من السلطات الفرنسية وخدمة أغراضها.

وإذا كان رجال الطرق الصوفية قد قاموا بدورهم في القرن التاسع عشر، فإنهم قد تخاذلوا بعد ذلك وأصبحوا وسيلة للتخدير والخنوع. وبذلك كان لابد من تغيير الوضع، فكانت جمعية العلماء هي التي تكفلت بهذا الأمر.

2-في ميدان التعليم بالمدارس والمساجد

اتبع العلماء منهج التربية والتعليم بواسطة فتح المدارس في كل الجهات من البلاد، وتكليف معلمين أكفاء يقومون بدور التأطير على أحسن وجه،

والنتيجة المستخلصة من الرأيين أن هناك علاقة بين اللغة والفكر، وبالتالي فإن حرص علماء الجمعية على تعليم اللغة العربية للنشء، يعتبر جزءا من تكوين أفكارهم وبناء شخصياقم.

أما تعليم الديانة الإسلامية الذي اعتمده علماء الجمعية فلأنهم عرفوا أن الدين هو المفتاح المحرك في أية عملية تحررية أو تطورية للشعب الجزائري "لأن الدين يمثل أحد الأنساق الهامة في الثقافة وإليه يعزى تكامل الثقافة وتجانسها، إذ أن وظيفته الأساسية هي صياغة قوانين السلوك الإجتماعي ومعاييره وتثبيتها."[138]

لقد كان الدين ولا يزال من أهم الروابط التي تربط الأفراد ببعضهم البعض، ويؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ والأدب، لأن الدين بما له من قوة التأثير يولد نوعا من الوحدة في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه، ويثير في نفوسهم العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيرا شديدا.

وعندما يقوم علماء الجمعية ومعلموها بتعليم الدين الإسلامي، فإنهم يذكون في نفوس الأفراد أهم مبادئه الأصيلة وقواعده الثابتة، خاصة وأن الإسلام ليس مجرد عقيدة لاهوتية، و"إنما هو دين ودنيا، حياة وآخرة، منهج وعقيدة ومعيشة، مجال إيمان وعمل، أسلوب عبادة وسياسة."[139]

لقد كان زعماء الإصلاح وعلى رأسهم ابن باديس أولا ثم الإبراهيمي ثانيا، ومعهما ذلك الرعيل من علماء الإصلاح، رجال تربية خلقية ودينية وسياسية في آن واحد، لقد وجدوا أن العمل الديني والتعليمي هو الأنسب في

---

[138] فاروق إسماعيل، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1984، ص: 427.

[139] زكي محمد إسماعيل، الثقافة والشخصية العربية، دراسات في المجتمع العربي، اتحاد الجامعات العربية، الأمانةالعامة، عمان الأردن، شركة شقير وعكشة 1985.

تلك المرحلة، لأنه لا قوة لمن هو خاوي الوفاض من قوة روحية تزرع فيه الأمل والرغبة في النصر.

3-في الصحافة

لقد كانت الصحافة منبرا للجمعية كي تبلغ أفكارها وتنشر آراءها، رغم ما عانته الصحافة الإصلاحية من منع وتوقيف ومتابعة. ولكن رجالها صمدوا وثابروا على العمل بمختلف الطرق لإعادة إنشائها بتغيير أسمائها حينا وبتقديم الشكاوي والعرائض حينا آخر.

لقد قامت الصحافة الإصلاحية بالدور الذي كان من واجبها الإضطلاع به، إذ أن دور الصحافة عامة هو "الإهتمام بالجماعات البشرية وتثقيفها، وتناقل أخبارها ووصف نشاطها وتوجيهها إلى ما فيه خيرها ومنفعتها."[140]

وقد قامت الصحافة بدور مكمل لعمل المدارس والمساجد، فهي تغطي قطاعا واسعا من فئات المجتمع، ويمكنها الوصول إلى أقاصي البلاد شرقا وغربا، كما أنها فتحت صفحاتها للقراء كي يعبروا عن آرائهم ومقترحاتهم، فساهمت بذلك في تحريك الأقلام وسبر أغوار العقول.

كان دور الصحافة كبيرا جدا، فبواسطتها ساهم علماء الإصلاح في يقظة الجزائر الحديثة، وعرّفوا الناس بتاريخهم وأصالتهم، وأزالوا ثوب الغشاوة من على أبصارهم ودفعوهم إلى التقدم في مختلف الميادين. لقد كان ابن باديس، زعيم الحركة الإصلاحية، رجل دين وسياسة في آن واحد في تلك الفترة من تاريخ الجزائر، وكان أكثر واقعية وأصدق حدسا ممن ساهموا في تخطيط السياسة

---

[140] الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، الجزء الثاني، ش و ن ت، الجزائر 1982.

الجزائرية في عصره.[141] لقد "حمل عبء إيقاظ أمة وإنهاض سُنة وإماتة بدعة ومحاربة جهل مطبق ومناوأة مغير قوي ضار غشوم."[142]

لقد عارض العلماء سياسة الإدماج بمختلف الوسائل وفي مقدمتها الصحافة، واعتبروا ذلك خطرا على وجود الكيان الجزائري، كما دافعوا عن الشعب الجزائري عامة وعن أنفسهم تجاه أساليب الاستعمار الفرنسي من جهة، وتجاه معارضيهم وأعوان الإدارة الاستعمارية الذين كانوا يتجسسون عليهم فيحصون تنقلاتهم وخطبهم واجتماعاتهم محاولين ضرب الحركة الإصلاحية من جهة أخرى، باتهامها أمام السلطات الاستعمارية بمختلف التهم كالشيوعية حينا والفاشية حينا آخر وغير ذلك من التهم التي تعرضها للحل وتعرض رجالها للعقوبة.

وهاهو أبو اليقظان يصف الوضع الذي كانت تعيشه الحركة الإصلاحية في مقال افتتاحي لجريدة "الفرقان"، موضحا تسلط رجال الإدارة الاستعمارية على مناضلي الحركة في كل تحركاتهم فيقول: "إن حَرَّك أحد المصلحين قومه قالوا: هو ذا يريد أن يحرك الآمنين للثورة، وإن سافر إلى بلد قالوا: كونوا على حذر، قد جاءكم مهيج، وعما قريب يترل بينكم. وإذا ذكّر ووعظ الناس في أمر دينهم ودنياهم، قالوا: خلاطا ومشوشا يُحرض الناس على القيام في وجه السلطة. وإن كتب ينبه الغافل ويذكر الناس وينعي على أهل البغي وضلالهم، قالوا: إنه يفرق بين الناس ويغري بينهم بالعداوة والبغضاء. وإذا اشتكى من ظلم لحقه قالوا: Anti France وإن طالب بحق قالوا: Anti France وإذا

---

[141] محمد قاسم، المرجع السابق.

[142] من مقدمة محمد الصالح رمضان، كتاب: عبد الحميد بن باديس، العقائد الاسلامية.... مرجع سابق، ص: 12.

اجتمعت جمعية منهم على عبادة رهم.. قالوا: إنهم يتآمرون على أمن الدولة..."[143]

من هذا النص نستنتج ما يلي:

أ-مدى الخطر الذي كانت تمثله الحركة الإصلاحية على مستقبل الاستعمار في الجزائر، فعينوا عليها العيون والجواسيس لمعرفة تحركات رجالها.

4-دور الصحافة في الدفاع عن قضايا الشعب وعن الحركة الإصلاحية نفسها، لإظهار براءتها من معاداة السلطة الفرنسية، وذلك حفاظا على دورها الطويل المدى والبعيد الأهداف.

ومما يثبت الدور الي كانت تقوم به الصحافة في إبراز مواقف الإصلاحيين ما ورد في جريدة البصائر من عزاء للشيخ التبسي في أخيه البشير، ومن الإطراء الذي ورد في الشيخ نقتطف ما يلي: "وإن أحاديثه في الدين والإجتماع كانت كدأبه إذا تكلم في الدين، تجلية حقائق في نصوع بيان، وإن أحاديثه في السياسة إذا أنجز الحديث إليها كان كله حملات على الاستعمار ومكائده، وأنه لا يرجى منه خير، وإن حديثه عن السياسيين والنواب كان حديث المحايد الحر الذي لا يتحيز لفريق دون فريق.. لأن مبدأه أسمى منها جميعا.."[144]

5-رفض الجمعية للحكم الفرنسي

لقد رفضت جمعية العلماء الحكم الفرنسي برفض أساليبه ومعاملته للسكان الجزائريين، لم تواجهه علانية ومباشرة، لأنه لم يكن في مقدورها ذلك، ولو فعلت ما كان يجب أن تفعله لكان مآل الجمعية الحل ومآل رجالها السجن والنفي ومختلف أنواع العقوبات، وبذلك يقبر عملها وتنتهي مهمتها، وهو ما

---

[143] الزبير سيف الإسلام، المرجع السابق، الجزء السادس، الجزائر 1985، ص: 131.

[144] البصائر، العدد 10، من السلسلة الثانية، 13 أكتوبر 1947 بدون إمضاء.

تريده السلطات الاستعمارية الظالمة، ولكنها كانت تعمل في إطار الحكم القائم ووفق القوانين السائرة تقيةً واحتيالا.

ومن الأدلة على رفض الإصلاحيين للحكم الفرنسي ما قاله ابن باديس في إحدى خطبه مبينا حكم الغير للأمة، بأنه "لا يحق لأحد وِلايةَ أمرٍ من أمور الأمةِ الإسلامية إلا بتوليةِ الأمةِ، فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل، فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها."

فالشيخ ابن باديس يرفض بهذا القول السلطة الفرنسية المفروضة على الشعب وسلطة أعوانها الذين لم ينتخبهم أحد. والشيخ يرفض الحكم الغير الشرعي والغير الإنساني، والحكم الفرنسي هو كذلك، لأنه إستبدادي ومانع أمام حرية الشعب الجزائري، فالقانون يطبق على المعمرين أما الأهالي فلهم شأن آخر مع قانون الأهالي.

ويبين ابن باديس ويكشف دون مواربة عن الإختلاف بين الوطن الفرنسي والوطن الجزائري في مهاجمته لمحرر جريدة Républicain الصادرة بقسنطينة في 1937/9/14 الذي كان قد علق على بيان الجمعية. ومما قاله ابن باديس: ".. ولا يلومكم على ذلك ما دمتم ترونه إخلاصا لأمتكم ووطنكم، كما كنت أنا مخلصا في منشوري لأمتي ووطني.." وها هو يستهزيء بالمحرر الفرنسي في قوله: ".. ومما يؤسف له من أمثالكم أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام، وتفكرون فيها، في القرن العشرين، بأفكار العصور الوسطى.. إن الزمان، يا زميلي، يسير ولا يقف، وسنن الكون نافذة لا تتخلف، والويل لمن قعد أو تعامى."[145]

[145] الشهاب، الجزء السابع، ن المجلد الثالث عشر، ص: 340 و 341.

فالننظر إلى هذه الكلمات الخطيرة وإلى مدلولاتها الضمنية ماذا وراءها!!

لقد كان رجال الجمعية يدركون تطورات العالم في تلك المرحلة، وبأن الاستعمار مآله الرحيل، وأن الشعب سائر نحو تحقيق آماله وأهدافه في التحرر عاجلا أو آجلا.

لقد كان ابن باديس يرى الإنفجار آت لا ريب فيه، فلا مجال للمساومة على حقوق الشعب الحقيقية بعد أن تأكدت النهضة واجتازت مرحلة الخطر.

هكذا كانت جمعية العلماء قائدة ورائدة، تصدرت للتعليم والتكوين والتوجيه والتوعية والوعظ والإرشاد، فحققت نتائج باهضة، ولعبت دورا هاما في بعث اليقظة الوطنية والثقافة الإسلامية، وكان تاريخها صفحة مشرقة من تاريخ نضال الجزائر من أجل حريتها واستقلالها. ولقد أعادت الجمعية الإعتبار للإسلام واللغة العربية في الجزائر، وعرّفت الناس بتاريخهم وأصالتهم ودفعتهم إلى التقدم في مختلف نواحي الحياة.

سابعا :الثورة الجزائرية وبعدها الإفريقـــي

في أول نوفمبر من سنة 1954 اندلعت الثورة الجزائرية. تلك الثورة التي عجلت برحيل الاستعمار الفرنسي، الذي نال من الشعب الجزائري طيلة قرن وربع قرن من الزمن، وهي الثورة التي تميزت بشموليتها لكل الوطن الجزائري؛ حيث وقف الشعب الجزائري كرجل واحد لتحقيق هدف واحد هو طرد الاستعمار، فكان له ذلك، مصداقا لقول الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بـــد للـــيل أن ينجلي   ولا بد للقـــيد أن ينكسر.

وبذلك فإن الثورة الجزائرية تعتبر من أهم الثورات الشعبية العالمية، ذلك أنها اندلعت من أوساط الشعب لخدمة أهدافه وتحقيق آماله، كما أن قيادتها لا ترتبط بفرد أو بفئة معينة، بل هي قيادة جماعية تصبو إلى تحقيق الحرية والاستقلال وطرد الاستعمار الفرنسي من البلاد.

ناضلت جبهة التحرير الوطني، التي قادت الثورة، على الصعيد الداخلي والخارجي على السواء، فقد اعتبرت نضالها الخارجي مكملا للنضال الشعبي الداخلي، ولذلك سعت إلى توطيد علاقاتها بالدول الشقيقة والصديقة لخدمة الأهداف العليا للشعوب المقهورة، ومن أجل إقامة عالم تسوده المحبة والتعاون والسلام. "إن الثورة الجزائرية إذ تقرر تحرير التراب الوطني، ترمي في نفس الوقت، إلى القضاء قضاءً مبرما على مجموع هذا الجهاز الاستعماري لتحل محله نظاما إنسانيا ومجتمعا جديدا."[146]

---

[146] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، ش و ن ت، الجزائر، 1980، ص:47.

لقد رفضت الثورة الجزائرية القبول بتلك الهيمنة التي حاولت الدول الكبرى بسطها على شعوب العالم المستضعَفة، فحاولت أن تقيم علاقات جديدة مع عالم حر متعاون، ينبذ الاستغلال والاستعباد والهيمنة.

إن الفرد قليل بمفرده كثير بإخوانه، لذلك عملت جبهة التحرير الوطني، منذ اندلاع الثورة، على توسيع مجال عملها الثوري لمواجهة قوى الاستعمار والإمبريالية. وقد عملت وزارة الشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة، وقبل ذلك من خلال الوفد الخارجي، على إيجاد تضامن جهوي وقاري. وكانت إفريقيا أحد أبرز تلك القوى الحليفة التي يجب كسبها والعمل معها يدا واحدة لتحقيق الأهداف المشتركة، ولهذا عملت الحكومة المؤقتة على ربط علاقات وطيدة بالدول الإفريقية المستقلة، فعينت ممثلين لها في هذه البلدان، يقومون بالمهام الموكلة إليهم، منهم فرانز فانون في أكرا بغانا وعمر أوصديق في غينيا ليخلفه فيما بعد محمد حربي... وغيرهم كثير.

ذلك لأن الجزائر "جزء من إفريقيا بحكم التراث المشترك، وبحكم المساهمة النضالية المبدئية... فالجزائر بوابة إفريقيا.. وهي أكبر بلد له امتداد صحراوي في العمق الإفريقي."[147]

كانت سياسة جبهة التحرير الوطني تجاه إفريقيا جنوبي الصحراء هي جلبها للوقوف معها في حربها التحريرية، وجعلها في نفس الدرجة لمواجهة الاستعمار الفرنسي.[148] ذلك أن مواجهة الاستعمار يجب أن تكون جماعية للضغط عليه وقهره، وتحقيق أكبر الأهداف لصالح إفريقيا كافة.

---

[147] محمد العربي ولد خليفة، إشعاع الثورة الجزائرية وأبعادها الجيو-سياسية، سلسلة الندوات: الدبلوماسية الجزائرية 1830-1962، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 1998.

[148] انظر:

-Slimane Chikh, L'Algérie en armes, OPU, Alger, 1981, P: 464

وحدة الأفكار ووحدة النضال:

قبل التعرض لمدى التأثير والتأثر بين الثورة الجزائرية والبلدان الإفريقية لابد من استعراض الدور الذي قام به المهاجرون الأفارقة في أوربا.

كانت أوربا وما تزال هي المكان الذي تشع منه الأفكار وتشد إليه الرحال من قِبَل أفراد الشعوب المستعمَرة. في هذه البقعة من العالم التقي الأفارقة القادمون من كل جهات القارة، سواء كانوا مجندين أو عمالا أو طلابا، وجرى الاحتكاك بين أبناء المستعمرات، وتداول الجميع أوضاع بلدانهم المأساوية، وهناك ظهرت تنظيمات عمالية (مثل الاتحاد الفدرالي لجميع اتحادات العمال الأفارقة)، وأخرى طلابية (مثل فدرالية طلاب إفريقيا السوداء الفرنسية)، تدافع عن قضاياهم وقضايا بلدانهم.

وهكذا تكاتفت الجهود وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، من حيث مرَّ الزعماء الأفارقة عندما كانوا طلابا أو عمالا أو مجندين، وكوّنوا التنظيمات السياسية وأصدروا المطبوعات والجرائد.

وكانت مدينة باريس أحد هذه التجمعات التي التقى فيها أبناء المستعمرات الفرنسية بإفريقية الواسعة. وكان من بينهم جزائريون ومغاربة وسنغاليون وغينيون وغيرهم، وكانت لغة المستعمر هي وسيلة التفاهم بينهم.

لقد انتقلت الأفكار من شخص إلى شخص ومن بلد إلى آخر، فاتحدت الأفكار وتوحدت الكلمة، في انتظار العمل الميداني. ومما يدل على انتقال الأفكار بين أبناء المستعمرات ما عبر عنه الزعيم الغيني أحمد سيكوتوري حين استعمل مصطلحا جزائريا في إحدى خطبه، حيث قال: "على منظمة الوحدة

الإفريقية أن تَظهر كأداةَ تحريرٍ للقارة الإفريقية، وليس كنقابة لـــ "بْني وي-وي." التي هي عناصر فساد لشعوبها، عديمة الإحساس بتعاسة القارة.."[149]

L'OUA doit se révéler comme l'instrument d'émancipation du continent et nom le syndicat des Béni oui oui . Des éléments corrompus, infidèles à leur peuples, insensibles aux misère du continent.

وبْني وي-وي مصطلح جزائري أطلقه الجزائريون على ممثليهم المزوَّرين في المجالس الفرنسية أثناء العهد الاستعماري، وهم الذين كانوا لا يعارضون أي شيء تطرحه السلطات الفرنسية ليطبق في الجزائر؛ بل إنهم كانوا السند والدليل لتنفيذ ما يريده المستعمِرون.

المواقف الإفريقية من القضية الجزائرية عبر المؤتمرات الرسمية

يعتبر مؤتمر باندونغ أول ملتقى جهوي تحضره الجزائر المكافحة إلى جانب الدول الإفريقية-الأسيوية المستقلة آنذاك في شهر أبريل من سنة 1955 بإندونيسيا، والذي كان هدفه تكريس التعارف، ومن ثم التعاون بين هذه الدول من جهة، والعمل المشترك لتحرير ما بقي من البلدان الإفريقية والأسيوية خاضعا للسيادة الأجنبية من جهة أخرى.

وقد مثل الجزائر وفد ملاحظ يتكون من حسين آيت أحمد وامْحمد يزيد، وهو حضور كافٍ لتسجيل انتصار هام في المجال الدولي.[150] كما أُرسل

[149] أنظر:

-Ahmed Sékou Touré, L'OUA doit assurer ses responsabilités Historiques, Imprimerie nationale Conakry, Juin 1976, P:11

[150] أنظر:

-Alistar Horne, Histoire de la guerre d'Algérie, Edition Albin Michel, Paris 1991, P:136.

لخضر الإبراهيمي من قبل الحركة الطلابية، وكان من أوائل الديبلوماسيين الجزائريين.[151]

كانت القضية الجزائرية من بين أهم النقاط التي أثيرت في النقاش، وتم إصدار قرارات لصالحها، بالاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واستقلاله، والتوصية بعرض القضية على هيئة الأمم المتحدة في دورتها المقبلة.

إننا لم نُرِد من تعرضنا لمؤتمر باندونغ، الحديث عن المؤتمرات الأفرو-أسيوية المتعاقبة، والتي أدت إلى ظهور حركة عدم الإنحياز سنة 1961 ببلغراد، ولكننا أردنا فقط أن نعرج عليه باعتباره المؤتمر التأسيسي للدول المستقلة حديثا بهدف التعاون والتآزر دفاعا عن مصالحها ومساندةَ الشعوب التي لم تحصل على استقلالها بعد. كما أنه يعتبر أول مؤتمر دولي تحضره جبهة التحرير الوطني، فكان هذا المؤتمر إذن تجربة أولى لهذه الدول والشعوب الضعيفة.

في مؤتمر الدول الإفريقية المستقلة الأول

انعقد هذا المؤتمر بأكرا عاصمة غينيا في الفترة من 15 أبريل إلى 22 منه سنة 1958 بحضور ثمانية دول إفريقية لـــ "بحث مشكلات الشعوب الإفريقية غير المستقلة، والخطوات اللازمة لتأمين استقلال وسيادة الدول الإفريقية."[152]

وقد حضرت الأشغالَ جبهةُ التحرير الوطني، واستُقبل أعضاء وفدها استقبالا حارا وعين أحدهم في اللجنة الإدارية للمؤتمر وانتخب آخرون لرئاسة أو نيابة عدة لجان.

وقد خَصص المؤتمر قراره الثالث (من قراراته الثمانية) للقضية الجزائرية؛ حيث أبرز انزعاجه لاستمرار الحرب في الجزائر، وحرمان فرنسا للشعب

---

[151] انظر:
-Mohammed Harbi, Une vie debout, Casbah éditions, Alger 2001, P: 351.

[152] زاهر رياض، استعمار إفريقية، المكتبة العربية، القاهرة 1956، ص: 434.

الجزائري من حقه في تقرير مصيره، وطالبها بإنهاء القتال وسحب قواتها والدخول في مفاوضات سلمية مع جبهة التحرير الوطني للوصول إلى تسوية نهائية عادلة، وناشد الشعوب المحبة للسلام للضغط على فرنسا كي تخضع لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة. وأوصى الدول الإفريقية المستقلة بالتعريف بالقضية الجزائرية في الأمم المتحدة[153] وبمساندتها ماديا ومعنويا.

ورغم قرار المؤتمر بعدم استخدام العنف وسيلة من وسائل الكفاح، إلا أنه تعهد بتأييد أولئك الذين اضطروا للثأر لمواجهة الوسائل العنيفة التي تتخذ لإخضاعهم.[154] وقد تداولت تعاليق الصحافة الدولية الأهمية التي كسبتها القضية الجزائرية في جدول الأعمال، والتي فرضت نفسها كرمز واقعي واختبار للعلاقة بين إفريقيا والاستعمار.[155]

مؤتمر منروفيا لوزراء خارجية الدول الإفريقية المستقلة

انعقد المؤتمر في الفترة من 4 إلى 8 أوت 1959 في ليبيريا، بحضور وفد جزائري يمثل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية برئاسة امْحمد يزيد وزير الإعلام فيها. وقد شارك الوفد الجزائري بصفة رسمية، ورُفع العلم الجزائري إلى جانب الأعلام الإفريقية الأخرى.

خصص المؤتمر قراره الأول للقضية الجزائرية فعبر عن قلقه من استمرار الأعمال العدائية في الجزائر، وتدهور الموقف الذي يؤدي إلى تهديد السلم والأمن الدوليين. وطالب فرنسا بفتح مفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وسحبها لجيوشها من الجزائر، مؤكدا على حق الشعب الجزائري في

---

[153] كولين ليجوم، الجامعة الإفريقية، ترجمة أحمد محمود سليمان، الدار المصرية، القاهرة 1966، ص: 221 و222.

[154] - نفسه، ص: 53 و54.

[155] أنظر: -El moudjahid, n° 23 du 5 Mai 1958.

تقرير مصيره واستقلاله، كما ندد بقوةٍ بأي قرار لإجراء التجارب النووية في الصحراء الإفريقية. وطالب الحكومات الإفريقية بمواصلة دعم الشعب الجزائري في المحافل الدولية وتقديم المساعدات اللازمة، واستنكر استعمال الجنود الأفارقة في الجيش الفرنسي لقتل إخوانهم في الجزائر، موصيا جميع الدول المحبة للسلام بتأييد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية....

وقد اعتُبر اشتراك الجزائر بوفد هام في المؤتمر، وبصدور هذا القرار المساند للقضية الجزائرية، انتصارا جديدا للدبلوماسية الجزائرية وفشلا للسياسة الديغولية.

مؤتمر جميع شعوب إفريقيا

انعقد في تونس في الفترة من 25 جانفي إلى 30 منه سنة 1960، وقد واصل فيه الأفارقة دعمهم للقضية الجزائرية؛ حيث خصَّص المؤتمر قرارا بشأنها، حيَّا فيه التقدم الذي أحرزه الشعب الجزائري في طريق حريته واستقلاله تحت قيادة جبهة التحرير الوطني وحكومة الجزائر المؤقتة، وأبدى سخطه للجرائم الوحشية المرتكبة من قبل جيش العدوان الفرنسي، واستنكر مشروع تقسيم الجزائر، ودعا إلى يقظة الشعوب الإفريقية لضم الصفوف، وطالب بالاعتراف بحكومة الجمهورية الجزائرية المؤقتة، وبتقديم المساعدة المالية لصالح الجهاد الجزائري، وأعاد التذكير بطلب سحب الآلاف من الجنود الأفارقة السود المشاركين في الجزائر إلى جانب فرنسا. ودعا إلى تكوين فرق من المتطوعين الأفارقة للمشاركة في حرب الاستقلال في الجزائر، وتسهيل الحكومات لتحقيق هذا المشروع. كما دعا الأمم المتحدة إلى المساهمة في إقامة السلام والاعتراف باستقلال الجزائر.[156]

---

[156] كولين ليجوم، الجامعة الإفريقية، ص: 380.

مؤتمر جميع شعوب إفريقيا الثاني

انعقد هذا المؤتمر بأديس أبابا عاصمة إثيوبيا في الفترة من 15 إلى 24 جوان 1960 بحضور خمسة عشر(15) دولة، وقد شاركت الجزائر بوفد رسمي يمثل الحكومة المؤقتة تحت رئاسة امْحمد يزيد وزير الإعلام فيها، وبحضور عمر أوصديق وفرانز فانون وأحمد بومنجل.

خصص المؤتمر النقطة الثانية والثالثة من قراراته للقضية الجزائرية (من بين قراراته الخمسة عشر). ذكّر فيها بتوصياته السابقة، وطالب بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واستقلاله، وبفتح مفاوضات بين الطرفين، مبديا ارتياحه للمجهود الفرنسية من أجل تسوية المشكلة الجزائرية سلميا عن طريق المفاوضات. وندد بقوة بسياسة فرنسا في مواصلة تجاربها النووية بالصحراء، مبديا تأييده المادي والدبلوماسي للقضية الجزائرية في جميع المحافل الدولية.

تصريح برازافيل

في التاسع عشر من شهر ديسمبر 1960 صدر بيان على إثر اجتماع الدول الإفريقية في برازافيل بالكونغو، بحضور اثنى عشر بلدًا في الفترة من 15 إلى 19 ديسمبر 1960، بهدف "تحقيق تقدم جديد في سبيل التعاون الإفريقي القائم على الحوار والثقافة والمصالح المشتركة، والعمل بطريقة فعالة للمحافظة على السلام في إفريقيا وفي العالم."[157]

نشأت هذه المجموعة على إثر اجتماع دعت إليه حكومة كوت ديفوار بأبيدجان في شهر أكتوبر من سنة 1960 لمناقشة إمكانية توسط الأقاليم الإفريقية الفرنسية بين فرنسا والجزائر.

[157] المرجع السابق، ص: 271.

وقد اهتم الأفارقة بالقضية الجزائرية وأصدروا بخصوصها قرارا عبّروا فيه عن امتنانهم للجنرال ديغول الذي منح الاستقلال لعدد من البلدان الإفريقية بما فيها مدغشقر، وأشار التصريح إلى بقاء المشكلة الجزائرية دون حل نهائي، واستنكر الحرب الدائرة في هذا البلد وما ينجر عنها من موت ودمار، ودعا إلى السير نحو طريق المفاوضات لتحقيق تقرير المصير، وعبَّر عن أسفه لعدم تمكن الأمم المتحدة من اتخاذ أي إجراء نافذ المفعول ضد الذين يرفضون تطبيق قراراتها. وأشار التصريح إلى أن مأساة الجزائر تتحمل إفريقيا وحدها تبعاتها، لهذا طالب المؤتمرون فرنسا بوضع حد للحرب في الجزائر في سنة 1961، وتطبيق مبدإ تقرير المصير بعد إجراء مفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

مؤتمر الدار البيضاء

انعقد المؤتمر في الفترة من 3 إلى 7 جانفي 1961 بالدار البضاء بالمغرب الأقصى بحضور حكومة الجزائر المؤقتة. وقد خصص المؤتمر قرارات هامة بشأن الجزائر، وجاء هذا بعد اعتراف الأمم المتحدة في دورتها الخامسة عشرة (1960) بحق الشعب الجزائري في الاستقلال وتقرير المصير على أساس الوحدة وسلامة الأراضي الجزائرية ومسئوليتها (الأمم المتحدة) في تنفيذ هذا الحق في الجزائر.

وصمم المؤتمرون على مساندة الشعب الجزائري وحكومته المؤقتة بكافة الوسائل، ومطالبة كل الدول بمساندة شعب الجزائر في كفاحه. واستنكروا مساعدة حلف شمال الأطلسي لفرنسا، وطالبوا بسحب القوات الإفريقية التي تعمل تحت القيادة الفرنسية في الجزائر فورًا، وعارضوا تقسيم الجزائر أو أي حل يصدر من طرف واحد.

كما أصدر الحاضرون بيانا تضمن عدة نقاط ناقشوا في إحداها تطورات الموقف في الجزائر، وجددوا تأكيد تأييدهم بلا قيد ولا شرط للشعب الجزائري المجاهد، ومساندة الحكومة الجزائرية المؤقتة لإيجاد حلٍّ يقوم على حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره والوحدة الإقليمية لبلده.[158]

مؤتمر منروفيا

انعقد في ليبيريا في الفترة من 8 إلى 12 ماي 1961 بحضور ستة عشر بلدًا. وقد رحب المؤتمر فيما يخص القضية الجزائرية بتَحسن الموقف في الجزائر وقرار الطرفين الدخول في مفاوضات ابتداء من 20 ماي 1961 (إيفيان الأولى). ودعاهما إلى الإسراع في عقد اتفاقية من أجل وقف الحرب الدائرة بينهما، ومنح الجزائر استقلالها والاعتراف بوحدة ترابها.

تقييم المواقف الإفريقية تجاه القضية الجزائرية

أدت المؤتمرات الإفريقية المتعددة إلى إثارة القضية الجزائرية في مختلف أشغالها وقراراتها، وكانت نتائجها إيجابية إلى حد كبير محليا ودوليا. وكانت هذه اللقاءات عاملا ووسيلة لتأكيد التضامن الإفريقي وتوحيد الجهود لمواجهة السيطرة الأجنبية وإضعافها، والتأكيد على استعمال كل الوسائل لطرد الاستعمار من القارة.

لقد تدارس مندوبو الدول المستقلة وحركات التحرر طبيعة الاستعمار في بلدانهم، واقترحوا وتبادلوا الآراء والحلول الممكنة للعمل بها فرديا أو جماعيا في بلدانهم أو في المحافل الدولية.

لقد وقفت بلدان القارة مع الثورة الجزائرية، ووصل الأمر ببعض البلدان إلى اقتراح إرسال قوات إفريقية للمشاركة في الحرب إلى جانب إخوانهم

---

[158] المرجع السابق ، ص: 298 و299.

الجزائريين. وأقسم الآلاف في كل من غانا وإثيوبيا ونيجيريا على بذل أرواحهم في سبيل مساعدة الجزائر وجنوبي إفريقيا.[159]

وقد ذكرت صحيفة المجاهد الجزائرية في ماي 1960، أن مندوب غانا كوجو باستيو أعلم زملاءه بأن حكومته بدأت عملية تسجيل المتطوعين بفتح مركز، وصل عدد المسجلين فيه إلى خمسمائة متطوع، أما مندوب الجمهورية العربية المتحدة فؤاد جلال فقد أوضح أن بلاده فتحت أربعة مراكز للتدريب في القاهرة سجلت بها ثلاثمائة متطوع.[160]

وعلقت الصحيفة الجزائرية ملاحِظة بأن مشاركة البلدان الإفريقية في حرب الاستقلال الجزائرية، حتى وإن كانت بمتطوع رمزي واحد، فإن ذلك يسجل يقظةً للضمير الإفريقي ويعجل باستقلال الجزائر، وسيؤدي هذا إلى ميلاد روح قارية تضامنية، وستكون إفريقيا للأفارقة.

ولقد حاولت البلدان الإفريقية إفشال سياسة فرنسا لزرع الشقاق بين شعوبها وبخاصة بين الأفارقة السود والأفارقة البيض؛ حيث جندت أبناء إفريقيا لمحاربة بعضهم البعض. فقد جندت الجزائريين في حرب الطونكين بالفيتنام وفي مدغشقر وفي حرب الريف بالمغرب الأقصى، وجندت الآلاف من السنغاليين والماليين للحرب في الجزائر والمغرب وتونس. وقد بلغ عدد هؤلاء المجندين في الجزائر سنة 1960 مايناهز 45.000 جندي إفريقي.[161]

الثورة الجزائرية تعبير عن آمال إفريقيا

أصبحت الثورة الجزائرية عاملا أساسيا لوحدة الشعوب الإفريقية. لقد حملت المشعل، مشعل مناوأة الاستعمار بالوسيلة نفسها التي اتبعها عدو إفريقيا

---

[159] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص: 161.

[160] أنظر: -El moudjahid, n° 54 du 5 Mai 1960.

[161] IBID

كافة؛ حيث عبرت الثورة الجزائرية عن ضمير كل الأفارقة، الذين ذاقوا من ويلات الظلم والاستغلال عقودا طويلة، ووجدوا في أسلوبها الثوري التعبير الحقيقي عن آمالهم التي راودتهم طوال التواجد الاستعماري.

إن الشعوب المقهورة تبحث دائما عن بطل يَظهر فيحقق لها آمالَها في الحرية والإنعتاق، ويقهر ظالميها وطغاتها شر القهر وشر الهزيمة. والبطولة ظاهرة تغوص بأحداث القتال والعراك، يحقق فيها البطل رؤيته للوجود وللحياة، تدفعه مبادئه للعمل وفق رؤية معينة للحياة، يعيش لقضايا الجماهير التي يؤمن بها حتى النخاع، ويضحي بحياته من أجل هذه القضايا رغم تفوق العدو بالأسلحة والجيوش الجرارة المدربة.

وإذا كانت جل الحركات التحررية في إفريقيا قد تزعمها رجال تعلموا في المدارس الأوربية وحملوا الأفكار الغربية، وقاموا يدافعون عن شعوبهم بالوسائل السلمية التي يسمح بها الاستعمار، فإن الشعوب البسيطة لا ترى في ذلك سوى مجرد مناورات لا طائل من ورائها. إنها تؤمن في ضميرها الجمعي بضرورة طرد العدو بطريقة تشفي غليلها المتراكم أبًا عن جد، وتثأر لكرامتها المداسة منذ أجيال. فكانت الثورة الجزائرية هي ضمير الشعوب المقهورة في كل مكان، وبخاصة في البلدان التي تربطها بها رابطة الجوار أو الدين أو الجنس أو الإنسانية عامة. يقول فرانز فانون: "كثيرة هي الشعوب المستعمرَة التي طالبت بإنهاء الاستعمار، ولكن نادرا ما فعلت ذلك كما فعل الشعب الجزائري."[162]

ويقول: "إن الشعب الجزائري يعرف أن شعوب إفريقيا تتبع بعطف وحماسة كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي. والشعب الجزائري لا يجهل أن كل ضربة يوجهها إلى الاضطهاد الفرنسي في الجزائر تصيب القوى الاستعمارية في

---

[162] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص:103.

مجموعها. إن كل كمين ينصب، وكل مركز يهاجم ويخرب، وكل طائرة تسقط، تزرع الهلع في الجهاز الاستعماري الفرنسي، وتعزز الضمير الوطني الإفريقي أو الملغاشي أو الأنتيلي."[163]

لقد سار الشعب الجزائري على طريق صعب وشاق، طريق التحدي والصمود، وقدم التضحيات الكبرى، فأصبح نموذجا ومثالا للشعوب الإفريقية التي كانت تتتبع تلك التحديات وتلك التضحيات، وتجد في الانتصارات الجزائرية عسكريا أو دبلوماسيا شفاء لغليلها وتفريجا لكربها، فتبوأ الجزائري بذلك مكانة سامية تلهج بها صحافة الأفارقة وتتداول في تجمعاتهم المختلفة.

الثورة الجزائرية عامل وحدة إفريقيا في مواجهة الاستعمار

كانت الثورة الجزائرية قد وضعت نصب عينيها العمل على توحيد الجهود مع الدول والشعوب الإفريقية، لذلك فإنها لم تتغيب يوما عن حضور اللقاءات الإفريقية، وكان الهدف دائما الوصول إلى تحرير كافة البلدان المستعمَرة بما فيها الجزائر.

وقد واصلت الجزائر المستقلة طريقها على هذا النهج، وهاهو أول رئيس للجزائر المستقلة (أحمد بن بلة) يَذكر، في خطابه أمام الأفارقة في أديس أبابا غداة تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية سنة 1963، ما يلي: "إن إخواني الأفارقة قد اتفقوا على أن يموتوا كي تصير الجزائر دولة مستقلة، لذلك هيا بنا نتفق على أن نموت لكي تتحرر الشعوب التي مازالت ترزخ تحت نير السيطرة الاستعمارية، ولكي لا تصبح الوحدة الإفريقية كلمة جوفاء."[164] وكان لهذا

[163] المرجع السابق ، ص: 105.

[164] كولين ليجوم، الجامعة الإفريقية، ص:188.

الخطاب أثرٌ سَرَى مَسْرَى الكهرباء، وأثر تأثيرًا بالغًا في خطب جميع من تلاه.[165]

لقد كانت الجزائر بثورتها التحررية نبراسا للشعوب الإفريقية كي تنهض وتقاوم لتتحرر من نير الاستعمار، تنهض كرجل واحد لتحطيم النظام الاستعماري، نظام الاستعباد والاستغلال.

لقد خاطبت الثورة الجزائرية شعوب إفريقيا مباشرة وغير مباشرة لمؤازرتها وتضييق الخناق على قوى الظلم والقهر، وذلك باتباع الأسلوب نفسه للإجهاض على الاستعمار والقضاء عليه. جاء في جريدة المجاهد العدد 24، لشهر ماي 1958 –والكلام موجه لشباب إفريقيا– ما يلي: "يجب أن تعرفوا أن مستقبل وجودكم القومي، وقضية حريتكم واستقلالكم معرضة الآن للخطر في الجزائر. فليس صحيحا ما يزعمه بعض النواب البرلمانيين من أبناء المستعمرات من أن حرب الجزائر تساعد على زوال الاستعمار، وأنه تبعا لذلك يكفي أن يستغلوا، في الميدان البرلماني، تلك المصاعب التي يواجهها الاستعمار الفرنسي... إن ما تريده البلاد المستعمَّرة ليس هو تفضُّلُ السيد ببعض الصدقات، ولكننا نريد بالفعل تنفيذ حكم الإعدام في هذا السيد."[166]

اتجهت جبهة التحرير الوطني إذن إلى القارة الإفريقية لطرح مسألة الاستعمار كمسألة واحدة لكل شعوبها، وهي بذلك ترغب في أن تنهض كل إفريقيا لمواجهة الاستعمار الغربي. والوحدة الإفريقية بالنسبة لجبهة التحريرالوطني هي قبل كل شيء تضامن ضد الاستعمار، ومواجهته بالعنف

---

[165] نفسه.

[166] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص:118.

الثوري؛ ثم إن وقوف إفريقيا مع الثورة الجزائرية سيجعلها في الدرجة نفسها لمواجهة الاستعمار.

جاء في جريدة المجاهد تحت عنوان: "عالمية الثورة الجزائرية" ما يلي: "إن الكفاح الجزائري المسلح قد دفع الجماهير في أكثر من وطن إفريقي إلى التفكير في سلوك طريق الثورة المسلحة، أما أسلوب التفاوض الذي سلكته الثورة الجزائرية فقد كشف للمسؤولين في أكثر من موطن إفريقي أن التفاوض الصحيح لا يمكن أن يستند على الفراغ، ولابد من كفاح جماهيري.."[167]

وقد جندت الجبهة ممثليها الدبلوماسيين وصحافتها لفضح النوايا الاستعمارية، وقامت بحركة ديبلوماسية كبيرة لزيادة الضغط على فرنسا الاستعمارية..

ومن أبرز زعماء الثورة الذين كان لهم دور بارز على الساحة الإفريقية الدكتور فرانز فانون صاحب الشخصية القوية والنشاط الدائم. كما كان يمتاز بالفصاحة والقدرة على الإقناع، وقد أصبح الناطق الرسمي للثورة في إفريقيا من خلال مقالاته النارية التي كانت تُنشر في صحيفة المجاهد باللغة الفرنسية، وهي اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، ومن خلال تدخلاته في مختلف التجمعات الإفريقية، مما ساعد على انتشارٍ أوسعَ للثورة الجزائرية، وأكسبها نجاحات عديدة على الساحة السياسية الإفريقية.[168] وكان فرانز فانون قد عُيّن ممثلا للحكومة المؤقتة في أكرا ابتداء من سنة 1960، حيث بذل نشاطًا سياسيًا لا نظيرِ له في مختلف العواصم الإفريقية. لقد استفادت الثورة الجزائرية من فانون من جانبين اثنين: من لون بشرته تجاه الأفارقة ومن ثقافته الواسعة تجاه الغرب، أي أن "القيادة قبلت فانون في صفوفها كي تكسب به عالم الزنوج في إفريقيا

---

[167] انظر: -El moudjahid, n° 118 du 2 Avril 1962.

[168] انظر: -Slimane Chikh P:468.

وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية من جهة... (كما) كان أداةَ الثورة الفعالة في اكتساب المثقفين الفرنسيين إلى جانب الثورة..."[169]

وقد قام فانون سنة 1960 بمهمة خطيرة تمثلت في فتح جبهة جنوبي الجزائر انطلاقا من مالي لخلق قاعدة دائمة لتمرير الأسلحة عبر الصحراء الجزائرية،[170] تحريك سكانها، والمرور نحو المناطق الشمالية، وكان أمل فانون كبيرا في مشاركة الأفارقة في الحرب الجزائرية عبر هذا الطريق.

وعندما قامت فرنسا بمحاولة فصل الصحراء عن الجزائر، بذلت الثورة جهودًا مضنية لكسب الأفارقة إلى جانبها، وقامت عدة وفود سامية بزيارات للدول الإفريقية جنوبي الصحراء، واستطاعت أن تقنعهم بالوقوف معها باعتبار الصحراء جزءً لا يتجزأ من الأراضي الجزائرية؛ كما استغلت الثورة عملية التفجيرات النووية التي قامت فرنسا بهذه الصحراء، لتأليب الدول الإفريقية على فرنسا باعتبار ذلك مسألة تهم كل الأفارقة وليس الجزائر فقط. وقد نددت بعضها بالعملية كغينيا وإثيوبيا وشهدت أخرى مظاهرات عارمة كغانا وأوغندا.

وهكذا نجحت الثورة الجزائرية في جعل القضية الجزائرية قضية إفريقية، واحتلت الصدارة على الساحة السياسية الإفريقية وفي كل اللقاءات القارية.

المحاولات الفرنسية للحفاظ على مستعمراتها الإفريقية

أصبحت الثورة الجزائرية بقوتها وعمقها الشعبي ونجاح دبلوماسيتها، وبعزم رجالها وتفانيهم في خدمة بلادهم، تقض مضاجع الاستعماريين، وتهيمن

---

169 رابح لونيسي، فرانز فانون والبحث عن الخلاص النفسي في الثورة الجزائرية، مجلة عصور، مخبر مصادر وتراجم، جامعة وهران، العدد الأول، جوان 2002.

170 أنظر: -Slimane Chikh, P:469.

وهاهو الجنرال ديغول يعترف في مذكراته بالصعوبات والخسائر التي كانت تتلقاها فرنسا، فيقول: "كنت ألاحظ في جميع مستعمراتنا القديمة الحقائق النفسانية والسياسية (حرب الجزائر)، وأدرك مدى الثورات التي قد تنشب فيها إذا رفضنا قبول ما يتصف بالإنصاف، وما لا يمكن تفاديه، وما يحق لنا أن نتوقعه على النقيض من ذلك من تعاون مثمر قد تنفتح آفاقه بيننا، الأمر الذي جعلني أزداد يقينا، فيما يتعلق بالجزائر، بإدراكي للقضية وطريقة حلها. ومهما يكن من أمر، فكان يترتب علي إنقاذ فرنسا من المهام والخسائر التي يتزايد عبؤها باستمرار، في حين أن الفوائد التي كانت تجنيها أضحت مجرد مظاهر فارغة."[173]

ويقول في مكان آخر: "وقد تبين لي أن الوقت مُواتٍ جدا لكي نشق لهم الطريق، فإذا رفضنا أو أجَّلنا اتخاذ هذه المبادرة، فسنتعرض لمجابهات خطيرة."[174]

فالجنرال ديغول لم يكن هدفه خدمة الشعوب الإفريقية المستعمرة، بل إنه جاء إلى الحكم من أجل إنقاذ بلده من الورطة التي وقعت فيها، وهي حرب الجزائر، لذلك سعى إلى حل المشكل بأقل ما يمكن، من ذلك محاولته ربط البلدان الإفريقية بفرنسا بطرق أخرى مقنعة، ولكنها في واقع الأمر واحدة.

ومهما يكن، فقد استطاع الاستعمار أن يكسب بعض رجالات القارة المثقفين، من أمثال هفوت بوانييه، زعيم حركة التجمع الديموقراطي الإفريقي (RDA) في مستعمرات إفريقيا الغربية الفرنسية، الذين تمتعوا بامتيازات

---

173 شارل ديغول، مذكرات الأمل 1958- 1962، ترجمة سموحي فوق العادة، منشورات عويدات، بيروت 1971، ص: 80.

174 نفسه، ص:67.

خولتها لهم المناصب التي مُنحت لهم. واتخذوا موقف الانتظار واللامبالاة حينا والتواطؤ والوقوف إلى جانب السياسة الاستعمارية حينًا آخر.

لقد ظن هؤلاء أن تطور إفريقيا لن يكون إلا في ظل العلم الفرنسي، وذلك تأثرا بالتوجه الاستعماري ومسايرة له. وهم بذلك إنما يساندون سياسة البطش والإرهاب في المستعمرات ضد شعوبهم. ولقد خاب ظنهم إذ لم تتغير نظرة المستعمر إلى شعوبهم، التي كانت على سكة مخالفة لسكة مثل تلك الزعامات الهشة المستسلمة.

إن المشاركة في التصويت من قبل المواطن الإفريقي وبخاصة الإدلاء بـــ"نعم"، هو اعتراف ضمني بتبعيته لعائلة واحدة وجنسية واحدة، وهو بذلك يعمل على مسخ الشخصية الإفريقية، و"كل إفريقي يصوت بمناسبة الاستفتاء، سيساعد على شد وثاق شعبه وبلده بأحابيل الاستعمار الفرنسي."[175]

فشل السياسة الفرنسية في إفريقيا

لقد فشلت السياسة الفرنسية في إقناع كل الأفارقة للأخذ بوجهة نظرها، باستثناء بعض الزعامات التي لن تلبث أن تتفطن لأخطائها أمام السيل الجارف لمَوْجَة التحرر. أما غينيا فقد استفادت من الدروس الاستعمارية أحسن استفادة، وكان أحمد سيكوتوري أفضل زعيم إفريقي اختار طريق الحرية مع ما فيها من أشواك، بدل طريق الذل والعبودية المفروشة بسراب من الوعود الكاذبة، وقال قولته المشهورة: "إننا نفضل الحرية مع الجوع على الرفاهية في ظل العبودية."

بقيت غينيا، بزعامة أحمد سيكوتوري، وفية لصالح تحرير المستعمرات، وأصبحت مقصدا للأفارقة الأحرار، والتجأ إليها عدد من الرجال الوطنيين

[175] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص:136.

الذين سيصبحون زعماء بلدالهم في غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر والموزمبيق وأنغولا. هؤلاء المثقفون عملوا على التنسيق مع الحركات المعادية للاستعمار في المستعمرات البرتغالية المرتبطين بأحـــزاب برتغالية معادية لدكتاتورية سَلَزار.[176]

لقد قام سيكوتوري بدور مهم بالنسبة للقضية الجزائرية؛ حيث مثل سفيرا للجزائر لدى الرئيس توبمان في ليبيريا وهيلاسيلاسي في إثيوبيا، ورافع عن القضية الجزائرية لدى مخاطبيه الأفارقة الذين كانت فرقهم تحارب إلى جانب فرنسا، وهذا لم يمنعه من أن يضع هذه القضية في الظل عندما كان يرى ذلك مفيدا لبلده.[177]

كانت مطالب الشعوب الإفريقية تستلهم من حركة الثورة الجزائرية وتتأثر بها إلى حد كبير، لأن الاستعمار الفرنسي نزل بكَلْكَلِهِ على الجزائر، وعندما تحركت الثورة هنا تزعزع الجسم كله، وانعكس ذلك بالإيجاب على المستعمرات الإفريقية عامة. لقد "أصبح من البديهي... التسليم بأن الدول التي تمتعت باستقلالها منذ سنة 1958 لم تكن لتحصل عليه لو لم يتلق الاستعمار الضربات الموجعة في أرض الجزائر."[178]

إن حكومة غينيا المستقلة مثلت التضامن الإفريقي المنصهر في الكفاح ضد الاستعمار، وجسمت الخطوط الأساسية التي يستوحي منها الجزائريون كفاحهم، "والتي تُعتبر إرهاصا يصور روابط التعاون المتين التي يجب أن توحد بين الدول المستقلة الجديدة في إفرقيا."[179]

---

[176] -Mohammed Harbi, Une vie debout, P: 342 et 345

[177] IBID

[178] أنظر: -El moudjahid, n° 28 du 22 Août 1958.

[179] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص:144.

إن الحرب في الجزائر طرحت المشكل الاستعماري على بساط القارة الإفريقية كلها؛ فالشعوب المستعمَرة كانت تنظر إلى الجزائر كنموذج للتحرر والاستقلال. أما الدول الاستعمارية في القارة فكانت تتبع هذه الحرب بكل فزع وحذر، لتستفيد من فرنسا في مواجهة أية حركة تحررية مشابهة قد تظهر في مستعمراتها. فظهرت مشاريع الإصلاح والتجديد، وأدخلت تغييرات في الأجهزة الاستعمارية. وبدأ التحذير من مغبة ظهور حركة مشابهة، وبذلك وقع الاستعماريون تحت سيطرة الهلع والخوف من انفجار السخط الشعبي.

كانت الثورة الجزائرية ترى في النهضة الشعبية التحررية بإفريقيا سندا لها وطريقا يدعمها، وهي ترى في مثال غينيا نموذجا يجب أن يحتذى، وأن على الشعوب الإفريقية أن لا تتراجع في مواقفها، وعليها أن تبرهن بصراحة وعنف لتعبر عن رفضها للحلول الهشة الغامضة، وتبرز اقتناعها بأن زمن ما كان يسمى بالإصلاحات قد ولّى وفات أوانه وذهب بلا رجعة.

لقد أصيبت فرنسا بطعنات عديدة في الخمسينيات من القرن العشرين، وكانت الثورة الجزائرية "آخر حلقة في سلسلة الهزائم التي توالت عليها.. وثورة أول نوفمبر هي التي حطمت فعلا وحقيقة الإمبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار."[180]

كل هذا دفع فرنسا إلى التقهقر، فكان لزاما على إفريقيا كلها أن تدفع بها نحو الطريق نفسه أكثر فأكثر، لأنها أصبحت عاجزة عن أن تخوض حربًا أخرى في إفريقيا السوداء.

ورغم أن التصويت للاستفتاء الذي اقترحه الجنرال ديغول سنة 1958 كانت نتيجته لصالح فرنسا؛ حيث بلغت في إفريقيا السوداء نسبة 98% وفي

---

[180] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص:411.

فرنسا نسبة 80%، فإن هذا النجاح بقي محدودًا. ذلك أن الثورة الجزائرية ما فتئت تكسب الانتصار تلو الانتصار. ورغم مشاريع الجنرال ديغول في الجزائر من أجل القضاء على الثورة فإن ذلك لم يزدها إلا تأججا.

لقد فقدت فرنسا الاستعمارية سُمعتها القديمة أمام عجزها في قهر الثورة الجزائرية، وبذلك زالت بصفة نهائية تلك الرهبة التي كانت الشعوب الإفريقية تشعر بها، وأصبح طريق الحرية مفتوحا أمامها. وهكذا قامت تطالب باستقلالها التام، مستغلة مشاكل فرنسا في الجزائر للحصول على حريتها. وقد "اضطرت فرنسا أن تسلم باستقلالها بالجملة.[181] أما جبهة التحرير الوطني الجزائرية فقد اعتبرت هذا التسارع العام نحو الاستقلال في إفريقيا، هو نتيجة لحربها مع فرنسا.

وهكذا شهدت سنة 1960 استقلال عديد من بلدان إفريقيا الغربية والوسطى، وهي: مالي، النيجر، فولتا العليا، تشاد، كوت ديفوار، الغابون، الداهومي، إفريقيا الوسطى، السنغال، الكونغو، الكامرون، مدغشقر. وتفرغت فرنسا للثورة الجزائرية بغية الحفاظ على الجزائر كجزء من فرنسا، مثلما كانت تدعي، مستغلة قوتها العسكرية ورصيدها المعنوي وتواجدها ضمن الحلف الأطلسي للقضاء عليها.

ثم طَرحت فرنسا بمشكل الصحراء الجزائرية، التي اعتبرتها بحرا إفريقيا تشترك فيه كل البلدان المجاورة، ولكن الثورة استطاعت أن تحل المسألة مع هذه البلدان الإفريقية، وطرحت القضية على مستوى التجمعات الإفريقية التي كانت قراراتها لصالح الثورة الجزائرية. وبذلك توحدت كلمة إفريقيا وفشلت السياسة الفرنسية التي كانت تنهج سياسة فرق تسد، وصرح الزعيم الإفريقي كوامي

---

[181] المرجع السابق، ص:416.

نكروما ذات يوم بقوله: "إن الصحراء التي كانت من قبل تفصلنا هي اليوم توحدنا."[182]

أما الدول الاستعمارية فقد هالتها هذه الأحداث، كاستقلال غينيا وغانا وتواصُلِ انتصارات الثورة الجزائرية وتوحد كلمة القارة الإفريقية. وكان نجاح الأفارقة في إدارة شؤونهم في كل من أكرا وكوناكري يدحض نظرية فرنسا القائلة بأن هذه الشعوب لا تستطيع حكم نفسها بنفسها، وبذلك تتشجعت بقية الشعوب المضطهدة لانتهاج الطريق نفسه، لأن كل تراجع للسيطرة الاستعمارية في أي مكان يعزز التضامن بين الشعوب. "وفي ظل الكفاح الوطني ضد الظلم، اكتشفت الشعوب المستعمَرة، بصفة ملموسة، التضامن الموجود بين أعضاء الكتلة الاستعمارية، وتأكدت من ضرورة وجود التكافل بين حركات التحرر."[183]

لقد أدت التجمعات الجهوية والقارية دورا مهما في جمع الكلمة ووحدتها، ومواجهة الاستعمار كرجل واحد. لقد أرادت الشعوب المستضعفة أن تثبت نفسها في عالم سيطر عليه الكبار، وأن تكون سيدة نفسها، وأن تتضامن فيما بينها من أجل ذلك بعد أن كافح أناس قبل ذلك وحدهم.

كما اقتنعت الشعوب الإفريقية المستعمَرة بأن عدوها المشترك هو الاستعمار أيًّا كانت جنسيته، ومهما اختلفت أشكاله ومظاهره؛ إذ لا فرق بين الاستعمار الفرنسي والإنكليزي والبرتغالي والإسباني وغيره، فالكل ملة واحدة، لا هدف له سوى نشر الفتن وزرع الفُرقة والقضاء على المقومات الإنسانية، بعيدا عن كل ما يمت إلى الحضارة والتمدن بصلة. بل بالعكس كان

---

[182] أنظر: -El moudjahid, n° 23 du 05 Mai 1958.

[183] فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص:150.

الاستعمار عدوا للتقدم، عدوا للعدالة، عدوا للإنسانية ومطامحها. لا يرتاح له بال ولا يهدأ له حال إلا وهو يرى الشعوب الآمنة تتخبط في حبل الفقر والجهل والمرض.

وأخيرا لقد أعادت ثورة أول نوفمبر للجزائري خاصة وللشعوب الإفريقية عامة، الثقة في النفس، وبَعَثت روح التضامن والتآزر، وبينت أن ما أخذ بالقوة لا يستعاد إلا بالقوة والتصميم. لأن الثورة الجزائرية هي بعث جديد لإفريقيا كافة، من أجل نهضة جديدة وإرساء دول حديثة تنبذ الظلم والاستبداد وتقيم نظاما قائما على العدالة والسلم والمحبة.

ثامنا :سياسة ديغول الجزائرية من خلال مذكراته

تعرض الشعب الجزائري طيلة قرن وربع قرن للاستعمار الفرنسي (1830-1962)، الذي حاول بمختلف الوسائل القضاء على مقاوماته الشعبية الرافضة له، وطمس شخصيته الوطنية والدينية دون نتيجة، بسبب تمسك هذا الشعب بمقوماته الأساسية ودأبه على مصاولة عدوه في كل وقت، ومن أكبر تلك المجابهات بين الطرفين كانت الثورة الجزائرية التي دامت سبع سنوات ونصف (1954—1962) والتي كُتبت عنها عدة مؤلفات وقيل عنها الكثير، وسنحاول في هذا المحور استعراض موقف الجنرال ديغول، أشهر رؤساء فرنسا في العصر الحاضر، من هذه الثورة من خلال مذكراته.

التعريف بالمؤلف

شارل ديغول رجل دولة فرنسي ومن أبرز رجالاتها في القرن العشرين. ولد بمدينة ليل بالشمال الفرنسي سنة 1890 في وسط عائلي محافظ، وهو ثالث طفل من بين خمسة إخوة، من أب عمل أستاذا في التعليم الكاثوليكي، كان له دور مهم في تربية ابنه وتعليمه لدى الاخوة الجزويت.

في سنة 1908 اتجه للعمل في الجيش والتحق بمدرسة سان سير Saint cyr وحصل على المرتبة الثالثة من بين زملائه في دفعته، وعُين ضمن الكتيبة الثالثة والثلاثين للمشاة تحت قيادة العقيد بيتان Pétain.

رقي إلى رتبة ملازم أول، شارك في الحرب العالمية الأولى وجرح ثلاث مرات، ثم ترقى مرة أخرى إلى رتبة نقيب Capitaine وألقي عليه القبض من قبل الألمان وسجن في حصن Ingolstadt. وفي سنة 1924 نشر كتابه: La discorde chez l'ennemi. وفي 7 أبريل سنة 1921 تزوج من

Yvonne Vendroux ابنة أحد الصناعيين، وفي السنة نفسها استدعي إلى مدرسة سان سير لتعليم التاريخ العسكري فيها.

أرسل إلى لبنان سنة 1929، وبقي هناك إلى سنة 1931 كقائد للمكتب الثاني والثالث لأركان الحرب، وقد كتب كتابا حول تجربته في منطقة الشرق الأوسط. وبعد عودته إلى فرنسا عين في السكرتارية العامة للدفاع الوطني، وبقي مدة ست سنوات مما سمح له بلقاء زعماء السياسة والحكم، وفي سنة 1932 نشر كتابه: Le fil de l'épée .

دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية التي كانت تحت قيادة أدولف هتلر. في هذه الأثناء وجه ديغول بيانا سياسيا إلى ثماني شخصيات مدنية وعسكرية انتقد فيه الإستراتيجية المطبقة من قبل أركان الحرب. دخل الجنرال الحرب وهو برتبة عقيد وقام ببعض الهجمات المضادة الناجحة في شهر ماي من سنة 1940 ورقي آنذاك إلى رتبة جنرال. وفي 5 جوان 1940 استدعي إلى باريس وتقلد منصب نائب كاتب دولة للدفاع في الحكومة المضيقة —اثني عشر وزيرا - والتي كان يسيرها Paule Reymand.

بعد تكوين ديوان بيتان طار ديغول نحو لندن في 17 جوان 1940 في طائرة بعد أن رفض الهدنة الموقعة من قبل الجنرال Pétain. ومن هناك وجه نداءه المشهور في 18 جوان 1940 من خلال راديو إنكليزي من أجل المقاومة ومواصلة الحرب إلى جانب بريطانيا ضد قوات المحور.

استطاع ديغول أن يفرض نفسه كرئيس لفرنسا الحرة بدعم من تشرشل منذ 7 أوت 1940، وقد جمع ديغول حوله مجموعة من الضباط العسكريين والسياسيين والجامعيين. ونتيجة لاتصالاته أنشئ "المجلس الوطني للمقاومة" CNR بداخل فرنسا والذي اعترف بديغول كرئيس لفرنسا الحرة. وانضم ديغول إلى الحلفاء إلى أن تم النصر على النازية، فعاد إلى فرنسا وبقي رئيسا

للحكومة المؤقتة إلى أن استقالت سنة 1946، وابتعد بعد ذلك عن الحياة السياسية حتى سنة 1958 حين استنجد به الفرنسيون لإنقاذ الوضع في الجزائر، وأعطَى لفرنسا الدستور الذي أسس الجمهورية الخامسة، وأصبح أول رئيس لها، وأعيد انتخابه سنة 1965، ثم استقال بعد فشله في استفتاء سنة 1969 من أجل سبر ثقة الفرنسيين، وانتقل إلى مسكنه بـــ les- deux églises– Colombey حيث واصل كتابة مذكراته، وتوفي فجأة في 9 نوفمبر 1970.[184]

تقديم الكتاب ونقده

يحمل هذا الكتاب الذي نحن بصدد تحليله عنوان: "مذكرات الأمل – التجديد 1958–1962"، وهو جزء من مذكراته الخاصة بالحرب ومذكرات الأمل، ترجمة سموحي فوق العادة ومراجعة أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى 1971. وهو يتكون من 406 صفحة من الحجم العادي. ينقسم إلى قسمين: القسم الأول منهما تحت عنوان: "التجديد: 1958–1962"، ويحمل القسم الثاني عنوان: "الجهد: 1962 ..."

أما ما يهمنا فهو القسم الأول (1958–1962) حين كانت الثورة الجزائرية على أشدها، وهي الفترة نفسها التي حكم فيها الجنرال ديغول فرنسا في جمهوريتها الخامسة. وقد ورد الحديث عن الثورة الجزائرية بهذا القسم في مبحثين: الأول تحت عنوان: "أقاليمنا فيما وراء البحار." والثاني يحمل عنوان: "الجزائر."

[184] Encarta, 2005.

أولا: أقاليمنا فيما وراء البحار.

ففيما يخص المبحث الأول ابتدأه الجنرال ديغول بما يلي: "لما وليت وجهي شطر فرنسا، كنت مصمما على إنقاذها من الالتزامات التي تفرضها عليها إمبراطوريتها.."[185] ثم انتقل إلى الحديث عما قامت به فرنسا من هجمات كبيرة لغزو الأقاليم التابعة لها (المستعمرات) ورفع مستواها. وأثنى على بعض الشخصيات الفرنسية التي كان لها دور مهم في تثبيت أقدام فرنسا ونشر نفوذها على الصعيد العالمي من أمثال بوجو، وفايديرب، وآرشينار، وبرازا، ودومر، وغالييني، وليوتي، وغيرهم.

ولم يهمل الاعتراف بالجميل للشعوب التي شاركت إلى جانب فرنسا في الحربين الكونيتين الأولى والثانية. وأثنى على مختلف قطاعات الحكم من جنود وحكام مدنيين ومستوطنين ومعلمين ومبشرين ومهندسين، من الذين بذلوا جهودا مضنية من أجل تحقيق التنمية العصرية المحققة، وكأن تنمية تلك البلدان كانت بسبب الرجالات الفرنسيين الذين كان غرضهم الأول والأخير هو خدمة فرنسا ولا شيء غير ذلك.

ويتأسف على هذه المناطق التي كان ينوي تركها، بقوله: "فيا لها من محنة معنوية أتولى فيها انتقال سلطتنا، وأطوي أعلامنا وأطبق كتاب التاريخ الضخم."[186]

ثم يلج ديغول ميدانا آخر هو المَبالغ الضخمة التي كانت تنفقها فرنسا في هذه البلدان (المستعمرات) من نفقات متزايدة في كل القطاعات، في الوقت الذي كان يلاحظ رغبة سكان هذه المناطق في التحرر. رغم أن فرنسا —كما

---

[185] مذكرات ديغول، "مذكرات الأمل: التجديد 1958-1962"، ترجمة سمرحي فوق العادة مراجعة أحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت 1971، ص:45

[186] المرجع نفسه، ص:46.

يقول- منحتهم حضارها وأنشأت نظاما مركزيا يهيئ للدولة الوطنية بدلا من الانقسامات الفوضوية القديمة.[187] وعلى أن فرنسا كونت نخبة من الرجال المشبعين بالمبادئ الغربية المتصلة بحقوق الإنسان والحرية.

ويتعرض لظهور دعاة التحرر في مختلف البلدان وبخاصة ظهور الكتلة الشرقية التي كانت تناصر حركات التحرر في العالم الثالث. وهو لا يدعو إلى قطع الصلة بهذه البلدان الواقعة (فيما وراء البحار) إذا ما حصلت على استقلالها، بل يدعو إلى العمل على مساعدتها لأنها ستكون في حاجة إلى ذلك، لأن الرابطة التي أقامتها فرنسا عقودا طوالا كفيلة بربط هذه البلدان بفرنسا، ويضيف: "فالواجب يقضي بمساعدتهم بمجرد أنهم يتكلمون لغتنا ويتقاسمون معنا ثقافتنا.."[188] فالجنرال يجعل الرابطة الأساسية التي تربط فرنسا بهذه البلدان، في حالة استقلالها، هي الرابطة اللغوية التي اعتبرتها بعض نخب هذه البلدان غنيمة حرب. ويبذل الفرنسيون من أجلها كل غال ونفيس. وما الرابطة الفرنكوفونية، التي تضم اليوم مستعمراتها السابقة والتي تتكلم اللغة الفرنسية أو تستعلها في بعض مجالات الحياة فيها، إلا مظهر من مظاهر حفاظ فرنسا على امتيازاتها في هذه البلدان.

---

[187] المرجع السابق ، ص:46.
[188] نفسه، ص:47.

وبعد تعداد مختلف أوضاع هذه البلدان وحالة كل واحدة منها ونوع العلاقة مع فرنسا، ينتقل إلى الجزائر ويقول: "والآن ما مصير الجزائر؟ لم نكن هنا أمام وضع يقتضي حله وديا، إنما كنا أمام مأساة كاملة، مأساة فرنسية ومحلية في آن واحد. لقد كانت الجزائر تحتل في حياتنا القومية أهمية لا مجال للموازنة بينها وبين بقية البلدان التي كانت تابعة لنا.."[189]

إذن فالجنرال ديغول يعترف بأن للجزائر وضعية خاصة غير بقية البلدان المستعمَرة الأخرى، ذلك أن حكمهم لها كان مباشرا لأنها في نظرهم أرضا فرنسية، عكس البلدان التي تركوا بها الحكام المحليين، كما أن قربها وأهميتها الإستراتيجية وقدم احتلالها جعلها تحتل الصدارة من بين البلدان الواقعة تحت حكمهم. وهو عندما يذكر المأساة يذكر أنها مأساة فرنسية من جهة ومحلية من جهة أخرى، أي تمس الوضع الفرنسي والجزائري، أما حديثه عن الحل الودي والمأساة فهو يفصل بين المعنيين؛ فالحل الودي هو التفاهم مع البلدان الراغبة في الانفصال عن فرنسا، وهي البلدان الأخرى، أما الجزائر فهي التي يعبر عنها بالمأساة، أي هي الحرب وهي الخسائر وهي الثورة، وهي إرغام فرنسا على الرضوخ لمطالب الثائرين قسرا.

لقد كان غلاة الاستعمار يقولون إن البحر المتوسط يقسم فرنسا مثلما يقسم نهر السين مدينة باريس، وهو أمر كذبته الانتفاضات المتتالية التي كان يشنها الجزائريون تحت قيادة زعامات دينية طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ثم جاءت الحركة السياسية لتؤكد انفصال الشعب (الأهلي) عن الفئة المستعمِرة، وذلك طيلة النصف الأول من القرن العشرين إلى اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954 ثم انتصارها سنة 1962.

---

[189] المرجع نفسه ، ص:49.

وديغول لا ينفي ذلك بل هاهو يذكر أن فرنسا قضت على عدة انتفاضات بعد جهود مضنية بذلها كل من الخصمين. كما أنه لا يخفي أن احتلال الجزائر كان مدخلا لاحتلال بقية البلاد المغاربية والصحراء، إلا أنه وفي الوقت الذي يشير إلى استيطان مليون من الفرنسيين الجزائر، يذكر أنه بفضلهم تم رفع مستوى الجزائر اقتصاديا بإقامة منشآت هامة بوسائل تقنية وجهد السكان، وأنهم كشفوا البترول والغاز الذي خدم الصناعة الفرنسية، وهو يقصد هنا السكان الأوربيين. أما السكان (الأهالي) فلا مجال للحديث عنهم، لأنهم حثالة تابعة لا مكان لها من الإعراب؛ لأن ما يهمه هو الشعب الفرنسي الذي جاء به إلى السلطة.

ويتعرض لفشل حكومات الجمهورية الرابعة في وقف القتال بالجزائر، ذلك الذي كلف الخزانة الفرنسية نفقات باهضة مما أدى بالشعب الفرنسي إلى معارضة هذه الحكومات التي عجزت عن إيجاد مخرج لهذه الأزمة. فجاء ديغول ليعمل من أجل إيجاد "وسيلة للتخلص من هذه المعضلة بأحسن ثمن."[190] والمعروف أن الجيش الاستعماري بقيادة الجنرال سالان وبتأييد من المستوطنين دعوا الجنرال ديغول إلى الحكم بعد الانهيار والإفلاس المادي والمعنوي للحكومات الفرنسية المتتالية. جاءوا بديغول بهدف الحفاظ على "الجزائر الفرنسية" وسمي ذلك بـــ "تمرد 13 ماي 1958". وفي بداية شهر جوان 1958 تسلم ديغول الحكم.[191] وفي اليوم الموالي توجه إلى الجزائر.

---

[190] نفسه، ص:50.

[191] ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، يحي بوعزيز، ج 2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996، ص: 228.

ويسمي ديغول الجزائريين بـــ "المسلمين" ويذكر أنهم كانوا مزودين بالحزم والسلام، وأنهم مؤيدين لجبهة التحرير الوطني وللثورة، وإن لم يشاركوا كلهم فيها.

ويعترف بتعاطف شعوب العالم مع القضية الجزائرية وبخاصة الأمم المتحدة التي اتخذت عدة مواقف إيجابية منها، وأن الجزائريين (المسلمين) يتوقون إلى استقلال بلادهم أسوة بشعوب أخرى سبقتهم إلى ذلك في إفريقيا وآسيا، وأنهم من أجل ذلك بدأوا يعملون بأنفسهم لتحقيق هذا الهدف. وهو يقصد بذلك تضامن الداخل مع الثورة الجزائرية، وتضامن الخارج عن طريق الدعم والمساندة التي تلقاها القضية الجزائرية من لدن جهات متعددة في العالم.

ويمكن الإشارة هنا إلى أن أول لقاء دولي ساند القضية الجزائرية هو مؤتمر باندونغ المنعقد في شهر أبريل من سنة 1955 الذي حضرته دول إفريقية وأسيوية، وكانت الجزائر ممثلة بوفد ملاحظ عن جبهة التحرير الوطني. وفي السنة نفسها قدّمت أربعة وعشرون دولة من هذه المجموعة "رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة يوم 29 جويلية طلبوا منه إدراج قضية الجزائر في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة بناء على تعليمات حكوماتهم.."[192]

ويعيد ديغول سبب ثورة (المسلمين) إلى ما لحقهم من إهانات في المدن والقرى، وأنهم صبوا لعناتهم على الفرنسيين الذين أرادوا إبقاءهم تحت الاحتلال. ولكنهم مع ذلك لم ييأسوا من فرنسا وأظهروا تعلقهم "بأمة تتمتع بحكم الطبيعة بنزعة إنسانية وكرم تاريخي، ويتمنون أن يبقوا شركاء لها بعد تحررهم."[193]

---

[192] المرجع السابق، ص: 303–304.

[193] مذكرات ديغول، ص:52.

فهم إذن يريدون التحرر ولكن مع البقاء في علاقة جيدة مع فرنسا، وأن أملهم كبير في ديغول، وهو يشير هنا إلى دعاة المساواة والإدماج وبعض وجهاء القبائل وبعض رجال الطرق الصوفية المرتبطة مصالحهم بسلطات الاحتلال، ولكنه أهمل ذكر دعاة الإصلاح والاستقلال التام في إطار ثوابت الأمة الجزائرية قبل سنة 1954، ثم اتحاد الجميع في ثورة أول نوفمبر من السنة الأخيرة ما عدا فئة قليلة أبت أن تستجيب لنداء أغلب الجزائريين الذين حملوا السلاح لتحرير البلاد نهائيا من المستعمر الفرنسي.

ويبين ديغول أهم مهمة جاء من أجلها وهي القضية الجزائرية ويقول: "رأيتني منغمسا من رأسي إلى أخمص قدمي في هذا الموضوع."[194] إذ المعروف أن الفرنسيين يئسوا من قدرة حكوماتهم المتتالية، منذ اندلاع الثورة الجزائرية، حتى سنة 1958، على القضاء على هؤلاء "المتمردين" فلجئوا إلى الجنرال ديغول الذي كان قد أنقذهم سنة 1940 عندما أسس حكومة فرنسا الحرة بلندن على إثر سقوط باريس بيد الألمان وإنشائهم لحكومة فيشي الموالية لهم، وقادهم إلى التحرر إلى جانب الحلفاء لدحر النازية سنة 1945.

وهكذا إذن ومنذ سنة 1958 "دخلت فرنسا عهدا جديدا تميز بطغيان شخصية ديغول الذي فرض نظاما رئاسيا صارما."[195] وقد بين في مذكراته هذه أنه وإن لم يكن لديه برنامج مهيأ مسبقا فإن خطوطه الكبرى كانت محددة في ذهنه، حيث كان قد صرح سنة 1955 أنه يجب استبدال السيادة في شمالي إفريقيا بالشراكة، كما أنه كان يرفض دمج المسلمين بالشعب الفرنسي.

---

[194] نفسه، ص53.

[195] حميد عبد القادر، فرحات عباس رجل الجمهورية، دار المعرفة، الجزائر 2001، ص: 169.

ويذكر أن هذا الدمج كان ممكنا لو تم منذ مائة سنة أو بعد إحدى الحربين العالميتين، أما الآن-1958- فإن منبت الأسرة الإسلامية ودينها وطرق معيشتها "جعلها تتمتع بشخصية قوية جدا بحيث لا تدع أحدا يمزق كيانها أو يسودها."[196]

وهكذا يعترف ديغول، الشخصية البارزة في التاريخ الفرنسي، باختلاف الشخصية الإسلامية للجزائريين عن الفرنسيين الذين أرادوا جعل الجزائر وطنا فرنسيا ودمج سكانه بفرنسا الوطن الأم –في نظرهم- وهذا ما أكده الشيخ المصلح عبد الحميد بن باديس زعيم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثلاثينيات من القرن العشرين حين صاح في وجه من قال إن على هذا الشعب أن يندمج مع فرنسا، وأنه لم يجد لهذه القومية الجزائرية أثر، حين قال: "ثم إن هذه الأمة الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها.."[197] وقال في قصيدة لا يزال الأطفال يتغنون بها في المدارس:

شعب الجــــزائر مسلم　　　وإلى العروبة ينتســـب
من قال حاد عن أصله　　　أو قال مات فقد كذب
أو رام إدمـــاجـــا له　　　رام المحال مـــن الطلب.

إذن فقد جاء ديغول بنية تغيير الوضع السابق ولكن ما هو الجديد الذي جاء به؟

يصرح دغول بأنه كان يريد أن يجعل فرنسا طليقة اليد وأن تتولى التغييرات التي يقتضيها العصر وتمارس نشاطها في الخارج دون قيد، وأن ترفع

---

[196] المرجع نفسه، ص: 54.

[197] أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص: 241.

جيشها إلى مصاف الدول العظمى الحديثة. وذلك بمنح الجزائر حق تقرير المصير بنفسها رغم فشل ما كان الفرنسيون يحلمون به بالأمس وما يأسفون عليه اليوم، ولكنَّ حق تقرير المصير الذي يتكلم عنه الجنرال مضمن بشروط هي:

-أن فرنسا هي التي تمنحه وفقا لمصالحها، ولن يفرض عليها من أحد على اعتبارها منهزمة، ولن تخضع لأي ضغط خارجي أو مساعي حميدة أو غير ذلك وحتى من الأمم المتحدة.

-أنَّ على الفرنسيين الراغبين في البقاء بالجزائر أن يقرروا ذلك وأن الجيش الفرنسي سيضمن سلامتهم.

-إنشاء معاهدات بين الطرفين تمنحهما امتيازات متبادلة في مختلف الميادين الإستراتيجية.

-بقاء الجزائر فرنسية من عدة أوجه بالحفاظ على الطابع الذي اكتسبته.

وأوضح أن أهدافه المسطرة هذه سيعمل بها بكل حذر وخطوةً خطوة حتى لا يثور في وجهه أي معارض قد يؤدي إلى فشل سياسته، أي أنه التجأ إلى المناورة.

ويتعرض ديغول إلى زيارته للجزائر في الرابع من شهر جوان بعد تسلمه السلطة، وكيف تم استقباله في المطار وعن هتافات الفرنسيين في طريق الوفد وكيف رد عليهم بعبارة مقتضبة، كما يقول- وهي: "لقد فهمتكم." Je vous ai compris.

يذكر جون موران، المندوب العام في الجزائر والمكلف بالنظام فيها، أن الآلاف من المسلمين الذين استقبلوا الجنرال عند نصب الموتى، جيء بهم من

قِبل العسكريين وأُركبوا بالقوة في شاحناتٍ للمجيء ليشهدوا بالوحدة الجزائرية الفرنسية.[198]

ويتعرض ديغول للثوار فيتحدث عن "هؤلاء الذين حملهم اليأس على إثارة القتال المرير والأخوي في هذه البقعة من الأرض، وأنا أعترف أنه يتحلى بالشجاعة. نعم أنا ديغول أفتح لهؤلاء جميعا باب المصالحة."[199] وهو يقصد كل الفئات التي كان يتكون منها المجتمع المقيم آنذاك بالجزائر مدنُها وقراها، سهولها وجبالها..

ويستعرض وجهة نظر من يسميهم بالمسلمين فيذكر أنه باستثناء بعضهم الذين لهم وظائف رسمية أو هم نوابا -الذين سيؤيدون السياسة الفرنسية- فإن الآخرين "يتحملون الأذى دون الاستسلام" وهو بذلك يعني وقوفهم مع الثورة، رغم أن ديغول يهَوِّن من الأمر باستعمال عبارات بسيطة: الأذى- الاستسلام.. ولا يستعمل الثورة أو الاستقلال أو غير ذلك من الكلمات والعبارات التي يعترف فيها بالواقع كما هو.

ويتحدث عن العسكر الفرنسي في الجزائر فيبين أن فكرته هي الاحتفاظ بالجزائر فرنسية؛ ومع ذلك استنتج تواجد ثلاثة اتجاهات في هذا العسكر، أهمها الاتجاه الذي يضع ثقته في الحكومة القوية التي سيطيعها لحل القضايا العالقة.

ويذكر دور بعض الفرق الفرنسية في مهاجمة الثوار في الجبال والغابات والتصريح بوقوع اشتباكات "حامية الوطيس من جراء وعورة الأرض واستبسال الخصم."[200] ويتحدث عن نجاح المنشآت الواقعة على الحدود الغربية

---

[198] أنظر: - Jean Morin, De gaulle et l'Algérie, (mon témoignage 1960-1962 .) P/74,

[199] مذكرات ديغول، ص: 57.

[200] المصدر السابق، ص: 59.

والشرقية من أسلاك شائكة مكهربة وملغمة تعيق دخول وحدات الجيش بالمراقبة وحماية المنشآت ومساندة الشرطة وإقامة الحواجز في البر والبحر.

وهو بهذا يعترف بوجود حرب ثورية في الجزائر، فهو لا ينكرها بل يؤكد وجودها، ولكنه يخفي فشل القوات الفرنسية في التصدي لها، ويقتصر على الجوانب البراقة ليظهر قوات بلده قائمة بواجبها على أكمل وجه.

أما قوات الثورة فهي في رأيه محصورة في الجبال الوعرة (الأوراس- النمامشة- الحضنة- البيبان-الونشريس- الظهرة- الضاية- تلمسان- الأطلس الصحراوي..الخ.)،[201] وأنه يعاد تنظيمها هناك بعد بعثرتها، وأن عددها لم يتعد يوما ثلاثين ألف جندي، وهي لا تتحرك إلا في الظلام وفي الأرياف والبوادي، أما المدن فبفضل نظام منع التجول لا تقع سوى بعض الاعتداءات الفردية، أما سلاحهم فهو ما تحمله اليد من بنادق وقنابل ورشاشات ومدافع أما الدبابات والطيران ومدافع الميدان فمنعدمة.

ويبين استمرار العمل الفردي العادي من مزارعين وعمالا وموظفين.. في مختلف المؤسسات المدنية والعسكرية دون أية عراقيل، وأن معدل الوفيات يوميا بين الفرنسيين سبعون شخصا(وسطيا) منهم عشرة يقتلون برصاص الثوار.[202]

ويخص الجنرال سالان، القائد العام والمكلف بالسلطات المدنية، بعدة فقرات يتحدث فيها عنه من خلال مرافقته إياه في رحلة تفتيشية قام بها ديغول للجزائر، فيثني على كفاءته ومهارته وجاذبيته الخاصة واطلاعه على مختلف قضايا الجزائر المدنية والعسكرية ونجاح سياسته تجاه الخصم. إلا أنه يصرح أن

---

[201] مذكرات ديغول، ص: 61.
[202] المصدر السابق.

سالان لا تتفق وجهات نظره مع أهداف ديغول، وأن شخصيته منطوية على التقلب ومحاطة بهالة من الألغاز، مما جعل ديغول يفكر في إسناد منصب آخر له.

وفي اليوم السابع من جوان 1960 عاد ديغول إلى باريس حيث أعلن عن انسحاب الجيوش الفرنسية من أغلب جهات تونس والمغرب، وعاد ديغول ثانية إلى الجزائر في أوائل شهر جويلية رفقة بيار غيوما وغي موليه. وحتى شهر ديسمبر سنة 1960 زار ديغول الجزائر ست مرات أخر، وتجول في جميع مرافقها، وهو يفتخر بأنه الوحيد من رؤساء الجمهورية الفرنسية الذي قام بهذه الزيارات منذ سنة 1830. أي أنه يثبت أنه رجل ميدان ولا يكتفي بالبقاء في الصالونات والمكاتب.

كما زار بلدان إفريقيا وراء الصحراء في أوت 1958 ليشرح مشروعه حول الاستفتاء الذي سيقدمه لشعوب ما وراء البحار في مسألة علاقتها بفرنسا: الارتباط أو الانفصال، أي أنه قام بحملة لصالح مشروعه. وقد كانت النتيجة لصالح مشروعه هذا بشكل إيجابي بلغ نسبة 95% ما عدا غينيا بقيادة الزعيم أحمد سيكوتوري التي فضل شعبها الانفصال.

وفي سنة 1959 أعلن ديغول عما أسماه بـــ "سلم الشجعان"، حيث دعا الثوار إلى وضع السلاح دون شروط والاتصال بسفارتي فرنسا في تونس والرباط لتنظيم عملية الاستسلام.[203] وقد ذكر في مذكراته هته أنه كان ماض في تحقيق السلام في الجزائر، على أن تبقى الجزائر مرتبطة بفرنسا "والعمل في الوقت نفسه على دعم جهازنا العسكري، بحيث لا يتمكن أي شيء أن يمنعنا، في أي حال من أن نكون في الجزائر سادة مقرراتنا."[204]

---

[203] ثورات الجزائر، المرجع السابق، ج 2. ص: 283.

[204] مذكرات ديغول، ص: 69.

وبهذا يؤكد ما فعله ميدانيا من مضاعفة مشاريع القوة والإرهاب في الجزائر والتي قام بها الجيش الفرنسي، منها برنامج شال الذي بدأ تنفيذه في فيفري من سنة 1959 للقضاء على الثورة. ومنها عمليات المجهر Jumelle بالقبائل، ومنها عملية الشرارة ببلاد الحضنة لتطهيرها من الثوار، ومنها عملية الأحجار الكريمة على جبال قسنطينة وأخرى على جبال الونشريس، بالإضافة إلى التفنن في وسائل التعذيب والتوسع في المحتشدات.[205]

لقد جرب ديغول مختلف الأساليب لقهر الثورة، أساليب القوة ميدانيا وأساليب الإغراء والمناورة علنا، حتى إذا ما فُرِض عليه التفاوض يوما ما، فإنه سيكون في مركز قوة ليفرض وجهة نظره التي ستتماشى طبعا ومصالح فرنسا، وهي الإبقاء على امتيازات عديدة هي ما يدعى بالاستعمار الحديث: الامتيازات الاقتصادية بالاستحواذ على المناجم ومراكز الطاقة وإبقاء قوات عسكرية في أماكن أستراتيجية لحماية هذه المصالح والامتيازات والتركيز على الميدان الثقافي إبقاء للتأثير في هذا المجال.

لقد وضع ديغول القضية الجزائرية من أولويات اهتماماته، لهذا أمسك هذه القضية بكل قوة وبطريقة مركزية، يقول عن ذلك: "فكل قضية هامة تخص الجزائر كانت تعرض على مجلس محدود، ويضم تحت رئاستي رئيس مجلس الوزراء والوزراء وكبار الموظفين والجنرالات المعنيين مباشرة بالموضوع.." ويصل إلى النتيجة التالية، وهي أن "جميع التدابير التي كان يترتب عليّ اتخاذها كانت ترتكز على معرفة الأمور ودخائلها.."[206]

ويتحدث عن محاولات اتصاله بزعماء الثورة، فيذكر أنه كلف عبد الرحمان فارس رئيس الجمعية الوطنية المنحلة، وذلك في 12 جوان للاتصال

---

[205] ثورات الجزائر، ج: 2، ص: 233-256.

[206] المذكرات، ص:69.

بالحكومة الجزائرية المؤقتة من أجل التفاوض، إلا أن الرجل تحفظ ثم طلب إعفاءه من القيام بالمهمة.

أما مشروع قسنطينة فقد جاء بناء على تصريح من ديغول في 3 أكتوبر 1958 الذي كان يهدف من ورائه إلى ضمان إخراج الجزائريين من دائرة التخلف[207] –ظاهريا– بينما كان هدفه الواقعي محاولة تغيير أوضاع المسلمين الجزائريين خلال مخطط لمدة خمس سنوات تغييرا جذريا اقتصاديا واجتماعيا، وأن يكون ذلك إلزاميا لجميع السكان. وكان ظن ديغول أن مشكلة الجزائريين اقتصادية واجتماعية بالدرجة الأولى، ولهذا فإن وسيلة الإصلاح هذه ستكون الضربة القاضية التي ستلحق بالثورة والثوار.[208] وكان أشد ما يخيف ديغول هو حدوث هزيمة ميدانية أمام ثوار الجزائر، وقد صرح أنه أمر ممكن حدوثه في أي وقت.[209]

وفي الوقت الذي كان ديغول يطبق سياسة الشدة عسكريا وميدانيا وبسرية تامة كان خطه السياسي بالتصريح بالتفاوض وحق تقرير المصير، يحدث الاضطرابات في الأوساط الفرنسية المختلفة، بين المعارضة والتردد والخوف. ويذكر أن المسلمين قابلوا ذلك بالصمت وعدم الاكتراث، أما الدول الأجنبية فقد قابلته بين الشك في إخلاصه أو إمكاناته وبين الحذر العدائي من العالم الثالث والعالم الاشتراكي.

وقد أعاد ديغول وجهة نظره في خطاب ألقاه في 8 جانفي 1959 وهو مستقبل الجزائر المتحولة ذات الشخصية المميزة والمرتبطة بفرنسا برابطة وثيقة.[210]

---

[207] أنظر: - Jean Morin, De gaule, P/51.

[208] صلاح العقاد، المغرب العربي، ص: 438.

[209] مذكرات ديغول، ص:72.

[210] نفسه، ص:81.

ولكي يظهر من حسن النية أمَر بإطلاق سراح سبعة آلاف مسلم كانوا موقوفين بالجزائر، وخفضت أحكام الإعدام على بعض الثوار المحكوم عليهم بهذا الحكم، وتم نقل الزعماء الخمسة الجزائريين الموقوفين، من سجن الصحة في ميزون بلانش Maison Blanche إلى جزيرة إيكس،[211] وأفرج عن ميصالي الذي كان خاضعا للإقامة الجبرية في فرنسا.

وقد أبدت جبهة التحرير الوطني عن رغبتها في التفاوض مع الحكومة الفرنسية في بلد محايد وبدون شروط مسبقة. أما الأعضاء المسلمون في المجالس المحلية فقد عبر معظمهم عن مساندتهم لسياسة ديغول، واقترح بعضهم تكوين لجنة للوساطة بين الطرفين المتحاربين، وهم بذلك يؤيدون الفرنسيين أولياء نعمتهم الذين ألهَوْهم بمناصب وامتيازات لا ترقى أبدا إلى ما كان يحصل عليه أمثالهم من ذوي الأصول الأوربية. أما الأوساط السياسية الفرنسية فقد أبدت بصمت تأييدها لما يفعله ديغول وتركته يفعل. وفي شهر أوت من سنة 1959 زار ديغول الجزائر واطلع في عدة جهات على سير العمليات العسكرية الفرنسية ضد جيش التحرير الوطني، كما زار عدة بلدات كان الجيش يقوم فيها بجمع السكان لاستقباله، إلا أن ديغول لاحظ الصمت الذي كانوا يواجهونه به هؤلاء السكان رغم أنه سمع من بعض التلاميذ نشيد لامارسييز. وقد أوقفه ذات مرة أمين سر إحدى البلديات بمنطقة القبائل، وقال له بصوت منخفض: "يا سيدي الجنرال! لا يغرنك ما رأيت! فكل الناس يريدون الاستقلال."[212]

ويذكر ديغول أنه سأل في مدينة سعيدة طبيبا عربيا كان ملحقا بالقوات العسكرية عن رأيه فأجابه قائلا: "إن ما نريده ونحتاج إليه هو أن نكون

---

[211] هم احمد بن بلة وحسين آيت أحمد ومحمد بوضياف ومحمد خيذر ورابح بيطاط.
[212] المصدر السابق، ص:84.

مسؤولين عن أنفسنا وألا يكون أحد مسئولا عنا."[213] وبهذا اقتنع ديغول ميدانيا بأن طريق التفاوض والتسليم بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره هو الحل الأمثل للطرفين.

وبتاريخ 16 سبتمبر 1959 أعلن ديغول عن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم وحذر الجزائريين من أنهم إذا اختاروا الانفصال فإن فرنسا ستوقف عنهم كل دعم ومساندة، وأنها ستقوم باللازم لتجميع الجزائريين الراغبين في البقاء فرنسيين.[214]

وقد أحدث التصريح حفيظة بعض القوى الفرنسية في الجزائر، وظهر التمرد والعصيان وتكونت "الجبهة الوطنية الفرنسية" FNL بكل سرية برئاسة أورتيز. وفي فرنسا تجمع المتطرفون في أقصى اليمين وكونوا "تجمع الجزائر الفرنسية" FAF تحت زعامة جورج بيدو في 15 جوان 1960. وتعدد المعارضون في الجزائر وفرنسا من صحافيين وضباط جيش متقاعدين. وهجم الجنرال ماسو قائد فرقة جيش مدينة الجزائر في صحيفة ألمانية على سياسة ديغول —الذي كان صديقا له– فاستدعاه هذا الأخير إلى باريس.

لم تسرْ الأمور إذن، كما كان يرغب ديغول، فقد أقدم بيار لاغايار عضو الجمعية الوطنية والضابط الاحتياطي هو وطلاب جامعة الجزائر —الذين كان يترأس جمعيتهم– على الاعتصام بقاعاتها في 23 جانفي 1960 وأقسموا أن يجعلوا منها حصن "الجزائر الفرنسية"، وحاول السكان الأوربيون التجمع في هضبة غلبير لمناصرة المعتصمين ودعمهم، لكن الجيش تدخل لإرغامهم على

---

[213] نفسه، ص:85.

[214] كان الجنرال ديغول قد فعل الأمر نفسه مع غينيا سنة 1958، عندما اختار سكانها الإنفصال عن فرنسا تحت قيادة أحمد سيكوتوري، عكس بقية شعوب المستعمرات الفرنسية –عدا الجزائر- التي فضلت البقاء تحت السلطة الفرنسية في استفتاء 28 سبتمبر 1958.

التفرق. وكان الهدف -كما يقول ديغول- إرغامه على التراجع عن قراره وهو حق تقرير المصير.

وحاصر الجيش، بقيادة الجنرال شال، الجامعة لعزلها عن السكان، ثم سمح لهم بالاتصال بالمدينة. وقد تردت الأوضاع كثيرا نحو الأسوإ في الجزائر بوقف المواصلات وإغلاق المخازن بسبب الإضراب، وظهر وكأن المدينة تميل نحو الانفصال.[215]

وفي 29 جانفي ظهر ديغول على شاشة التلفزيون بلباسه العسكري ليؤكد بأن حق تقرير المصير للجزائر هو المخرج الوحيد الممكن، وأنه سيستعمل القوة ضد كل خارج عن القانون. وخضع الجميع للأوامر وأخليت المراكز المجاورة للمعاهد وحوصر المتمردون الذين انسحبوا شيئا فشيئا، وأوقف لاغايارد ليحاكم في باريس هو وغيره من رؤساء الحركة، وعاد الهدوء إلى الجزائر، وسيطر الجيش الفرنسي على الوضع.

لقد وجد ديغول معارضة شديدة من قبل المعمرين في الجزائر والعسكريين الذين لم يقتنعوا بفكر ديغول، لقد عودهم الآخرون بـــ "الجزائر الفرنسية،" كما أنهم أمضوا قرنا وربع قرن من الزمن في هذه البلاد، وهم ينتسبون إلى أكبر دولة بجيوشها وإمبراطوريتها، فكيف يقتنعون بين يوم وليلة بأن الجزائر ستخرج من أيديهم إلى أيدي من كانوا يحتقرونهم ويستغلونهم أبشع استغلال. ولكن المآسي التي مثلتها القضية الجزائرية وثورة الجزائر، لفرنسا حكومة وشعبا، كان المخرج الوحيد منها وترك البلاد لأهلها.

لقد رأى ديغول أن ما يسميه بالتعاون الحديث بدل الاستعمار يخفف عن فرنسا أعباء مرهقة ويضمن لها آمالا باسمة في المستقبل.[216] إنه الاستعمار

---

[215] المصدر السابق ، ص:92.

[216] المصدر السابق، ص: 93.

الحديث الذي يؤدي إلى الاستغناء عن المصاريف الضخمة التي كانت تقوم بها الدولة المستعمرة لإدارتها وجيوشها ومصاريف الحرب، ويكسبها، إن هي أحسنت التصرف، مكاسب ضخمة دون أتعاب. لقد أرادوا تنصيب حكام يخدمون مصالح المستعمر السابق، فيصدرون المواد الخام ويستوردون المصنعات ويبقون على لغة المستعمر وثقافته ويحمونها، وهذا ما حدث في كثير من البلاد الإفريقية المستقلة، فكانت هذه إذن رغبة ديغول التي تخدم فرنسا ولا شيء غير ذلك.

وها هو يُظهر أساه وألمه على فقد الجزائر وغيرها من البلدان التي كانت تتكون منها الإمبراطورية الفرنسية في قوله: "ويجب علي أن أتغلب على الألم الذي يحز في نفسي لإقدامي، عامدا متعمدا، على إنهاء سيطرة استعمارية، كانت تُعد في الماضي مجيدة، وأصبحت اليوم مرهقة ماليا."[217] ويشير في مكان آخر إلى أن الأفضل للفرنسيين هو أن يتخلوا بإرادتهم عن الجزائر التي أصبحت "صندوق أحزان"[218] مع البقاء في أماكن محددة يقيمون فيها حكما لمن يرغب في البقاء فرنسيين.

ثانيا: الجزائر:

لقد أولى ديغول أهمية كبيرة للجزائر مما يدل على أهميتها بالنسبة لبلده فرنسا. وذلك من خلال تخصيص مبحث خاص للجزائر (المستعمَرة والثائرة آنذاك) دون غيرها من مستعمرات فرنسا المترامية الأطراف في مختلف القارات. تلك البلدان التي تعرض لها في المبحث السابق (الأقاليم فيما وراء البحار)، والذي أخذ الحديث عن الجزائر فيه حصة الأسد.

---

[217] نفسه، ص: 94.

[218] المصدر السابق ، ص: 109.

لقد بدأ الاستعمار الحقيقي في الجزائر، وانتهى في الجزائر. كانت الجزائر بالنسبة لفرنسا هي ابنتها التي لا يمكن التفريط فيها. ولقد فقدت فرنسا، بسبب حرب الجزائر، مستعمراتها الكثيرة في إفريقيا السوداء والمغرب العربي، لا لشيء إلا لكي تركز جهودها وقوتها للبقاء فيها.

لقد هب الشعب الجزائري من أقصى البلاد إلى أقصاها عاقدا العزم على التحرر والاستقلال، ولم يثنِه عن هدفه أي عائق؛ إلا أن نظرة ديغول لجبهة التحرير الوطني ولرجالها كان يشوبها نوع من عدم المصداقية، حيث كان يفسر رفضها للمفاوضات المشروطة وللحلول النصفية بأنها تعود إلى المزايدات والانقسامات. بينما كان رجال الثورة يريدون التفاوض المباشر، بين ممثلي الشعب الوحيد، أي جبهة التحرير الوطني وممثلي الدولة الفرنسية، ولأن سياسة ديغول الميدانية من خلال الأساليب الحربية التي اتبعها كانت تجعلهم يفقدون الثقة فيه ويشككون في أهدافه.

أما الرأي العام الفرنسي فرغم تعدد مشاربه واتجاهاته، إلا أنه وحتى المؤيدين للسياسة الديغولية كان يحز في نفسهم التفريط في الجزائر، وهم بذلك لا يستطيعون إخفاء مشاعرهم، حتى وإن لم يصرحوا بها علنا.

وهكذا لم يكن من السهل –كما يرى ديغول- إقناع الفرنسيين بالتخلي عن الجزائر، ولذلك سار على مهل، خطوة خطوة، ليهيئ الفكر والواقع حتى يبقى سيد الموقف.

وقد عاد ديغول لزيارة الجزائر في شهر مارس من سنة 1960 رفقة أكبر ضباط الجيش وطاف عدة مواقع عسكرية فرنسية، بيَّن فيها للعسكريين أن المهمة لم تنته وأنه يجب البحث عن الخصم والتغلب عليه، أما إنشاء جزائر جزائرية فسيتم في –نظره- بقرار من الأمة الفرنسية.

وهو يذكر أن الصحافة الفرنسية هاجمته ووصفت رحلته هذه بـــ "رحلة المطاعم"، وأثارت حوله غليانا مما حمّل جبهة التحرير الوطني على إصدار بيانات حربية زادت من الضغوط المختلفة عليه.

وفي 14 جوان 1960 وجه ديغول خطابا للشعب الفرنسي جاء فيه ما يخص الجزائر ما يلي: "ما مصير الجزائر؟ إنه لم يَدُر بخلدي قط أنني سأتمكن، بين لحظة وأخرى، أن أحل هذه المعضلة الماثلة منذ مائة وثلاثين عاما... ولكن بتاريخ 16 سبتمبر، انشق الطريق السوي والواضح الذي يؤدي بنا نحو السلم.. إن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم هو الحل الوحيد الممكن لمأساة معقدة ومؤلمة.."[219] ووجه كلامه لثوار جبهة التحرير الوطني يدعوهم إلى المجيء لأنه في انتظارهم، وذلك لإيجاد مخرج للقتال، إلا أنه كان يرى تحويل الجزائر الجزائرية إلى بلد مزدهر متحد مع فرنسا ومتعاون مع الاتحادات الفرنسية.

وقد استجابت جبهة التحرير الوطني لهذا النداء وأرسلت في 20 جوان وفدا يتكون من علي بومنجل ومحمد بن يحيا إلى مدينة مولان، ولقيهما عن الجانب الفرنسي روجي موريس والجنرال دوغاستين، و لم يتفق الطرفان لتشدد كل منهما بمطالبه، وبعد ثمانية أيام انتهى اللقاء دون اتفاق على أمل اللقاء مرة ثانية.

وقد واجهت ديغول عدة اضطرابات من قبل الفرنسيين الرافضين لفكرة الاستفتاء ولـــ "الجزائر جزائرية." ففي الجزائر تجمع حوالي مائة ألف شخص من أنصار "جبهة الجزائر الفرنسية" وتجاوبت معها "الجبهة الوطنية الجزائرية الفرنسية" في باريس، وقد أعرب الجميع عن عدم موافقتهم.. وكان من بين

---

[219] المصدر السابق، ص: 100.

المعارضين الماريشال جوان المولود بالجزائر، الحامل لأعلى رتبة في الجيش الفرنسي، والجنرال سالان الذي التجأ إلى إسبانيا خوفا من عواقب الأمور، وتبعه آخرون من الذين برأتهم المحكمة الفرنسية على إثر أحداث التمرد السابقة في انتظار عودتهم إلى الجزائر سرا إذا ما واتت الفرصة.

وفي شهر نوفمبر من سنة 1960 استقبل ديغول عددا من وجهاء المسلمين المنتخبين حديثا الذين أطلعوه على أن الحل النهائي هو الاتفاق مع "جبهة التحرير الوطني."

وفي 9 ديسمبر من السنة نفسها حل ديغول بالجزائر للالتقاء ببعض الفئات من السكان وبضباط الجيش الفرنسي، وكان إلى جانبه لوي جوكس الذي عين وزير دولة مكلف بالشؤون الجزائرية، وجان موران المندوب العام في الجزائر Déléguée général وعدد من الجنرالات. وفي 9 ديسمبر 1960 حل ببلدة عين تموشنت، وفي اليوم الموالي بالأصنام (الشلف حاليا)، حيث قابله المسلمون بنداء: "الجزائر جزائرية"، بينما أطلق الأوربيون الصفير ونادوا بواسطة مكبرات الصوت: "الجزائر الفرنسية." وبعضهم كان يقول: يسقط ديغول.[220]

لقد كان أوربيو الجزائر لا يريدون، في هذه الفترة، الحديث عن الحكم الذاتي ولا عن التعاون بين المجموعتين المسلمة والأوربية، وبقوا معادين لاقتراحات ديغول على الدوام. وكانوا ينتظرون زعيما عسكريا يقلب الأوضاع ويستلم السلطة في الجزائر، فيؤازرونه لوضع نظام جديد إبقاء لامتيازاتهم ومنع كل تغيير يكون لصالح الأغلبية المسلمة.

وفي 11 ديسمبر وقعت صدامات بين الجزائريين والفرنسيين، وكان يوما داميا، إنها مظاهرات ديسمبر 1960 التي وصفها بعض الفرنسيين أنفسهم بـــ

---

[220] أنظر: -Jean Morin, De gaule. P/56. .

"ديان بيان فو" جزائرية. يذكر جون موران -مرافق ديغول في زيارته للجزائر والمكلف بالنظام بهذا البلد- أن المظاهرات كانت بالجزائر ووهران يومي السبت والأحد 10 و11 ديسمبر، حيث خرج المسلمون في مظاهرات وهم يحملون أعلام جبهة التحرير الوطني، ووقعت الإصطدامات بين الأوروبيين والجزائريين، وقد أطلقت قوات الصاعقة النار على المتظاهرين، مما أدى إلى مقتل 61 شخصا مسلما وخمسَ أوروبيين وشرطيا واحدا بمدينة الجزائر. أما وهران فيذكر 18 قتيلا و100 جريح و300 موقوف. أما يوم الاثنين فقد تناقص عدد المتظاهرين ثم اختفت الأسلحة والأعلام. وفي عنابة قدر عدد القتلى بثمانية أشخاص و33 جريحا.[221]

لقد خرج الجزائريون إلى الشوارع لإعلان دعمهم لجبهة التحرير الوطني، وليقولوا لديغول ولغيره من ساسة فرنسا بطريقة ما: "نحن موجودون، يجب أخذنا في الاعتبار." وبذلك كان خروج الجزائريين المسلمين إلى الشوارع لأول مرة في مظاهرات ضخمة، أكبر رد على أكذوبة خروج جبهة التحرير الوطني على القانون أو عدم تأييد الجزائريين لها، وها هي الجماهير الشعبية تؤكد بذلك مساندتها ودعمها لجبهة التحرير الجزائرية.

وقد أدت هذه الأحداث إلى تدخل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وذلك بقيام رئيسها فرحات عباس بمراسلة الأمين العام للأمم المتحدة وبعض زعماء العالم كشوان لاي وخروتشوف وماك ميلان وتيتو ونهرو، كما راسل اللجنة الدولية للصليب الأحمر من أجل الوقف الفوري لأحداث الجزائر الدامية. وفي 19 ديسمبر عرض كريم بلقاسم قضية الجزائر على الأمم المتحدة وتمكن من الحصول على إدراجها فقرة فقرة على مشروع الحل الذي دافعت عنه 23 دولة

---

[221] أنظر المصدر السابق IBID. P/ 67 à 74

أفرو-أسوية، ويعترف المشروع بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واستقلاله. ورغم أن ديغول لم يُعِر اهتماما كبيرا لأعمال الأمم المتحدة فإن هذا التصويت "والمداولات التي أعقبته بَيَّنت -كما يذكر جون موران- أن كل العالم ضدنا فيما يتعلق بالقضية الجزائرية"[222]

في هذه الفترة كان ديغول متواجدا بالجزائر يزور بعض المدن في الغرب والشرق الجزائري. وخلال خمسة أيام اقتنع من خلال تلك الزيارة، أن الجزائر سائرة نحو تقرير المصير وأن المسلمين مقتنعون بحقهم في الاستقلال، بينما الأوربيون عازمون على حرمانهم من ذلك مهما كلفهم الأمر.

وفي 8 جانفي 1961 صوت الفرنسيون في الاستفتاء لمنح الجزائريين حق تقرير مصيرهم أو عدم منحهم، هذا الحق الذي عرضه ديغول على الشعب الفرنسي، حيث صوت لصالح الاستفتاء 15 مليونا فرنسيا بنعم، وصوت خمسة ملايين بكلمة: لا. وهي أغلبية تمثل 76÷، وفي الجزائر صوت لصالح الاستفتاء 70÷ من الأصوات. ولهذا لم يبق أمام ديغول سوى أن يتمم ذلك بقرار يصدره هو -كما يقول- وتناسى أن المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني كانت سائرة، رغم أن الاجتماعات كانت متقطعة، إلا أن ديغول كان يلعب على الحبلين مرجحا الحل العسكري الميداني دون أن يقطع حبل التفاوض. وبما أنه كان يتوقع تصويت الجزائريين لصالح الاستقلال، فإنه يذكر أن الفرنسيين سيركزون حكما حول مدينتي الجزائر ووهران للسكان الذين يرغبون في البقاء فرنسيين، وهو يَعُدّ هذا نكبة للجزائر وليس لفرنسا، لأن ديغول كان يختار بدل الاستقلال نظاما قائما على ما يسميه بالتعاون المتبادل بمنح امتيازات لكل من فرنسا والجزائر. جاء في إحدى خطبه ببلدة شرشال: "هذه الجزائر تروها ظاهرة

---

[222] المصدر السابق .IBID. P/80

كل يوم كما هي، أيْ جزائر تتكون من المجموعتين، الأولى أغلبية والأخرى التي هي ضرورية لهذه الجزائر، مثل الخميرة ضرورية للعجين، هذه الجزائر التي تتراءى ستأخذ بقَدَرها بيَدَيْها، يجب أن تبقى موحدة مع فرنسا."[223]

ويتساءل ديغول عن أسباب تردد زعماء الثورة وخوفهم من المجابهة والالتزامات التي تقتضيها المفاوضات الجدية، ويعيد ذلك إلى قلة خبرتهم بالنواحي العملية وإلى التنافس القائم بينهم. وهو بذلك يحاول زرع الشك بين الثوار ونعتهم بعدم القدرة على المجابهة مما يجعله هو في الصدارة دائما.

ويتعرض في مذكراته للوفد الممثل للولاية الرابعة الجزائرية الذي التقى به في مدينة باريس سرا والمتمثل في كل من: العسكريين سي صالح وسي الاخضر ورجل سياسي يدعى سي محمد. ويتحدث عن لقاءات إيفيان وليروس في فبراير ومارس من سنة 1961، حيث انتهت في إيفيان. ويشير إلى أن تلك الاتفاقيات انتهت بأن مَنَحَ الشعب الفرنسي بموجبها الجزائر الاستقلال صراحة، مع التعاون بين الطرفين.

وهكذا يتمادى ديغول في اعتبار استقلال الجزائر منحة منه ومن الشعب الفرنسي وليس أخذا، لأن الواقع يفسر أن ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة، ثم لماذا لم يُمنح هذا الاستقلال قبل قيام ثورة أول نوفمبر 1954! ولماذا لم يقع التفكير في حل "المشكلة الجزائرية" إلا بعد فشل الحكومات الفرنسية المتتالية في القضاء على الثورة واستنجاد الفرنسيين به في آخر المطاف؟ ثم كيف ينتظر هو أربع سنوات بعد توليه حكم فرنسا ليمنح الجزائريين استقلالهم، مثلما يدعي ذلك؟

---

[223] المصدر السابق .IBID. P/61

وفي 26 جانفي صرحت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بأنها مستعدة للتفاوض مع الحكومة الفرنسية بشرط أن يتم الاستفتاء بعد جلاء الجيش الفرنسي من التراب الجزائري.

وقبل ذلك بيوم واحد كان الجنرال شال قد طلب إحالته على التقاعد لمعارضته لسياسة الحكومة الفرنسية آنذاك. وفي فانسان تجمعت العناصر المؤيدة لفكرة الدمج بتحريض من جاك سوستيل، وكونت لجنة لهذا الأمر. وفي الجزائر ووهران كون هؤلاء منظمة الجيش السري OAS من جميع الفئات، والتي تضاعفت اعتداءاتها في فرنسا والجزائر.

وفي 11 أبريل وفي مؤتمر صحفي صرح ديغول بما يلي:

-الجزائر تكلفنا أكثر مما نربح منها.

-الحل هو انفصال الجزائر عنا.

ونبه إلى أن أعمال جيش التحرير الوطني هي التي أملت عليه هذا القول، مشيرا إلى ذلك بالالتزامات والأعباء، لأنه لا يريد الاعتراف بالهزيمة وبالتالي لا يمكنه ذكر خصمه باسمه. وقال: "إذا قمت بكل ذلك، فليس بدافع حركة التحرر الواسعة التي أثارتها الحرب العالمية ونتائجها في جميع أنحاء العالم... وإنما لأنه بدا لي أن إبقاء فرنسا مرتبطة بالتزامات وأعباء تتعارض مع مقتضيات عظمة فرنسا وإشعاعها، لا يتفق مع مصلحتها الحالية، وطموحها الحديث."

كان ديغول يبحث عن مبررات لعرقلة استقلال الجزائر التام، فهو ينكر أن اعترافه بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ليس خضوعا وتحت ضغط الحرب التحريرية التي تتزعمها جبهة التحرير الوطني، كما أنه ينفي أن يكون ذلك بسبب رياح التحرير التي اجتاحت العالم أجمع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، إذن ففرنسا لها وضع خاص ليس كبقية خلق الله، وكأنها تعيش في

كوكب آخر منعزل أو أنها لا تحس ولا تكترث بما حولها من تغيرات، لقد وقع ديغول فيما يقال: "رب عذر أقبح من ذنب."

وفي 22 أبريل سنة 1961 توجه الجنرال شال إلى الجزائر سرا في طائرة عسكرية، حيث استولى على السلطة ودَعَّمه عدة ضباط وكتائب من المظليين، وألقى القبض على المندوب العام جان موران وعلى القائد العام الجنرال غامبييز وكل من يمثل السلطة، ونصب محكمة عسكرية للنظر في جرائم الأشخاص المناصرين لمشروع التخلي عن الجزائر والصحراء.

كان أول عمل قامت به المنظمة السرية قد تم في مطلع شهر مارس من سنة 1961 بظهور عبارة OAS على جدران الجزائر، وتم توزيع منشورات للإعلان عن نشأة جبهة حربية مع لجنة عسكرية وأخرى سياسية تحت رئاسة الجنرال سالان.

وفي 25 أبريل بدأ تراجع العديد من كتائب الجيش ومن الضباط عن التمرد والثورة، ثم اختفى قادة الجيش السري لتوجيه العمل سرا. وقام هذا الأخير بأعمال إرهابية خفية في الجزائر وفرنسا، وقام الجزائريون بأعمال دفاعية لاسيما في مدينتي الجزائر ووهران. وقد أحدث ديغول محكمة عسكرية عليا بموجب المادة 16 من الدستور لمحاكمة المتهمين الرئيسيين (شال-ديلّر-غورو.)

وفي 20 ماي من سنة 1961 اجتمع الوفدان الفرنسي والجزائري للتفاوض في مدينة إيفيان: لويس جوكس يرأس الوفد الفرنسي وكريم بلقاسم يرأس وفد الجبهة، كانت استراتيجية ديغول هي "سنرى ماذا يطلبون منا." ومن أجل إظهار حسن النية قام ديغول بالإفراج عن ستة آلاف جزائري من بين عشرة آلاف محكوم عليهم بسبب أعمال تتعلق بالثورة، وأخلى سبيل بن بلة ورفاقه الموقوفين بجزيرة إيكس ونقلهم إلى قصر توركان، وأطلق سراح مصطفى الأشرف.

كان جوكس حريصا على مستقبل الجزائر المنفصلة بضمان التعاون الوثيق بين الأطراف ورعاية وضع الأشخاص الأوربيين فيها، وأن تعطى الأفضلية لفرنسا في كل شيء، مع استمرار سلسلة التجارب الذرية والفضائية بالصحراء مع تقديم مساعدات للجزائر في كل مجال، "لكي يتاح للنخبة الجزائرية أن تكتسب الثقافة الفرنسية وأن يتم تعليم الشعب باللغة الفرنسية." أما رغبات الثوار هو عدم ثقتهم في الطرف الفرنسي، والشك في بقاء السيطرة الفرنسية على الجزائر.

لقد كانت الجبهة تطالب بوحدة الأمة الجزائرية ووحدة أراضيها، ورفض امتيازات خاصة للمواطنين الفرنسيين وعدم التخلي عن الصحراء. أما رغبة فرنسا فهي تجميع الأوربيين والمسلمين الراغبين في البقاء فرنسيين في منطقة ضيقة يؤلفون فيها أغلبية السكان تتولى فرنسا حمايتهم، والإبقاء على الصحراء بآبار البترول وتجارب القنابل والصواريخ، وإن اقتضى الأمر فصل الصحراء، فماذا تحقق من ذلك؟

لقد جاءت اتفاقية إيفيان الخاصة باستقلال الجزائر، في كثير من بنودها لصالح الطرف الفرنسي باستثناء وحدة الأراضي الجزائرية واعتبار جبهة التحرير الوطني الممثل الوحيد للشعب الجزائري، إلا أن الدولة الجزائرية تخلصت من تلك القيود بتوالي سنوات الاستقلال، وفي وقت قصير جدا. لقد أحرز الشعب الجزائري في النهاية على الانتصار –كما يقول بن خدة– ويعود هذا الفضل إلى "جبهة التحرير الوطني التي عرفت كيف تنظم وتكافح على جبهات متعددة: عسكرية واقتصادية وسياسية وديبلوماسية، والتي لم تغلق الباب أبدا أمام المفاوضات مع الخصم..."[224] مما أجبر فرنسا على الاعتراف رسميا باستقلال وسيادة الجزائر في إطار وحدة تراها بما في ذلك الصحراء.

---

[224] بن يوسف بن خدة، اتفاقيات إيفيان، تعريب لحسن زغدار ومحل العين جبائلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1987، ص:8.

تاسعا :قراءة في كتاب "الثورة الجزائرية"
لمصطفى طلاس وبسام العسلي.

شكل الوطن العربي العمق الإستراتيجي للثورة الجزائرية 1954-1962، وحتى مواقف العالم توقفت على مدى التضامن العربي معها ومدى تدعيمها دوليا من قبل الأقطار العربية. وأكبر دليل على ذلك أن أول بلد غير عربي يعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة، بعد تأسيسها في 19 سبتمبر 1958 وهو كوريا الشمالية، جاء بعد اعتراف عشر دول عربية بهذه الحكومة الجزائرية.

كما أن الشعوب العربية كانت تتابع انتصارات الثورة الجزائرية وانتكاساتها بكل اهتمام وانجذاب، وأن كل ذلك كان يمسها مباشرة بالسعادة حين الإنتصار وبالحزن حين الهزيمة، يقول أحد الكتاب العرب: "كنا فتيانا، وكانت الأخبار شحيحة في المشرق العربي، ومع ذلك فقد كنا نلاحق أخبار الجزائر –بلد المليون شهيد- بلهفة وشوق، كنا نعيش مع شعب الجزائر، آلامه وأحلامه، وكلما سمعنا خبرا جديدا عن تضحياته كلما ازداد حبنا له، وتقديرنا لمواقفه، وتلهفنا لمعرفة المزيد عن الشعب الشقيق المجاهد، والبلد العربي المسلم الأصيل."[225] هذا عن الدعم والمساندة، فماذا عن الكتابة التاريخية؟

لم تكن الكتابات التاريخية في مستوى الدعم السياسي الذي لقيته هذه الثورة، فالمشارقة يجهلون عن الجزائر الشيء الكثير، فقد كُتب عن الثورة القليل من الدراسات، وحتى تلك الكتابات العربية القليلة عن الثورة الجزائرية انطلقت

225 أحمد راتب عرموش، مقدمة الناشر، في كتاب بسام العسلي، خير الدين بربروس، دار النفائس، بيروت 1983، ص: 7.

من منطلق عاطفي في أغلب الأحيان. وإذا كان الجزائريون يلومون المشارقة ويحمّلونهم عِبْء هذا الجهل والتجاهل، فإن هؤلاء يعيبون هم أيضا على الجزائريين عدم تعريفهم ببلادهم. والحقيقة أن لكل من الاثنين زلاته ومثالبه ونصيبه من هذا التقصير.

ومن بين هذه الكتابات القليلة نجد كتاب "الثورة الجزائرية" لمصطفى طلاس وبسام العسلي السوريّيْن. هذا الكتاب الذي يحتوي على 720 صفحة من الحجم الكبير، والذي ينقسم إلى مقدمة وثمانية فصول بدون خاتمة.

يحمل الفصل الأول منها عنوان: "دراسة جيوبوليتيكية- الأرض والسكان." وهو يقتصر على الطابع الجغرافي والبشري للبلاد الجزائرية. تحدث فيه المؤلفان عن الوضع الطبيعي من تضاريس ومناخ وخصائص كل منها، أما عن الكيان البشري فتحدثا عن التقديرات السكانية لسنة 1979 وتوزعهم بين الشمال والجنوب وأسباب ذلك، وتعرضا للمقارنة بين الجزائر والبلدان المجاورة مبينيْن رحابة الأرض الجزائرية مما يمثل نقطة قوة سياسية وعسكرية هامة، كما أن لعدد السكان مهمة مماثلة أيضا إذا ما قورنت بالمساحة. وانتقلا إلى البناء الاقتصادي فتحدثا عن الإمكانيات الزراعية والغابية وعن أهمية الصناعة وما يرفدها من معادن وطاقة كالبترول والغاز الطبيعي إلى جانب الأهمية التي تمثلها المواصلات.

والفصل الثاني يحمل عنوان: "الثورة الجزائرية" ويتحدث فيه صاحبا الكتاب عن الوضع العام عشية انطلاق الثورة من استيطان وسياسة عنصرية ثم بداية التنظيم الثوري وجذوره مرورا بأحداث الثامن ماي 1945 إلى بيان أول نوفمبر 1954. وتتمثل المباحث الواردة في هذا الفصل فيما يلي: الثورة الجزائرية وخصوصيتها- الوضع عشية الثورة- الاستعمار الاستيطاني والتمييز

العنصري- الموقف الخاص(بدايات التنظيم الثوري وجذوره)- مذبحة 8 ماي 1945 - البيان الأول للثورة(بيان أول نوفمبر 1954).

والفصل الثالث ويحمل عنوان: "الثورة في بداياتها" ويتعرضان فيه لانطلاقة الثورة، إلا أنهما يركزان على ثلاث مناطق محددة وهي الأوراس والمتيجة ووهران. أما المباحث الواردة فيه فهي: الإعداد للثورة- الله أكبر- لهيب الثوة في الأوراس-فجر يوم الثورة المسلحة- اندلاع الثورة في متيجة- الولاية الأولى في معركة التحرير- الثورة في وهران- المبادئ العشرة لجيش التحرير الوطني الجزائري.

والفصل الرابع ويحمل عنوان: "حوار الإيرادات في الصراع المصيري" يتعرضان فيه للسياسة الفرنسية ورد فعلها لمواجهة الثورة وتأقلم هذه الأخيرة مع تلك المواجهة. ويشتمل على المباحث التالية: حوار الإيرادات المتصارعة- دمج الجزائر بفرنسا وفشله- الإرهاب الفرنسي- ظهور جيش التحرير كقوة منظمة- المناطق المحررة(قواعد الثورة).

والفصل الخامس ويحمل عنوان: "التحول الحاسم في مسيرة الثورة" ويتحدثان فيه عن تنظيمات الثورة منذ مؤتمر الصومام 1956 وتطور الصراع بين الجانبين والأحداث المصاحبة محليا. ويشمل العناصر التالية: أحداث لها تاريخ-مؤتمر الصومام، التطور الحاسم-تطور الصراع المسلح(ويشمل معارك وأحداث مختلفة).

والفصل السادس ويحمل عنوان "المسيرة الشاقة والصراع المرير 1957-1958" ويتعرضان فيه لأحداث سنتي 1957-1958 وبخاصة تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة وموقف الأمم المتحدة من القضية الجزائرية، كما تعرضا لذكر بعض المعارك. ويشمل العناصر التالية: تيار الأحداث- تشكيل الحكومة المؤقتة-

اتساع نطاق الدعم العربي والدولي للثورة- فضائل الثوار وفضائح الاستعمار- في أفق الصراع المسلح(معارك).

والفصل السابع ويحمل عنوان: "الطريق إلى النصر 1959-1962" تعرضا فيه لعمليات الجيش الفرنسي ضد مواقع جيش التحرير الوطني الجزائري، وتأقلم هذا الأخير مع الوضع الجديد للخطط الفرنسية، كما تعرضا لمظاهرات ديسمبر 1960، ومواجهة الحكومة المؤقتة لحلف شمال الأطلسي عن طريق المراسلات والاتصالات محملة إياه كل ما يصيب الشعب الجزائري من ويلات ومآس، إلى جانب التعرض لقضية الصحراء الجزائرية التي كانت فرنسا تود الاحتفاظ بها بطريقة أو بأخرى. ويشمل الفصل مجموعة من المباحث هي: تاريخ في سطور-تجديد البيعة للحكومة الجزائرية- جزائر الثورة وحلف شمال الأطلسي -الصراع على حدود الصحراء- طريق إيفيان- مشروع برنامج تحقيق الثورة الديمقراطية الشعبية.

والفصل الثامن ويحمل عنوان: "النصر الحاسم والصراع السياسي 1959-1962" تعرض فيه الكاتبان لحرب الاستنزاف التي نهجها جيش التحرير الوطني الجزائري، ولقصص بعض المعارك وأوضاع الجزائر الجديدة بعد الاستقلال سنة 1962 والصراع على السلطة. وبه مجموعة من المباحث هي: حروب الاستنزاف- من قصص الحرب- عمليات على الحدود الشرقية- أمر وقف إطلاق النار- على طريق الجهاد الأكبر.

المناقشة

لقد جاء تأليف هذا الكتاب استجابة من مصطفى طلاس لطلب من الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين، وقد أخرجه في طبعته الأولى سنة 1982 أي بعد أربع سنوات من وفاة الرئيس الذي كان قد قال له: "إنك خيرُ من يؤرخ لثورة الجزائر، فأنت وإن كنت محبا لها... فإنك تتمتع بحس المؤرخ

وروحه... ولن ينجوَ أي جزائري من شَرَك التحيز للثورة، فهي قلبَهم وعقلهم...

لذلك فإني أطلب إليك أن تكتب كتابا عن تاريخ ثورة الجزائر بصفتك المؤرخ مصطفى طلاس وليس بصفتك السياسية والعسكرية، وسأضع تحت تصرفك كل ما يتوفر لدينا من وثائق ومراجع عربية وأجنبية."[226]

هذا ما جاء في مقدمة الكتاب التي يوضح فيها مصطفى طلاس الدافع الرئيسي وراء عملية كتابة هذا المؤلَّف، وهي تحقيق أمنية الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين الذي رأى الكتابات الفرنسية تتوالى حول الثورة الجزائرية والتي كانت تقيِّم الأحداث من الوجهة الفرنسية، وبخاصة كتاب " La guerre d'Algérie" لصاحبه[227] Yves Courrière الذي نشر جزأه الأول سنة 1968، فأراد الراحل بومدين بذلك أن تقوم الكتابات العربية بدورها في دراسة الثورة الجزائرية لتبيان الحقيقة وتجاوز ما يكتبه الفرنسيون،

---

[226] مصطفى طلاس وبسام العسلي، الثورة الجزائرية، دار الشورى، بيروت 1982. ص:12. لبسام العسلي مجموعة هامة من الكتابات التاريخية حول الجزائر –عدا هذا الكتاب– منها كتاب جبهة التحرير الوطني الجزائرية ومنها كتاب جهاد الشعب الجزائري ومنها كتاب جون بول سارتر والثورة الجزائرية وكتاب المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي ومنها الأمير خالد الجزائري ومنها خير الدين بربروس ومنها الأمير عبد القادر الجزائري...

[227] يشتمل كتاب " La guerre d'Algérie" لصاحبه Yves Courrière على أربعة أجزاء. طبعة Librairie Arthème Fayard 1968, 1969, 1970, et 1971. ، وكل جزء يحمل عنوانا يختلف عن الآخر، يستند فيها المؤلف كثيرا على الروايات والشهادات التي حصل عليها من قبل الكثير ممن عايش الثورة من الفرنسيين والجزائريين، وكانوا من صناعها من الطرفين. إلا أنه، مثل العديد من الكتاب الفرنسيين، يكتب من وجهة نظر فرنسية، من ذلك مثلا أنه يصف الفدائيين الجزائريين بأنهم إرهابيون، مثلما كانت تصفهم أجهزة الاستعمار نفسها. وقد ذكر يحي بوعزيز ما لاحظه المجاهد بوضياف على هذا الكاتب فقال: "وقد أشار الراحل محمد بوضياف إلى كثير من الأخطاء المرتكبة من قبل هذا الكاتب الصحفي الفرنسي." إلا أن يحي بوعزيز لم يذكر مصدره هذا! (يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996، ص: 422 و423).

أعداء الأمس، الذين لا يمكنهم الحياد في القضية الجزائرية، لأنهم لم يسلموا بعد من عقدة التفوق، كما أنهم لم يستطيعوا الاقتناع بخروج الجزائر من أيديهم.

فكيف جاء هذا الكتاب؟ وهل حقق ما كان الرئيس الجزائري يرجوه من هذا العسكري المؤرخ؟ وكيف نقيّمه من وجهة نظرنا؟ هذا ما سنحاول الكشف عنه بقدر اجتهادنا في هذا الأمر والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

يتبين من خلال قراءة الكتاب أن المؤلفيْن حصلا على وثائق أصلية كثيرة، منها وثائق الثورة من المتحف الوطني، ومنها الجرائد الصادرة في مرحلة الثورة التحريرية كجريدة "المقاومة الجزائرية"(1955-1957) وجريدة "المجاهد" والجرائد الفرنسية مثل جريدة Le Monde و"Paris Jour" و L'Observateur ووكالة الصحافة الفرنسية Agence France presse وصحيفة La Croix و"الفيغارو"، ومنها جرائد أخرى مثل "غارديت دو لوزان" و"نيويورك هيرالد تريبيون" وغيرها؛ بالإضافة إلى المراجع المكتوبة التي حصلا عليها سواء كانت لمؤرخين جزائريين أو أجانب مما أثبته المؤلفان في قائمة المصادر والمراجع في نهاية الكتاب أو داخل المتن.

إذن فقد توافر للمؤلفيْن المادة الخام التي اعتمداها في كتابيهما والتي كانا يستشهدان بها ويشيران إلى بعضها في الهامش. والمعروف أن بسام العسلي مثلا وهو أحد المؤلفيْن، كتب الكثير عن التاريخ الجزائري عامة -فيما سماه بسلسلة جهاد شعب الجزائر- وذكر في إحداها أنه استفاد من الوثائق التي أمدته بها وزارة الدفاع الجزائرية ووزارة المجاهدين ووزارة الإعلام، وأنه سيستغل تلك الوثائق والمعلومات والبيانات -كما يقول- في إصدار مجموعة "الحروب الثوروية الإسلامية."[228]

[228] بسام العسلي، خير الدين بربروس، دار النفائس، بيروت الطبعة الثانية 1983 ص: 16.

وقد استفاد الرجلان من خبرتهما وبخاصة مصطفى طلاس كسياسي محترف بصفته نائبا للقائد العام ووزيرا للدفاع في الحكومة السورية آنذاك.

لقد عاش الكاتبان مرحلة ما بعد استقلال كثير من الدول الإفريقية والأسيوية، مرحلة الستينيات والسبعينيات حين كانت مخططات النظام التقدمي والثوري في مواجهة النظام الرجعي والمحافظ، وكانت حركات التحرر في أوج عزتها بعد ظهور حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الإفريقية. وفي البلاد العربية خاصة كانت جامعة الدول العربية (المؤسسة منذ 1945) تسير بخطى بطيئة، كما شهد الكاتبان نكسة جوان 1967، وزيارة الرئيس المصري أنور السادات للقدس لمقابلة القيادة الإسرائيلية التي تلاها عقد اتفاقية كامب ديفيد سنة 1979، ثم ظهور جبهة الصمود والتصدي التي كانت الجزائر وسوريا أحد أقطابها آنذاك.

أما سوريا فكانت أحد الأقطاب الحاملة للفكرة القومية، وكان السوريون يعتقدون بكل قوة أنهم "يؤلفون جزءا من أمة عربية متميزة بمقومات أساسية تؤهلها للنهوض والوحدة ولمجاراة أرقى الأمم حضارة. فكان همهم موزعا بين مشاكل وطنهم المحلي —سورية– وبين قضايا وطنهم العربي الكبير في المشرق والمغرب."[229]

فكان الوقت مناسبا ومساعدا للكتابة عن مثل هذه الثورة لدعم بعض المواقف في العالم من أجل التحرر والاستقلال ومواجهة قوى الإمبريالية الغربية.

جاء الكتاب في وقت كانت فيه الحرب الباردة على أشدها بين المعسكرين الغربي والشرقي، وكان العالم الثالث —ومنه البلدان العربية– يحاول التحرر من هذا وذاك باحثا لنفسه عن مجال أوسع وأفق أرفع.

---

[229] أحمد طربين، "أصداء التضامن في المجلس النيابي السوري مع الثورة الجزائرية 1954–1962." الملتقى الدولي الجزائري 24–28 نوفمبر 1984.

لقد طرح الكاتبان تاريخ الثورة الجزائرية على القراء العرب من أجل استلهام العبر والعمل على شاكلة أبطالها في نبذ الظلم ومحاربته والعمل على التحرر في كل الميادين. يذكر صاحب مقدمة الناشر لكتاب "خير الدين بربروس" للمؤلف بسام العسلي، والكتاب من المجموعة التي كتبها هذا الأخير حول تاريخ الجزائر المعاصر، "أن الحوافز لنشر هذه الكتب كثيرة، منها قلة الكتب التي تتناول جهاد الشعوب العربية والمسلمة في العصور المتأخرة، وانصباب التركيز كله على عهد الفتوحات الإسلامية الأولى.."[230]

ويُبرِز بسام العسلي نفسُه الهدف من كتابة هذه المجموعة حول تاريخ الجزائر والمتمثل في الرد على محاولات الآخرين طمس معالم الوجه المشرق لما يسميه بالحروب الثوروية الإسلامية. وأنه لهذا السبب "تظهر الحاجة لإبراز الوجه المشرق للحروب الثوروية الإسلامية بهدف تأكيد الطابع المميز لها، وبهدف المحافظة على أصالة هذا الطابع من أجل اعتماده قاعدة ثابتة لبناء المستقبل."[231]

لقد حلل الكاتبان الأحداث المختلفة للثورة الجزائرية، مبينيْن الظروف التي كانت تعيشها الجزائر والجزائريون، أثناء مرحلة الثورة، من بطش وإرهاب وتقتيل وطرد ونفي وغير ذلك من مختلف الأساليب اللاإنسانية، مبرزَيْن قيام الثورة الجزائرية الشعبية، متتبعيْن نشاطاتها وتطوراتها منذ ما قبل سنة 1954 إلى ما بعد الاستقلال سنة 1962 بقليل. وقد ركزا كثيرا على بطولات الشعب الميدانية في الكفاح المسلح في مواجهة قوة عظمى تجر وراءها أعضاء منظمة حلف شمال الأطلسي، مبينيْن تنكر الفرنسيين لمبادئ ثورتهم التي قامت ذات يوم من أيام القرن الثامن عشر، والتي كان شعارها الحرية والأخوة والمساواة،

---

230 بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص: 7.

231 المرجع نفسه، ص: 15.

وتجاهُل الحكام الفرنسيين للتشابه القائم بين أوضاع الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية -وبالأخص سنة 1940 حين ظهرت حكومة فرنسا الحرة في مواجهة النازية وعملائها الفرنسيين- وبين الثورة الجزائرية التي لا تختلف عنها إلا في الاختلاف بين حرب عادية بين قوتين كبيرتين وحرب ثورية تحررية ضد الاستعمار.

كما أبرزا ذلك التلاحم القائم بين الشعب الجزائري وقيادته الثورية من خلال ما أسمياه بالاستفتاء والبيعة الشرعية، ويتمثل ذلك في عدة مظاهر، منها:

1-مقاطعة الشعب لبعض البضائع الفرنسية كالتبغ بناءً على أمر من جبهة التحرير الوطني.

2-إضراب الثمانية أيام(جانفي-فيفري 1957) الذي سار كما رغبَت فيه الثورة ولقي نجاحا منقطع النظير.

3-مظاهرات 11 ديسمبر 1960 كتجديد للبيعة وعقد صحيح بين جبهة التحرير الوطني وقواعدها الشعبية.

إلا أنهما أغفلا الحديث عن الإضراب الذي قام به الطلبة الجزائريون سنة 1956 وانضمامهم إلى جبهة التحرير الوطني، ولم يشيرا إلى نشأة الاتحاد العام للعمال الجزائريين في السنة نفسها، وما كان لذلك من أثر إيجابي على مسيرة الثورة.

إن قراءة متأنية لهذا الكتاب تظهر لنا المؤلفيْن متعاطفيْن مع الثورة الجزائرية إلى حد كبير، سواء من خلال الأحداث أو باستخدام بعض المصطلحات وبعض العبارات من أجل المبالغة؛ بينما المطلوب من المؤرخ أن يتصف بالصدق والنزاهة والأمانة وأن يتحلى بالدقة والموضوعية فيما يكتب، وأن يصحح الرواية ويمحصها بالفكر والدراية.

من ذلك مثلا أنهما لا يُظهران الثورة إلا في وضع المنتصر أبداً، ويتبين ذلك من القصص التي يوردانها —نقلا عن هذا أو ذاك– فجيش التحرير الوطني لا يُهزَم أبدا، فهو المبادر وهو المنتصر، وعدد القتلى كبير في صفوف العدو قليل في صفوف الثوار، وكلما غيَّر الفرنسيون من خططهم تأقلم الثوار مع ذلك بخطط معاكسة كانت مَجلبة للانتصار والتفوق ميدانيا. وعندما تأتي النجدات يكبدها الثوار أفدح الخسائر فتعود من حيث أتت أو يتمكنون من فتح ثغرة في صفوف العدو المحاصِر لهم وينسحبون رغم قلة عددهم وعتادهم في كل مرة.

وعندما يتحدثان عن الفرنسيين يستعملان عبارات مبالغة مثل: "وأخيرا أثمر الجهاد ثمرته وانتصر الحق والقوة العادلة على الباطل والقوة الهمجية البربرية."[232] ومثل: "قوات البطش الاستعماري."[233] والقوات الفاشية.[234] والقوة الغاشمة للاستعمار".[235]

ومن مظاهر التعاطف التي يبديها المؤلفان تجاه الثورة والثوار التأكيد على إظهار التشابه بين أوضاع الجزائر وبلاد الشام، من ذلك مثلا:

في المجال الجغرافي يقولان: "بلاد الجزائر أشبه الأقطار العربية ببلاد الشام."[236] ويضيفان في مكان آخر: "تشابِه الجزائر سوريا وليبيا بوجود ساحل واحد وثلاثة أضلاع برية."[237]

وفي مكان آخر يذكران أن هناك تشابه مع الشام بشكل متوازي الأضلاع غير المنتظم والذي يضيق في الشرق كثيرا عنه في الغرب، ويقولان:

---

[232] مصطفى طلاس وبسام العسلي، الثورة الجزائرية، ص:43.

[233] نفسه، ص:247 .

[234] نفسه، ص:253.

[235] نفسه، ص:259.

[236] نفسه، ص: 16.

[237] نفسه، ص: 15.

"وهذه الصورة تذكرنا مرة أخرى ببلاد الشام، فهما نظائر جغرافية برغم الفروق الثانوية المحلية.".[238]

وعن طرق المواصلات يَرِد ما يلي: "وكما هي الحال في بلاد الشام ودول المغرب المجاورة تمتد السكك الحديدية في محور عرضي أساسي، يخدم المنطقة التلية، وأخرى طولية تتفرع عن هذا المحور الطولي..".[239]

لقد بحث المؤلفان عن عوامل التشابه ليقربا بين الشعبين والدولتين لتمتين التلاحم والتعاون القائم آنذاك بين الجزائر وسوريا في عهد الرئيسين الراحلين هواري بومدين وحافظ الأسد، إلا أن التركيز على ذلك جاء بطريقة المبالغة اللاواقعية، إذ أننا لو بحثنا عن أوجه التشابه في مختلف العناصر لوجدنا الكثير منها تتشابه فيها دول عديدة وبخاصة في المجال الجغرافي، ذلك أن عناصر المناخ مثلا تتشابه في البلدان ذات المناخ الواحد، مثل مناخ البحر الأبيض المتوسط الذي يسود البلاد الجزائرية ويسود دولا عديدة أخرى في العالم، كما أن التضاريس من تلال وهضاب وسهول تتشابه فيها دول أخرى. أما الدول الساحلية فتتشابه في كثير من عناصر الحياة، لأن الموقع يتحكم في كثير من مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية، بل ويؤثر أحيانا على الأحداث المحلية لهذا البلد أو ذاك.[240]

وفي الميدان التاريخي يذكران تشابه بعض الوقائع التاريخية في البلدين: الجزائر وسوريا، أهمها أنه في أول ماي 1945 -يوم الانتصار على النازية- ظهرت بواكير الثورة في توقيت واحد في العاصمتين ونزول جند الاستعمار لاستثارة جماهير الشعب. على أن هذا الحدث انتهى بمجزرة 8 ماي 1945

238 نفسه، ص: 17.

239 المراجع السابق ، ص: 32.

240 جيمس فيرجريف، الجغرافيا والسيادة العالمية، ترجمة علي رفاعة الأنصاري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1956، ص: 16.

بالجزائر وتأخرت مذبحة دمشق حتى 29 من الشهر نفسه، حيث سقط شهداء مجلس الشعب ودمرت بعض أحياء دمشق بالقنابل.[241]

أما فيما يخص مضمون الكتاب فإننا نلاحظ ما يلي:

يبدأ الجزء التاريخي من الفصل الثاني - اهتم الفصل الأول بالجانب الجغرافي- وقد جاء عنوانه كالتالي: "خصوصية الثورة الجزائرية." وهنا نتساءل كيف يبدأ الكاتبان الحديث عن خصوصية الثورة قبل أن يتحدثا عن بداياتها كالأسباب والظروف وما إلى ذلك؛ إذ لابد أن يسبق الحديث عن الحدث، أسبابه الخاصة والعامة القريبة والبعيدة وعن جذوره الأولى وتطوره عبر المراحل قبل الحديث عن الخصوصية التي تكون آخر ما يتطرق إليه المؤلفان. وحتى وإن سلمنا بالأمر، فهل تحدث المؤلفان فعلا عن الخصوصية ؟

عندما نتصفح هذا الفصل نجد المؤلفيْن يتحدثان عن الوضع العام الاستعماري من استيطان وسياسة التمييز العنصري، وينتقلان إلى تطور الحركة الوطنية، من نجم شمالي إفريقيا في العشرينيات حتى اندلاع الثورة الكبرى سنة 1954. فليس هناك خصوصيات بل هناك أحداث ومراحل سياسية، أي ليس هناك تطابق بين العنوان والمضمون.

إذ أن خصائص الثورة تعني المميزات التي تميزها عن غيرها من الثورات أو تشابهها في أخرى، مثلما بيَّن ذلك أحد الباحثين الذي ميز الثورة الجزائرية بعدة مميزات أهمها كما قال: أنها ثورة جماهيرية وأنها ذات عقيدة إسلامية وأنها ذات قيادة جماعية وعمل مشترك وأن قادتها هم من العناصر الوطنية التي تنتمي

[241] مصطفي طلاس وبسام العسلي، ص8 و9 و 36.

إلى الفلاحين والعمال وأنها ثورة ضد الاحتلال الأجنبي وأنها ثورة جاءت لتعيد الاعتبار لكل الفئات الوطنية...الخ[242]

أما الفصل الثالث فقد عنوناه كما يلي: "الثورة في بداياتها." وهنا يتبادر إلى الذهن أن المؤلفيْن سيتحدثان عن كيفية انطلاق الثورة في شهورها الأولى في كامل القطر الجزائري، لكن الواقع أنهما اختارا أماكن محددة هي خنشلة والأوراس ومتيجة ووهران. وقد جاء الحديث عن الانطلاقة في هذه المناطق عن طريق روايات شهود من صانعي الحدث.

وقد استغل المؤلفان الرواية في كثير من عناصر الكتاب، ففي الفصل الخامس وفي مبحث "تطور الصراع المسلح" التجآ إلى طريقة القص الذي قدما لها بما يلي: "يمكن بعد ذلك متابعة استقراء ملامح الصراع وتطوراته من خلال بعض أقاصيص الثورة لسنة 1956." واستمر هذا من صفحة 255 إلى صفحة 269، أي خلال خمسة عشر صفحة.

ومن المآخذ التي تؤخذ على المؤلفيْن أنهما يوردان الشهادات والتفاصيل المملة في مباحث كثيرة، منها شهادات مجاهدين حول اندلاع الثورة في بعض المناطق(خمسة عشر صفحة). ومنها شهادة رجل رافق الثوار لمدة خمسين يوما(سبع صفحات)، واستعراض بعض الأحداث والمعارك خلال بعض السنوات شهرا فشهرا، وقد بلغ عدد صفحات كل هذا حوالي خمسة وتسعين صفحة، ومنها شهادات لبعض الفرنسيين في خمس صفحات.

إلى جانب بعضِ التصريحاتِ لقادة فرنسيين ورجالِ دينٍ مسيحيين حول السياسة الفرنسية في الجزائر وبعض تصريحات القادة العرب(عشر صفحات)

[242] عمار بوحوش، خصائص الثورة الجزائرية مقارنة بالثورات الكبرى في القرن العشرين. أعمال " للملتقى الدولي الجزائري 24-28 نوفمبر 1984." ص:63

حول يوم الجزائر الذي يصادف شهر مارس من سنة 1958، وبعض الكتابات الصحفية.

ومن البيانات والقوانين التي ذكراها بشكل مفصل نجد: بيان أول نوفمبر(4 صفحات) ومقررات الصومام(36 صفحة). أما "مشروع برنامج لتحقيق الثورة الديمقراطية الشعبية"، الذي أصدرته جبهة التحرير الوطني بعد المصادقة عليه من قبل المجلس الوطني للثورة الجزائرية في جوان 1962، فيقع في تسعة وثلاثين صفحة. ودليل المجاهد تسع صفحات وكتابات صحفية ست صفحات.

وهكذا بلغ عدد هذه الصفحات كلها حوالي مائة وخمسين صفحة، فكان على المؤلفين اختيار بعض هذه النصوص أو كلها ووضعها في ملحق خاص لأنه يدخل —في نظرنا– في صميم البحث ولكنه لا يستعمل ضمن المتن.

وقد اكتفينا هنا بالنصوص الكاملة ولم نكن نعني الاستشهادات والاقتباسات الواردة داخل المتن والتي تدخل منهجيا في لب الموضوع.

ومن المآخذ الأخرى أن المؤلفيْن لم يتحدثا عن ظروف نشأة اللجنة الثورية للوحدة والعمل منذ اجتماع القادة 22 واختيار مجموعة الست التي أصبحت تضم تسعة أعضاء بعد انضمام ممثلي حركة الانتصار في الخارج من أجل التحضير للكفاح المسلح. بل نجدهما يذكران في الفصل الثاني مبحث "بدايات التنظيم الثوري وجذوره" أن "هذه القلة المذكورة من السياسيين الجزائريين انبثقت من قلب حركة الانتصار للحريات الديموقراطية.."[243] وأن هذه المجموعة "لما رأت واقتنعت بأن كل محاولة مشروعة على الصعيد

---

[243] مصطفى طلاس وبسام العسلي، ص:75.

السياسي(مع الفرنسيين) مصيرها العقم والإخفاق، عمدت في مارس 1954 إلى تشكيل اللجنة الثورية للوحدة والعمل."[244]

إذن ففي نظر المؤلفيْن أن هذه اللجنة نشأت بعد فشل التعاون مع السلطات الفرنسية أما عن أزمة الحزب المعروفة فلم يتحدثا عنها.

ويعودان للحديث عن هذا الموضوع في الفصل الرابع في مبحث "ظهور الجيش الجزائري كقوة منظمة." فيتحدثان عن التنظيم المسلح الذي عرفته -كما يقولان- الأحزاب، قبل اندلاع الثورة، ويذكران ظهور المنظمة الخاصة سنة 1947 أثناء مؤتمر حزب الشعب الجزائري -كما يقولان- وهي ذات طابع حربي دفاعي، وأن هذه المنظمة تهاوت تحت ضربات الشرطة الفرنسية سنة 1950. ويضيفان القول: "غير أن الأعضاء القدامى لهذا التنظيم استأنفوا نشاطهم في قلب اللجنة الثورية للوحدة والعمل وأعادوا تجميع قوتهم وحشد إمكاناتهم، فكان في ذلك دعامة أساسية لانطلاق الثورة المسلحة في الفاتح من نوفمبر 1954."[245]

فأعضاء المنظمة الخاصة حسب هذا التحليل استأنفوا نشاطهم وجمعوا قوتهم في اللجنة الثورية للوحدة والعمل، أما التفاصيل المرتبطة بظهور هذه اللجنة كما هو حادث تاريخيا فغائب تماما.

وقد عاد المؤلفان للمرة الثالثة للموضوع نفسه في الفصل الخامس وفي مبحث تحت عنوان: "تطور الصراع السياسي" ليتحدثا عن أزمة حركة الانتصار للحريات الديموقراطية حول زعامة الحزب، ويذكران انقسام الحركة إلى ثلاث اتجاهات: الميصاليون والمركزيون والاتجاه الثالث الذي "نشأ حول

---

[244] نفسه، ص: 76

[245] المراجع السابق ، ص: 169.

لجنة حملت اسم اللجنة الثورية للوحدة والعمل وكانت تجمع عناصر قيادية من المنظمة السياسية ومن التنظيم الخاص السري."[246]

وهكذا لم يفصلا الحديث عن أزمة حركة الانتصار للحريات الديموقراطية سوى في الفصل الخامس هذا، الذي يتمحور موضوعه الأساسي حول التحولات التي وقعت بعد مؤتمر الصومام 1956 بينما المنهجية تتطلب منهما أن يتحدثا عنها في الفصل الثاني أو الثالث على الأكثر لأنها السبب المباشر الذي أدى إلى الاتجاه نحو الكفاح المسلح.

أما أسماء الأبطال التسع التاريخيين فقد أورداهما في المقدمة مشيرَيْن إلى استعادة ذكرى مرور خمسة وعشرين سنة على انطلاقة الثورة(1979) وأسماء تلك المجموعة من الثوار التاريخيين الذين كانوا نواة اللجنة الثورية للوحدة والعمل، التي تحولت في ليلة الثورة إلى جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني لتنطلق نار الثورة بعد مرحلة طويلة من المخاض العسير."[247]

ومن الهفوات التي وقع فيها المؤلفان اعتبارهما أحمد توفيق المدني تونسي الجنسية، وأنه أسس نادي الترقي بالعاصمة الجزائرية لتشجيع العمل في الحقل الأدبي والفني وذلك نقلا عن يونس البحري في كتابه: "دماء في المغرب العربي"[248] ولكنهما لم يذكرا أصله الجزائري.

والمعروف أن أحمد توفيق المدني جزائري الأصل ولد سنة 1899 بتونس، لأن والده كان قد هاجر رفقة الجد إلى تونس عند اشتداد الاضطهاد الفرنسي بمدينة الجزائر.[249] ولم يَعُد أحمد المدني هذا إلى الجزائر سوى سنة

---

[246] نفسه، ص: 245.

[247] المرجع السابق، ص: 6.

[248] يونس البحري، دماء في المغرب العربي ، دار النشر للجامعيين، بيروت، ص:85-86. أنظر هامش ص: 144 بكتاب الثورة الجزائرية لمصطفى طلاس وبسام العسلي.

[249] أحمد توفق المدني، حياة كفاح -مذكرات- ج1، ش و ن ت الجزائر، 1976، ص 13.

1925 بعد أن نفته السلطات الفرنسية هناك بسبب نشاطاته المناهضة للتواجد الفرنسي في تونس، وقد رد عليه أخوه حسن المدني، بعد أن علم بمكان نفيه: "نعم النفي إلى بلد الآباء والأجداد، بلد التضحية والجهاد."[250]

يذكر أحمد الخطيب في كتابه عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "أن المدني هو من أصل جزائري ولكنه من سكان تونس ويحمل رسميا الجنسية التونسية، شارك في الحياة السياسية وناضل في صفوف الحزب الدستوري التونسي-القديم- فأبعد إلى الجزائر خلال عام 1925 وهناك شارك في النضال الوطني ضد الاستعمار وأعوانه..." اهـ

كان أحمد توفيق المدني من المؤسسين لنادي الترقي في شهر جويلية سنة 1927 بالجزائر العاصمة وهو الذي ألقى الخطاب بحضور الشيخ عبد الحميد بن باديس.[251] وأصبح عضوا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست سنة 1931، وبعد اندلاع الثورة التحريرية انضم إليها وأصبح وزيرا للشؤون الثقافية في أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958.[252] وبعد الاستقلال مارس عدة مهام في السياسة والثقافة وغيرها إلى أن وافاه الأجل سنة 1984. وبما أن الكتاب، موضوع التعليق، صَدر في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين فلا يمكن التسامح معهما في مثل هذا الخطأ الكبير.

ومن الأخطاء التي وقع فيها الكاتبان اعتبارهما إضراب الثمانية أيام الذي شنه الجزائريون في شهري جانفي وفيفري من سنة 1957 استفتاء للحكومة

---

[250] مصطفى طلاس، ص:336.

[251] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ج2. ص: 112 – وأبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ش و ن ت، الجزائر1982، ص424.

[252] سعد دحلب، المهمة منجزة، منشورات دحلب، الجزائر 1986، ص:244.

المؤقتة على شرعيتها.[253] وهما يعلمان أن الحكومة الجزائرية المؤقتة لم تنشأ سوى سنة 1958. كما أشارا إلى الإضراب نفسه قبل هذا[254] على أنه تعبير عن تغلغل الثورة في الأوساط الشعبية.

وبخصوص المصادر والمراجع فقد أورد المؤلفان في هوامش المتن جرائد معاصرة للأحداث كمصادر؛ إلا أنهما لم يثبتاها في قائمة المصادر والمراجع. أما بقية المصادر والمراجع الواردة في هذه القائمة فلم يشيرا إليها داخل المتن. فهناك انفصال بين المصادر والمراجع الواردة في المتن والموجودة في نهاية الكتاب.

ومن الأخطاء الشكلية عدم تغيير ترقيم المباحث عن ترقيم المطالب. فكلها تحمل الأرقام العربية 1-2-3-4...الخ مما يثير الخلط والإشكال لدى القارئ. من ذلك مثلا ما ورد في المبحث السادس من الفصل الخامس، حيث رقما المطالب من 1 إلى 7 وبعد ذلك مباشرة يأتي المبحث السابع وبالرقم نفسه والشكل نفسه، أي التقى الرقم سبعة الخاص بالمطالب مع الرقم سبعة الخاص بالمبحث السابع.[255]

وفي مكان آخر وعندما استشهدا بتصريح لجنة التنسيق والتنفيذ المجتمعة في الفترة من 5 إلى 29 أكتوبر 1957 رَقما بنود التصريح بالأرقام نفسها المستعملة في المباحث...

كما قام المؤلفان باقتباس فقرات من بعض المراجع دون الإشارة إليها، رغم وضع نص الاقتباس بين مزدوجتين، وهذا لا ينفي أنهما كانا يعيدان بعضها إلى مصدرها عن طريق التهميش أسفل الصفحة.[256]

---

[253] مصطفى طلاس وبسام العسلي، ص331.

[254] نفسه، ص324.

[255] المرجع السابق، ص: 292 و293.

[256] نفسه، صفحات: 616- 617- 321-415- 416.

وكانا يقومان أحيانا كثيرة بذكر صحيفة ما، دون ذكر عددها وتاريخ صدورها.[257]

هذه قراءة من القراءات التي لا ندعي فيها وصولنا إلى الحقيقة، لأن الحقيقة شيء نسبي، ولكنها خطوة ولبنة في صرح كتابة تاريخنا وتراثنا عامة. فقد تغِيب عنا ملاحظات وتفوتنا إشارات يمكن أن يتفطن لها غيرنا، وهكذا يكون العمل متكاملا بمرور الزمن وبتكاتف جهود الجميع.

وبكلمة موجزة يمكننا القول إن كتاب الثورة الجزائرية لمصطفى طلاس وبسام العسلي هو أقرب إلى القص منه إلى العمل التاريخي الأكاديمي.

---

[257] مثل: صحيفة Almasagro ص: 531، أو صحيفة ليبراسيون ص: 334-335.

عاشرا :طرق التموين بالسلاح خلال الثورة التحريرية في المنطقة الجنوبية الغربية

مثلت قضية التسليح هاجس كل الثورات الشعبية العالمية، ذلك أن تلك الثورات الشعبية قامت غالبا، على أيدي قوى تنتمي إلى الجماهير الشعبية البسيطة، وأنها قامت أساسا ضد القوى الحاكمة في البلاد، سواء كانت هذه القوى وطنية أو أجنبية، فهي إذن في موقع لا يسمح لها بامتلاك السلاح، عكس القوى الحاكمة التي تملك ذلك بقوة القانون، لأنها وببساطة القوى الحاكمة المسيطرة. والقوى الحاكمة هذه لا تقوم إلا وبيدها وسيلة الردع حين يُخترق القانون الذي وضعته لخدمتها، والسلاح هو أحد وسائل الردع هذه في الداخل والدفاع ضد أية قوة في الخارج.

والثورة الجزائرية هي إحدى الثورات التي عانت من نقص الأسلحة، في الوقت الذي تقاطرت فيه وفود المتطوعين للانضمام إليها من أجل الجهاد وتحرير الوطن، وكان الانضمام الجماهيري إلى الثورة كبيرا وواسعا.

وكان لبيان أول نوفمبر دور كبير في إثارة الناس وإلهاب حماس الشعب المقهور، فكانت الاستجابة قوية، دفاعا عن الهوية والمطامح الوطنية، ولكن نقص الأسلحة كان العائق الأكبر في وجه قادة الثورة أمام تدفق المتطوعين الكبير والمستمر.

وقد عانت، قبل ذلك، مختلف المقاومات الشعبية الجزائرية في القرن التاسع عشر هي أيضا من نقص الأسلحة، فكان على زعماء هذه وتلك البحث عن الطرق والوسائل التي توفر هذه المادة الأولية الضرورية. أما الثورة الجزائرية الأخيرة فقد اعتمدت عند الانطلاقة على أسلحة كانت متوفرة هنا وهناك.

فإلى جانب الأسلحة البسيطة التي كان يملكها بعض أفراد الشعب الجزائري من بنادق للصيد أو من أسلحة حراس الغابات، كانت الأسلحة التي بدأ غنمها من مراكز العدو، بل حتى من مخازنه وثكناته بمساعدة جزائريين مجندين معه كانوا متعاطفين مع الحركة الوطنية، الشيء الذي جعل السلطات الفرنسية تجرد بعض المراكز والثكنات من أسلحتها خوفا من أن يستولي عليها ثوار جيش التحرير الوطني، كما كانت هناك أسلحة جلبها مناضلو المنظمة الخاصة L' OS ، التي تكونت في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، من ليبيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية "ووضعوها في مخابئ سرية في منطقة الأوراس. وعند اندلاع الثورة أرسلت 275 بندقية ستّاتي من جملة هذه الكمية إلى المنطقة الثانية كما أرسلت لكل من المنطقة الثالثة والرابعة كميات أخرى."[258]

وقد أصبح لوفد حركة الانتصار-حزب الشعب الجزائري المتواجد بالقاهرة، الذي انضم أعضاؤه إلى الثورة، دور أساسي في الحصول على الأسلحة من الخارج سواء من تبرعات الدول الصديقة والشقيقة أو عن طريق الشراء من تجار الأسلحة في العالم، بنقود الثورة التي تحصل عليها من مختلف المصادر.

موقع المنطقة:

قبل التعرض للموضوع المحدد أعلاه لابد من التعرف على المنطقة المقصودة في هذا العمل.

---

[258] عبد الرحمان عمراني، التسليح أثناء الثورة، مداخلة، منشورات وزارة المجاهدين، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2001.

تشمل المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر حاليا ولايات النعامة والبيّض وبشار وأدرار وتندوف، وهي التي كانت تمثل المنطقة الثامنة التابعة للولاية الخامسة خلال الثورة التحريرية، وتنقسم المنطقة هذه جغرافيا إلى مظهرين طبيعيين هما:

جبال الأطلس الصحراوي في الشمال والصحراء الهضبية في الجنوب. وتعتبر الجبال وسيلة ذات فائدة عظمى للحرب الثورية، لصعوبة مسالكها وجهل العدو بأماكنها الحساسة والمفيدة؛ إذ أن الجغرافيا تتدخل في التصحيحات العسكرية على ثلاثة مستويات: طبوغرافية الموقع واختيار المحاور وحواجز المناورة وتوازن مسارح العمليات، وتبقى الطبوغرافيا أكثر العناصر ثباتا.[259]

وتتميز هذه الجبال بالارتفاع والوعورة وقلة الغطاء النباتي. وقد استغل رجال الثورة هذه المظاهر الطبيعية المتميزة، فتمركزَ بها جنود جيش التحرير الوطني، كما أصبحت الجبال وحوافها منطقة عبور للأشخاص والأسلحة من المغرب إلى داخل الجزائر.

وتمتد هذه السلاسل الجبلة من بلدة فكيك المغربية غربا حتى إقليم الزاب في الجزائر شرقا، أي أنها تبتدئ غربا على الحدود المغربية من جبل بني سْمير فجبل مْزِي فجبل مِيرْ الجّبال فجبل مَكْثر فجبل عيسى ثم في اتجاه جبل كْسال فجبال العمور.

وتتخلل هذه السلاسل الجبلية ممرات ودروب تتبعها الأودية المنحدرة نحو الصحراء، وهي التي كانت تمر عبرها، قديما، القوافل التجارية الرابطة بين شمال الجزائر وجنوبها، وأصبحت هذه الممرات الطبيعية وسيلة للربط بين

---

[259] إيريك موريز، مدخل إلى للتاريخ العسكري، تعريب أكرم ديري والمقدم هيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت 1979، ص : 61.

المنطقتين بوسائل حديثة هي الطرق المعبدة الحالية والسكك الحديدية،[260] والتي أنشأ الفرنسيون على جانبيها الأسلاك الشائكة المكهربة، وكان على المجاهدين اجتيازها للمرور والانتقال بين الشرق والغرب والعكس.

إن هذا الامتداد الجغرافي للجبال من الجنوب الغربي (فكيك، عين الصفراء) إلى الشمال الشرقي نحو آفلو والأغواط والجلفة، سهل مرور قوافل الإمدادات الغذائية والأسلحة القادمة من المغرب والآتية بحاجيات الثورة إلى أقصى الداخل وبخاصة نحو الولاية السادسة.

كما استغلت الثورة الصحراءَ وعروقَها الرملية وبخاصة هوامشها الشمالية لنقل المؤن والأسلحة القادمة من القواعد الخلفية بالحدود الغربية للوطن نحو الداخل، بعد أن صَعُبَ اجتياز الأسلاك الشائكة المكهربة في الشمال، إلا أن الأمر لم يكن سهلا أبدا، بعد أن قامت فرنسا بتجميع السكان في محتشدات تحت الحراسة والمراقبة المشددة، فخَلَتْ البوادي من السكان الذين كانوا السند الحقيقي للثوار، في مدهم بالمعلومات وبالتموين، فقاسى المجاهدون الأمَرَّين من ذلك، لكنهم صبروا ورابطوا واعتمدوا كليا على إمكانياتهم ومبادراتهم وشجاعتهم، وبالتالي فقد تحملوا عبئا يزيد عما كان يعانيه إخوانهم في الشمال أضعافا مضاعفة وبخاصة ظروف المنطقة الصعبة من ترامي مساحاتها ومناخها البارد جدا شتاء والشديد الحرارة صيفا.

أما قوافل التموين بالسلاح القادمة من القواعد الخلفية بالمغرب فها هي نماذج من شهادات بعض صانعي تلك الأحداث، والذين مارسوا هذه المهمة أثناء الثورة التحريرية الكبرى.

---

[260] حليمي عبد القادر، جغرافية الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر 1968، ص: 55.

الشاهد الأول:

[عُقبي عبد الغني المعروف بـــ "سي عَمّار"،[261] مولود بتلمسان1933، قائد المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة، تقلد عدة مناصب سامية بعد الاستقلال: وال- سفير- وزير، المقابلة بوهران في 1999/3/15.]

يقول:

تمتد المنطقة الثامنة امتدادا واسعا، من تندوف إلى الأغواط، ومن سيدي الجيلالي(ولاية تلمسان) إلى حدود مالي في أقصى الجنوب. وأغلب مساحتها صحراوي ذو طابع صعب، كان التنقل فيها سيرا على الأقدام.

تبلغ المساحة الكلية حوالي مليون وثمانمائة كيلومتر مربع. يمتاز سكان الصحراء بالكرم والغيرة الوطنية وشدة الإخلاص. يتميز رجالها بالشجاعة، وهم على استعداد دائم للتضحية والطاعة، في كل الأوقات وفي كل الظروف. كان السكان مسلحون قبل أن تندلع الثورة.

دخلتُ المنطقة حوالي سنة 1956 فوجدت السكان منقادين للثورة، وفي سنة 1958 كان معي 4853 جنديا مقابل 110 آلاف عسكري فرنسي في مساحة مكشوفة تبلغ ضعف مساحة فرنسا. كانت الجبال صعبة، فهي عالية وجرداء وليست كجبال الشمال، إلا أن معرفتها هي العامل المساعد على الانتصار، يقال: "اللي يَعْرَف الأرض يُقتلها، واللي ما يَعْرَفْهاشْ تقتله." لذلك كان سكان المنطقة هم "عيون" الجيش وأدلاؤه. وهم ماهرون في معرفة آثار الأقدام، وحيثما وُجدوا كانوا نكبة على عدوهم.

---

[261] حمل زعماء الثورة التحريرية ألقابا وأسماء سرية تدعى غالبا "بأسماء الثورة" أو "الاسم الثوري"، استعملها المجاهدون لإخفاء أسمائهم الحقيقية، خوفا من أن يكشفها الاستعمار الفرنسي.

كان مقر القيادة في بلدة فكيك المغربية؛ حيث يُستقبل الجرحى والمرضى والفارون من الجيش الفرنسي. أما في جبل بني سمير فتتكون الوحدات العسكرية لتدخل إلى داخل الجزائر.

والأسلحة التي كانت بحوزة السكان آنذاك هي:

1- ساسْبو Chasse peau وهي بندقية فرنسية الصنع، اخترعها الفرنسيون في القرن التاسع عشر، واستعملوها ضد مقاومة الشيخ بوعمامة التي اندلعت سنة 1881، وقد غنم المجاهدون آنذاك عدة قطع منها احتفظوا بها واستفادت منها ثورة 1954.

2- الستاتي: Les states وهي بندقية إيطالية الصنع، احتفظ بها السكان منذ الحرب العالمية الثانية وبخاصة قبائل الشعامبة الذين كانت أكثرأراضيهم تابعة للمنطقة الثامنة.

3- الرباعية Masse 36 وكذلك Masse 49 وMasse 51

4- التساعية: Masse couteau

5- العشارية: PSA وهي بندقية إنكليزية الصنع.

ومن مصادر سلاح جيش التحرير الوطني آنذاك نجد الأسلحة التي كان يأتي بها الفارون من صفوف الجيش الفرنسي وبخاصة من فرق اللفيف الأجنبي Les légionnaires. وقد انضم إلينا أول عسكري فرنسي في المنطقة في شهر جوان من سنة 1957. وبلغ مجموع من التجأ إلى الثورة هناك خلال ثلاث سنوات 1296 شخصا من أفراد اللفيف الأجنبي في المنطقة الثامنة. وقد استفادت الثورة من أسلحتهم، أما هؤلاء فمنهم من أسلم وانضم إلى صفوف الثورة مثل يوسف ومصطفى وغيرهما ممن لا أذكرهم، ومنهم من سلمناهم إلى القيادة العليا.

كما أن حكومة الثورة أنشأت مصانع للذخيرة والمتفجرات وبعض الأسلحة الأخرى في كثير من المدن المغربية. وهناك الأسلحة التي نغنمها من العدو في الاشتباكات التي تحصل بيننا وبينه. وكانت الأسلحة المتوفرة تنقصها الذخيرة، فكان على الثورة توفير ذلك لمختلف الأسلحة. وقد حاولت الثورة إقامة مراكز خلفية في كل من أغادير وتافيلالت، لكن السلطات المغربية لم تقبل بذلك.

الشاهد الثاني:

[بَلْحُرْمَة عبد القادر، المدعو "عثمان"، 62 سنة، مولود ببشار،ضابط متقاعد من الجيش الوطني الشعبي منذ 1985، المقابلة بوهران في 1999/3/12، توفي سنة 2005.]

كان سلاح الثورة القادم من الخارج يأتي في سفن ويحط في مدينة ملوية المغربية والمستعمرة الإسبانية، ثم ينقل عن طريق سيارات مغاربة مشاركين في الثورة أو متعاطفين معها نحو مدينة وجدة، حيث مقر الولاية الخامسة في مركز بن مهيدي[262] ومن وجدة يشحن السلاح إلى بلدة بوعَرْفَة جنوبا، ثم إلى فكيك، ومن هذه الأخيرة ينقل إلى جبل بْني سْمِير، حيث المنطقة الثامنة.

يأتي الجنود من داخل البلاد من المنطقة الثامنة أو من الولاية السادسة وبأيديهم أسلحة قليلة فيستريحون قليلا ثم يستلمون السلاح ويتجهون به إلى داخل الجزائر. وأول سلاح وصل هو العْشاري وهو إنكليزي الصنع جاء هدية من مصر.

كانت الفرق العسكرية تستلم السلاح من مركز بني سمير وتدخل به الجزائر لتضعه في أمكنة خفية بالقرب من الجبال، وقد تقع الفرقة في كمين

[262] يقع خارج مدينة وجدة، حيث كان قائد الولاية الخامسة بوصوف عبد الحفيظ ثم خلفه هواري بومدين فلطفي فعثمان المدعو بوحجر حتى استقلال البلاد سنة 1962.

للعدو ويتم الاشتباك الذي قد يفقدها السلاح بسبب المفاجأة. وكان السلاح يصل إلى جبل بوكحيل بالقرب من بلدة الأغواط في الولاية السادسة.

عندما انتهت فرنسا من إنشاء الأسلاك الشائكة المكهربة التي وصلت مدينة بشار سنة 1958 تناقشنا مع العقيد لطفي قائد الولاية الخامسة ونحن متواجدون بجبل تيلموسي غربي بشار على الحدود الجزائرية المغربية، تناقشنا حول الطريقة الأفضل لإيصال السلاح إلى الداخل. فأخذ قرارا بإرساله على الإبل، ولكن عن طريق آخر غير الطريق السابق بالابتعاد نحو الجنوب أكثر. والطريق هو كالتالي: من بلدة بوعرفة المغربية تتجه قوافل السلاح جنوبا نحو بلدة بوذنيب المغربية ثم منها إلى امّيْفيس ثم إلى الطاوس وهي مناطق حدودية. ثم تدخل القوافل الأرض الجزائرية مارة بالمناطق التالية: عرق بلبالة جنوبي بشار ثم تتجه شرقا فتمر بين بني عباس وبشار وتخرج إلى وادي الناموس، حيث يُخفى السلاح ويتم خزنه لتأخذه قافلة أخرى قادمة من البَيِّضْ التابع للناحية الثالثة، حيث القيادة تحت إشراف مولاي إبراهيم المعروف بعبد الوهاب، وحيث الحدود مع الولاية السادسة، فيأخذون حاجتهم من السلاح ويدفعون الباقي للولاية السادسة.

كانت قافلة السلاح تتكون من 10 إلى 15 جملا، يحمل الواحد منها بين 10 و15 بندقية موزعة على جانبيه، وقد استعملتُ شخصيا هذا الطريق مرتين:

المرة الأولى:

في شهر ديسمبر من سنة 1958 كان برفقتي ثمانية أفراد هم: بن شكشك بوعمامة وبحوص المطوش وعبد الله بن أحمد وشبير إبراهيم ومسعود قرط وعبد الله[منيعي] وزاوي الشيخ وبريك الشيخ[استشهد الأخيران مع لطفي]، وكانا يعملان كدليلين لي بسبب معرفتهما بطريق الصحراء هذا.

المرة الثانية:

تمت في شهر جوان من سنة 1958 وكان يرافقني تسعة أفراد هم: بن شكشك بوعمامة والزاوي حمزة وبوطبة الشيخ وسي قدور وسي معمر[استشهد الأخيران في تاغيت] وتمام محمد وبلغزال علي وبحوص المطوش وبريك الشيخ.

وقد عملت مسئولا لنقل الأسلحة[263] لمعرفتي بالمنطقة الصحراوية لأنني من أبنائها[الشعامبة]، وكنت أنا الذي أختار الرجال المرافقين لي وبخاصة من سكان المناطق الجنوبية لمعرفتهم بالجهة ولتحملهم للظروف الطبيعية الصعبة، كما كنت أختار الرجال الشجعان منهم والذين أثق في إخلاصهم.

اشتبكنا في المعركة الأولى مع العدو الفرنسي وذلك يومي 7 و8 جوان، وتم ذلك على الشكل التالي:

عندما اقتربنا من بلدة إيغلي استرحنا بالواد طول النهار وفي المساء خرجنا وسرنا طوال الليل. وفي الصباح اكتشفنا آثار مجموعة من "الحركة"[264] على جوانب البئر المتواجدة بين إيغلي والعبادلة. كانوا يتتبعون آثارنا بعد أن اكتشفوا بقايا حديثة لبعر الإبل، وقبل طلوع الفجر التحقوا بنا.

كنا في مكان يدعى "بورويس" غير بعيدين عن عرق تاغيت، حاصرونا من كل جهة: الحركة والعساكر الفرنسية والسيارات العسكرية، أخفينا الإبل والأسلحة وعدنا إلى الخلف لأخذ مواقعنا.

---

263 كان الشاهد برتبة ملازم، وقبل العمل في نقل الأسلحة كان قائدا للفيلق الثامن ثم التاسع ثم الفيلق الثالث عشر.

264 الحَركي والجمع حركَة هم طائفة من الجزائريين المجندين في صفوف القوات الفرنسية في فرق خاصة بهم.

بدأ الاشتباك على الساعة السابعة صباحا واستمر متواصلا حتى الساعة الثامنة والنصف مساء. حينها اقترب منا العدو كثيرا، إلى درجة أننا كنا نسمع نداءات الحرْكة الموجهة إلينا من أجل الاستسلام لأننا محاصرين، هنا طلبت من جنديين أن يتمركزا بأحد المواقع الإستراتيجية "الجْدَر" ليحميانا من العدو، لكنهما وجدا هناك بعض الجند الفرنسيين والذين انسحبوا من المكان، وانقطع الاتصال بيننا حتى ظننا أنهما استشهدا. وعندما حان وقت المغرب استطعنا أن نفك عنا الحصار وننسحب.

اتجهنا إلى قرية قريبة من تاغيت تسمى "بَرْبي"، وأخذنا ما يلزمنا من الماء، ثم صعدنا إلى جبل مجاور. أما الجنديان اللذان تركناهما فقد تبعانا دون علم منا واختفيا في أحد المغارات أسفل الجبل.

وفي اليوم الثاني وعلى الساعة 11 صباحا اكتشف العدو مكاننا وحاصرنا ثانية، حيث احتل الجيش الفرنسي الوادي أسفل منا واحتل الحركة العرق، وبدأ الطيران يقصف المكان، وقد استشهد سي قدور على إثر طلقة من إحدى الطائرات، حيث أصابته قنبلة من نوع 480 كيلوغرام.[265] وازداد قصف الطيران للمكان، فهبطنا إلى بساتين البلدة بين أشجار النخيل فهاجمنا العدو من كل اتجاه، إلا أننا كنا قد أخذنا مواقع جيدة، وتمكنا من صد هجماته، واستطعنا قتل 31 عسكريا من المهاجمين، وأسرنا أربعة عساكر، منهم قناص بقطعة 24/29، واستولينا على أسلحة القتلى، إلا أن جنديين تمكنا من الاختفاء داخل حشاش البستان وتمكن أحدهما من قتل سي معمر الذي كان إلى جانبي، بعد صراع بينهما، كما أصابني الجندي الثاني بوابل من

[265] الطائرة التي ألقت بالقنبلة هي من نوع ب/26، وكانت بجانبها طائرات أخرى من نوع ت/6. –الشاهد–

رشاشه فكسر فكي الأسفل وفتحت رقبتي، وقد تمكنت من قتل الجنديين الفرنسيين وأخذت أسلحتهما.

وتواصل الاشتباك طوال اليوم، وعندما حل الظلام اقترب منا العسكر الفرنسي حتى كدنا نختلط بهم، وسمعنا منهم كلمة السر، وهي Jack. وقد تمكنا من فك الحصار بعد أن اتفقنا على الخروج فرادى، على أن نلتقي في مكان عيناه. أما الجندي بوطبة الشيخ فقد بقي داخل الحصار وهو مختف عن الأنظار في أحد المغارات.

ازداد الدم سيلانا من رقبتي وكنت كلما شربت الماء خرج من رقبتي وحزمت المكان بعصابة، أما الأدوية فلم تكن معنا، والتقينا جميعا خارج الحصار في المكان المتفق عليه، وكنا نحمل الأسلحة المغنومة وكان الواحد منا يحمل بين 4 و5 قطع من تلك الأسلحة.

سرنا ليلا في العرق، وبعد مسافة التقينا بالجنديين الذين تركناهما داخل الحصار وقد ظنناهما شهيدين. وقد جرح في المعركة جنديان آخران هما بن شكشك بوعمامة وبريك الشيخ.

أما السلاح الذي كنا نحمله، فقد أعاق سيرنا، فأخفيناه في جبل بشار الذي مررنا به وغطيناه بفروع شجر الرتم. وفي الصباح رأينا طيران العدو يقصف المكان الذي كنا فيه بالأمس.

وفي اليوم الرابع تتبعتنا قوات العدو الفرنسي، كما قدمت قوات نجدة أخرى من بشار ولكننا تمكنا من الابتعاد تحاشيا لأي اشتباك جديد بعد أن أنهكنا التعب والجوع وقلة النوم. ودخلنا بلدة الزاوية الفوقانية بحثا عما نأكله، ودققنا أحد الأبواب فخرج إلينا صاحبه الذي رفض مدنا بأي شيء، ودلنا على بيت امرأة استقبلتنا وأخبرتنا أنه خائن، فانسحبنا دون تناول الأكل

حفاظا على حياتنا، وذهبنا نبحث عن مكان نستريح فيه بعد أن أصبحنا في حالة يرثى لها.

وفي اليوم التاسع، منذ معركة تاغيت، التقينا بأحد الرعاة فأرغمناه على بيع شاة لنا، لأن الفرنسيين كانوا يعدون الأغنام عند خروجها وعند دخولها من المحتشد، وسلمناه رأس الشاة يبرر بها سبب نقص الشاة، على أن يدعي أن الذئب أكلها، وكان معي نقود قيمتها 16 مليون فرنك.

وفي اليوم العاشر اتصل بنا أحد الحرْكة وكان متعاطفا مع الثورة وأعلمنا أنه يخفي مجاهدين مختفيين هما محمدي عبد الله ومجاهد آخر من دوي منيع، وأخبرنا أنهما جريحان، وأنهما بقيا عنده مدة 21 يوما، وهو يطعمهما ويسقيهما خارج مترله. فطلبت منه إحضارهما، مما زاد من مصاعبنا، وقد أشار لنا الحركي بأن نستولي على بعض جمال الحركة عند عودتها من المرعى مساء، وهذا ما فعلناه؛ حيث حملنا عليها الجرحى، وأسرعنا للابتعاد غربا، وتجاوزنا الحدود في الليلة نفسها.

وفي الصباح وصلنا إلى امَّيْفيس وكان اليوم الأخير قبل حلول عيد الأضحى، فاسترحنا عند إحدى العائلات البدوية وأخذنا حاجتنا من الأكل والشرب. أما الأسلحة المخفية فقد جاءتنا مجموعة عسكرية أخرى واستعادتها فيما بعد.

الشاهد الثالث:

[خليفي محمد بن البشير، 63 سنة، من مواليد عين الصفراء، ضابط سابق في جيش التحرير الوطني، نقيب متقاعد من الجيش الوطني الشعبي منذ سنة 1984، المقابلة بعين الصفراء في 1999/3/8.]

يقول:

التحقت بصفوف الثورة سنة 1957، وارتديت اللباس العسكري وخضعت للتدريب العسكري ثم شاركت في بعض العمليات العسكرية ضد العدو الفرنسي بمنطقة عين الصفراء، التي كانت تابعة للقسم الثالث الناحية الثانية المنطقة الثامنة الولاية الخامسة.

في أكتوبر سنة 1957 استدعيت من قبل القسم الثالث المتواجد مقره في جبل مكثر إلى الجنوب من عين الصفراء تحت قيادة بوزيد- كان برتبة مساعد وهو من منطقة القبائل- ونظرا لمعرفتي بالمنطقة فقد كلفت بالإشراف على جلب الملابس العسكرية والأحذية من مركز بْنِي سْمِيرْ غربا في "الصفاح" بمكان يدعى "قمقامة"، هذا المركز الذي تأتيه الأمتعة من الأراضي المغربية، يأتي بها "المسبلون"[266] ويفرغونها في أماكن محددة على الحدود، ثم يتسلمها المجاهدون فيحملونها على الإبل ويتجهون بها إلى داخل الجزائر.

وكانت هذه الملابس العسكرية تستغل في الناحية بجهات عين الصفراء —قائد الناحية آنذاك الملازم مقران-

كانت النقلة الواحدة تُحمل على عدد من الإبل يتراوح عددها بين 5 و7 من الإبل لتنقل إلى جبل فْزوز غربي بلدة عسلة في مكان يدعى "الخوابي"، حيث كان هناك مسئول مدني يدعى مطهري ميلودي —استشهد- وتدوم الرحلة حوالي ثلاثة أيام، يكون السير فيها ليلا، وعندما تلوح بوادر النهار تتوقف القافلة وتلتجئ إلى سفوح أحد الجبال للاختفاء. فتطرح الحمولة من على ظهور الإبل وتغطى بنبات الحلفاء في أماكن خفية —خنقة- ثم يطلق

[266] المسبل: رجل مدني يعيش وسط المواطنين، مهمته التنسيق بينهم وبين جبهة وجيش التحرير الوطني، وقد تسند له مهام خطيرة أخرى.

سراح إبل المجاهدين لترعى مع إبل السكان حتى لا تثير الانتباه، ومن هذه الأمكنة نذكر: وادي الجحيْفة، وادي بوجرانة وهي على حواف جبل مكثر.

وفي الفصل نفسه، أي خريف سنة 1957 انطلقت نحو جبل مْزي في مكان يدعى "السن" رفقة حوالي 30 مجاهدا، وهناك تسلمنا أسلحة كانت قد أخذت من جنود تابعين للحركة المناهضة للثورة والذين تم أسرهم بنواحي القعدة في آفلو، وكانت الأسلحة مخفاة في الجبل المذكور، فأخذناها إلى جبل مكثر حيث القسم الثالث. والأسلحة هذه عبارة عن بنادق صيد-زويجات-، وقد تم تسليح بعض الأفراد الذين التحقوا بالثورة بها.

في الفترة نفسها 1957 جاءت حوالي ثلاث كتائب من الداخل واستلمت السلاح في الحدود الغربية، وعادت بها إلى داخل الوطن، وكان دليلهم جنود يعرفون المنطقة. وفي شهر مارس من سنة 1958 استدعيت من قبل مسئول الناحية الثانية رفقة عسكري آخر يدعى الطرشون محمد-توفي مؤخرا- ومعنا 10 أو12 جنديا وكُلفنا بنقل الملابس العسكرية والذخيرة والألغام والمتفجرات بأنواعها من مركز حدودي يدعى "قعدة الشحمي" شمالي بلدة فكيك المغربي لنقله إلى الداخل.

وبعد أن تم تجميع السكان في المحتشدات اضطر المجاهدون والناقلون للأسلحة إلى الإبقاء على إبلهم مقيدة طول النهار حتى لا تتمكن من الوقوف فيكتشفها العدو. وكان المجاهدون يعودون من طريق غير الذي جاءوا منه، كما كانوا يغيرون الطريق السابق كل مرة زيادة في الحيطة والحذر من العدو.

أما السلطات الفرنسية العسكرية فكانت دائبة البحث عن قوافل السلاح، تتبع أخبارها وآثارها وتعين الجواسيس والعملاء من أجل ذلك. وكثيرا ما حدثت اشتباكات بينها وبين المجاهدين ناقلي الأسلحة. من ذلك أن قوات العدو الفرنسي كمنت ذات مرة لفرقتنا عند عودتها بعد أن أفرغت

حمولتها من الأسلحة في أبريل من سنة 1959، وحدث اشتباك بين الطرفين أدى إلى القضاء على 7 من الإبل وضياع منظار كنت استخدمه لمراقبة تحركات العدو نهارا للتهيؤ للسفرة الليلية القادمة في طريق مناسب، فقدته وهو على ظهر أحد الجمال.

وقد توقف التموين على ظهور الإبل في جبال القصور بعد أن أكملت فرنسا مد الخطوط الشائكة المكهربة سنة 1959، وانتقل المجاهدون للعمل جنوبا، جهة بشار، وأصبح النقل يتم على ظهور الأفراد، فكانت تكلف إحدى الكتائب بحمل الأسلحة تحت حماية كتيبة ثانية.

وفي هذا المجال أتذكر أنه في سنة 1959 جاءت ثلاث أو أربع كتائب تحمل السلاح من جبل بني سمير لنقله إلى داخل الوطن فمرت بجبل مزي فجبل بوعمود، وقد خاضت هذه الكتائب معركتان مع العدو الفرنسي في جبل بوعمود، وكان أحد قادة هذه الكتائب يدعى بلكبير.

وكان المسبلون يساعدون على إخفاء الأسلحة إلى أن تأتيهم فرق أخرى تنقله على ظهورها وتجتاز به الأسلاك الشائكة والكهربة لإيصاله إلى جبل بولغفاد وجبل تانوت شرقي عين الصفراء.

الشاهد الرابع:

[يعقوبي لخضر المعروف بـــ "سي جمال"، 70 سنة، الميلاد في بلدة مغرار التحتاني، رائد متقاعد من الجيش الوطني الشعبي منذ 1985، المقابلة بوهران في 1999/3/12.]

يقول:

عندما اندلعت الثورة كان سكان المنطقة على أهبة الإستعداد، حيث اعتمدوا على أنفسهم في تفجير الثورة، فهناك البدو المستعدون بالسليقة وهناك الصيادون الذين يملكون الأسلحة. فالسكان سلحوا أنفسهم بأنفسهم. ومن

البنادق التي استُعملت في الانطلاقة نجد: الخماسية والرباعية والزويجة، كلها بنادق بالإضافة إلى المسدسات. وكان المواطنون يملكون هذه الأسلحة خفية عن السلطات الفرنسية الاستعمارية في أغلب الأحوال. وقد عمل "المسبلون" على جمع الأسلحة من هؤلاء المواطنين من الدواوير والقصور[267]، وأخفوها ليستلمها جيش التحرير الوطني، وكان للمحافظ السياسي[268] دور في عملية التوعية للمشاركة في الثورة ومدها بمختلف حاجياتها. كما استفادت الثورة من الأسلحة التي كانت لدى بعض القياد وحراس الغابات الذين سلموها للثورة، وادعوا أن أشخاصا استولوا عليها بالقوة. واستمر هذا الوضع حتى سنة 1957 حين بدأت الأسلحة ترد من الحدود المغربية بعد أن تنزله البواخر على الموانئ، ثم يرسل إلى بلدة فكيك المغربية، ومن هناك يصل إلى الجزائر عبر جبل بني سمير، حيث كنا نستلمه مقابل وصل استلام، تبين فيه المستلم والجهة المسلمة وكمية الأسلحة ونوعها، ويتم ذلك ليلا. كنا نحمل الأسلحة على ظهور الحيوانات، وبعد إنشاء الأسلاك الشائكة أصبحنا نحملها على الأفراد من جنود جيش التحرير الوطني.

وفي سنة 1957 كنت مسئول تموين بالسلاح ومسئول نقل بالمنطقة. كان عدد الأشخاص الناقلين للأسلحة يتراوح بن 20 و30 جنديا، يحمل الواحد بندقيتين وحوالي 600 خرطوشة، بالإضافة إلى سلاحه الخاص، وهو بندقية وقنبلة يدوية وما بين 150 و200 خرطوشة. كنا نقطع الأسلاك الشائكة ونتجه شرقا مارين بجبل بوعمود وجبل مغرار وجبل تانوت وجبل

[267] القصر والجمع قصور: هي القرى التي بناها السكان قبل مجيء الإسلام وهي ذات هندسة معمارية مميزة تكثر فيها الدروب المغطاة وكثرة والانحرافات، وقد سكنها الأمازيغ..

[268] المحافظ السياسي رجل مدني تابع لجبهة التحرير الوطني غالبا وقد يكون عسكريا وينتدب من الجيش للجبهة، عمله الأساس التوعية والتوجيه لدعم الثورة بين المواطنين.

تامدة نحو الناحية الثالثة. وكثيرا ما كشفتنا قوات العدو بواسطة الرادار، فيقع الاشتباك ويسقط الشهداء وينجو البعض بأسلحتهم أو ببعضها.

كنا نخفي الأسلحة في أمكنة سرية في "الأجراف"[269] لتأتي مجموعة أخرى لتأخذه لينقل شرقا، وكنا نبعث ببعض الأسلحة نحو الشمال الجزائري تحت صناديق الخضر.

استمر الوضع من سنة 1957 إلى سنة 1960، وأذكر من مسئولي المنطقة: صباحي-الشلالي-سعدون أحمد-عبد الغني عقبي-بن أحمد عبد الغني.

تعقيب وتعليق:

كانت هذه بعض شهادات صانعي الحدث، هم من صانعي ملحمة الجزائر، من الذين كان لهم اتصال مباشر بعملية توفير الأسلحة وجلبها من الحدود الغربية إلى داخل الوطن، فكانوا يمثلون حلقة من شبكة كبيرة مكلفة بتوفير الأسلحة، سواء المستوردة من الدول الصديقة والشقيقة أو من تجار الأسلحة في العالم أو من منتجات المصانع المقامة في الأراضي المغربية. لقد أنشأت قيادة الثورة "إدارة الاتصالات الخاصة بالمعلومات" وهي تابعة للولاية الخامسة مهمتها البحث عن الطرق الكفيلة بتهريب السلاح إلى الداخل. ورغم الصعوبات العديدة فقد سجلت نجاحا معتبرا في هذا الميدان.

ونستنتج مما سبق من شهادات ما يلي:

*أن المنطقة الثامنة التابعة للولاية الخامسة، كانت منطقة حدودية مع المغرب الأقصى وهي مترامية الأطراف شبه خالية من السكان، ظروف العيش

---

269 الجُرف والجمع أجراف: هي مرتفعات جبلية قليلة الارتفاع، وقد تكون سفوحها.

الشائكة المكهربة أصبح نقل الأسلحة يتم على ظهور الأفراد سيرا على الأقدام. والمعروف أن للإنسان طاقة محدودة على تحمل الأثقال، فكيف إذا حملها إلى مسافات بعيدة وفي أماكن جبلية وعرة وفي مناخ قاس إما قاري أو صحراوي.

*أن العدو الفرنسي كان بالمرصاد لهؤلاء المجاهدين الحاملين للأسلحة، حيت كان يجبرهم على الاشتباك معه في معارك غير متوازنة، فيفقدون عددا من الأفراد، أما الأسلحة فقد يخفونها ليعودوا إليها ثانية، كما قد يستولي عليها العدو. وقد جند لذلك خبراءه وعملاءه.

*أن المسافة كانت طويلة والأرض خالية من السكان الذين تم جمعهم في محتشدات، فكانت تنفذ مئونة المجاهدين، ويكتفون بالماء أحيانا لأيام عديدة، وقد تنفذ مياههم أيضا.

*كانت شبكة الأسلاك الشائكة والمكهربة أهم عائق يعترض سير المجاهدين وتحركاتهم كيفما كان نوعها، والذين كانوا يحملون الأسلحة، مما كان يودي بحياتهم أو حياة بعضهم. لقد كان العديد منهم يخرج من مختلف أنحاء الوطن متجها نحو الحدود للحصول على الأسلحة-هاجس الثورة- لكن أجسامهم كانت تمزقهم وهم عزل من السلاح، وكانوا يبادون إبادة تامة، ومع ذلك لم تتوقف عمليات الاتصال بين الداخل والخارج.[271]

*كان المجاهدون يستولون على أسلحة العدو الفرنسي خلال الاشتباكات معه، ولكن طول المسافة والأرض ومطاردة الفرنسيين لهم تثقل كاهلهم وتنهك قواهم، فيضطرون إلى إخفائها للعودة إليها ذات يوم، وقد ينجحون في الانسحاب بها فتكون لهم عونا وأي عون.

---

[271] من كلمة السيد محمد عيسى باي في ملتقى "الأسلاك الشائكة والمكهربة" المنعقد في ولاية النعامة في جوان 1996، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في للحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

*كثيرا ما اعتمد جنود جيش التحرير الوطني على تسليحهم، مما كان يستخرج من قذائف أسلحة العدو التي لم تنفجر، فيستغلون بارودها لصنع المتفجرات أو الألغام.

وعموما يمكن القول عن "كل مسيرة من مسيرات إحضار السلاح تمثل ملحمة من ملاحم البطولة والفداء، خاضها رجال آمنوا بالحياة الكريمة، وقدموا لأجلها أغلى ما يملكون: أرواحهم ودماءهم."[272]

وأخيرا يمكن القول إن عملية الحصول على الأسلحة كانت أهم شغل للثورة الجزائرية في الداخل والخارج، وعندما كان يتم الحصول عليها يبدأ البحث عن طرق تهريبها وإيصالها إلى الأماكن التي هي في حاجة إليها بسبب المراقبة الفرنسية التي أولت لذلك كل الاهتمام. فهناك القوات الفرنسية البحرية والبرية والجوية التي تراقب الحدود والسواحل الجزائرية، وهناك الجواسيس والمراكز العسكرية الفرنسية المتواجدة في مختلف الجهات وهناك الأسلاك الشائكة المكهربة على الحدود شرقا وغربا. لقد تحدت الثورة كل هذه العوائق وصمدت سنين طوالا وقدم رجالها كل غال ونفيس إلى أن انتصرت سنة 1962.

[272] عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، الجزء:1، دار البعث، قسنطينة 1991، ص: 272.

في البلد الأم

كان الطفل "البغدادي" قد ولد في مَعْذَرْ تِيغَرْمينْ ببلدة تْيوتْ "عام الثلْجَة"، كما تسميه العامة؛ فقد دأب الناس على نعت السنوات وتحديدها بالأحداث البارزة التي وقعت فيها. ففي منطقة عين الصفراء مثلا يقولون: عام سيدي بوعمامة وهو العام الذي يصادف سنة 1881، وعام محمد ولد علي وهو العام الموافق لسنة 1900، وعامْ الجوعْ أو عام الحْريرَة أو عام الْبونْ يعني سنة 1945، وعام الضوّاية يشير إلى سنة 1952، وهكذا...[273]

و"عام الثلجة" هذا هو عام شهدت فيه منطقة عين الصفراء قحطا لا نظير له تلاه سقوط كثيف للثلوج، أدى إلى كارثة أصابت الحرث والنسل معا، وهو يتوافق مع نهاية الأربعينيات من القرن العشرين. أما مَعْذَر تِيغَرْمين ببلدة تيوت فهو عبارة عن حوض زراعي تتواجد على أطرافه آثار يقال إنها لبني عامر؛[274] فهناك ساقية بني عامر، وعين بني عامر، وقبور بني عامر، كما تتواجد

[273] عام سيدي بوعمامة: هو العام الذي أعلن فيه الشيخ بوعمامة المقاومة الشعبية سنة 1881 بالمنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر.. وعام محمد ولد علي: هو العام الذي قتل فيه الثائر محمد ولدعلي، أي عام 1900، والذي كان قد حمل السلاح بمفرده، وناصب السلطات الفرنسية العداء منذ سنة 1881 بجبل بني سمير جنوب غربي عين الصفراء. وعام البُونْ هو العام الذي شهد الجفاف وشهد البلاوي التي أصابت السكان الجزائريين عامة من جراء استغلال السلطات الفرنسية لكل شيء لتموين القوات الفرنسية المحاربة في جبهات القتال ضد قوات المحور، مما اضطرها إلى تزويد السكان بقليل من التموين على أن يحمل المستفيد بطاقة "بُون" تحمل اسمه وعدد أفراد أسرته. وعام الضواية 1952: هو العام الذي اعشوشبت فيه الأرض وازدهرت تجارة الأغنام، وكان البيع يتم ليلا، فيضطر الناس إلى استعمال المصباح اليدوي "الضوّاية."

[274] هم بنو عامر بن زغبة، وهم قبائل عربية وصلت السهول المرتفعة حوالي القرن الثالث عشر ميلادي/ نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين. وقد استدعاهم الزيانيون ملوك تلمسان لحمايتهم من هجمات قبائل المعقل في الغرب، ولهذا غادروا المنطقة.

في نواحي بلدة قلعة الشيخ بوعمامة (مُغْرار سابقا) آثار بلدة يقال إنها لبني عامر؛ ويقال عن هؤلاء إنهم أغلقوا ينابيع المياه بالصوف وببعض الأفرشة عندما غادروا المنطقة في اتجاه الشمال.

وتعيد الحكاية الشعبية سبب مغادرة بني عامر المنطقة إلى دعاء شر دعا به الشيخ أحمد المجدوب عليهم على إثر اعتداء ارتكبه زعيمهم عبد الحق، وكان دعاؤه كالتالي:

اللهْ يَعْطيكُم نْهارْ هايَفْ، ونَجْعْ خايَفْ.
مـــن مْسيفْ تْـــرُوحوا لَلْمْصايَـــفْ.

فهبت ريح قوية رَمَتْهم في منطقة تاسَّالا بالشمال الجزائري (على بعد 400 كم شمالا).[275]

عاش الطفل "البغدادي" في وسط عائلي محافظ، أدخله والده المدرسة القرآنية التي كانت تنعت محليا بـــ "الخَرْبيش"،[276] وذلك في بلدة تْيوتْ المتواجدة شرقي عين الصفراء بحوالي سبعة عشر كيلومتر. وبعد بلوغه سن السادسة أو السابعة من عمره دخل المدرسة الرسمية الفرنسية، وذلك حوالي سنة 1956، حيث كان كغيره من زملائه الذين يجمعون بين المدرسة القرآنية والمدرسة الرسمية، يقوم باكرا ليذهب لحفظ القرآن في المدرسة الأولى، وبعد

---

[275] عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، أطروحة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 2000–2001، ص: 90 و91. وأحمد المجدوب هو جد أولاد سيدي أحمد المجدوب المتواجدين بمنطقة عسلة، ويعودون في نسبهم إلى البوبكرية.

[276] يظهر أن كلمة الخربيش معربة عن الكلمة الأمازيغية "أخربيش"، حيث ورد في (صالح بن عبد الله الإلغي، المدرسة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1998، ص: 15.) أن "أخربيش وّامان" هو البيت المعد لتسخين ماء الوضوء بالحطب والملحق بالمسجد. وأن "أخربيش إيمحضارن": هي المدرسة القرآنية في منطقة سوس بالمغرب الأقصى.

طلوع الشمس يعود إلى البيت لتناول فطور الصباح ليغادره ثانية نحو المدرسة الرسمية على الساعة الثامنة صباحا.

في هذه البلدة، بلدة تيوت، كانت لوالد "البغدادي" صلة صداقة بإحدى عائلات هذه البلدة "أولاد رابَحْ"؛ حيث يتم التزاور بين العائلتين وتبادل السلع، ويقدم كل منهما الهدايا لصاحبه. ويعتبر هذا النوع من العلاقة من أهم ما كان يميز علاقة السكان البدو بسكان "القْصور."[277]

في بلدة تيوت يوجد مقر الباشاغا "سي الخلادي"، الذي خلف والده "سيدي مولاي"، منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، والذي كانت تحت سلطته كل المنطقة الجنوبية الغربية المعروفة آنذاك بـــ Le Sud Oranais ؛ كما كانت عين الصفراء مقرا للقيادة العسكرية لهذه الجهة Territoire Militaire d' Ain Sefra، وهي إحدى الأقاليم العسكرية الأربعة التي أقرها قانون 24 ديسمبر 1902 بخصوص الجنوب الجزائري (+ غرداية، تقرت، الواحات). وكانت عين الصفراء تمثل من الناحية المدنية بلدية مختلطة Commune Mixte عوض الضباط العسكريين الذين كانوا يحكمونها سابقا؛ حيث أدخلت تعديلات على مناطق الجنوب في عهد الحاكم العام Jules Carde، وأصبح يحكمها متصرف إداري[278] Administrateur، كانت تسميه العامة بـــ "المَسْتاتور". وقد انتقلت في هذا النظام السلطة إلى أيدي

---

277 القصور هي قرى بنيت قبل الفتح الإسلامي، وهي ذات بناء عمراني متميز، يسكنها في الغالب ذوو الأصول الأمازيغية، إذ لا يزال أغلب هؤلاء يتكلمون لهجة تدعى الشلحة أو تاشلحيت (في تيوت، عسلة، السفيسيفة، مغرار التحتاني، مغرار الفوقاني، الشلالة الظهرانية، بوسمغون.)

278 كان النظام البلدي في الجزائر منقسم إلى ثلاثة أقسام: بلديات كاملة التكوين Commune de plein exercice في المناطق التي يكثر فيها الأوربيون، وبلديات مختلطة Commune mixte حيث يقل الأوربيون، أما في المناطق الصحراوية حيث النظام العسكري فيحكم البلدية ضابط عسكري.

المدنيين في البلديات المختلطة، في كل من الجلفة والأغواط وتوقرت ومشرية وعين الصفراء.[279] وهذه المناطق تقع كلها على الحواف الشمالية من الصحراء الجزائرية.

كان الطفل "البغدادي" يجول، خلال العطل المدرسية، المناطق المجاورة لبلدة تيوت. وأهم ما كانت تسترعي انتباهه وتثير تساؤلاته تلك الرسومات المنقوشة على الصخور العملاقة، والتي تمثل حيوانات خرافية بالنسبة للطفل؛ إذ لم يكن يراها في حياته اليومية، منها الزرافات والأبقار الوحشية والفيلة والأسود والخنازير والظباء والنعام... وكان يرى إلى جانب تلك الحيوانات رجالا يحملون أسلحة بدائية كالأقواس والرماح والنبال والحجارة وغيرها.[280]

لقد سجل الإنسان القديم تاريخه على تلك الصخور التي يسميها الناس هناك بــ"الحَجْرَة المَكْتوبَة". لاشك أن ذلك الإنسان رسم حيوانات كانت تعيش إلى جانبه، ولاشك أيضا أن الظروف المناخية كانت مناسبة لحياة مثل تلك الحيوانات التي انقرضت بتغير تلك الظروف في العصر الحجري الحديث،[281] أي في عصور ما قبل التاريخ. كما ثبت ذلك أخيراً على إثر اكتشاف الدينصور العشبي من قبل أساتذة باحثين من جامعة وهران سنة

[279] سياسة فرنسا لفصل الصحراء الجزائرية، تقديم وحدة البحث للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، سلسلة الملتقيات، عدد خاص عن فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، الجزائر 1998.

[280] تتواجد هذه الرسومات الصخرية على طول جبال الأطلس الصحراوي، من الحدود الغربية إلى الحدود الشرقية. أما في هذه المنطقة فتتواجد في تيوت والمحيسرات ومغرار التحتاني وبين درمل وجنين بورزق ويدعى هناك بمول المكتوبة وفي أعلى جبل مير الجبال حيث يوجد رسم فيل اكتشفناه حوالي سنة 1988 في إحدى جولاتنا بالمناطق الجبلية.

[281] أنظر:

-Raymond Vaufrey, Préhistoire de L'Afrique, Tome 1, le Maghreb, Imprimerie Officielle de la Tunisie, Tunis, Sans date, P 357.

2000، والذي يعود حسب التقديرات إلى 165 مليون سنة.[282] وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية أن شمالي إفريقيا مَرَّ بفترات مطيرة عندما كان شمالي أوربا يمر بفترات جليدية في الزمن الجيولوجي الرابع.

في هذا الدور أتقن الإنسان في المنطقة صناعة الحجارة، وتفنن في الاستفادة منها؛ كما أتقن فن التصوير، فرسم الحيوانات ومناظر الاصطياد، وهي دلالة على تقدم إنسان المنطقة في عصور ما قبل التاريخ، والذي عبر عن أفكاره بتلك النقوش. "والواقع أن هذه الرسومات لها وظيفتها التعبيرية، وتعتبر مرحلة أساسية في تطور التعبير الإنساني في المراحل الحضارية، إلى أن يصل إلى مرحلة التعبير بالكتابة في بداية العصر التاريخي."[283]

كما كان الطفل يمر على كُوَمٍ من الحجارة في عدة أمكنة، قيل له إنها مقابر "الجوهالة"[284] الذين كانوا إذا اشتد بهم الجوع نزعوا الركيزة الأساسية التي كانت تمسك بيتهم الهرمي الشكل؛ فتنهار الحجارة التي بني بها البيت فيموت كل من بداخله، أي أنها عملية انتحارية، هي في الحقيقة مقابر لإنسان ما قبل الإسلام، قد تكونُ للأمازيغ أو لغيرهم ممن سكن هذه الأرض. درسها العلماء ووجدوا بها أدواتٍ تدل على تطور الحضارة. إنها "كراكير" متناثرة هنا وهناك، يمكن اعتبارها أهراما بدائية أو مرحلة ما قبل الأهرام الفرعونية.[285] وقد وُجدت مِخدات وأواني مع الميت لاعتقاد الإنسان آنذاك أن الميت في حاجة

---

[282] حسب تصريح الأستاذ مكاحلي العربي رئيس البعثة العلمية وعميد كلية علوم الأرض حاليا(2006).

[283] رشيد الناظوري، المغرب الكبير، ج:1، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص: 121.

[284] "الجوهالة" تعني سكان المنطقة قبل الإسلام، والكلمة مستقاة ولاشك من كلمة الجاهلية التي تعني سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام، الذين كانوا يتميزون بأخلاق وصفات معينة.

[285] العربي هلالي، فجيج، تاريخ وثائق ومعالم، طبع على نفقة المؤلف بالمطابع المغربية والدولية، طنجة، 1981، ص: 29 و31.

إليها في حياته الأخرى. إنها "ظاهرة دفن الموتى تحت المترل أو بجوار المترل الدنيوي، كما ظهرت مقابر خارج القرية."[286]

هناك في الدُّوَّارْ كان سي أحمد الفقيه، جار العائلة، يمنع حفيده بوعلام، رفيق البغدادي، من اللعب بالكرة، لأنه كان يراها لعبة محرمة، لأن "الكفار"، في اعتقاده، كانوا يتقاذفون برأس الحسين بن علي، حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلما يتم اللعب اليوم بالكرة؛ وبذلك كان البغدادي يُحْرَم هو أيضا من اللعب بالكرة عندما يقضي عطلته في الدوار. وكان الاثنان يخفيان الكرة تحت الرمال حتى لا يراها سي أحمد أو من ينقل إليه الخبر.

اندلاع الثورة

في النصف الأول من الخمسينيات كان الأخ الأكبر محمد يذهب إلى سوق عين الصفراء من حين لآخر رفقة والده، وعندما يعود إلى المترل يستعيد ذكريات يومه هناك، ويخبر بها رفقاءه وأمه في حضور إخوته الصغار. ومن بين ما تذكر البغدادي أن أخاه محمد هذا كان يرتاد أحيانا حلقات رواة المغازي أو ما يدعى محليا بـــ "حلقات المداحين"، ويروي عنهم ما سمع من القصص الشعبي ومدائح الرسول صلى الله عليه وسلم. منها رواية قصص الفتوحات الإسلامية وبطولات الصحابة وانتصاراتهم على الكفار، وأن هؤلاء الرواة لم يكونوا يكتفون بالقص القديم، بل كانوا يقارنون بين الأوضاع السابقة المزدهرة والأوضاع الحالية المتردية، وكثيرا ما كان يسمع ترديد عبارة: "شوفوا ما يْدِيرُوا الأَبْطال ماشِي كِيفْنا احْنا الْيُومْ" أو يوجه الراوي كلامه لجمهوره قائلا لهم: نحن لا نستأهل أن نكون رجالا، ويقول لهم نحن كالبقر ويدعوهم للصياح كما تصيح البقرة، "قولوا مُـــو.....هْ" فيرددون ذلك بعده، فهل كانوا يفهمون ما

---

[286] رشيد الناظوري، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني جنوب غربي آسيا وشمالي إفريقيا، دار النهضة العربية، بيروت 1969، ص: 42.

كان يريده منهم؟. وإذا ما رأى أحد أفراد السلطة الاستعمارية يقترب من الحلقة يغير موضوع قصته، وقد يتظاهر بالخبال والبَله.

أما الخال المربح فبعد انطلاق الثورة حكى أن أحد رجال الثورة كان يزوره من حين لآخر. وهذا الأخير كان يرتاد أسواق المنطقة ويقوم بدور راوي المغازي بحضور الخال هذا. وكان الرجلان يتفقان على أن يقوم الآخر برواية المغازي واستغلال ذلك للتنبيه والتوجيه إعدادا للثورة بطرق مختلفة غير مباشرة، أما النقود التي يجمعها فكان يرميها هنا وهناك بعد نهاية الجلسة الشعبية وكأنه رجل أبله فاقد للعقل، ويتبعه الخال هذا وهو يجمع تلك النقود وهو يردد أمام الناس أنه يجمعها لهذا الرجل الأهبل المسكين حتى يستفيد منها عوض رميها لأنه لا يفقه أهميتها، وقد أمضى معه مدة لا بأس بها وهما يقومان بهذا الدور.[287]

عندما كان الطفل يتعلم في المدرسة المذكورة آنفا، كانت الثورة قد اندلعت، لكنه لم يكن يدرك شيئا من ذلك، إلا أنه شاهد ذات يوم العسكر الفرنسي وهو يقوم بعملية تمشيط في ضواحي بلدة تيوت على إثر علمه بوجود مجاهدين في المكان، ولكنه لم يعثر لهم على أثر. وقد مرت بالمترل فرقة من العسكر الفرنسي، رأى أحد أفرادها جلبابَ الوالد(القندورة في بعض الجهات) في أعلى صخرة فلبسه وهو يصيح ويردد: Féllaga.. ! Féllaga ! أما فرقة المجاهدين التي كان الفرنسيون يبحثون عنها فهي مجموعة تموين يرأسها المدعو الشاذلي المعروف بـــ "البكباشي"، وهو أصلا من البلدة.

---

[287] الخال هو مربوح المربح، مجاهد من أوائل رجال الحركة الوطنية ثم الثورة التحريرية توفي حوالي سنة 1995 بعين الصفراء عن عمر يتجاوز الثمانين سنة. ويذكر أن ذلك المجاهد من الشرق الجزائري وربما من الأوراس. وقد حاولنا معرفة اسم المجاهد الذي كان يقوم بدور راوي المغازي دون نتيجة، عن طريق أبناء ذلك الخال الذين لا يعلمون شيئا عنه.

كما حضر البغدادي عملية تجند أخيه الأكبر "محمد" ذات ليلة من ربيع سنة 1957؛ حين زارت المترل مجموعة من المجاهدين بقيادة المدعــو لخضر قاسمي مساعد في الشرطة المدنية.[288]

في تلك الليلة غادر الأخ المترل رفقة تلك المجموعة ولن يعود إلى الأسرة إلا بعد الاستقلال، حيث سيلقي الفرنسيون عليه القبض سنة 1960 في جهات بشار على إثر محاولة توغل لفصيلة من جيش التحرير إلى داخل التراب الجزائري قادمة من الحدود المغربية؛ حيث تستقر وحدات من جيش التحرير الوطني، القاعدة الخلفية للثورة الجزائرية.

الهجرة إلى المغرب

في الأسبوع نفسه الذي غادر فيه الأخ المترل ملتحقا بصفوف جيش التحرير الوطني، اتصل الباشاغا سي الخلادي[289] بوالد البغدادي الذي كان يشتغل معه بصفة شاوش، وأخبره أن الفرنسيين اكتشفوا قائمة بأسماء العديد من الأشخاص النشطين مع الثورة في الميدان السياسي، وأخبره أن اسمه موجود ضمن تلك القائمة ونصحه بمغادرة المكان. فبادر الرجل بالرحيل ومر في طريقه بأفراد قبيلته المتواجدة غربي عين الصفراء، واتجه الجميع نحو المغرب الأقصى، خاصة بعد صدور قانون فرنسي يدعو الجزائريين إلى التجمع في أمكنة محددة

---

[288] شهادة محمد أخو البغدادي، 67 سنة، ضابط سابق في جيش التحرير الوطني ثم الجيش الوطني الشعبي، متقاعد منذ سنة 1984 بعين الصفراء.

[289] التحق أبناؤه بالثورة منهم بن ميلود رضوان وبن ميلود عبد العزيز. أنظر:
Mohamed Harbi, IBID PP/ 164, 156, 187 et 190.

أما هو فقد غادر الجزائر سنة 1957 في اتجاه فرنسا ومنها انتقل إلى المغرب، وعاد بعد الاستقلال إلى عين الصفراء إلى أن توفي بها في التسعينيات من القرن العشرين. وهو من عائلة بن ميلود التي يقال إنها من ذرية أحمد بن يوسف الملياني دفين مدينة مليانة. (أنظر: محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989، ص: 109.)

عينتها لهم السلطات الاستعمارية، هي عبارة عن "محتشدات"، وبخاصة على أطراف الطرق الرئيسية المعبدة، لمنعهم من الاتصال بجيش التحرير الوطني لتموينه بشريا أو ماديا ولتشديد الحراسة عليهم.

وقبل إقلاع المهاجرين من الجزائر، عملوا على تخزين جزء من متاعهم لتخفيف الحمولة؛ من ذلك مثلا أنهم قاموا بتخزين الحبوب في مطامير خَفِية تحت الأرض. وقد عاد البعض إليها بعد مدة، ولكنهم وجدوها قد فسدت وتغير طعمها، أما البعض الآخر فقد وجد أن السلطات الاستعمارية قد استولت على مخزونه من الأمتعة والأواني والحبوب.

وفي الطريق إلى المغرب كان المهاجرون يتنقلون ليلا ويحطون الرحال نهارا، حتى لا تكتشف طائرات العدو أمرهم. وكانت الحيوانات تحمل فوق طاقتها، وتساق إلى مسافات طويلة جدا مما يرهقها. وإذا ما عجزت إحداها نُزعت عنها حمولتها لتوضع على غيرها، وتترك هي حيث أصابها الوهن، وقد مات جلها نتيجة قصف الطائرات الفرنسية التي كانت تضرب كل شيء متحرك على الأرض.

كان الصغار يُرْدَفون على الحيوانات خلف الكبار، وكان النعاس يتغلب على البغدادي وهو رديف والده على ظهر الحصان الأحمر. وكان يرى من حين لآخر بعض الحيوانات التي اضطر أصحابها إلى تركها لشدة وَهَنِها، وكثيرا ما رأى بعض الحيوانات تسقط بحمولتها على الأرض فيُهرق الزيت أو السمن وتكسر الأواني، ويسقط بعض المسنين من على ظهور بعضها.

استقرت القبيلة أولا في منطقة مغربية تدعى "سوفْ أكْسَرْ"، بجوار وحدات من جيش التحرير الوطني، حيث كانت المنطقة ممرا نحو الأراضي الجزائرية، وأصبحت القبيلة "مركزا" للثورة من أجل التموين وراحة المجاهدين من جرحى وغيرهم.

في بلدة تندرارة: الالتحاق بالمدرسة

مر صيف سنة 1957 بسلام، وعندما حان موعد الدخول المدرسي فكر أولياء الأطفال في التحاق أبنائهم بالمدارس المغربية، وهكذا اتجه بعضهم إلى بلدة تندرارة، البلدة الأقرب إليهم مسافة، والتي كانت تشتمل على مدرسة ابتدائية "ابن أبي زرع". كان البغدادي من بين المحظوظين الذين التحقوا بالمدرسة الابتدائية. وبما أن المغرب يظهر أنه بدأ تعريب السنة الأولى ابتدائي في تلك السنة الدراسية، فقد أُلحق الطفل بالسنة الثانية التي كانت مزدوجة اللغة، وبخاصة بعدما اتضح أن الطفل سبق له وأن تعلم اللغة الفرنسية في الجزائر.

قام أولياء الأطفال بتأجير غرفة لأبنائهم في البلدة المذكورة، واتفقوا مع خباز وخضار وبقال لتموينهم بما يحتاجونه، على أن يدفعوا لهم التكاليف أسبوعيا أو شهريا. وهكذا استقل الأطفال الثلاثة في غرفة داخل حوش مكون من عدة غرف مؤجرة، فكانت تلك الغرفة تقوم مقام المطبخ والمرقد في آن واحد. واضطروا إلى الاعتماد كليا على أنفسهم في الطبخ والنظافة والدراسة وكل ما يهم حياتهم. واقتسموا أشغال الغرفة فيما بينهم، وعاشوا مدة خمس سنوات على ذلك الحال إلى أن أعلن عن الاستقلال سنة 1962، و لم يكن قد تجاوز أكبرهم سن الثالثة عشر من عمره حين الاستقلال.

التحق البغدادي، إذن، بالمدرسة المغربية رفقة اثنين من بني عمه، وبقي الأفراد أنفسهم حتى استقلال الجزائر سنة 1962. وكان التحاق بعض أبناء عمهم الآخرين يتم من حين لآخر، إلا أن آباءهم كانوا سرعان ما يضطرون إلى إعادتهم إلى بيوتهم لمساعدتهم في حياتهم المعيشية ومغادرة المدرسة نهائيا.

لقد صمد التلاميذ الثلاثة رغم قساوة الظروف، كالبعد عن الأسرة وشدة البرودة التي تتميز بها البلدة وتساقط الثلوج بشكل كثيف؛ حيث تنخفض درجة الحرارة إلى مادون الصفر شتاء. وكانت وسيلة التدفئة هي الفحم الطبيعي الناتج

عن حرق الخشب، وقد أدى إبقاء مِجمر الفحم داخل حجرة مغلقة ليلا إلى اختناق ثلاثة تلاميذ جزائريين مجاورين لحجرة البغدادي لاحتواء الفحم على غاز ثاني أكسيد الكربون الخطير.

وقد عاش تلامذتنا الثلاثة عيشة مكابدة ومجاهدة، وهم في سن كانوا أحوج ما يكونون إلى رعاية الأبوين (من 8 سنوات إلى 13 سنة). وتمرسوا على الاعتماد على النفس ومواصلة الدراسة بنجاح في مدرسة ابن أبي زرع تحت إشراف مديرها السيد بوعزة. وهي المدرسة الوحيدة ذات المستوى الابتدائي، وتتكون من ستة مستويات: التحضيري الأول cp1 والتحضيري الثاني cp2 والابتدائي الأول ce1 والابتدائي الثاني ce2 والمتوسط الأول cm1 والمتوسط الثاني cm2. وبعدها يشارك التلميذ في امتحان السادسة 6^{eme} في بلدة بوعرفة المتواجدة جنوبا، حيث لم يكن ينجح سنويا سوى عدد قليل من التلاميذ يعد على رؤوس الأصابع.

بعض أدوار الثورة في المهجر

كانت قيادة الثورة الجزائرية قد فتحت بقرية تندرارة، مثل بقية القرى والمدن المغربية في المغرب الشرقي، المجاورة للجزائر، مركزين لها أحدهما عسكري والآخر مدني، يمثل أحدهما جيش التحرير الوطني ويمثل الثاني جبهة التحرير الوطني. وإذا كانت مهمة المركز العسكري مرتبطة بشؤون جيش التحرير، فإن مهمة المركز المدني هي خدمة المهاجرين وإعدادهم وتعبئتهم.

كانت لمكاتب جبهة التحرير الوطني عدة نشاطات تجاه المهاجرين الجزائريين نذكر منها:

1- التوعية والتعليم:

كان المحافظ السياسي هو الذي يقوم بعقد جلسات للتوعية والتعليم، بعضها للذكور وأخرى للإناث، وكان يلقن هؤلاء بعض الأناشيد لحفظها. وقد

حضر "البغدادي" بعض هذه الجلسات كمتفرج، حيث لاحظ عمَّه "الهاشْمي"، الذي كان قد واصل تعليمه في مدينة وجدة، يلقن أهل الدوار نشيد "اشنقوني"، وهو كالتالي:

اشنقـــوني فـــلست أخشى حِبالا
واعْدِموني فلسْت أخشى الحديدًا
أنـــا إن مِتُّ فالجزائـــر تحيـــا
حـــــرة مستقـــلة لـــن تَبيـــدَا ... الخ

كان العم يقدم هذا النشيد في شكل قصة لمجاهد أو مجاهدة يلقي عليها الفرنسيون القبض ويستنطقونها، وكانت إجابتها هي هذا النشيد المشهور آنذاك.

ومن المفارقات التي لاحظها البغدادي أن عمه هذا كان ينسب هذا النشيد للشهيد "العربي بن مهيدي"، وهذا عندما يلتقي بالرجال؛ أمـــا عندما يلتقي بالنساء فكان ينسبه للمجاهدة "جميلة بوحيرد". والهدف واضح من ذلك، لقد كان البطل رمزا ونموذجا، فهو مجاهد ذكر يتمثله الرجال وهو مجاهدة أنثى تتمثلها النساء.

وقد صحب ذلك عملية محو الأمية للنساء والرجال كل على حِدَه؛ كما كان العم "الهاشمي" يقدم نصائح وتوجيهات أخلاقية في النظافة وتربية الأطفال والتشجيع على أداء الفروض الدينية كالصلاة. ومما لاحظه البغدادي أن المعلم الهاشمي كان يرغم النساء والرجال على التفوه بأسماء أزواجهن صراحة عند الحديث عنهم؛ بعد أن كانت النساء يَرَيْنَ ذلك سلوكا محرجا لهن، فقد كانت الواحدة منهن تكتفي بنعت زوجها بـــ "هو" أو مُولْ الدار، أو تتحدث عنه بصيغة الغائب دون تسميته، ويفهم السامع من ذلك أنها تقصد زوجها. وكان هذا السلوك مشترك بين المرأة والرجل؛ حيث لم يكن الرجل ينطق باسم

زوجته أبدا، فقد يسميها ابنة فلان، وقد يناديها دون اسم، بل يطلب منها عمل شيء مباشرة.

وكان الهاشمي يطلب من الجميع حفظ الأناشيد، على أن تتبارى المرأة مع زوجها في ذلك، ويسألهما في اليوم الموالي. وقد زارت الدوار مجاهدتان ذات مرة وعقدتا جلسات مع النساء وجهتا فيها عدة نصائح، من ذلك أنهما أمرتا النساء بخلع ما كانت تضعنه في رقابهن وشعورهن من حلي وعقيق.

كان البغدادي المتعلم مرجعا لبعض النسوة في تحفيظ بعض الأناشيد، وأكثر من كانت تتصل به لحفظ النشيد السابق امرأة من "المْرَابْطين"، زوجة "سي أحمد" المذكور سابقا، فهي بوشيخية كانت تجاور أسرته؛ لقد كانت تطلب منه بإلحاح مساعدتها على الحفظ في أسرع وقت حتى لا تتعرض للعقاب من قِبل الهاشمي المعلم. كانت لا تريد أن تبدو أقل مقدرة على الحفظ أمام بقية زميلاتها، خاصة وأنها كانت "المرابطة" الوحيدة بين النساء؛ وللمرابطين والمرابطات مكانة سامية ومحترمة من قبل كل الناس. فكانت تحاول تحاشي التأنيب أو العقاب؛ وكان الطفل يردد لها الشطر الواحد من البيت لتردده المرأة بعده، وهكذا إلى نهاية النشيد.

وقد زار الدوار مجاهد استقر مدة ليقوم بتعليم الأطفال وتوعية الكبار، كان الناس يسمونه "سي امْحمد"، يعلم الذكور على حِدَة والإناث على حِدَة. وكانت الأناشيد من أولى الأولويات في هذا التعليم لِما لَهَا من أثر على النفوس. ومن هذه الأناشيد: "من جبالنا طلع صوت الأحرار..." ونشيد: "جزائرنا يا بلاد الجدود..." ونشيد آخر حول بر الوالدين، ما تزال تحفظه أخت البغدادي:

ما رِضـــاء الله إلا　　　برضاء الوالدين
ما بقاء الكون إلا　　　بحنان الوالدين

أبَوَا الإنسـان بَعْـدَ		الله أوْلـى بالمحبـة
كل مَنْ أغْضَبَ أمّاً أو		أباً أغْضَبَ رَبَّـهْ
فأحِبـوا أبَـوَيْكـم		لتعيشـوا سعَـدَاء
وابذلوا الروح فِداهم		تجدوا الخير جزَاء...[290]

وقد أنشأ سي امحمد –كما يؤكد هو نفسه– ثلاث مدارس بالمنطقة كان يساعده فيها معلمون آخرون (مثل الطالب زيان وأحد القوراريين والعم أحمد). وقد اجتمع له من الدوار 175 طفلا من ذكور وإناث. وكان التلاميذ يتلقون القرآن الكريم والأناشيد الوطنية والقراءة على السبورة بالإضافة إلى التدريب العسكري،[291] وقد كان الهدف هو تكوين جيل المستقبل، وبخاصة من بين الأطفال الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس المغربية. كما كان سي امحمد يقوم مقام القاضي في فض النزاعات بين الأفراد.

كان سي امحمد يعقد جلسات توعية للكبار بصفته محافظا عسكريا وسياسيا، وزاره ذات مرة السيد عقبي عبد الغني قائد المنطقة الثامنة بالولاية الخامسة ليطلع على سير الأمور. وقد التحق جل الشباب الذين تعلموا عند سي امحمد بالثورة بمجرد بلوغهم سن السادسة أو السابعة عشر من العمر.

و لم يكن تواجد هؤلاء المعلمين منتظما، لذا فإن العم أحمد كثيرا ما كان يقوم بتعليم الأطفال بأمر من جبهة التحرير الوطني، رغم أنه لم يكن يعرف سوى القرآن الكريم، الذي تعلمه بالطريقة التقليدية مثل بقية إخوته.

ومما يؤكد اهتمام الثورة بالتعليم في كل الجهات، ما صرح به المجاهد مختار فيلالي من أنه كان يقوم –إلى جانب عمله كمسير للمركز السري لمجلس

---

[290] فاطنة ، 64 سنة، المقابلة في جوي 2003.

[291] زياد امحمد ولد البشير المعروف بـ "سي امْحمد"، 80 سنة، متقاعد، محافظ عسكري وسياسي سنة 1958 بمنطقة تيقري. المقابلة بالمشرية في 2 سبتمبر 2003.

الناحية (الأوراس) بالمنطقة الأولى- بتعليم الأطفال؛ حيث كان يقوم بذلك كل مساء بمدرسة الكاف الأحمر بالقسمة الرابعة بأولاد سلام بباتنة.[292]

وتذكر المجاهدة حورية دالي يحي المعروفة بـــ "ربيعة" أنها كانت من بين المتطوعات للتعليم في مدينة وجدة، وهو تعليم أولي باللغة العربية والفرنسية، كما فتحت جبهة التحرير مراكز الحضانة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين السنتين والخمس سنوات، الذين يُوَفر لهم الأكل والشرب خلال النهار، إلى جانب تعليم البنات ما يشبه التكوين المهني من خياطة وطرز وطبخ، كل ذلك بمساعدة مؤسسات دولية في مقدمتها منظمة اليونسكو. كما كانت تقدم هدايا للأمهات عندما يلدن.[293]

2-التعبئة والتدريب

كان البغدادي وهو في بلدة تندرارة تلميذاً، يرى الشباب الجزائريين يلتحقون بصفوف جيش التحرير الوطني. وكثيرا ما كان يمر بغرفته العديد من أبناء الدوار، الذين تركوا دوارهم ليسجلوا أنفسهم بمركز الثورة في بلدة تندرارة من أجل "الطلوع للجبل"، وهم في غاية الرغبة والحماس، بعد أن كونهم المحافظ السياسي والمعلمون في الدوار.

وقد قامت الثورة في السنوات الأخيرة، وبخاصة في بلدة تندرارة بتدريب أطفال المدرسة من أبناء المهاجرين، تدريبا عسكريا، وقد ركز المدربون على

---

[292] تصريح لمختار فيلالي، أستاذ جامعي ورئيس جمعية التاريخ والتراث لمنطقة الأوراس، ندوة يوم النصر، 19 مارس 2003 المنعقدة بجامعة وهران.

[293] المجاهدة دالي يحي حورية المدعوة "ربيعة" زوجة المجاهد مختاري، 64 سنة، مراقبة في النظام السياسي بوجدة، المقابلة بمتحف المجاهد بوهران، بمناسبة إحياء ذكرى الاستقلال 5 جويلية 2003.

النظام المنضم، دون السلاح. وكان ذلك يتم كل يوم بعد الساعة الخامسة مساء في مركز الجبهة من قبل أحد رجال المركز العسكري، أي بعد الخروج من المدرسة الرسمية المغربية. وهكذا كان البغدادي أحد هؤلاء التلاميذ الذين يتلقون هذا التدريب يوميا. وقد اختير هو وثلاثة تلاميذ جزائريين ليتم تكوينهم كممرضين، فكان "فَلوس الحسين" ممرض جبهة التحرير الوطني في بلدة تندرارة يُحَفِّظهم أسماء الأدوية والأمراض التي تشفيها، كما كان يعلمهم كيفية استعمال الحقنات. وهذا يعني أن الثورة كانت تعد التلاميذ لمهام الكفاح المسلح ليخلفوا من سبقهم؛ إلا أن الاستقلال سنة 1962 لم يُمكن هؤلاء الأطفال من الالتحاق بالثورة والجهاد.

وكانت الجبهة تحيي بعض المناسبات الوطنية في مكاتبها بإلقاء الخطب والأناشيد الوطنية، وقد تم اختيار البغدادي مع تلاميذ آخرين ذات مرة لإلقاء كلمة أمام جمع من المسؤولين والمهاجرين، وقد رفعه أحد المسؤولين على المنصة، وهو جد مرتبك، في إحدى المناسبات الوطنية وقدوم بعض كبار مسئولي الجبهة، لم يستطع تلميذنا معرفة المناسبة ولا الشخصيات الحاضرة.

وقد اهتمت الجبهة اهتماما كبيرا بالمهاجرين، ويوضح المنشور الذي سنقتبس منه إحدى الفقرات ذلك. جاء في منشور موقع من قبل الضابط الثاني لطفي، رئيس منطقة وهران الجنوبية، يُذَكِّر فيه بالمنشور الثاني للمنهج (كذا) السياسي بتاريخ 20 أوت 1956: الدعوة إلى الاهتمام بمشاكل الشعب وبصحته والعمل على حلها، وعلى محاربة الأمية وتهذيب الناس وإطلاعهم يوميا على الحالة الوطنية السياسية والعسكرية، والرد على الأكاذيب واستنكار أعمال الاستفزاز، والتعريف بأوامر جبهة التحرير الوطني، والجمع بين العائلات والطبقات الشعبية من جهة، والقيادة من جهة أخرى، والاعتماد "بالخصوص

على الطبقات الاجتماعية التي هي أكبر عدد (كذا) وأشد فقرا وأميل إلى الثورة..."[294]

3- النشاطات الترفيهية

كانت جبهة التحرير الوطني، عن طريق مصلحة الشؤون الاجتماعية، تولي أهمية كبيرة لأطفال المهاجرين الجزائريين. من ذلك أنها كانت تنظم لهم رحلات ترفيهية في العطل المدرسية. فكانت تعين مجموعة من التلاميذ الجزائريين من كل بلدة من بلاد المغرب الأقصى لقضاء فترة تدوم أسبوعا أو عشرة أيام في بعض أماكن الاصطياف. وقد تبرعت الأميرة عائشة ابنة محمد الخامس، ملك المغرب، سنة 1958 بمبلغ مالي لاستقبال عدد من أبناء المهاجرين في مخيم ببلدة السعيدية، وهكذا عينت جبهة التحرير الوطني خمسين طفلا مهاجرا من كل من بلدة فكيك وبوعرفة وتندرارة وبرقم ووجدة وغيرها...[295] وكان البغدادي من الأطفال الذين حظوا بقضاء العديد من العطل المدرسية في كل من شاطئ مدينة السعيدية الساحلية وغابة المعمورة بالمحمدية. وقد كان النشاط منظم، يجري حسب قواعد الكشافة أو ورشات الاصطياف عموما؛ حيث كانت أيام النزهة هذه تتم وفق برنامج يومي مدروس؛ فهناك تحية العلم، وتناول وجبة الفطور، ثم تجهيز وتنسيق وتنظيف مدخل الخيمة وساحات المكان، ويتم تنقيط هذه الأعمال من قبل الممرنين المنشطين، وهناك موعد للأعمال اليدوية وموعد لحفظ الأناشيد وترديدها، وموعد للسياحة والتجوال...الخ. وقد كان المسؤولون

---

[294] وثيقة مكتوب عليها بالفرنسية كلمة Secret وعليها ختم مكتوب عليه: "جبهة التحرير الوطني، ولاية وهران، المنطقة الثامنة". من وثائق العربي خليفي وهو من أوائل المسؤولين السياسيين بمنطقة عين الصفراء 1956، صف ضابط في جيش التحرير الوطني والجيش الوطني الشعبي، توفي سنة 2002 عن عمر يناهز 80 سنة.

[295] جباري ميلود ولد محمد، 68 سنة، متقاعد، عسكري منتدب سياسيا من 1956 إلى 1962 مع قيادة المنطقة الثامنة الولاية الخامسة، المقابلة بعين الصفراء في 4 سبتمبر 2003.

والمدربون جزائريون في أغلب الأحوال. وبخاصة أفراد الكشافة الإسلامية الجزائرية.

حركة "المقاومة المغربية"

في يوم من أيام شهر جوان سنة 1958 والمصادف للسوق الأسبوعي الذي يحضره غالبا أولياء تلامذتنا، وبعد خروج التلاميذ من المدرسة صباحا؛ عاد البغدادي إلى البيت كغيره من زملائه رفقة أحد أبناء عمه، وإذا به يجد البيت محاصرا من قبل أشخاص مدنيين مسلحين، فاتجه الاثنان إلى مكتب الجبهة، حيث وجدا مجموعة كبيرة من الجزائريين، وكان الجميع على علم بما حدث، غير أنهم لم يشرحوا للطفلين ذلك، بل اكتفوا بالربت على أكتافهم والعمل على مؤانستهم. وعندما عاد الطفلان إلى البيت لم يجدا أولئك المسلحين، لقد تم القبض على ثلاثة مسؤولين مدنيين من عائلة البغدادي هم والده البشير واثنين من أعمامه وزج بالجميع في سجن ما كان يدعى بـــ "المقاومة المغربية". ولم يجدا سوى الجدين المقعدين وهما يبكيان ويدعوان دعاء الشر على من كان السبب في هذه الكارثة، كما استمع الطفلان إلى رواية الجدين للأهل لما حدث، وبخاصة دفاع أبنائهم أمام أولئك الرجال الذين جاءوا للقبض عليهم، حيث ذكّروهم بوحدة الشعوب المغربية ووحدة الكفاح ضد المستعمر يدا واحدة، ولكن دون جدوى.

لقد برز ما سمي بـــ "المقاومة المغربية" حوالي نهاية سنة 1957 وخلال سنة 1958، وهي حركة مغربية تزعمها السياسي علال الفاسي، زعيم حزب الاستقلال المغربي، الذي كان يرى أن الصحراء التي كانت ضمن الحدود الجزائرية آنذاك هي صحراء مغربية؛ وعليه يجب استرجاعها، وقد ابتدأ الأمر بمحاولة تجنيس المهاجرين الجزائريين الذين ينتمون إلى تلك المناطق، والتي تمتد من جنوبي مدينة سعيدة إلى الحدود المالية الموريتانية؛ هذه الأخيرة التي كان

المغاربة يعتبرونها أرضا مغربية، و لم تعترف الحكومة المغربية باستقلالها إلا بعد عقود من السنين بعد استقلالها.

لقد حاول رجال المقاومة المغربية إجبار الجزائريين المنتمين إلى هذه المناطق أن يعلنوا مغربيتهم، فمنهم من رفض ومنهم من قبل بذلك، هؤلاء الذين سيُطلق عليهم فيما بعد تسمية "الشناقطة" و"التزوكيت" و"المزوكْتِين"، ومنهم من كانت إجابته ديبلوماسية وهي أنهم سيعلنون مغربيتهم إذا ما رفع العلم المغربي على أراضيهم, ولكن مادامت هذه الأراضي تحت السيطرة الفرنسية فلا مجال للحديث عن مغربيتهم الآن.

كان رد والد البغدادي وابني عمه الهاشمي والعربي، الذين تم القبض عليهم، هو التريث والتعامل بالحسنى، ولكن المغاربة طلبوا منهم إعلان مغربيتهم أولا، على أن تتكلف الحكومة المغربية بكل ما يخص استرجاع هذه الأراضي، واتهموهم بالتحريض على عدم قبول فكرة مغربية هذه الجهات. ولهذا وبعد إدخالهم لأحد المراكز التابعة لهذه الحركة ببلدة تندرارة، نقلوا في سيارات إلى بلدة بوعرفة نحو الجنوب المغربي، ثم اتجهوا بهم إلى بلدة آرفود والريصاني بنواحي تافيلالت جنوبي المغرب؛ حيث بقوا حوالي أربعة أشهر وهم في البحث والاستنطاق في محاولة لإجبارهم على إعلان مغربيتهم ووضع جبهة التحرير الوطني أمام الأمر الواقع. وكانت إجاباتهم دائما- حسبما أخبروا بذلك فيما بعد- أنهم عاهدوا جبهة التحرير الوطني على الوفاء وأنهم لن يخلفوا العهد.[296]

لقد عاهد الجزائريون جبهتهم وبلادهم على المضي قُدما لتحرير الوطن، و لم تثنهم عن ذلك أية عوائق مهما كانت، جاء في نشيد قَسَماً ما يلي:

جبهة التحرير أعطيناك عهدا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

---

[296] من مذكرات البشير والد التلميذ حول عملية اعتقاله هذه.

والوفاء بالعهد من شيم المسلمين، هذا ما يؤكده القرآن الكريم في: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها..."[297] وفي قوله سبحانه وتعالى: "الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق."[298] وهكذا كان المعتقد الديني راسخا متأصلا في النفوس والأذهان، وكانت الوطنية أصيلة ثابتة.

قال عنهم أحد أقاربهم من المجاهدين قصيدة شعبية نقتطف منها ما يلي:

ولد قوَيْدَرْكان فَكْتورْ بْــريَّـــة ... في الحقيـــبة جايَبْ أخبار الثورة[299]
فوقه بَرِّيَمَةتشَعْــشَــعْ نيــلِيَّــة ... رَفْدوهم حَسْراه صارْ لْهُمْ ما صار
ياكْ العَــرْبِي قـــام بالسياسِــيَّة ... يْمَشِّي في الأمـــور دائِــما ساهَرْ
البَــشير إمام شيـــخ القَـــضايا ... يَعْدَل بين الناس في حُكْمَهْ ماهَرْ
الهاشْمي قارِي عُلـــومْ العَرْبِيّــة ... يْوَعِّي في الناس للـــجهاد يْشــير
مُناضْلين صْحاحْ راحوا ضَحِيّة ... للنظام مْلاح يَحَسْــنوا التســير
في المكان تْحَدْدَتْ[300] بالعَسْكَرِيّة ... كْثِــيــرَةْ عَــدَادْ ولا تتــقَــدَّرْ
تشوَّط قلبي وطَرْفْ مَنْ الــرِّيَّة ... ويَسْتحيب خالقي عاطي الأقدار
الموَمَــنْ المــقـــدر له مُــوفِيَّة ... جْمِــيعْ اللي يَاتِيكْ بإذْنْ القَهارْ.

وفي هذا الوقت كان حزب الاستقلال يقوم بحركة تعبئة للشعب المغربي من خلال المهرجانات الشعبية المقامة خلال الأعياد الوطنية المغربية، من ذلك إطلاق شعارات تنادي باسترجاع الصحراء. وكان علال الفاسي زعيم هذا الحزب أهم شخصية رائدة في هذا المجال بحضوره الشخصي وبخاصة في المناطق الجنوبية

[297] سورة النحل (الآية 91).
[298] سورة الرعد (الآية 20)
[299] هو الشاعر الشعبي بوخموشة الكبير بن عبد القادر (قوَيْدَر)، 74 سنة، قال القصيدة سنة 1958 بعد اعتقال المجاهدين الثلاثة: العربي- البشير- الهاشمي. وفكْتورْ Facteur : كلمة فرنسية تعني ساعي بريد.
[300] تحددت: من الحديد: أي كبلوهم بالحديد.

الشرقية من المغرب. ففي بلدة تندرارة كان ينشط الاحتفالات بالخطب والمناداة بشعارات مختلفة يرددها بعده كل الحضور، منها:

"المشرِقِ والمغرِبِ والأطلا...سِ يحيا الوطن، يحيا الملك، يحيا علال الفا...سِي.

أو: المغرب كلُّه لِينا * والصحراء تَرْجَعْ لِينا

المغرب كله لينا * والصحراء ترجع لينا...

إلا أن هذا الحادث لم يؤثر كثيرا على الدعم الذي كانت تلقاه الثورة الجزائرية من قِبَل المغرب ملكا وشعبا. لقد عولجت مختلف القضايا "بالحكمة والعقل والرزانة والصبر مع ضبط النفس والأعصاب لتفويت الفرصة على الانتهازيين والمغرضين والمتآمرين، للحيلولة دون دعم المغرب الشقيق..."[301]

ونتيجة لمفاوضات تمت في القمة وقَع تدخل من قبل الملك محمد الخامس بواسطة الجيش الملكي المغربي، وتم الإفراج عن المعتقلين والموقوفين الجزائريين، وسلموا لمكتب جبهة التحرير الوطني ببلدة فكيك الواقعة جنوب شرقي المغرب.

أما جبهة التحرير الوطني فقد وقفت موقفا سلميا من هذه القضية، فقد احترمت الضيافة المغربية وقدرتها حق قدرها، لوجود أبنائها في بلد المغرب الشقيق ضيوفا، وكانت وصاياها أن "إذا ضربك المغربي على الخد الأيمن فاعطه الخد الأيسر." وذلك محاولة من الجبهة في عدم إثارة الفتنة مع المغاربة الذين تمثل بلادهم القاعدة الخلفية للثورة الجزائرية ماديا وبشريا، ولوجود أعداد هامة من جيش التحرير الوطني مرابطة على الحدود الغربية للجزائر.

حياة المهاجرين

لقد وجد الجزائريون الملجأ والمأوى والضيافة لدى الشعب المغربي الذي فتح ذراعيه بصدر رحب لاستقبالهم. وكان الجزائريون يَرَوْنَ في شخص الملك

---

[301] محمد قنطاري، مجلة الذاكرة، العدد الثالث، خريف 1995م/ 1415هـ.

محمد الخامس الرجل المخلص لقضايا العرب والمسلمين ورمزاً للوحدة المغاربية. لقد سهل للثورة الجزائرية الإقامة والحركة بكل حرية، ودافع عن القضية الجزائرية محليا ودوليا. أما الشعب المغربي فقد شاركت أعداد هامة منه في الثورة التحريرية، فمنهم من استشهد ومنهم من بقي على قيد الحياة.

كان جل الجزائريين المقيمين بالحدود الغربية، قد هاجروا من أراضيهم لسبب أو لآخر، وقد بلغ عددهم في المغرب الأقصى حسب إحصائيةٍ لقيادة الثورة سنة 1960: مائتا ألف مهاجر على شكل عائلات، أما الأفراد فقد بلغ عددهم خمسة آلاف فرد أغلبهم شيوخ ونساء وأطفال.[302]

لقد أتلف المستعمر المحاصيل والمياه وعرَّض الناس للقتل والإبادة الجماعية في الأرياف عامة وفي المناطق الحدودية خاصة، فهاجر من هاجر، "وأصبحت ممتلكاهم على طول خط الحدود الجزائرية المغربية مناطق محرمة ملغمة بالقنابل والمتفجرات والأسلاك الشائكة المكهربة والملغمة والمفخخة".[303]

لم يجد البغدادي أي فرق بينه وبين زملائه المغاربة في المدرسة والشارع، في العادات والتقاليد. لقد اندمج أطفال الجزائر مع أطفال المغرب بكل عفوية. ولم يسمع يوما كلمة نابية أو مهينة من قبل الأطفال المغاربة على أنه جزائري أو أجنبي، خلال مرحلة الكفاح المسلح.[304]

كان أولياء البغدادي ورفقاؤه، في بلدة تندرارة، يزورونهم مرة كل أسبوع بمناسبة إقامة السوق الأسبوعية، التي كانوا يتمونون منها، ويستغلون الفرصة

---

[302] انظر:

-Mohamed Guentari, Organisation politico-administrative et militaire de la révolution algérienne de 1954 à 1962. V 2, OPU, Alger 1994, P 650 et 652.

[303] محمد قنطاري، المرجع السابق.

[304] كان البعض من الكبار ينعت الجزائريين بـ الدوزيام فرنسيس".

للإطلاع على أبنائهم ليسهروا على راحتهم ويتأكدوا من أحوالهم. فكانت هذه الزيارة الأسبوعية بمثابة البلسم الذي ينتظره هؤلاء الأطفال الذين كانوا في أشد الحاجة إلى مثل تلك الزيارة.

وكان هؤلاء الأولياء يستفيدون من نصيبهم شهريا مما كان يقدم للمهاجرين في المغرب من أغذية وألبسة كانت توزعها عليهم مصلحة الهلال الأحمر الجزائري (أنشئت سنة 1956)، فكانوا يحصلون على نصيب من دقيق القمح ومن الحبوب الجافة والزيت والصابون والسكر والأرز والحليب المجفف، وبعض الألبسة والأغطية، التي كانت تأتي من التبرعات الدولية. وقد زادت هذه النوعية بعد تَكَوُّن الحكومة المؤقتة سنة 1958، كما استفاد بعض الفقراء المغاربة من هذه الهبات والمساعدات الدولية إلى جانب إخوانهم الجزائريين.

وكان البغدادي يقرأ أحيانا ما كتب على بعض تلك السلع، منها أكياس الدقيق التي كانت تحمل عبارة "هدية من الشعب الأمريكي إلى الشعب الجزائري"، وهي تغطية لما كانت تقوم به الحكومة الأمريكية من دعم لفرنسا من خلال حلف شمالي الأطلسي، الذي قرر في 26 مارس 1955 مساندة الحكومة الفرنسية في حربها ضد الجزائريين. كما كان يسمع عن قمح رديء يميل لونه إلى البني يدعى "كندا"، مما يعني أنه مستورد أو مُهدى من البلاد الكندية. وكان رب كل أسرة يحمل بطاقة بها عدد أفراد أسرته (تدعى: جرْيدة)، يحصل بواسطتها على القدر الذي يخص أسرته.

وقد اضطر بعض المهاجرين إلى العمل في ورشات قطف الحلفاء لتوفير عيش أسرهم، ويتم ذلك عن طريق قطف هذا النبات الخشن من الأرض وجعله على شكل كوم ثم وضعه على ظهور الحمير ليحمل نحو تلك الورشات المغربية أو الفرنسية ليحصلوا في المقابل على "قالب سكر"، وهو عبارة عن قطعة سكر مقولبة تزن حوالي كيلوغرامين اثنين.

لم يكن في بلدة تندرارة آنذاك لا كهرباء ولا غاز من الذي نعرفه اليوم. لقد كانت الشمعة والقنديل (الكانكي) وجهاز الفتيلة بالزيت هي وسيلة الإنارة ليلا، عليها يُحَضر التلاميذ دروسهم ويحفظونها. أما وسيلة الوقود للطبخ فكانت عبارة عن جهاز بسيط ذي ثلاثة أرجل يدعى "الرِّيشُو" Réchaud يشتعل بسائل كان يدعى "الغاز" (تنطق الغين جيما مصرية مخففة)، وهو نوع من البترول السائل يدعى علميا بـــــ Fiol oil .

أما بلدة تندرارة فقد كانت بسيطة بساطة سكانها من قبائل بني قيل البدوية المغاربة المشهورين بالفروسية وتربية الأغنام والإبل. ويحكم البلدة موظف يحتل منصب "خْليفة"، وكان المخزن هو الجهاز المكلف بتوفير الأمن، وتقيم عائلاته في حي يدعى "القَشْلَة".

وكان المذياع هو الوسيلة الوحيدة من وسائل الإرسال والإطلاع على أحداث الثورة وأحداث العالم. وكان الجزائريون يستمعون كثيرا إلى نشرات الأخبار، وبخاصة تلك الأخبار التي كان يقدّمها المذيع الذائع الصيت صاحب الحنجرة الجَهْوَرية والنغمة القوية والأسلوب الجذاب: "عيسى مسعودي"، وهو يتحدث عن معارك جيش التحرير الوطني وعن دور الجبهة في الداخل والخارج، وعن الموقف الدولي من القضية الجزائرية. والذي كان يفتتح نشرته بالقول: "أيها الاخوة الأحرَارْ..." مع التشديد على الرائين، مما يلهب حماس المستمعين.

كان التلميذ البغدادي يستمع إلى هذا المذيع بكل انتباه، مما يجعله على أهبة الاستعداد للجهاد والالتحاق بصفوف الثوار في الجبال الشامخات الشاهقات، وكانت الإذاعة تفتتح برنامجها بـــ "هنا إذاعة الجزائر الحرة المكافحة. أو صوت جبهة التحرير الوطني يخاطبكم من قلب الجزائر"، أو "صوت الجزائر الحرة المكافحة، صوت جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني يخاطبكم من قلب الجزائر."

في السوق الأسبوعية

كان البغدادي ورفقاؤه يجدون المتعة في السوق الأسبوعية التي يؤمها نوع من الشعراء التعبيين يدعون محليا بـــ "المداحين" الذين كانوا يقومون بتنشيط "الحلْقات" التي يتجمع حولها الناس للفرجة والترويح عن النفس. كان منهم الجزائريون ومنهم المغاربة، يقدمون ما يدعونه بـــ "الغزْوات"، وهي حكايات غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، وكانوا يقدمون من حين لآخر أناشيد وأغان جزائرية ومغربية تساند القضية الجزائرية، وتحمس الناس لدعم هذا أو ذاك.

من ذلك مثلا ما كان يقال عن الملك المغربي محمد الخامس الذي نفاه الفرنسيون إلى جزيرة مدغشقر في 20 أوت 1953 ليعيدوه إلى بلده في شهر نوفمبر 1955، بعد أن رفض التعاون معهم، والتي منها هذا المقطع:

ونْهارْ قَبْضوهْ	عْلى أولادُه عَزْلـــوه
الكفار غَدْروهْ	شفّاوْا فِيهْ العَديـــان
وَنْهارْ الأرْبَعْ	ثَمَّ الأخبار تْزَرْبَـــعْ
....	يْشيّْبوا في الصّبْيان[305]

وعن الزعماء الجزائريين الخمس الذين اُختُطِفَتْ طائرتهم في 22 أكتوبر 1956 وحُوِّلت نحو مطار الجزائر؛ حيث تم اعتقالهم عندما كانوا في طريقهم إلى تونس قادمين من الرباط على متن طائرة مغربية يقودها طيار فرنسي؛ كان

[305] وكان البغدادي قد رأى بأم عينيه شدة محبة المغاربة لملكهم محمد الخامس على إثر وفاته في 26 فبراير 1961 بعد إجرائه لعملية جراحية. فقد رأى الوضع العادي قد تغير. فالناس حيارى من المفاجأة، والطريق الرابط بين فكيك وبوعرفة جنوبا في اتجاه الشمال ظل لوقت مفتوحا للسيارات المسرعة الذاهبة لحضور جنازة الفقيد وحضور مراسيم الدفن. كما سمع عن أناس رموا بأنفسهم من شرفات العمارات حزنا وجزعا على الفقيد المرحوم.

البغدادي يستمع إلى بعض منشطي حلقات الغزْوات وهم يرددون مثل هذه المقاطع:

رانـــي نْظَل نْخَمَّمْ		والقلبْ راهْ حَيـــران
وعْلى السِّي بَن بَلَّة		ما جانـــي خْـبَـــر
رْفاقتـــه الخَيْـــــذَر		ورَبْعَة السحْــعـــانْ
في الرباط تْجَمْعوا		وداروا الديــــوان
"طارت بهم الروبلان		قوة كبيرة ماصابوا قدر

يسوق بهم كافر والقـــلب راه زعـــفان	نـــزلوا في الدزاير ما صابوا قدر
وايْنْ اصحاب الفِدَا هُما اصحاب نيشان	واين زيش التحرير غاب ما حضر
لو كـــان حضر يكـــون فيهـــا قـــتال	وشحال من لاليجو يَدّوا له العمر
الملك فـــي تونـــس واستَبْطـــا السجعان	سَرْسَـــرْ التلفون جاه عجـــلان

جـــاوْبْــهْ ذاك الكافــر كَيَّـــة بـــلا جـــمـــر
قـــال لـــه تجيـــي في عـــبد الله وإلا الحـــسن[306]
وما تجينيش في رياس الدزاير ادّاهم قوم الغدر."[307]

وكان المستمعون من الجزائريين يجدون في مثل هذه الحكايات المنظومة ما يفرج كربتهم ويؤنس وحشتهم على إثر المصاب الجلل الذي أصابهم بفقدان

---

[306] مما يؤكد هذا ما نشرته صحيفة العلم المغربية بتاريخ 24 أكتوبر 1956 قول محمد الخامس: "إن ألمي عظيم جدا وحزني عميق، وكنت أختار في الواقع أن أقدم نفسي لأشاطر ضيوفي، وربما حزني أخف وطأة لو أن ولدي هو الذي اعتقل." عن محمد أمطاط، "الملك محمد الخامس ودعم حرب التحرير الجزائرية 1956-1961"، مجلة المناهل، العددان 78/77، فبراير 2006. وعبد الله والحسن هما ابني الملك محمد الخامس. وقد خلفه هذا الأخير (الحسن) في منصب السلطنة.

[307] الراوي محمد هدو، من مجاهدي الثورة التحريرية، وهران سبتمبر 2006. عن خماسة محمد من أولاد نهار رفيق السلاح سنة 1960 بجبل قروز.

أهم زعماء الثورة التحريرية. وكان الوفد الجزائري يتكون من: أحمد بن بلة، محمد خيذر، حسين آيت أحمد، محمد بوضياف، والصحفي مصطفى الأشرف.

لقد كانت النكبة وكانت الفاجعة التي سماها توفيق المدني في مذكراته: "النكبة الأولى" التي سبقت نكبة "السفينة آتوس"، ونكبة "العدوان الثلاثي على مصر".

كما أبدع شاعر آخر نشيدا وطنيا في الموضوع جاء فيه:

باسم الأحرار الخمسة مانفوتش الثار يا فرنسا
احنـــا الأحـــرار مانفـــوتـــش الثـــار
ثار الأحرار الخمسة...
ياجـــزائر احنا معاكِ مالنا وارواحنـــا فداكِ
نحميـــك ونحمي حماكِ نَفدي أرضَـــك وسماكِ
كلنا بن بلة وراكي...الخ[308]

وقد عملت جبهة التحرير الوطني على التخفيف من هذا المصاب بزرع الأمل والتقليل من أهمية الحادث عن طريق دعايات مضادة. منها مثلا: إذا كانت فرنسا قد اعتقلت بن بلة؛ فإن تحت كل صخرة من صخور الجزائر بن بلة آخر، وأن المرأة الجزائرية قادرة على إنجاب "بن بَلات" آخرين. وقد جاء على لسان أحمد توفيق المدني، وهو أحد أعضاء الوفد الخارجي بالقاهرة آنذاك، ما يشبه هذا؛ حيث صرح عقب هذا الحادث في "صوت العرب" بالقاهرة بقوله: "..فالثورة العارمة هي شعب لا أفراد، والثورة العارمة هي عقيدة لا أشخاص،

[308] المنتقى الرشيد من جيد النشيد، إصدار جماعة من الأساتذة، مطبعة ابن خلدون بتلمسان، جوي 1963، ص: 18.

وكل رجل في الجزائر هو ابن بلة وخيضر وبوضياف وآيت أحمد والأشرف."[309]

وإلى جانب حلقات المداحين، منشدي الغزْوات، كانت السوق الأسبوعية في تندرارة تضم عددا هاما من باعة الأدوية الشعبية ومختلف أنواع العلاج الشعبي، الذين تتعالى صيحاتهم الهادفة إلى جذب الناس للاستشفاء لديهم. كما كانت هناك حلقات السحرة الذين يحولون الأشياء من صنف إلى آخر، كتحويل الحلوى إلى بيض أو إلى حَمام وإلى نقود أحيانا أخرى. ومنهم من يبلع شفرات الحلاقة وهي مربوطة بخيط بعدد غير محدود. وقد وصل الأمر بأحدهم ذات مرة أن حول طفلا ذكرا إلى أنثى –حسب زعمه-. ومنهم من كان يقوم بتكسير القارورات الزجاجية ليمشي فوقها دون أن يصاب بأي جرح. ومنهم من يغرز سلكا في خده الأيمن ليخرجه من خده الأيسر. ومنهم فرقة مشهورة باسم "عيسَاوَة" كان أفرادها يروضون الثعابين التي تلدغهم دون أن يصيبهم الأذى من ذلك، والذين كانوا يقومون بحركات بهلوانية، فيركبون فوق بعضهم البعض ويشكلون هرما. وهناك من يداوي الناس بواسطة الحِجامة والتي تتم بوضع آلتين تقليديتين على قفا المريض، يستعملهما الحَجَّام لامتصاص الدم "الفاسد"، كما يقولون، وبعدها يُحس المريض بالخفة والنشاط، عكس ما كان عليه قبل القيام بالحِجامة. وهناك أشخاص ينشطون حلقاتهم بترويض القردة، حيث تجد الواحد من هؤلاء يستعمل قردا مدربا للقيام بمختلف الحركات والأعمال المطلوبة منه، وهم غالبا ما يطلقون أسماء على هذه القردة ينادونها بها أثناء تقديم عروضهم، مثل "سَعْدَانْ". وبما أن القرد ماهر في التقليد، فإن هؤلاء يستغلون كثيرا هذه الخاصية، مما يؤدي إلى إقبال الناس عليهم. كل

---

[309] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات)، ج:3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1982، ص:219.

هؤلاء كانوا يحصلون على المقابل المالي بعد كل حصة يقدموها للجمهور المتعطش لمثل تلك الأعمال التي تنقلهم من عالمهم العادي إلى عالم آخر مليء بالأخطار والمغامرات.

العودة إلى الوطن

بعد إعلان وقف القتال في 19 مارس 1962 بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية، كانت الفرحة الكبرى التي لا توصف ولا يُحِس بها إلا من ذاق مرارة الظلم والقهر والغربة. لقد رُفعت الأعلام ونظمت مهرجانات الفروسية وإطلاق البارود، وزغردت النساء ورقص الجميع حتى من كان يرى في الرقص مذمة وانتقاصا من قدر الرجل. لقد ذهب الاستعمار، نعم ذهبت فرنسا إلى اللاعودة، وانتهى زمن الظلم والخوف والقلق، زمن الإضطهاد والمتابعة والمطاردة والتعذيب، وكل وسائل القهر. فالحمد لله والشكر لله، وقل جاء الحق وجاء النصر وزهق الباطل وزهق الظلم والإستعباد، وجاءت الحرية، وعادت البلاد إلى أصحابها الشرعيين، وخرج منها المستوطنون والعسكريون الطغاة.

من كان يصدق أن فرنسا بقوتها وجبروتها ستخرج يوما من الجزائر؟ تلك القوى الضاربة، المتغطرسة، لقد ركعت للشعب الذي آمن بحقه ودافع عنه وبذل من أجله كل شيء: ماله وأولاده وروحه. نعم لقد خرجت فرنسا وانتهى أمرها بقدرة الله أولا وبتضحيات الرجال والنساء ثانيا. لقد كانت الفرحة بكل هذا وبغيره كبيرة وكبيرة جدا. ووصل الأمر ببعض الأفراد أن مزق ملابسه أو جرح جلده من الفرحة البالغة. حتى كان يقال: إن فلانا "طارْ مَنْ الفرْحَة".

وبدأت وفود المهاجرين تعود إلى الوطن بطرق مختلفة؛ أما عائلة البغدادي فقد عادت عن طريق القطار. ففي محطة تندرارة تجمع الناس وتحرك بهم القطار في اتجاه مدينة بشار جنوبا. تحت إشراف منظمة الصليب الأحمر الدولي، التي سهلت الاتصال بين لجنة من الجبهة والقيادة الفرنسية في بلدة بشار، حيث تم إحصاء العائدين إلى الوطن، وَوَفرت لهم السلطات الفرنسية وسائل التنقل داخل الوطن الجزائري.

ولقد سَرَتْ إشاعة بين بعض المهاجرين مفادها أن السلطات الفرنسية تقوم بتفتيش الجزائريين العائدين إلى الوطن، لذلك بدأ التخلص من كل ما يشير إلى انتساب الشخص إلى جبهة التحرير الوطني، فتم رمي الألبسة العسكرية وبعض الوثائق. أما البغدادي فقد أحرق كل الدروس التي كان قد تلقاها في "مركز الجبهة" كممرض، بينما احتفظ بكراسات المدرسة لأنها لا تحمل أية إشارة أو دليل يثبت التعامل مع جبهة التحرير الوطني. وهكذا ضاعت أشياء ما كانت لتضيع لو كان هناك وعي وإدراك دقيق للوضع. ولعل هذه المسألة كانت ذات أثر محدود ومعزول؛ إذ لم تسر بين كل المهاجرين.

ومن بين ما كان يشغل بال العائلة خلال هذه العودة هو الجهل باللغة الفرنسية، لذلك أُسند هذا الدور للبغدادي، فقد تم تعيينه ليكون الوسيط بين العائلة والسلطات الفرنسية التي يمكن أن تتدخل للاستفسار أو لأي شيء آخر.

وقد انطلق القطار تتقدمه عربتان عاريتان احتياطا من وجود ألغام على السكة الحديدية، فإذا ما انفجرت أصابت العرباتَ الخالية من المسافرين. وكان الطبخ يتم داخل هذه العربة وهي تسير بتوأدة، وقام موقد "الريشو" بدوره أحسن قيام في هذا المجال، وبخاصة في العربات المخصصة أصلا لنقل السلع.

وفي مدينة بشار استُقبل المهاجرون أحسن استقبال وقدم لهم الأكل والشرب، وانطلق القطار في اليوم الموالي نحو بلدة عين الصفراء، البلد الأصلي

لعائلة البغدادي؛ وفي المحطات المتواجدة على طول الطريق كان الناس يقفون جماعاتٍ جماعاتٍ لإلقاء نظرة على المهاجرين العائدين وتحيتهم. وقبل الوصول إلى البلدة لاحظ الناس تواجد قوات من الجيش الفرنسي على طرفي الطريق المؤدية إلى البلدة بحوالي خمسة كيلومترات. وقد تم إسكان العائلات العائدة من المهجر بالمدرسة المعروفة بـــ Ecole laïc ووفر لها الغذاء، وكلما تدبرت عائلة أمرها انسحبت من هذا المكان المؤقت لتلتحق ببعض ذويها أو لتستقل بنفسها في مكان ما.

أما عائلة البغدادي فقد وجدت في استقبالها بمحطة القطار أحد أقربائها الذي قادها إلى بيته، فكان اللقاء وكانت الفرحة، فرحة الاستقلال وفرحة لقاء الأحبة، التي طالما انتظرها الجميع من مهاجرين ومستقرين. واكتملت فرحة العائلة بلقاء ابنها المجاهد، الذي أُطلق سراحه بعد اعتقالٍ دام سنتين، أي منذ القبض عليه سنة 1960 في منطقة بشار وهو يقود فصيلة من جيش التحرير الوطني، إلى غاية إطلاق سراحه في 25 من شهر جوان 1962 وهذا خلافا لما نصت عليه المادة 11 من اتفاقيات إيفيان التي تنص على أن "يطلق سراح جميع أسرى المعارك لكل من الفريقين لحظة تطبيق قرار وقف إطلاق النار، في خلال عشرين يوما من تاريخ وقف إطلاق النار.."[310] فقد أبقى الفرنسيون على حوالي ألف معتقل في بلدة بارْدُو (المهدية حاليا)، حيث كان الغرض القضاء عليهم، ولكن تدخل المنظمة الدولية حال دون ذلك وأدى إلى إطلاق سراحهم.[311]

---

[310] شهادة المعني بالأمر محمد، 67 سنة، ضابط متقاعد، المقابلة بعين الصفراء في سبتمبر 2003.

[311] بن يوسف بن خدة، المرجع السابق، ص: 86.

ثم انتقلت العائلة إلى بيتها، حيث التقت بالعمة فاطمة التي كانت قد بقيت وحيدة طيلة فترة الهجرة. وبعد الاستفتاء وظهور نتيجته التي كانت لصالح الحرية والاستقلال، جاء موعد الدخول المدرسي، وكان على البغدادي أن يختار بين المدرستين الموجودتين في البلدة، وهما المدرسة التابعة للدولة الفرنسية المعروفة بـــ "إيكولْ لايْكْ" ومدرسة .الآباء البيض المعروفة بـــ Institution Lavigerie des Pères blanc ؛ فاختار، بناء على نصيحة من بعض الأقارب، المدرسة الأخيرة.

ومنذ هذا التاريخ، تاريخ الاستقلال سنة 1962، بدأ استقرار سكان الأرياف والبدو في المراكز الحضرية؛ سواء لانعدام المصدر التمويني بسبب آثار الحرب، أو فرارا من حياة التعب والترحال التي قاسى منها الأخيرون سكان السهول المرتفعة عقودا طوالا، وبخاصة في العهد الاستعماري الذي حدد أراضي تجوال القبائل بشياهها. لقد أصبح "تنقل البدو صعبا للغاية اثر إقفال أراضى التجوال المعتادة،"[312] مما أدى إلى عدم التوازن في المجتمع الريفي في الشمال الذي حرم نتيجة لذلك من الاتصال بالبدو.

وقد أدى هذا الوضع إلى تحول العديد من العائلات إلى الحياة الحضرية قبل الاستقلال في ظروف مفجعة؛ أما البعض الآخر فكان يرى ذلك من نتائج الاستقلال؛ أي أن الاستقلال يعني ترك حياة قاسية صعبة كان سببها الأساسي هو الاستعمار من جهة، وما نتج عن الثورة التحريرية من هدم للبنية الاقتصادية للأرياف عامة من جهة أخرى. ولقد أقسم أحدهم أن يَدْخل المدينة ويُرْكِب حماره المصعد في العمارة نكاية في الفرنسيين الذين كانوا يحتكرون كل وسائل

---

[312] عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر (سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960)، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت 1983، ص: 106.

الحضارة والتطور لصالحهم. ويقال أيضا إن هذا الحادث وقع في إحدى عمارات مدينة وهران؛ وسواء صدق هذا الحدث أم لم يصدق فإن مداه الرمزي ذو دلالات كبيرة ومعبرة.

أما البغدادي فقد اندمج مع تلاميذ الاستقلال وكان من بينهم الفرنسيون من يهود منهم Dudel وإسبان منهم Rodriguès وغيرهم. وكان أشد ما يحيره هو كيف يمكن أن يتفوق جزائري مسلم على فرنسي يتحدث الفرنسية يوميا! أما المُدَرِّسون في مدرسة الآباء البيض فقد كانوا فرنسيين باستثناء معلم اللغة العربية (مِتْجاري)، الذي كان يُدَرِّسها باللغة الفرنسية، من ذلك مثلا أنه كان يدرس المذكر والمؤنث بالقاعدة التالية En ajoute au féminin un ta marbouta

exemple: كَلْب، كَلْبَة، وهكذا...

وإلى جانب هذا الجزائري المسلم الذي كان يدرس اللغة العربية كان إلى جانبه أحد الآباء البيض يدرس المادة نفسها لبقية التلاميذ. وسيبقى هذا النوع من المدارس (مدارس الآباء البيض) إلى غاية سنة 1976 على إثر الاستفتاء على دستور هذه السنة؛ حين تم توحيد التعليم، وقد شمل ذلك معاهد التعليم الأصلي أيضا، والتي كانت تابعة لوزارة الشؤون الدينية.

لقد تركت مسألة الهجرة كلاما كثيرا في الأوساط الجزائرية التي بقيت داخل الوطن؛ ذلك أن هؤلاء اعتبروا الهجرة هروبا من الواجب وهو البقاء في الوطن مهما كانت الظروف، واعتبروا المهاجرين فارين وليس غير ذلك، وأنهم وفي الوقت الذي كان إخوانهم في الداخل يعانون من مختلف أنواع القهر والمتابعة والاضطهاد، كان المهاجرون ينعمون بالراحة في البلاد المجاورة كتونس والمغرب. كما اتُّهِمَ السياسيون المقيمون بالخارج بعدم الاهتمام اللازم بحاجيات الداخل وانغماسهم في ملذات لا طائل من ورائها. أما بعد الاستقلال فقد

استولت مجموعة وجدة أو مجموعة تلمسان على السلطة بالقوة، والمتمثلة في مجموعة بن بلة- بومدين.

وهكذا لقيت العائلات الجزائرية العائدة من الغربة الغمز واللمز، أما أطفالهم فقد سمعوا كلاما كثيرا من هذا النوع من قبل قرنائهم الذين كانوا يعيرونهم بعبارات مختلفة. وكان البغدادي كلما خرج من البيت يسمع أحد الجيران وهو يناديه بكلمة: "الهَجْرَة! الهَجْرة! الهَجْرَة!" ليدخل بيته فيما بعد. والطفل عندما ينطق بكلمة أو كلاما فإنما يفصح عما يخفيه الكبار، والمثل الشعبي يقول: "أخبارْهُمْ عَنْدْ صْغَارْهُم."

أما في مدينة وهران فقد أَسْكَنت الدولة الجزائرية الحديثة المهاجرين في عمارات معينة، منها إحدى العمارات التي لا تزال تحمل اسم "باطِمَةْ المهاجرين" في بلدية السينيا، وقد بُني مسجد بجوارها بعد سنوات عديدة سماه السكان "جامَع المهاجرين"، رغم التسميات الرسمية لكل من هذين المَعْلَمَيْن.

ولكن هل كان المهاجرون يتمتعون فعلا بالراحة والاستجمام في مهجرهم؟ لقد كان المهاجرون، كما ذكرنا سابقا، إما على شكل عائلات أو أفراد، تركوا ممتلكاتهم ووسائل عيشهم في بلدهم الأصلي. ولكنهم في الحالتين محتاجون للمساعدة والعناية، وقد تم هذا عن طريق مصلحة الهلال الأحمر الجزائري التي كانت تشرف عليها جبهة التحرير الوطني. وقد تحسن الوضع الاجتماعي للعديد منهم، وهكذا أصبحوا سندا للثورة الجزائرية بواسطة الدعم المادي والبشري، إذ أصبحت مساكنهم مأوى للمجاهدين الأصحاء منهم والجرحى، ودعموا الثورة ماديا بالمال والمتاع، كما أنهم كانوا المورد البشري لجنود جيش التحرير الوطني. فبعد إنشاء المحتشدات صعب على الثورة التمون من السكان في الداخل، فكان على الثورة الاعتماد على ما وراء الحدود،

فأصبحت قوافل التموين تأتي من البلدان المجاورة سواء منها التموين القادم من الخارج شراء أو هدية أو المقدم من المهاجرين هنا وهناك.

وهكذا قام جيش التحرير الوطني المتمركز على الحدود الغربية والشرقية والمكون في مجمل أفراده من أبناء المهاجرين بدوره في تزويد الداخل بحاجياته من جهة، والقيام بدوره الأساسي وهو خوض المعارك ضد قوات الاستعمار الفرنسي، مع ما كان يعترض سبيله من عراقيل وحواجز تتمثل بخاصة في خطوط الأسلاك الشائكة المكهربة والملغمة. وقد شهدت هذه الحدود معارك ضارية وبخاصة ابتداء من سنة 1959، حيث "دفع جيش التحرير الوطني عدة فيالق في الشرق في عمليات ضد مواقع العدو..."[313] أدت إلى انتصارات هامة.

وقد استمرت معارك الحدود نشطة منذ سنة 1960، حيث "خاض أحد أكبر فيالق جيش التحرير بين 6 و8 ماي، معركة "مْزِي" بالمنطقة الجنوبية الغربية ضد قوات من الصاعقة الفرنسية وقوات من اللفيف الأجنبي ومن المظليين، وقد دامت المعركة ثلاثة أيام،[314] استعمل الفرنسيون فيها ثمان طائرات كانت تقذف بالقنابل وبمختلف أنواع الأسلحة المتطورة. وفي الليلة الفاصلة بين 27 و28 نوفمبر 1960 هاجمت وحدات من جيش التحرير الوطني السد الشرقي على مسافة 200 كيلومتر،[315] وكانت النتائج هامة إستراتيجيا ومعنويا وماديا أيضا.

إن الظروف التي عاشها المهاجرون تختلف فعلا عما قاسته جماهير الشعب في الداخل، ولكن هذا لم يمنعهم من القيام بدورهم في دعم الثورة بكل

---

[313] انظر:

- Mohamed Téguia, L'Algérie en guerre, OPU, Alger, sans date, P 469

[314] IBID P 469

[315] IBID P 470

ما كان لديهم من إمكانيات. وبالتالي فقد تعاون الداخل مع الخارج لتحقيق الهدف الواحد آنذاك وهو تحرير الوطن من الاستعمار الفرنسي.

وهكذا مرت الخمس سنوات على مغادرة العائلة لموطنها؛ فقد غادر البغدادي الوطن في سن الثامنة من عمره وعاد إليه وهو في الثالثة عشر من العمر ليعيش جزائر الإستقلال والحرية بين إخوانه ومواطنيه.

ثاني عشر :قضية الصحراء في اتفاقيات إيفيان

إن اتفاقيات إيفيان كانت خاتمة جهاد مرير خاضه الشعب الجزائري لأكثر من سبع سنوات في مواجهة القوات الاستعمارية الفرنسية. هذا الجهاد الذي أخضع المستعمر وأجبره على الجلوس على مائدة المفاوضات على قدم المساواة مع أولئك الذين كان ينعتهم دائما بـــ "الخارجين عن القانون." لقد جرب الجنرال ديغول، الذي جيء به لإنقاذ الوضع، عدة خطط للحفاظ على "الجزائر الفرنسية"[316] وعمل على تطبيقها ميدانيا، ولكنه فشل في آخر الأمر، فعمل على إنقاذ بلاده من هذه الورطة، فاعترف بحق الجزائريين في تقرير مصيرهم، وصرح بذلك لشعبه في خطاب ألقاه في شهر جوان من سنة 1960 حين قال: "إن عبقرية القرن الحالي قد غيرت أيضا نشاطنا فيما وراء البحار، وحملتنا على وضع حد للاستعمار." وأضاف قائلا: "ما مصير الجزائر؟ إنه لم يدر بخلدي قط أنني سأتمكن بين لحظة وأخرى بأن أحل هذه المعضلة الماثلة منذ مائة وثلاثين سنة، إن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم هو الحل الوحيد الممكن لمأساة معقدة ومؤلمة.".[317]

وهكذا اضطرت فرنسا تحت قيادة الجنرال ديغول إلى الاتجاه نحو التفاوض مع جبهة التحرير الوطني لمعرفة مطالب رجالها، فكانت المفاوضات السرية أولا ثم العلنية التي أدت إلى الاستقلال.

[316] منها مشروع الإدماج والخطط العسكرية(شال) والمشاريع السلمية المختلفة كمشروع قسنطينة وسلم الأبطال..

[317] مذكرات ديغول، ص: 99 و100.

أهمية الصحراء في المفاوضات الفرنسية الجزائرية

لقد مثلت قضية الصحراء عنصرا هاما من عناصر النقاش الذي دارت حوله تلك اللقاءات المتعددة بسبب الأهمية التي كانت الصحراء تحظى بها لدى السلطات الفرنسية ورغبتها في الاحتفاظ بها،[318] لذلك فإن هذه السلطات لم تعرضها للنقاش، وحاولت ما أمكنها إبعاد هذه القضية من جدول أعمال المحادثات بادعاء أن قضية الصحراء لا تهم الجزائر وحدها، بل تهم كل الدول الإفريقية المجاورة.

لقد كانت تهدف إلى البقاء في الصحراء حفاظا على مصالحها في المنطقة، فهذه الأرض الشاسعة مثلت فضاء واسعا للإستراتيجية الفرنسية تنافس بها غيرها من الدول الكبرى. لقد فجرت بها القنبلة الذرية[319] لإثبات قدراتها العلمية والحربية كدولة لا تقل عن غيرها قوة وعظمة، واكتشفت بها حقول البترول خلال السنوات الأولى من اندلاع الثورة،[320] وكان ذلك عاملا آخر زاد من أهمية الصحراء الجزائرية لدى الفرنسيين ومن تمسكهم بها في مفاوضاتهم مع ممثلي الثورة الجزائرية في مختلف اللقاءات التي تمت بين الطرفين ابتداء من سنة 1960 إلى سنة 1962.

وفي الوقت الذي كانت المفاوضات الجزائرية الفرنسية تسير ببطء سواء كانت سرية أم علنية، كان الجنرال ديغول يحاول أن يجد أعوانا لسياسته الراغبة

[318] كان هدفها خلال القرن التاسع عشر ربط مستعمراتها في الشمال بمستعمراتها في الغرب والوسط، ولتسهيل التحكم في مختلف أجزاء القارة. أما في القرن العشرين فقد ظهر عامل آخر وهو احتواء الصحراء على ثروة معدنية وطاقوية لا تقدر بثمن.

[319] احتفظت لها اتفاقيات إيفيان بقاعدة رقان الذرية التي كانت قد فجرت بها أول قنبلة ذرية لها في 13 فيفري 1960. وقد استعادتها الدولة الجزائرية خلال أقل من أربع سنوات من الاستقلال.

[320] اكتشفت شركاتها البترول في مارس 1956 حقول إيغلي ثم تيغونتورين، واكتشفت حقول حاسي مسعود في جوان 1956 على عمق 3300 متر.

في الإحتفاظ بالصحراء بطريقة أو بأخرى، من ذلك أنه أرسل مستشاره أوليفييه قيشارOlivier guichard إلى الجزائر بعد أن كلفه بملف الصحراء، وقد زار هذا الأخير عدة مناطق والتقى ببعض الشخصيات الجزائرية الصحراوية التي لها نفوذ في الأوساط الشعبية لأخذ رأيها في شأن الصحراء واستقلالها، وبخاصة نواب المناطق الصحراوية في المجلس الجزائري ونوابها في المجلس العمالي والتقى ببعض رؤساء بلديات الجنوب.. وقد تدخلت شخصيات فرنسية سياسية وعسكرية عديدة لإقناع هؤلاء بفائدة فصل الصحراء وارتباطها بفرنسا في إطار جمهورية مستقلة، وهذا في سنوات 1959- 1960- 1961. وقد وجد الفرنسيون القبول من شخصيات قليلة بينما عارضت الأغلبية.

والواقع أن المتمعن في خطابات الجنرال ديغول وما يصدر عن ندواته الصحفية يكتشف بكل سهولة رغبة الحكومة الفرنسية في تقسيم شمال البلاد وفصل المناطق الصحراوية قصد تحويلها إلى جمهورية مستقلة ذاتيا، تسيرها إطارات جزائرية أكثر موالاة لها.[321]

1-في لقاء لوسارن Lucerne

كان الجنرال ديغول قد أعلن في 14 جوان 1960 عن استعداده للالتقاء بممثلي الثورة في باريس فأرسلت الحكومة الجزائرية المؤقتة وفدا إلى مولان Mulin في نهاية الشهر نفسه، ولكن اللقاء كان فاشلا(25-29 جوان 1960).[322]

---

[321]محمد العربي الزبيري، ديغول.. والصحراء، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر.سلسلة الملتقيات، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. الجزائر. 1998..

[322]مثل الوفد الجزائري كلا من أحمد بومنجل ومحمد بن يحي.

وفي 20 من شهر فيفري 1961 التقى الوفدان سريا في لوسارن بسويسرا بوساطة من الدولة السويسرية.[323] وقد استعرض الوفدان مجموعة من القضايا باستثناء قضية الصحراء.[324] وبعد الانتهاء من دراسة مختلف المحاور المسطرة طرح السيد بولحروف، وهو أحد ممثلي الوفد الجزائري السؤال التالي على الوفد الفرنسي:

-إنكم لم تتطرقوا في عرضكم هذا للصحراء وكأنها ليست جزائرية أو كأنها منعدمة. فأجابه جورج بومبيدو:

-إن الصحراء هي مجرد بحر داخلي له شواطئ تسكنها شعوب ساحلية، والجزائر واحدة من تلك الشعوب.

فقال بولحروف:

-لقد غلطونا إذن في المدرسة، عندما لونوا الجزائر بلون رمادي وردي على الخرائط، وكانت الصحراء جزءا منها.

فأجابه بومبيدو:

-ليس من الضروري التعرض لمسألة السيادة على الصحراء، إذ أن هناك صعوبات، ليس مع فرنسا ولكن مع بلدان أخرى. إن الصحراء من خلق فرنسا. لقد كانت خالية غير آهلة بالسكان، وكان التنافس عليها حر. إن بترول حاسي مسعود أقل مردودية من بترول روسيا، أما الغاز الطبيعي فاحتياطيه هام، وعلى كل فإن الصحراء ليست جزائرية، فهل تريدونها هدية؟[325]

---

[323] مثل سويسرا كل من بيشر Bucher و Olivier Long

[324] مثل الوفد الجزائري أحمد بومنجل والطيب بولحروف، ومثل الوفد الفرنسي كلا من جورج بومبيدو (رئيس بنك وأحد أصدقاء ديغول). وبرينو دي لوس Bruno de leusse

[325] الحوار مأخوذ عن رضا مالك في:

Redha Malek, L'Algérie à Evian, édition dahleb, Alger 1995, P/94.

لقد أرادت فرنسا فصل الصحراء عن الجزائر لتفتح جبهات صراع جديدة للثورة الجزائرية تتمثل في البلدان المجاورة، وبذلك تخلق لها مشكلة حدود مع هذه البلدان وتتخلص هي من قوة الثورة الجزائرية من جهة وتصبح حَكَما في هذه المسألة فتحقق مطامحها الاستعمارية من جهة أخرى، ذلك أن فرنسا كانت تمر بأزمة اقتصادية، وكان اكتشاف البترول بارقة أمل لفرنسا للخروج من تلك الأزمة. وهكذا افترق الوفدان دون الاتفاق على قضية الصحراء.

2–وفي لقاء نوشاتيل Neuchatel

استؤنفت المحادثات السرية الثانية في نوشاتيل بسويسرا في شهر مارس 1961، وقد سارت المحادثات على الطريقة السابقة نفسها وبالممثلين أنفسهم، وقد اشتد الخلاف بين الطرفين حول قضية الصحراء، وكرر بومبيدو أن الصحراء ليست جزءا من الجزائر الشمالية، بل هي مشكلة في حد ذاتها، ولا يمكن التحدث عنها إلا بعد استفتاء تقرير المصير. وهكذا فشل الطرفان في البت في هذه المسألة، إذ بينما كانت فرنسا تريد الاحتفاظ بها تحت سيادتها السياسية، كانت حكومة الثورة الجزائرية تعتبرها جزءا لا يتجزأ من الأراضي الجزائرية مع بعض التساهل في مسألة طرق استغلال ثروات هذه المنطقة.[326] وقد توقفت المفاوضات هنا لتستأنف بثوب جديد هو العلنية ببلدة إيفيان.[327]

---

[326] أنظر: Olivier Long, Le dossier secret des accords d'Évian, OPU, Alger 1989, P/36.

[327] مدينة فرنسية تقع على الضفة الجنوبية لبحيرة ليمان الفاصلة بين سويسرا وفرنسا.

3-في لقاء إيفيان

صدر في الصحافة بيان يعلن أن الشروط متوفرة لإجراء محادثات رسمية في إيفيان بين الحكومة الفرنسية والحكومة الجزائرية المؤقتة لدراسة مختلف المشاكل العسكرية والسياسية الناجمة عن الأوضاع في الجزائر.[328]

وفي 20 ماي 1961[329] التقى الوفد الجزائري الذي كان يرأسه كريم بلقاسم[330] مع الوفد الفرنسي الذي كان يرأسه لوي جوكس Louis Jox لدراسة مختلف القضايا التي تهم الطرفين. وفي يوم 28 من الشهر نفسه تعرض جوكس لقضية الصحراء فبين أن هناك عددا من الدول التي تهمها الصحراء، وأن فرنسا مستعدة للتحدث عنها مع هؤلاء جميعا، على أن يكون ذلك مع الجزائر أولا عندما تصبح دولة، وهكذا كرر جوكس ما كان قد صرح به سلفه بومبيدو.

وفي 31 ماي 1961 خُصصت جلسة كلها للأطروحة الفرنسية حول الصحراء؛ حيث تحدث أربعة أعضاء من الوفد الفرنسي، فتعرضوا للجانب التاريخي والجغرافي وللمشاكل الإنسانية والمراحل المتتالية التي سجلت، في نظرهم، تأسيس السيادة الفرنسية على هذه الأراضي وأحوال استغلالها. واستنتجوا من هذه التحاليل أن الصحراء لم تكن قبل عام 1830 خاضعة لأية سيطرة أجنبية أو تابعة لأية دولة، وأن قانون 1902 أعطى لهذه الأراضي الجنوبية تنظيما جديدا وإدارة خاصة، وأن تاريخ تنمية هذه الجهة مرتبط بنشأة

---

[328] أنظر: Olivier, IBID, P/43

[329] سبق هذا التاريخ اقتراح الجنرال ديغول للقاء في 7 أبريل بين الطرفين، لكن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية رفضت الحضور بعدما علمت أن الحكومة الفرنسية اتصلت بزعماء "الحركة الوطنية" MNA لإشراكهم في المفاوضات.

[330] كان برفقته كل من: سعد دحلب والطيب بولحروف وأحمد فرنسيس وأحمد بومنجل والرائدان أحمد قايد وعلي منجلي.

مراكزها وبدور مختلف البعثات التي اكتشفتها منذ القرن التاسع عشر. وبيّن أعضاء الوفد الفرنسي قيمة النفقات التي صرفت لاستغلال البترول والغاز ونقله عبر الأنابيب نحو شمال الجزائر ونحو تونس(السخيرة)، وإنشاء الطرق الصحراوية، وأن البلدان الإفريقية المجاورة حصلت على مساعدات مالية في هذا المجال كالنيجر وتشاد وتونس.

أما رد الوفد الجزائري فقد جاء يومي 2 و3 جوان في عرض طويل مناسب للأطروحة الفرنسية، حيث قدمه كل من بومنجل وأحمد فرنسيس وسعد دحلب، وفيه بيّن أعضاء الوفد أن هذه التحاليل والاستنتاجات الفرنسية خاطئة مثبتين أن الصحراء جزء لا يتجزأ من الأراضي الجزائرية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عن باقي القطر الجزائري. واحتج الوفد الجزائري على ذلك بما يلي:

أ-أن فرنسا عندما احتلت الجزائر قاومها سكان الجنوب مثلما قاومها سكان الشمال قبل ذلك، مما يبين وحدة الشعب وتماسك أجزائه، مثلما أن المقاومة الحالية هي استمرار وتأكيد لوحدة الشعب الإقليمية والسياسية.

ب-أن قانون 1947 الذي نص على أن الصحراء جزء من أرض الجزائر لم ينازع الفرنسيين آنذاك أي بلد.

ج-أنه في عام 1953 صادق المجلس الجزائري على قرار يعتبر مقاطعات الجزائر الجنوبية جزء لا يتجزأ من الجزائر.

د-أن الصحراء لا تمثل وحدة قائمة بذاتها، بل هناك صحاري متعددة، كل منها تابع لإحدى الدول، ولم يسبق لفرنسا أن نازعتها إحدى الدول

المجاورة للجزائر في هذه الصحراء الداخلة ضمن تراب الجزائر، عندما حصلت هذه الدول على استقلالها السياسي.[331]

وعندما لم يجد الوفد الفرنسي ردا على هذه الحجج الدامغة طلب جوكس في 13 جوان توقيف المفاوضات إلى حين، بدعوى أخذ مهلة للتروي والتشاور. والحقيقة أن وقف المفاوضات جاء نتيجة لاشتداد الهوة بين موقف الوفدين في مختلف القضايا، وبخاصة إصرار الفرنسيين على فصل الصحراء عن الجزائر.

لقد أحرج الوفد الفرنسي أمام الحجج التي قدمها الوفد الجزائري، ولذلك انسحب من قاعة المفاوضات، وراحت السلطات الفرنسية تبحث لها عن شريك ثالث يمكنها التأثير عليه لإفشال موقف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فاتصلت بأطراف عديدة لإشعار الرأي العام العالمي بأن هناك قوات أخرى غير جبهة التحرير الوطني يمكن التفاوض معها كممثلين للشعب الجزائري،[332] ولكن جبهة التحرير الجزائرية أفشلت هذا المخطط. كانت فرنسا تريد للجزائر استقلالا ناقصا، لكنها وجدت صلابة وإصرارا ثوريا من الجزائريين على المطالبة بحقوقهم كاملة.[333]

في هذه الفترة ظهر تحرك من بعض الدول المجاورة بغرض الحصول على أراض في الصحراء باعتبار ذلك استرداد لأراضيهم، وصرح البعض أن الصحراء

---

[331] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980، ص: 269.

[332] تم الاتصال بشخصيات تتعاون مع السلطات الفرنسية مثل بلحداد نائب الحاكم العام في قسنطينة وبوعكوير الكاتب العام المساعد للشؤون الاقتصادية في المندوبية العامة، من أجل تكوين حكومة تنفيذية.

[333] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الثالث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص: 551.

جزء لا يتجزأ من الأراضي الإفريقية.[334] فسارعت الحكومة المؤقتة إلى توجيه مذكرة إلى الدول الإفريقية بتاريخ 30 جوان 1961 بإمضاء رئيسها فرحات عباس، تبين فيها أن أي تعديل حدودي ممكن لا يجب أن يُطرح مع القوى الاستعمارية التي ليس لها أي حق في عقد اتفاق باسم الجزائر، وأن قضية تعديل الحدود لا يمكن طرحها إلا على جزائر مستقلة، ووعدت الحكومة المؤقتة البلدان الإفريقية بتخطيط تعاون بينها لاستثمار ثروات الصحراء مستقبلا، ووجهت نداء إلى كل البلدان الإفريقية وكل الشعوب الشقيقة تطلب منها دعمها الوحدوي أمام الإمبريالية الفرنسية.[335] كما قامت عدة وفود جزائرية بزيارات إعلامية لعدة بلدان إفريقية(غينيا-مالي-ليبيا). حصلت إثرها على تأييد ومساندة هذه الدول في مواجهتها للاستعمار من أجل وحدة أراضيها.

كما قام وفد رفيع المستوى بزيارة كل من تونس والمغرب،[336] واجتمع مع قادة البلدين الشقيقين، وصدر على إثر ذلك بيان مشترك يعلن فيه الطرفان أن قضايا الحدود هي مسألة يجب أن تتم بين الدول المغربية وهي لا تهم غيرهم. وبهذا دعم البلدان الشقيقان الحكومة المؤقتة في مفاوضاتها مع فرنسا بإيفيان.

وفي هذا الإطار أعلنت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أن يوم 5 جوي 1961 سيكون "يوما وطنيا ضد التقسيم"، وأعلنت في هذا التاريخ الإضراب العام الذي كان له صدى واسعا في أغلب المدن الجزائرية، مما يبرهن على حضور جبهة التحرير الوطني.[337]

---

[334] تم ذلك على إثر لقاء بين الرئيس المالي موديبوكيتا والرئيس التونسي الحبيب بورقيبة في تونس في شهر جوان سنة 1961(عن رضا مالك، المرجع السابق، ص: 152).

[335] أنظر: Slimane cheikh, IBID, P/ 143-144.

[336] تمت زيارة المغرب بين 2 و7 جوي 1961، أما تونس فقد تمت زيارتها قبل ذلك. كان السلطان المغربي يطالب بمنطقة تندوف، والرئيس التونسي يطالب بعلامة الكيلومتر 233 في قارة الهامل غربي بلدة غدامس(مساحتها 30000كيلومتر مربع).

[337] أنظر: Slimane cheikh ? P/144.

وفي 15 جوي 1961 اتصل سعد دحلب، ممثل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بجنيف، بمفاوضَيْن فرنسييْن هما Vincent Labouret و Bruno De leusse الذيْن أكدا له أن الحوار لا يبدأ إلا إذا حُذفت الصحراء من جدول الأعمال، وأنه إذا أردتم الحوار فيجب الاكتفاء بالجزائر الشمالية. أما الصحراء فستكون موضوع حوار بين فرنسا والدول المجاورة، وأولها الدولة الجزائرية، إلا أن الحكومة المؤقتة رفضت هذا الموقف وتمسكت بوحدة أراضيها.

4-في مفاوضات لوغران Lugrin

رغم الاختلاف الجوهري بين وفديْ الجزائر وفرنسا فقد اتفق الطرفان على الالتقاء في قصر لوقران بالقرب من الحدود السويسرية في 20 جوي 1961، وقد عُقدت في هذا اللقاء ست جلسات كُرّست ثلاثة منها للإجراءات وثلاثة لمشاكل العمق التي منها قضية الصحراء والتي أخذت حصة الأسد في المفاوضات، إلا أن الوفد الفرنسي كان ما يزال يعتبر الصحراء منطقة خارجة عن الجزائر، وأن هذه الأخيرة، أي الجزائر، تهمها الصحراء بنفس الأهمية التي تهم الدول المجاورة لها. أما وفد الحكومة المؤقتة فقد اتّهم فرنسا برغبتها في الاحتفاظ بالصحراء كنموذج للاستعمار الجديد في إفريقيا، وأنها تدوس بذلك على حق الجزائر وتضحيات أبنائها في سبيل الاستقلال الكامل خاصة وأن الصحراء تمثل 90 في المائة من المساحة الكلية. وهكذا تأزم الموقف بين الطرفين، لذا طالب الوفد الجزائري هذه المرة بوقف المفاوضات رسميا فتوقفت في 28 جوي 1961، وبذلك انتهت مفاوضات لوغران إلى الفشل.

وفي الوقت الذي كانت السلطات الفرنسية تنتظر تغييرا في الموقف الجزائري بخصوص الصحراء وربما انشقاقا في صفوف الثوار، انعقد المجلس

الوطني للثورة الجزائرية في الفترة بين 9 و27 أوت 1961،[338] وتدخل كريم بلقاسم ليبين للمجلس كيفية سير المفاوضات، وأعاد رئيس الوفد الجزائري للمجتمعين نظرية الفرنسيين فيما يخص الصحراء ورغبتهم في تأجيل دراستها إلى ما بعد الاستقلال.

وفي 5 سبتمبر 1961 صرح الجنرال ديغول معترفا بالصحراء كجزء لا يتجزأ من التراب الجزائري، وأنه ليس لفرنسا عليها أية سيادة، واضعا لذلك شروطا تتمثل في الحفاظ على مصالح فرنسا، كحرية استغلال المحروقات المكتشفة أو التي ستكتشف مستقبلا واستعمال المطارات وسهولة الاتصال مع بلدان إفريقيا السوداء. وهكذا أزال الجنرال ديغول الحاجز الكبير الذي كان يعترض سير المفاوضات.[339] وانتظر الجزائريون الجديد في هذا المجال، ثم التحق بولحروف بمنصبه في روما كرئيس بعثة، واتصل بالوسيط السويسري أوليفيي لونغ Olivier Long في جنيف، واتصل هذا الأخير بـ لوي جوكس في باريس، وأعطت الإليزيه موافقتها على إجراء اتصالات سرية جديدة في سويسرا، وعَينت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مبعوثَيْن هما رضا مالك ومحمد بن يحيا للقيام بالمهمة، والتقيا، عن طريق أوليفيي، بالمبعوثَيْن الفرنسيين Bruno de leusse وCharles chayet في بال Bàle بسويسرا في 28 و29 أكتوبر 1961، وكان الوفد الجزائري يحمل معه تعليمات وهي الاستفسار عن مدى تطور الموقف الفرنسي من قضية الصحراء، فأجاب برينو بما يلي: "إنه وعلى ضوء حديث ديغول في 5 سبتمبر لم يبق هناك أي غموض حول موضوع السيادة على الصحراء، إذ بمجرد وجود تعاون فرنسي جزائري فإن المسألة

---

[338] خلال هذه الدورة تم انتخاب حكومة جزائرية جديدة يرأسها بن يوسف بن خدة خلفا لفرحات عباس الذي شغل هذا المنصب منذ تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958.

[339] أنظر: Olivier Long, P/98.

ستحل." وأضاف: "إن موقفنا واضح جدا، وكل شيء ممكن بمجرد أن نتفق حول سياسة عامة للتعاون."

ثم طرح الوفد الجزائري السؤال التالي على الفرنسيين: هل سيتم الاستفتاء على مستوى القطر الجزائري كله أم هناك استفتاء خاص بالشمال وآخر خاص بالجنوب؟ وقد رفض الوفد الفرنسي أن يوضح موقفه من الاستفتاء المتعدد أو الشامل الموحد.

وفي 9 سبتمبر 1961 استؤنفت المفاوضات، وقد أجاب جوكس عن هذا الاستفسار مخاطبا دحلب وبن يحيا[340] موضحا أنه لن يكون هناك سوى تقرير مصير واحد على مستوى القطر الجزائري. ومع ذلك يجب أخذ خصوصيات السكان البدو كالتوارق والرقيبات. أما فيما يخص الاستثمار في الصحراء فقد أوضح جوكس أن الدولة الجزائرية هي التي ستمنح الرخص وتعدل القانون الخاص بالبترول، لكن قرارات الدولة الجزائرية يجب أن تؤخذ بناء على قاعدة التشاور والمشاركة، وفيما يخص البترول فإن فرنسا ستدفع ثمنه نقدا بعملتها الخاصة أي الفرنك.

أما المشروع الجزائري بشأن التعاون في الصحراء فقد جاء فيه ما يلي: تساهم الدولة الجزائرية في المناطق الصحراوية من أرضها في إطار تعاون تقني وإداري ومالي لاستثمار الثروات البترولية مع الدولة الفرنسية، مع إعطاء فرنسا مكانة متميزة، على أن لا يمس ذلك بالسيادة والمصالح العليا للجزائر.

وخلال لقاء 28 و29 جانفي 1962 جاء الجنرال كاماس Camas بتوضيحات منها: أنه ونظرا لأهمية استثمار الصحراء فإن لفرنسا الحق خلال خمس سنوات إلى ست سنوات في استعمال مناطق التجارب النووية، ونقل

[340] دحلب: وزير الشؤون الخارجية في حكومة بن خدة، شارك في مختلف مراحل المفاوضات. بن يحيا: عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

الأمتعة عبر الأراضي الصحراوية، وضمان إمكانية التوقف في بشار ورقان وفي أماكن استقبال الصواريخ(منطقتان)، وعلى فرنسا مقابل ذلك إجبارية أخذ كل احتياطات الحماية المرتبطة بصحة وأمن السكان. وقد تدخل سعد دحلب ليبين أن تنصيب الأجهزة النووية والباليستيكية يجب أن لا يتجاوز بقاؤها أجل أربع سنوات.

وأصر الطرف الجزائري على أن لا تستعمل القواعد العسكرية بشكل يخالف توجه البلاد الغير المنحاز. وقد عدل الطرف الفرنسي بقاء القواعد العسكرية في الصحراء من 10 إلى 7 سنوات. أما فيما يخص قواعد التجارب لعين إيكر ومجموعة بشار حَمَاغِيرْ فتبقى في يد فرنسا مدة خمس سنوات.

5–في ليروس Les rousses

التقى الوفدان في ليروس بجوار إيفيان بين 11 و19 فيفري 1962 وهنا نوقشت مختلف المواضيع، وخطا الوفدان خطوات هامة نحو التفاهم، وحُررت النصوص واتفقا على مسودة الاتفاقية. وقد رأس الوفد الجزائري كريم بلقاسم ورأس الوفد الفرنسي لوي جوكس، ودافع كل واحد عن وجهة نظره. وبعد الاتفاق المبدئي على النصوص افترق الطرفان لعرض نتائج الاتفاقية على حكومتيهما على أن يلتقيا في إيفيان من أجل المفاوضات الرسمية.

وقد عرض الوفد الجزائري مسودة الاتفاقية على أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بطرابلس في 22 فيفري 1962 الذين قرروا تكليف الحكومة المؤقتة بمواصلة المفاوضات.[341]

---

[341] بيّن كريم بلقاسم لأعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية اهمية الاتفاقية موضحا نجاح الجزائر في إجبار فرنسا على الاعتراف بوحدة ترابها وسكانها، عكس ما حدث، مثلا، في فيتنام والصين وكوريا. وقد رفضت القيادة العامة للجيش المشاركة في وفد الحكومة المؤقتة،

6-اتفاقيات إيفيان الأخيرة

عاد الوفدان بعد استشارة كل طرف حكومته من أجل الاتفاق النهائي، وقد ضم الوفدان مجموعة من الوزراء وشخصيات أخرى.[342] والتقى الجميع في إيفيان يوم 7 مارس 1962، واستمرت الجلسات حتى يوم 18 من الشهر نفسه، حيث تم تعديل بعض الفقرات وتغيير بعض العناوين.

وقد حظيت قضية الصحراء بقسم خاص يتضمن مبادئ التعاون من أجل استثمار ثروات الصحراء، ويشتمل على مقدمة وأربعة أبواب، تبرز المقدمة تعهد الطرفين بالتعاون في مجال استغلال ثروات الصحراء وحلول الجزائر محل فرنسا في حقوقها وامتيازاتها. ويشمل الباب الأول على الهيدروكاربير والسائل الغازي، ويتعرض الباب الثاني للمواد المعدنية الأخرى. أما الباب الثالث فيتعرض للهيئة الفنية لاستثمار باطن الأرض في الصحراء، بينما يتعلق الباب الرابع بالتحكيم في حالة نشوب خلاف وكيفية الفصل في ذلك.

أما فيما يخص المسائل العسكرية بالجنوب فقد جاء في ذلك ما يلي: توضع تحت تصرف فرنسا مطارات وقواعد بشار وحَمَّاغِيرْ ورقان لمدة خمس سنوات على ألا تستخدم لأغراض هجومية، ثم تصبح بعد ذلك مدنية يكون فيها لفرنسا الحق في الاستفادة من التسهيلات الفنية وحق المرور.

وكان أعضاؤها الحاضرون في طرابلس قد عارضوا الاتفاقية وهم: هواري بومدين وقايد أحمد وعلي منجلي والرائد الناصر (بوعيزم).

[342] مثل الجزائر أربعة وزراء هم: كريم بلقاسم رئيس الوفد- وسعد دحلب وامحمد يزيد وبن طوبال والطيب بولحروف إلى جانب مصطفى بن عوده ومحمد بن يحي ورضا مالك وصغير مصطفاوي. أما الوفد الفرنسي فمثله لوي جوكس إلى جانب روبير بيرون وجاني دي بروغلي وآخرون.

وهكذا توقفت الحرب يوم 19 مارس 1962 عند منتصف النهار على كامل التراب الجزائري، وبذلك تحقق حلم المجاهدين والأجيال العديدة من الجزائريين، منذ سنة 1830، وهو الاستقلال ونهاية كابوس الاستعمار.

وقد كسبت الجزائر أهم عامل وهو وحدة التراب الوطني، فاعتراف فرنسا بوحدة الأراضي الجزائرية شمالها وجنوبها مكسب لا يقدر بثمن، فقد تجنب الجزائريون تقسيم أراضيهم، كما تجنبوا حربا جديدة من أجل الوحدة الترابية كانت فرنسا تعمل لها. وكان لأعضاء الوفد الجزائري وللحكومة المؤقتة من ورائهم دور مهم في التمسك بمبدإ الوحدة الترابية والدفاع عنها في مختلف مراحل المفاوضات وعلى مستوى المحافل الدولية. وقد نجحت الجزائر في ذلك على جبهتين:

جبهة الضغوط الفرنسية للاحتفاظ بالصحراء كهدف لاستغلال ثرواتها وجعلها ميدانا للتجارب النووية، ونجحت على جبهة ثانية وهي إحباط كل مخطط يهدف إلى زرع الشقاق بين الإخوة والجيران حاضرا كان أم مستقبلا.

وقد خلد الشاعر الجزائري هذه القضية في إحدى المقطوعات الشعرية جاء فيها ما يلي:

هل تفصل الصحراء عنك جزائري ... أبـــدا، وأنـــف الخائـــنين يزايد
يا ثـــورة الأحـــرار هات كتابنا ... ذاك الجـــهاد المستفـــيض الخالد
صحراؤنا قلب الجزائر إن جهلتم ... أيها السفـــهاء ذاك، فـــعانـــدوا
هذا الجنوب هو الشمال كما ترى ... ذاك الشـــمال هو الجنوب الراعد
..صحراؤنا لن تأخذوا منها ولو ... شبـــرا، ولا نرضى بمـــن يتحاقد
شَهِدَت على الحق المبين جُموعُنا ... كل الجزائر ذاك صـــوت واحد.[343]

[343]يُظن ان الأبيات للشاعر الجزائري المجيد محمد العيد آل خليفة المتوفى سنة 1979، إلا أننا لم نعثر على القصيدة في ديوان هذا الشاعر، الذي عمل السيد أحمد طالب الإبراهيمي على جمع قصائده في العقد

لقد كانت مسألة الصحراء سببا في وقف المفاوضات بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية مرات عديدة، وكان موقف الثورة الجزائرية هو أن لا وقف للقتال ولا استقلال دون اعتراف فرنسا بالوحدة الترابية للجزائر شمالها وجنوبها وحدة لا تتجزأ.[344] أما النقائص الأخرى المسجلة على الاتفاقية فقد تم تجاوزها بعد الاستقلال. فقد استعادت الدولة الجزائرية سيادتها تدريجيا على ثرواتها المعدنية والطاقوية، كما تم انسحاب القوات الفرنسية من القواعد والمنشآت العسكرية في وقت قصير دون أن يستطيع خصم الأمس الاعتراض على ذلك.

الأول من الاستقلال، حين كان وزيرا للتربية الوطنية. كما بحثنا عن القصيدة في كتابي أبي القاسم سعد الله وصالح خرفي حول الشاعر نفسه فلم نجد للقصيدة أثرا.

[344] عارض الملك المغربي الحسن الثاني إجراء الاستفتاء في بلدة تندوف، وذلك عن طريق مبعوثه إلى السلطات الجزائرية.

الفصل الثاني
المقاومة الثقافية الشعبية

لقد جُبل الإنسان على الدفاع عن خصوصيته تجاه الآخر كلما تعرض لمحاولة استلاب تلك الخصوصية أو السيطرة عليها، ولم يقتصر ذلك على استعمال القوة دائما، بل لقد تعددت المواجهات وتنوعت ردود الفعل حفاظا على الذاتية. وكانت الهوية الوطنية أهم عامل تحافظ به الأمة على تلك الخصوصية، فانزوى الشعب بها حينا، وفرض على نفسه العزلة والتقوقع خوفا من فقدها، وحاول حينا آخر التآزر والتكاتف للتذكير بعناصرها.

ليس غرضنا استعراض كل ردود الفعل الممكنة، بل سنتعرض فقط لبعض العناصر الثقافية التي عبر الشعب بها عما يحسه ويشعر به.

وهكذا سنخصص هذا الفصل لمجموعة من المواضيع الثقافية المعبرة عن نضال الشعب الجزائري طيلة الفترة الاستعمارية 1830-1962، وسنتعرض لتلك المواضيع كرونولوجيا، أي بحسب موقع ذلك العنصر من تاريخ الجزائر، فهناك مواضيع خاصة بأحداث القرن التاسع عشر وأخرى خاصة بأحداث القرن العشرين، بالإضافة إلى مواضيع عامة تشمل وقائع القرنين التاسع عشر والعشرين.

ولذا سنتعرض للمقاومة الشعبية الثقافية للاستعمار الفرنسي طيلة العهد الاستعماري، ونعرج على ذكر دور الطرق الصوفية في المحافظة على الهوية الوطنية من خلال قيامها بدور خطير في فترة كانت البلاد أحوج ما تكون إلى من يلم شعثها ويربطها بماضيها خوفا من الإستيلاب والذوبان في بوتقة المستعمر. كما سنتعرض للدور الذي قام به الشعراء الشعبيون بعد أن انحط المستوى العلمي والثقافي الرسمي، فكان الشعر الشعبي أداة وسلاحا للذود عن حياض الشعب المقهور بالدعوة إلى توحيده ولم شمله وتعبئته لليوم الموعود، وفي استعادة أمجاد الماضي من خلال التذكير بأبطاله وزعمائه مثل المقراني والشيخ بوعمامة وغيرهما. كما سنفعل مثل ذلك فيما يتعلق بالثورة التحريرية الكبرى ولكن في منطقة محددة معينة وبنوع محدد من فن القول الشعبي.

أولا :المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي

غزا الفرنسيون الجزائر سنة 1830 وشن جيشهم حربا ضــروسا ضــد الشعب الجزائري الذي وجد نفسه في مواجهة قوات عسكرية ضخمة، منظمــة ومسلحة تسليحا حديثا، بعد أن انسحبت حكومة الداي من الميدان على اثر اتفاقية الجزائر في 5 جويلية 1830.

وباستسلام الداي تُرك الميدان السياسي فارغا، فانتشرت الفوضى والفتن، في الوقت الذي كان العدو الفرنسي يتوسع في البلاد شرقا وغربا وجنوبا، متبعا أسلوب القتل والسلب والنهب ضد السكان، مخترقا بذلك ما أخذه على نفسه مــن عهود في احترام مقدسات السكان وأعمالهم، عندما وقّع الضابــط الفرنــسي دي بورمون مع الداي ما يعرف باتفاقية الجزائر المذكورة سابقا. فتــحركت الأنفــة الوطنية والغيرة الدينية، مستنهضة الهمم ومحرضة النفوس على الجهاد والقتال.[345] وقد تعددت المواجهات وتنوعت مقاومات الشعب الجزائري للقوات الفرنسيــة، دفاعا عن النفس ومواجهة الخطر الداهم.

معنى المقاومة

المقاومة هي رد فعل ضد قوة أجنبية معتدية. وبما أن الإنســان مجبــول بطبعه على أن تكون له ذاتية وطبع وخصوصية، فإنه لن يتحمل فقْدَ هذه الذاتية والخصوصية بسهولة، بل إنه سيعمل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ عليــها والدفاع عنها من أجل البقاء والاستمرارية، وأنه سيقاوم كل من يريد أن يسلبه هذه الخصوصية.

---

345 عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق ص:285.

لقد كان الشعب الجزائري آمنا في بلده ووطنه، يمارس حياته اليومية تحت ظل حكومة إسلامية، وعندما غزا الفرنسيون بلاده سنة 1830، بهدف استغـــلال الأرض والسكان، كان لابد من التصدي لهذا العدو الأجنبي الصليبي، الذي أصبح يشكل خطرا كبيرا على وجوده، فكانت المقاومة.

بدأ الشعب الجزائري مقاومته الأولى للغزو الفرنسي بالأسلوب نفسه الذي اتبعـــه الغازي الأجنبي، وهو الأسلوب الحربي. ورغم فشل هذا الأسلوب أمـــام القـــــوة المادية للعدو الأجنبي، فإن الشعب لم يفقد الأمل، بل ظل يقاوم بالأسلوب نفســــه طيلة قرن من الزمن.

وأمام قوة العدو المادية، استغل الشعب الجزائري كل إمكانياته ووسائـــله دفاعا عن الذات. ومن بين تلك الأساليب نجد المقاومة الثقافية التي لعبـــت دورا هاما في الحفاظ على الهوية الوطنية والدفاع عنـــها، وإفشـــال المـــخططـــات الاستعمارية.

لماذا المقاومة الثقافية ؟

لقد جاءت المقاومة الثقافية للشعب الجزائري ردا على السياسة الاستعمارية المتبعة تجاهه منذ الاحتلال سنة 1830 حتى الاستقلال سنة 1962 .

فقد عمل الاستعمار الفرنسي، منذ حلوله بالجزائر، على القـــضاء على مقومـــات الشعب الجزائري الثقافية، فأغلق المدارس وتابع المعلمين واستولى على كثير من المساجد والزوايا التي كانت أماكن للتعليم الديني والدنيوي في آن واحـــد، وألحق مؤسسات الأوقاف، التي كانت تمولها، بالأملاك التي استولى عليها. وبذلك حرَم الجزائريين من نور العلم. أما المدارس التي سمح لها بالاستمرار في عـــملها فقد حرَّم عليها تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها، كما حرّم تدريس أبواب الجهاد في الفقه الإسلامي.

لقد تم فرض الأمر الواقع على الجزائريين، فأجـــبروا على الرضـــوخ لسلطة سياسية واقتصادية وقانونية ولغوية معينة، كانت لها نتائج خطـــيرة على الميدان الثقافي. فقد وقَع تتبع المعلمين والأئمة وشيوخ الطرق الصوفية، وضُيق عليهم بالمراقبة الدائمة والملاحقات القضائية والمتابعات القمعية، ومنعوا من أداء واجباتهم الثقافية وسط المجتمع الجزائري، وشرد بعضهم إلى مناطق بعيدة عن مواطنهم الأصلية، وسجن آخرون وأرغم عدد منهم على العمل لصالح السلطات الفرنسية. كما مُنع فتح المدارس القرآنية في الحواضر التي تتواجد بها مـــدارس فرنسية، وأصبح تنقل المشرفين على الثقافة لا يتم إلا برخصة تسلمها سلطات الاحتلال وخاصة بالنسبة لشيوخ الطرق الصوفية.

وفي المقابل فتح الفرنسيون مدارس للغة الفرنسية، وحاولوا استمالة السكان الأهالي إليها بهدف دمج المجتمع الجزائري المسلم بالمجتمع الفرنسي، والقضاء على مقدسات الشعب الأساسية. وقد صرح أحد الضباط الفرنسيين في هذا المجال بقوله: "إن إيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها، وحتى تتأقلم فيها الفنون والعلوم التي يقوم عليها مجد بلادنا.. والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية مـــحل اللغـــة العربـــية تدريجيا، ومتى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة، فإنها سوف لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي، ولاسيما إذا وجدت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد."[346]

ونتيجة لهذه السياسة الاستعمارية وخططها الرامية إلى سلب الشعب الجزائـــري مختلف مقومات شخصيته وبخاصة اللغة العربية والدين الإسلامي،

---

[346] إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 10و11.

وعملها على نشر لغة الغازي وديانته، قام الشعب يقاوم ذلك بكل ما أوتي من قوة.

وقد تمثلت المقاومة الثقافية الشعبية في مجالين أساسيين هما:

1- المقاومة في المدارس والزوايا.[347]

2- المقاومة بالكلمة الشفوية.

- فبعد أن حارب المستعمر المؤسسات الثقافية الجزائرية الرسمية والشعبية، بالغلق والهدم وتحويلها عن أهدافها المرسومة ومطاردة المعلمين والفقهاء ورجال الطرق الصوفية باعتبارهم المحرض والموجه والقائد لحركة المقاومة، عمل الجزائريون على إنشاء مؤسسات أخرى بديلة في الأرياف والقرى وأوقفوا عليها أوقافا جديدة ووفروا لها معامين مهما كان مستواهم، لأن المهم لديهم هو الحفاظ على اللغة العربية والقرآن الكريم، والعاملان متكاملان لأن كلا منهما يعتبر عونا للآخر. وهكذا ورغم تدني المستوى العام بعد هجرة أو استشهاد أفراد النخبة الوطنية، فإن الشعب الجزائري حافظ على شخصيته الثقافية من خلال تعليم أبنائه تراثهم وربطهم بماضيهم.[348]

أما المقاومة بالكلمة الشفوية فهي التي يعبر بها الإنسان عما يحسه دون سلطة من أحد. لقد عاد الشعب الجزائري- كما يقول سعد الله-[349] إلى وسائله التقليدية البسيطة والمتوفرة، فعمد إلى الطرق القديمة في التعليم والتعبد، وعمد أيضا إلى التعبير الشفوي الذي لا طاقة للاستعمار في التحكم فيه، بعد أن غُيبـــت الثقافة المكتوبة وحوربت من قبل المستعمر.

---

347 سنتعرض لهذا في محور آخر موال.

348 للتوسع أنظر: محور "دور الطرق الصوفية في المحافظة على الهوية الوطنية."

349 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع. دار الغرب، بيروت 1998.

أما ما بقي من ثقافة فقد ضعف مستواها، ومثلتها طائفة من الأدباء والشعراء الذين استغلوا ذلك لأغـــراض محدودة كالمدح والرثاء والمدائح النبوية. ولقد بلغ ببعضهم نتيجة الاستكانة والضعف أن مدح قادة فرنسيين.[350]

لقد تحرك الشعراء "المداحون"[351] ينتقلون من قرية إلى قرية ومن سوق إلى سوق، فتجتمع حولهم الجماهير في حلقات من التواصل الحقيقي، يعلقون على الانتصارات وينهجون بها ويرثون الهزائم، مذكرين بالغزوات الإسلامية، ومحولين الهزائم إلى انتصارات، ومؤكدين للجماهير الشـــعبـــية أن إرادة الله ستبعث أحد الأبطال المحررين في وقت قريب. "إن الخطاب الأدبـــي الشفوي.. قدر له أن يكون الوسيلة الوحيدة التي تمتلكها الجماهير الشعبـــية مـــن أجل إدراك العالم ونقل المعرفة وتوجيه السلوك."[352]

لقد تم إحياء القصص والسير الشعبية التي ظلت جامدة، وأصبحـــت تؤدي دورا جديدا بتنظيم العلاقة بين الأفراد، وحفظ التوازن النفسي بينهـــم، وإعطاء معنى لوجودهم وعلاقتهم بالمؤسسات القائمة. إن "فلكا ثقافيا جديـــدا يأخذ مكانه شيئا فشيئا، ويتغذى من الماضي المعاد تحليله انطلاقا من الوضع الاستعماري الراهن ومن أشكال المقاومة."[353]

---

[350] من أمثال: أحمد بن الفكون وابن الصايم وابن القاضي وغيرهم.

[351] المداحون: هم رواة للقصص الشعبي المتعدد وبخاصة القصص البطولي، وقد سموا أنفسهم بـــ "المداحين" لأنهم يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم في قصائد كثيرة يرددونها، كما أنهم يستفتحون أغلب قصائدهم الأخرى بهذا المدح من أجل التبرك والتيمن.

[352] عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي والمسألة الوطنية، مجلة التبيين، العدد الأول، 1990، ص:144.

[353] عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت 1984، ص:17.

كانت هذه المغازي والقصص الإسلامية تتغذى بأمجاد العهود الأولـــى الإسلامية، فتشرح الفتوحات الإسلامية وتمدح أبطال الجهاد والفاتحين لبـــلاد الكفر والوثنية، في نصوص شعرية شعبية، تُشرح نثرا بأسلوب شفوي بســيط وبلهجة عربية محلية، تجد صداها لدى الجمهور المتعطش إلى مثل هذه المآثر، التي تنسيه همومه اليومية، فتنفس عن واقعه الأليم، وتمكنه من استعادة ماضيه الزاهر، ورفض واقعه المنحط. فكانت هذه المآثر الشعبية إذن، عامل تــعبئـــة ورعاية للقضية الوطنية بطريق غير مباشر، لتقوية إيمان المترددين والسخرية من المتخاذلين.

فـــ "الكافر" المحتل لابد من الانتصار عليه وطرده مثلمـــا فعل أوائل المسلمين بانتصارهم على أعدائهم، ذلك أن "النموذج الأمثل هو عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، وسيبقى هذا النموذج أمثل في مخيالنا وفي أحلامنا وتطلعاتنا، هذا لاشك فيه."[354]

كان دور هؤلاء الرواة "المـــداحون" هو توعية الجماهير الشعبية، يقول أبو القاسم سعد الله عن نضال هؤلاء: "وقد ناضـــلت النخبة التقليدية الجزائرية بواسطة الأدب الشعبي والقصص الوطني والتعلق الغامض بالماضي، ولكن قبل كل شيء بواسطة تحميس الفخر الوطني."[355]

لقد لعب "المداحون" في الأسواق والمواسم دور الموجه والمنـــظـــم لثـــقافة الجماهير الشعبية في مختلف جهات القطر، يحيون أمجاد الماضي ليستثيروا حماس الناس.

[354] محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مجلة مركز دراسات الوحدة العربية، ط:02، بيروت 1990، ص:187.

[355] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص:69.

فأبطال الإسلام الأوائل كالإمام علي وخالد بن الوليد وعبد الله بن جعفر وغيرهم، هم أبطال هذه المغازي، يجوبون ساحات القتال فيقهرون أعداءهم "الكفار"، فتعلو راية الإسلام مرفرفة خفاقة.

والمداحون في مغازيهم هذه التي يقدمونها لجمهورهم، لا يعزلونها عن حاضر الناس، بل يقارنون بين الأوضاع الراهنة المزرية وبين أوضاع المسلمين الأوائل، ليثيروا العواطف ويلهبوا الهمم.

يذكر الضابط ديسبارميه في مقال له "أن ظهور رواة المغازي بالجزائر قد ابتدأ في منتصف القرن التاسع عشر، بعد هزيمة مواطنيهم، وأنهم ظلوا يرددون المغازي بكاء على مجد أسلافهم الغابر، وإحياء للشعور الوطني، مما خلق روحا جديدة لدى العامة- فسرها الضابط- بأنها كره للأجنبي بدون مبرر."[356]

وقد اهتم العلماء الفرنسيون منذ الاحتلال بهذا الشعر الشعبي "لأنه في نظرهم يعبر عن حقيقة الروح الجزائرية المقاومة لاحتلالهم. وقد حاربت السلطة الفرنسية المداحين أو القوالين، وراقبت نشاطهم، لأنهم كانوا نقلة هذا الشعر ومروجيه، وكان معظمهم من الشعراء المرتجلين.."[357]

---

[356] أنظر:

Desparmet.j : Les chansons de geste de1830 à 1914 dans la mitidja. Revue africaine, imprimerie la typo et jules carbonaret, Alger 1939.

[357] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثامن، ص: 307.

وفي هذا المجال اطلعنا على تقرير سري صادر عن مركز الاستعلامات والدراسات التابع لولاية وهران، مؤرخ في 15 فبراير 1944، ينبه فيه كاتبه إلى خطورة تواجد قصاص (راو) شعبي متنقل بمدينة وهران، يلقي قصائد تمجد الألمان وتذم الفرنسيين والإنكليز. وقد قامت الجهات المعنية بجمع المعلومات الخاصة بهذا القصاص. (ويدعى قرموت محمد، المعروف بـ "الشيخ محمد"، عمره 40 سنة، كفيف، يسكن بشارع الكرز ضاحية الحمري.) وقد خلص

هكذا إذن كانت الكلمة وستبقى دائما دعامة للكفاح المسلح وروحا ينبض بالحياة مذكرا بالوطن والوطنية حين يخفق صوت السلاح. لقد سجل الشعـــراء الشعبيون المعارك التي خاضها الشعب الجزائري في كل سهل وجبل، وفي كل تل وواد، سجلوا أحداثها وانتصاراتها وانتكاساتها، سجلوا بطـــولات رجالـــها وانسحابهم أو استشـهادهم. فهم في كثير من الأحيان قاموا بدور المؤرخ بشـــكل مـــن الأشكال، منذ بداية الاحتلال مرورا بمختلف الأحداث الهامة، إلى أن استردت البلاد حريتها واستقلالها.

وها هو الشاعر الشعبي عبد القادر الوهراني يرثي الجزائر بعد احتلالها من قبل الفرنسيين في قصيدة طويلة، منها:

الأَيــامْ ياخْواني تْــبَدّلْ ساعاتْـــها   والدهْـــر يَنقْلَبْ ويْوَلّي في الحينْ
بَعْد انْ كان سَنْجاق البهْجَة وَاوْجاقْها   الاَحْناسْ تْخافْها في البَرْ وْبَحْرين
مْنينْ راذْ رَبــي واوْفَــى ميحــالْها   واعْطاوْها اهْلْ اللـــهْ الصالِحيـــن
الفْرَنْسيـــس حَرَّكْ لْها وخْـــذاها   لاَهـــي مْياتْ مَرْكَب لاَهي ميتين
بَسْـــفايْنَه يَفْرَصْ البْحَـــرْ قْبـــالْها   كي جا مَنْ البْحَرْ بَجْنودْ قْوِيّـــنْ
غابْ الحْسابْ وَادْرَكْ وَتْلَفْ خْسابْها   الرومْ جاوْا لَلْبَهْجَـــة مَشْتَـــدّيـــنْ
رانِي عْلَـــى الجَزايَر يِاناسْ حْزينْ.[358]

التقرير بالدعوة إلى ضرورة مراقبة تحركاته عن كثب وأخذ كل الإجراءات المناسبة تجاهه في الوقت المناسب. (أنظر أرشيف ولاية وهران 4476 إ 4 .)

[358] جلول يلس والحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1975، ص:36.

وإذا كانت المدارس والزوايا، هي الملجأ المهم الذي اعتصمت به اللغة العربيـــة والقرآن الكريم من عواصف البطش والهيمنة، وتمكنت بفضل معلمين مجدين من الصمود والبقاء؛ فإن الكلمة الشفوية قد حافظت على روح

المقاومة عن طريق شعـــراء شعبيين حاولوا إحياء المجد الغابر واستنهاض الهمم وبعث النشاط والحيوية في أوساط الجماهير الشعبية. لقد كان الشاعر الشعبي هو صوت الجماهير وإذاعتها المتنقلة، قام بدور القائـــد الموجه والواعظ المرشد، لم يكن "رجل قلم ولا ينتمي إلى الحيـــز الثـــقافـــي الكتابي، بل الشفوي الذي لا توجد قواعده معروضة في الكتب، بل مدونة في الذاكرة الجماعية، قواعدُ لا يتم تعلمها في المدرسة، بل في الحيـــاة الـــيومية للجماعة، والتي يحفظ أسرارها وينقلها المسنون... هو شاعر عضوي وصوت الجماعة الذي تحيا الجماعة به الحاضر، كجماعة موحدة عبر نقـــل هويتـــها التاريخية."[359]

لقد كانت عوامل الاختلاف كبيرة بين أمتين تنتميان إلى حضارتـــين مختلفتين من حيث المصادر والخصائص عكس ما كان يروجه دعاة الدمج من شعارات هدفها إلحاق الجزائر بفرنسا، ولذلك تمكـــن الشعـــب الجزائـــري من الصمود بوسائل مختلفة في وجه عدو لا يرحم، فحافـــظ عـــلى خصوصـــيته وذاتيته ولم يتمكن ذلك العدو من دمجه وإلحاقه ببلده، رغـــم وسائله الضخمة المتطورة.

[359] عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر... ص:16.

ثانيا :دور الطرق الصوفية
في المحافظة على الهوية الوطنية

يعتبر العهد العثماني بحق أزهى عصور الطرق الصوفية بالجزائر، ذلك أن العثمانيين كانوا يبجلون رجال الطرق الصوفية، فيتبركون بهم ويزورونهم قبل انطلاقهم إلى الغزو والجهاد البحري، وكانوا يعفونهم من الضرائب، ويعود ذلك – كما يقول سعد الله – إلى "أن الترك كانوا في تكوينهم الديني والنفسي والحربي من أتباع الطرق الصوفية".[360] ولذلك وجد مروجو الأفكار الطرقية المجال مناسبا لنشر أورادهم بين الناس، فاتسع مجال انتشار هذه الطرق فعمت مختلف أنحاء القطر الجزائري.

وعندما احتل الفرنسيون الجزائر سنة 1830 بعد انهيار الدولة الجزائرية احتفظت الطرق الصوفية بمكانتها بين جماهير الشعب الجزائري، رغم ما أصاب البلاد من هدم وخراب.

وهكذا أصبح رجال الطرق الصوفية الملجأ الأمين لقيادة الجماهير الشعبية للدفاع عن هويتها ووجودها أمام استعمار غربي يود القضاء على كل شيء.

الطرق الصوفية حاملة لواء الدين وحاميته.

كانت الطرق الصوفية هي إذن المؤسسة الوحيدة التي بقيت متواجدة بعد انهيار المؤسسات الرسمية أمام ضربات الاستعمار الفرنسي. وقد "ظلت قائمة خصوصا في الأرياف تؤدي دورها الديني والتعليمي والعسكري أيضا،

[360] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 465.

ويكفي أن نذكر في هذا المجال أهم فروع الزاوية الرحمانية والقادرية..."[361] وغيرها.

لقد بحثَت جماهير الشعب الجزائري عن قوى تقودها لمواجهة عدو متفوق عسكريا، فلم تجد سوى زعماء الطرق الصوفية الذين كان الشعب يعتبرهم رجالَ دينٍ أتقياءَ ورعين همهم خدمة الإسلام والذود عنه.

وهكذا مثل الدين الإسلامي المحرك الأهم لكل العمليات التحريرية للشعب الجزائري خلال القرن التاسع عشر، لأن الدين يُكسِب الإنسان الشجاعة والثقة بالنفس في صراعه مع الصعوبات، ويحقق له الشعور بالانسجام بينه وبين الكون المحيط به، لأنه وكما يقول أحد المنظرين العرب في علم النفس، لا شيء "كالدين موجود عندنا، في القاع أم على التاج، في البداية كما في النهاية، فعندنا الإنسان خلية دينية".[362]

ويعتبر الدين "أحد الأنساق الهامة في الثقافة، وإليه يعزى تكامل الثقافة وتجانسها، إذ أن وظيفته الأساسية هي صياغة قوانين السلوك الاجتماعي ومعاييره وتثبيتها".[363] لقد كان الدين الإسلامي بما انطوى عليه من قوة روحية، كان للذين يؤمنون به ويتمسكون به درعا لأن تحطمهم الأيام الصعبة أو يذوبوا في بوتقة المستعمر.

كان الجزائريون يعلَمون أن جهاد الكفار من أعظم القُربات إلى الله تعالى، وكانوا يعرفون أنهم إما قاتلون أو مقتولون، وهم في كلتا الحالتين من الفائزين : إما موت وفوز بالجنة، وإما نصر تصحبه عزة ورفعة. فمارسوا الجهاد عن رضى وطيب خاطر تحت لواء زعمائهم.

---

[361] أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص : 110.

[362] علي زيعور : التحليل النفسي للذات العربية، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص : 274.

[363] فاروق إسماعيل : المرجع السابق، ص : 247.

لقد استند زعماء المقاومات الشعبية، وهم من زعماء الطرق الصوفية في الوقت نفسه، في القرن التاسع عشر، على إثارة الهمم وشحذ العزائم لدى الناس.

وهاهو أحد زعماء تلك المقاومات[364] يدعو إلى الجهاد في رسالته إلى القبائل : "بشرى بإعلان الجهاد في سبيل الله على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد الكفار الفاسقين الفرنساويين، لعنهم الله، الذين صالوا علينا، وتعدوا وطغوا، وشرعوا في إهانة ديننا الحنيف – لا أراد الله – بعدما فسقوا في أرضنا وأحلوا ما حرم الله، فها نحن رفعنا اللواء المحمدي، وبشرنا كل مسلم بالجهاد، راجين من المولى سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكفار المخزيين".[365]

فزعيم المقاومة يستعمل كلمات وعبارات دينية للتحريض على المقاومة : "بشرى بإعلان الجهاد.. سنة رسول الله صلى الله عله وسلم.. الكفار المخزيين... رفعنا اللواء المحمدي". أي نحن على درب الجهاد الذي بدأه النبي صلى الله عليه وسلم. أما الخصم فهو ليس عدوا فحسب بل هو الكافر، الفاسق والملعون، الذي صال وطغى وتعدى وفسق، وأهان الدين وأحل الحرام.

لقد انقاد الناس للأشراف والمرابطين، في الأوساط الشعبية، لِما يحظى به هؤلاء، من مكانة دينية سامية في الأوساط الشعبية، ولِما يُكِنّه لهم الناس من محبة واحترام، فمن الطبيعي أن يستجيبوا لهم حين يدعونهم إلى ما يزين دينهم ودنياهم.

يقول أحد الضباط الفرنسيين: "إن مختلف الانتفاضات عند القبائل والعرب التي واجهناها في الجزائر، قادها دائما مرابطون حقيقيون أو

[364] سليمان بن حمزة مفجر مقاومة 1864.

[365] من كتيب نشره المتحف الوطني للمجاهد بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الأول حول ثورة أولاد سيد الشيخ، الأبيض سيد الشيخ أيام 23، 24، 25، أكتوبر 1996

مدّعون".[366] ويقول آخر: "كلما قامت انتفاضة إلا وكان قادتها إخوان مرابطون".[367] ويقول ثالث: "إنه وبالفكرة الدينية يسير القانون، وبالاستجابة للديانة الإسلامية أصبح الزعماء الأوائل لهذا المجتمع محاربين".[368]

لقد عرف الفرنسيون أهمية الدين لدى الجزائريين، فنبّهوا حكومتهم للعمل على مواجهة رجاله، والفصل بينهم وبين مواطنيهم، وكتبوا مؤلفات عديدة عن الطرق الصوفية: مكانتها ودورها في المجتمع الجزائري، من أجل فهم أكثر للجزائريين.

وكان مجاهدو المقاومات الشعبية خلال القرن التاسع عشر يحاربون باطمئنان ونية خالصة لأن قضيتهم عادلة، ولأن قادتهم من رجال الصوفية، مرابطون كانوا أم أشرافا، وبالتالي فإن الله هو المقدر لقيام شخص بعينه لقيادتهم، وأنه هو "مُولْ السّاعَة"، وإذا قُدر لهذا الأخير أن يفشل في تحقيق الآمال، فإن المشايعين له يتنهدون ولسان حالهم يقول : يظهر أنه ليس بعد الشخص الجيد.[369]

ولقد كانت الزوايا والمدارس هي أهم المراكز المكانية التي تنقل عبرها الأفكار والمعتقدات، ويخرج منها لواء الجهاد لمقاومة الغزو الأجنبي. وقبل التعرض لدور هتين المؤسستين في الحفاظ على أهم مقومات الشخصية الوطنية لا بد من التعرف على السياسة الفرنسية تجاه الزوايا والمدارس في تلك الفترة.

---

[366] أنظر : Henri Carnoy : L'islam, mœurs et coutumes, Revue de l'Islam, 1897, P: 90

[367] أنظر : Mercière (E) : la vérité sur les Khouan d'Algérie, Revue de l'Islam, oct. 1900, P :149.

[368] أنظر : Kiva (P) : En Algérie (souvenirs), Henri Charles lavauzelle, Edition militaire, Paris 1894.

[369] أنظر : Trumelet (C) : Notes pour servir à l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à1869, Revue Africaine N° 23.de 1879, OPU, Alger 1985, P 257.

السياسة الفرنسية :

عمل الاستعمار الفرنسي على القضاء على مقومات الشعب الجزائري الثقافية، فأغلق المدارس وتابع المعلمين، واستولى على كثير من المساجد والزوايا التي كانت مراكز للتعليم الديني والدنيوي، وألحق مؤسسات الأوقاف – التي كانت تمولها – بالأملاك التي استولى عليها. وبذلك حرَمَ الجزائريين من نور العلـــــم.

لقد انعكست الأوضاع رأساً على عقب، فبعد أن كانت المدارس الرسمية منتشرة في كل قرية ومدينة يؤطرها رجال نابهون "استطاعت ثقافة الإستعمار أن تغزوَ مراكز الثقافة القومية وأن تقصيها من المدارس والجامعات ثم بدأت تشوهها في عقول المواطنين وأذواقهم،"[370] ليقتدوا بالمستعمر الغازي، فيأخذوا ثقافته ونظمه. وقد جعل المستعمر من اللغة الفرنسية شرطاً لتقلد الوظائف والحصول على لقمة العيش بينما أصبحت اللغة العربية لغة أجنبية لا تفيد ولا تشبع من جوع.

ويعترف الجنرال فالزي عام 1834 بأن وضع التعليم في الجزائر كان جيدا قبل التواجد الفرنسي، وأن "كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، إذ تنتشر المدارس في أغلبية القرى والدواوير."[371] وأن التعليم الابتدائي – على الأقل – كان أكثرا انتشارا مما كان عليه في فرنسا. ويقول ديشي: - المسؤول عن التعليم العمومي في الجزائر– "كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخلية وحتى في أوساط القبائل كثيرة ومجهزة بشكل جيد وزاخرة

---

[370] أبو القاسم سعد الله : شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص: 78.

[371] - أنظر :

Charles Robert Agéron : les Algériens Musulmans et la France, P/ 78.

بالمخطوطات. ففي الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد، يجري التعليم فيها مجانياً، ويتقاضى أساتذتها أجورهم من واردات المسجد، وكان من بين مدريسها أساتذة لامعون تنجذب إلى دروسهم عرب القبائل.."[372] وبعد مرور حوالي خمسة عشر سنة من الإحتلال اعترف الفرنسيون أنفسهم بأن التأخر بدا جليا في التعليم وأن جيلا قد أضاع تعلم القرآن.[373] ذلك أن النخبة المثقفة تم القضاء عليها سواء في ساحات القتال أو أنها هاجرت إلى حيث وجدت الإعتبار والتفهم مرغمة على ذلك لسبب أو لآخر.

هكذا إذن كانت سياسة فرنسا تجاه الثقافة الجزائرية، فلم يكن غرض الفرنسيين نشر الحضارة والتمدن بين سكان الجزائر- كما كانوا يزعمون- ولكنهم جاؤوا لتجهيلهم وطردهم من أراضيهم وهدم بنيانهم وحرمانهم من حقوقهم الأساسية ومن ثرواتهم الطبيعية.

ويتساءل ديشي عن هذه المؤسسات "التي كانت مصدر حياة المتفوقين فكريا وذوي اليد الطولى في الأوساط الشعبية بما لهم من علم ودين." فيقول: "ففي الجزائر العاصمة اختفى العديد من المساجد وهدمت خمس زوايا وصودرت عائدات المساجد والزوايا جميعا لتأخذ اتجاها آخر يخالف مقاصد الواهبين لممتلكاتهم.. ونفس الوضع شمل المدن الداخلية."

ويعيد ديشي أسباب الوضع الجديد إلى السلطات الفرنسية العسكرية التي شتتت جموع الطلبة، وأنها أدت، بسبب ذلك، إلى الزيادة في عدد أعداء فرنسا، في حين أن المخطوطات التي كانت تشكل قاعدة للتعليم قضي على جانب كبير منها.[374]

---

372 عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص : 206.

373 شارل روبار أجيرون : IBID.

374 عبد الحميد زوزو : المرجع السابق، ص : 207.

لقد تم فرض الأمر الواقع على الجزائريين فأجبروا على الرضوخ ا لحالة سياسية واقتصادية وقانونية ولغوية معينة، كانت لها نتائج خطيرة على الميدان الثقافي، فقد وقع تتبع المعلمين والأئمة وشيوخ الطرق الصوفية وضيق عليهم بالمراقبة الدائمة والملاحقات القضائية والمتابعات القمعية ومنعوا من أداء واجباتهم الثقافية وسط المجتمع الجزائري، وشرد بعضهم إلى مناطق بعيدة عن مواطنهم الأصلية وسجن آخرون وأرغم عدد منهم على العمل لصالح السلطات الفرنسية، كما منع فتح المدارس القرآنية في الحواضر التي تتواجد بها مدارس فرنسية، وأصبح تنقل المشرفين على الثقافة لا يتم إلا برخصة تسلمها سلطات الاحتلال وخاصة بالنسبة لشيوخ الطرق الصوفية.[375]

وفي المقابل فتح الفرنسيون مدارس للغة الفرنسية وحاولوا استمالة السكان الأهالي إليها، لكن الاستجابة كانت جد هزيلة رغم المغريات التي قدمت للتلاميذ الملتحقين بهذه المدارس، فلقد بلغ بأحد الجزائريين أن أظهر تأسفه أمام أحد الموظفين الفرنسيين على المدارس التي كانت تعلم(سِيدِي خْليلْ)، لأن الجزائريين اعتبروا ذهاب أبنائهم إلى تلك المدارس مسخ لشخصيتهم العربية الإسلامية، وأن ذلك سيؤدي بهم إلى المروق من حوزة الدين وامتزاجا بالفرنسيين(الكفار) وبأخلاقهم. وقد تحملوا نتيجة لذلك الامتناع، كل العواقب المتمثلة في الطرد من أوطانهم أو الخسارة في أموالهم، "على أننا نعلم أن الهيمنة الثقافية وهي أشد ما تكون مكراً وخداعاً، لا يمكن إلا أن تكون أشد ضرراً وأكثر فساداً وأعمق أثراً من السيطرة السياسية والعسكرية."[376]

---

[375] شارل روبار أجيرون : المرجع السابق، ص : 306.

[376] بوعلام بسايح : الثقافة الإفريقية طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة، العدد : 96، نوفمبر، ديسمبر 1986.

كان الاستعمار، بتأسيسه لهذه المدارس، يهدف إلى دمج المجتمع الجزائري المسلم بالمجتمع الفرنسي والقضاء على مقدسات الشعب الأساسية، عن طريق نشر لغته والقضاء على اللغة العربية؛ فقد أسس المستعمرون مدارس ابتدائية ومتوسطة سمح للجزائريين بالالتحاق بها، فدخلها أبناء البورجوازية الجزائرية القريبي الصلة بالسلطات الاستعمارية، كما أدخل الفرنسيون تدريس اللغة العربية إلى بعض هذه المدارس للاستفادة من متخرجيها للعمل في مجال القضاء والترجمة والتدريس والإبقاء على ولائهم للسلطة الفرنسية، فكانت صبغة هذه المدارس سياسية أساساً، خضعت لمراقبة السلطات العسكرية أول الأمر؛ حيث بقيت مصلحة التعليم العام بالجزائر من إختصاصات وزارة الحربية تحت إشراف الحاكم العام حتى سنة 1848 حين تم ربط المصلحة بوزارة التعليم العام وأنشئت أكاديمية الجزائر. وتخرج من هذه المدارس جزائريون -تباعا- مختصون في الصحافة والتعليم والترجمة، أي أن تلك المدارس لم يكن التعليم بها "تثقيفيا بل لتحضير بعض الإداريين والمترجمين في الإدارة الجزائرية قصد التعجيل بالاندماج."[377] فلم تكن السلطات الفرنسية ترى في اللغة العربية سوى وسيلة للتوغل السياسي، أهملت منها عناصر العلم والثقافة. "وهكذا فإن انعدام الكتب التي تعالج الثقافة العربية جعل الناس ينظرون إلى اللغة العربية مدة طويلة كما لو كانت لا تتجاوز مجرد الاتصال بالأهالي."[378]

وإذا كانت فرنسا قد نجحت في كسب بعضهم بسكوتهم وقبول التعامل والعمالة لها، فإن بعضهم الآخر لعب بوجهين حيث استفاد من فرص التعليم والوظيفة ولكنه حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالتعبير عن شكاوي

---

[377] أ. سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، ش و ن ت، الجزائر 1983، ص: 63.

[378] إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص:11.

المواطنين والمطالبة بإستبدال الوضع الراهن بوضع أفضل، والدفاع عن الشخصية الجزائرية ومقوماتها،[379] ومن بين هؤلاء نجد الدكتور بن العربي في الجزائروالدكتور مرسلي في قسنطينة وسي محمد بن رحال في ندرومة.[380]

لقد مثل هؤلاء مواطنيهم في المجالس الفرنسية، فطالبوا بتحديث المجتمع الجزائري لإخراجه من الوضع المزري الذي يعيش فيه ودافعوا عن الهوية الثقافية للشعب المقهور. ولكن مطالبتهم لذلك التحديث لا يخرج عن إطار الدولة الفرنسية، أي أنهم عملوا في الإتجاه العام السائد والنظام القائم، وركز بعضهم على الخصائص المميزة للشعب الجزائري. وقد أدت إثارة قضايا الجزائريين إلى إرسال لجنة للتحقيق برئاسة جول فيري عام 1892 إلى الجزائر، وقدم لها أفراد النخبة الجزائرية من هؤلاء المثقفين المسترين رغبة السكان في الحفاظ على شخصيتهم بتعليم اللغة العربية واحترام الشريعة الإسلامية، كما طالبوا بتخفيض الضرائب على مواطنيهم وإلغاء القوانين الاستثنائية الظالمة، ولم تقتصر هذه المطالب بفئة النخبة المثقفة بالفرنسية بل شملت طوائف جزائرية أخرى ذاقت من ويلات النظام الاستعماري.[381]

لقد بلغ التقهقر الثقافي مداه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وخاصة بعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر وأحمد باي، التي انسحب على إثرها الكثير من المثقفين من البلاد مهاجرين رغما عنهم إلى خارج الديار، واستقروا في كل من تونس والمغرب أو المشرق العربي — كما ذكرنا سابقا- وأصبحت البلاد بدون نخبة مثقفة، وأصبح التعليم في الكتاتيب والزوايا والمساجد مقتصرا على تعليم الكتابة والقراءة وتحفيظ القرآن الكريم دون شرح

---

[379] عبد القادر جغلول : الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ص: 39.

[380] وهناك أحمد بن بريهمات بن الشيخ حسين.. مدير المدرسة الثعالبية.

[381] منهم أعضاء المجالس البلدية وأشخاص عاديون وبعض القياد والصحفيين...

أو تفسير سواءا لضعف مستوى المعلمين أو لتدخل السلطات الاستعمارية بالتوجيه والمراقبة.

المقاومة الشعبية في المدارس والزوايا :

قاوم الشعب الجزائري السياسة الاستعمارية ما وسعه من إمكانيات المقاومة، بالدفاع عن مؤسساته الثقافية القائمة، وعندما عجز عن ذلك شرع النّاس في تأسيس مساجد ومدارس أخرى جديدة أوقفوا عليها أوقافا جديدة تسهر على سيرها الحسن، وعيّنوا لها معلمين ورجالا كرسوا حياتهم لخدمة الثقافة العربية الإسلامية، يوفر لهمم السكان وسائل العيش والإستقرار مقابل ما يقدمونه لأبنائهم من علم وثقافة، وهذا يعني انّ التهديم لم يكن شاملا، فقد بقيت تجمعات ثقافية وعلمية تقليدية هنا وهناك تأقلمت مع الوضع الجديد، وبذلك تم الحفاظ على اللغة العربية والقرآن الكريم رغم تواضع مستوى اللغة وتخلفها أنذاك، ولم يقتصر فتح المدارس على المناطق الحضرية، بل شمل حتّى البدو الرحل الذين كانت المؤسسة التربوية ترتحل معهم بمعلميها وتلامذتها ومبناها في تنقلاتهم طلبا للماء والكلأ عبر السهوب والصحاري المترامية الأطراف.

لقد تكثفت هذه المدارس في عهد الاستعمار الفرنسي ."كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير والتمسيح والفرنسة وحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين، ولمقاومة سياسة التجهيل التي كانت تتبعها الإدارة الفرنسية الإستعمارية في البلاد.[382]

---

[382] يحي بوعزيز: أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنيين التاسع عشر والعشرين، مجلة الثقافة، العدد 63، ماي – جوان 1981.

واستمرت اللغة العربية رغم فقد الإستقلال وما يتبعه من ضغط ومنع، حية تتحرك هنا وهناك تحت صيانة معلمين بذلوا كل غال للحفاظ عليها ونقلها من جيل إلى جيل، لأنها حاملة ثقافتهم العربية الإسلامية. ورغم توالي الأيام الصعاب على الشعب الجزائري فقد بقيت ثقافته في مدن التل وقرى السهول وواحات الصحراء ومداشر الجبال تقيها أياد أمينة.

وكانت المساجد تعطي بدورها دروسا في الفقه، يقوم بها فقهاء لإرشاد الشعب وتكوين من يخلفهم في وظيفتهم، وكانت الدروس تقدم في أوقات معلومة بعد الصلاة المفروضة فيحضرها الكبار والصغار، ويمكن للطالب أن ينتقل من مسجد إلى آخر للاستفادة، وحتّى يتمكن من حضور أكبر عدد من الدروس.

وكان للزوايا دور كبير في احتضان اللغة العربية والدين الإسلامي بتعليم العربية وتحفيظ القرآن الكريم، وبما كانت تلقنه لمريديها من ترات شعبي، كما احتفظت هذه الزوايا بمكتبات ثرية تحتوي على كتب ومخطوطات في مختلف العلوم والفنون التي سيستولي عليها الفرنسيون شيئا فشيئا.

وكان تأثير هذه الطرق الصوفية ينتشر إلى مدى واسع من الرقعة الجغرافية للوطن وبين القبائل المتعددة متجاوزا حدود الجماعة المرتبطة دمويا ببعضها البعض.

وبذلك خلقت هذه المؤسسات الدينية تضامنا وتآزرا واسعا كان له التاثير الحسن والاستجابة السريعة عندما تتحول هذه المؤسسات إلى مراكز للقيادة والزعامة العسكرية الداعية إلى الجهاد لمحاربة الاستعمار. وبذلك تم الحفاظ على روح المقاومة والبقاء الوطني، سمّاها بعض المؤرخين الفرنسيين "غريزة البقاء لدى الجزائريين."

لقد حارب الشعب الجزائري الاستعمار بالسلاح تحت قيادة أشراف ومرابطين في أغلب الأحوال. هؤلاء الذين يُكِنّ لهم الشعب كل الاحترام والتقدير ويعمل على شد أزرهم والانقياد لزعامتهم بهدف تحقيق آمالهم في النصر وتحقيق طموحات الجماهير المقهورة .

إنّ انقياد الشعب لهذه المؤسسات وتفاعله معها ليعبّر حقيقة عن المكانة الدينية في وجدان الجماعة، وأنّ ردّ فعلها كان دينيا بالدرجة الأولى، كما أن الفكرة الوطنية لم تكن غائبة عن أفكار النّاس آنذاك، ومع ذلك كان الجانب الروحي قد إستحوذ على مشاعر الأفراد فحدّد شخصيتهم ونمط معيشتهم وسلوكاتهم، فالشعور بالانتماء للدين الإسلامي وإلى العالم الإسلامي هو الرابطة الوثيقة بين أفراد المجتمع الجزائري أكثر من أي شعور آخر.

ويشير سعد الله إلى أنّ قادة الجهاد في القرن التاسع عشر كانوا يمثلون الإتجاه التقليدي، وأنّهم كانوا أكثر إيجابية في قيادتهم للجماهير الشعبية، وهو يعني بذلك رجال الطرق الصوفية (المرابطين) أمثال لالة فاطمة نسومر والشيخ الحداد وبوعمامة وغيرهم.[383] "إنّ التجربة التاريخية قد صهرت أبناء الجزائر وجعلتهم يقفون في أحلك الظروف صفا واحدا لمجابهة مختلف أشكال التفتيت والتمزيق والتشويه خاصة منها تلك التي تسترت وراء المقولات العلمية والتصنيفات الإثنولوجية والإثنوغرافية وجعلته يزداد إستمساكا بلغته العربية ودينه الإسلامي الذي حماه من محاولات التمسيح والتنصير وما يحملان من قيم ثقافية دخيلة."[384]

---

[383] أ. سعد الله : أفكار جامحة ...ص : 29.

[384] محمد العربي ولد خليفة : واقع الحركة الثقافية، محاضرة في الملتقى الرابع للفكر الإسلامي، سبتمبر 1980 بالجزائر.

كانت هذه المدارس والزوايا تمثل نوعا من المقاومة لسياسة التجهيل والفرنسة والتنصير التي انتهجتها السلطات الاستعمارية، رغم أنّ تلك المؤسسات كانت تقليدية ضعيفة ومتخلفة تتبع أساليب عتيقة وغير متلائمة مع ما كانت تشهده الساحة الدولية من تطور، ممّا ضيق من أفق المتعلمين الفكري وأدى إلى سيادة التخلف الذهني والاجتماعي.

فمقاومة الشعب الجزائري للاستعمار لم تقتصر على حمل السلاح ومواجهته بالقوة فحسب، بل كانت المقاومات متعددة الأشكال والألوان، وكانت المؤسسات الثقافية أحد أهم عناصر المقاومة.

لقد "عاد الجزائريون إلى وسائلهم القديمة في التعليم باللجوء إلى الكتاتيب والزوايا التي وإن لم تعطهم علما نافعا في الدنيا فإنّها أشبعت فهمهم الروحي وظلت تربطهم ماضيهم، كما أعطتهم سلاحا قويا للاستمرار في عملية المقاومة والوقوف ضدّ ذوبان الشخصية الوطنية في شخصية المستعمر."[385]

لقد كانت الزاوية و"الطالَب"[386] يمثلان قوة معتبرة داخل المجتمع الجزائري، "لم يكن الطالب رجلا منعزلا، بل كان رجلا يقاتل منفردا للدفاع عن التقاليد الإسلامية، وهو منظم وموجّه غالبا من قبل طريقة صوفية. إنّ تأثيره كان أكبر من تأثير معلم المدرسة — الفرنسي- فهو معلم وهو الذي ينادي للصلاة ويؤم النّاس فيها. وهو المكلف بتطبيبهم بالتمائم وتلاوة بعض الآيات على المرضى من النّاس والأموات في الجنائز. وهو المكلف بشؤون العائلات لأنّه يعرف القراءة فيلتجيء إليه شيخ القبيلة لفك رموز رسائل رئيس المكتب العربي. إنّه ليس عالما لكنّه العالم الوحيد، هو نور وحكيم القبيلة"[387] إنّه رجل

---

[385] أ. سعد الله : المرجع السابق ص : 27.

[386] هو معلم أطفال القبائل والقرى بالكتاتيب.

[387] أنظر : Yvonne Turia , P 121

محترم من قبل كل أفراد القبيلة سواء كان يحفظ القرآن كلّه أو بعض أجزائه، حتّى وإن كان لا يفهم ما يقرأه، فهو مقدم لديهم في كل الأحوال.

كان "الطالب" ينتقل من مكان لآخر ومن قبيلة لأخرى يعلم أبناء هذه الجماعة لينتقل إلى غيرها للقيام بالدور نفسه. لقد رأى الفرنسيون في هذا "الطالب" المتنقل أفضل وسيلة لنقل الأخبار المسيئة إليهم، "كم من مرة فوجئنا بالسرعة التي يتلقى بها الأهالي أحداثا جديدة وقعت على مسافات بعيدة، هي أخبار لا نستطيع معرفتها نحن إلاّ بعد ثلاثة أو أربعة أيام فيما بعد."[388]

كان أطفال القرى والدواوير ما بين الرابعة والعاشرة من العمر يتجمعون حول "الطالب" يعلّمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ويتكلّف أفراد القبيلة بكلّ ما يسهل معيشته، وتخصص له حجرة أو خيمة كمدرسة. وإذا كان أبناء الفقراء لا يطول بقاؤهم لديه فيتعلمون بعض المبادئ البسيطة، فإنّ أبناء متوسطي الحال يتمكنون من البقاء مدة أطول فيحفظون أحزابا مهمة من القرآن الكريم.

لقد كان هؤلاء "الطُلْبَة" يعيشون، قبل التواجد الفرنسي، كسادة في سعة عيش وشرف، إلاّ أنّ الوضع المزري للجماهير الشعبية جعل البعض منهم يفر بعيدا بعد أن نضبت موارد عيشهم، بالإضافة إلى المضايقات التي يَلْقونها من قبل السلطات الاستعمارية، أمّا من بقي منهم فكان يتحمّل شظف العيش إلى جانب إخوانه من أفراد الشعب الجزائري.

وأخيرا فإن الطرق الصوفية حافظت خلال العهد الاستعماري على الهوية الوطنية، من خلال مواجهتها للعدو الأجنبي في معارك طاحنة قدم فيها الشعب الجزائري النفس والنفيس، ومن خلال احتضانها للغة العربية والدين الإسلامي في المدارس والزوايا في وقت كانت فيه الأوضاع مزرية والأفواه مكممة والحرب معلنة شعواء على كل ما يمت بصلة لأصالة الشعب وهويته الوطنية.

---

[388] المرجع السابق، ص 122.

ثالثا :الشعر الشعبي البطولي ودوره
في وحدة المجتمع الجزائري

ظل الاستعمار الفرنسي في صراع متعدد الأساليب مع قوى الدفاع والمقاومة للشعب الجزائري طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ولم يتمكن من السيطرة على كامل البلاد إلا بعد عقود من النزال غير المتكافئ، ذاق فيها الشعب ألوانا من المظالم والطغيان.

لقد قامت السلطات الفرنسية في الجزائر بالقضاء على المؤسسات الرسمية ابتداء من سنة 1830، لأنها تمثل رمز التواجد الوطني، وتم تتبع زعماء المقاومات الشعبية ورجال الطرق الصوفية والمثقفين الذين كانوا على رأس مقاومة الغزو الاستعماري. وبقيت الجماهير الشعبية بدون نخب سياسية أو ثقافية تقودها وتوجهها، فعمدت إلى المقاومة الذاتية بالالتجاء إلى وجدانها تستلهم منه الزاد للصمود حفاظا على تراث الجماعة وعلى مزاياها وأمجادها.

لقد هَزم الاستعمار الفرنسي المجتمع في المواقع السياسية والعسكرية والاقتصادية على المستويات الرسمية، ولكنه عجز عن إلحاق الهزيمة بالشعب في دائرته النفسية والفكرية على المستويات الشعبية. فقد ظل الشعب متمسكا بأصالته تمسكا غريزيا أصيلا وعنيدا، منكفئا على نفسه حفاظا على الذات، باحثا عن بدائل للمقاومة والصمود، فهو تغيير للمواقع وبحث عن وسائل أخرى أكثر فعالية وأقل تعرضا للقهر والسلب.

والمجتمع الجزائري يتميز بخصوصيات مرتبطة بانتماءاته التاريخية والدينية وبأصالته، وبثقافته الوطنية التي تتعدد مشاربها. ويعتبر المأثور الشعبي، ماديا كان أو معنويا، أحد عناصر هذه المقومات، لأنه رافِدٌ يساهم في صياغة هذه

الثقافة، ويعمل على تأصيلها وتعميق مجراها وتوسيعه. والشعر الشعبي هو أحد أبرز عناصر فنون القول الشعبية خاصة، والمأثور الشعبي عامة.

فما هي خصوصية هذا الشعر وما دوره في وحدة المجتمع الجزائري؟

الشعر الشعبي إذاعة متنقلة :

برز في المرحلة الاستعمارية مبدعون شعبيون عبروا عن آلام الجماعة وآمالها بواسطة الكلمة المنطوقة المعبرة عن الوجدان الشعبي، فبكوا واحتجوا وسخطوا على الأوضاع المزرية التي كان الشعب يعيشها.

وكانت الحكاية والقصيدة أو المقطوعة هي أبرز أنواع فنون القول الشعبية آنذاك. أما الشعر الشعبي فقد رصد مختلف الأحداث التي شهدتها البلاد خلال فترات تاريخية مختلفة، وسجل ذلك في ذاكرة الشعب ينقلها الأفراد من جيل إلى جيل.

وكانت الأوضاع السيئة التي مر بها الشعب، مثلها مثل الأوضاع السارة، موضوعا يعبر عنه الشاعر الشعبي، خاصة بعد أن فقد حريته، "فلم يجد الشعب متنفسا لمكنوناته إلا في القصيدة الشعبية تسير بها الركبان وتتجمع حول رواتها الحلقاتُ، يتغنى بها المداح في كل شِعْب من شِعاب الأرض الجريحة ليضعها ضمادا على شغاف كل قلب مكلوم."[389]

لقد قامت القصيدة الشعبية بدورها في إظهار هموم المجتمع وآلامه وجراحه، معبرة عن قضايا بيئة الشاعر في مشاكلها التي يتصورها المبدع، فهو يعبر عن معاناة المجتمع وما يكابده من جهل وفقر ومرض.

قام الشعر الشعبي إذن بدوره في الدفاع عن حمى البلاد وإبراز البطولات الجزائرية الرافضة لهيمنة المحتل، وهذا منذ الاحتلال سنة 1830 إلى

389 - صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، ش و ن ت، الجزائر، بدون تاريخ، ص:21.

الاستقلال سنة 1962. "فالأدب الجزائري يمكن، منذ البداية، أن نؤكد حضور النص الثوري الشعبي في كل المراحل التي مرت بها مقاومة الشعب الجزائري، وقد عرفت ثوراته المختلفة هذه المقاومة، وهذه الثورات التي نجدها موزعة على أرجاء الوطن."[390]

فــقد سجل الشعراء مقاومة الأمير عبد القادر، وتأسفوا على زعيمها بعد مغادرته البلاد، كمــا تتبعوا مختلف مقاومات الشعب المتتالية أو المتزامنة. وبذلك أصبحت القصيدة المعبر الحقيقي عن جراحات الشعب، مبرزة إياها في ثوب حزين مليء بالدم والدموع، كأنها "أم ثكلى تتوسم ملامح وحيدها في زحمة القتلى .. وترفرف القصيدة الشعبية على هذه المسرحية الدامية، وتُطبق جناحيها لتقع على زواياها الخفية وأبعادها الغائرة لتنقل إليك الملحمة في نبرة حزينة، تستثير منك الحمية الخامدة، وتستفز فيك العزيمة المتهالكة، وذلك أقدس مضمون للمقاومة في محنة قصرت فيها اليد عن السلاح، وتطاولت أساليب الفتك الاستعماري على الشعلة في الأعماق بغية إطفائها، وتكديس أكوام الرماد على وهَجِها.."[391]

إن المقاومات الطويلة الأمد التي خاضها الشعب هنا وهناك طيلة التواجد الاستعماري وبخاصة في القرن التاسع عشر، وما نتج عنها من انتقام واضطهاد، قد هز حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية، كما هز عواطفهم الدينية وضمائرهم هزًا عنيفا، تمثل ذلك في مختلف وسائل تعبيرهم المادية والمعنوية.

لــقد تركــت تلــك المقاومات وما صاحبها من تضحيات، جروحا وأخاديد عميقة في عواطف الـــناس، فكان لا بد أن يفرغوا آلامهم ومواجدهم

---

[390] العربي دحو، بعض النماذج الوطنية في الشعر الأوراسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص:21.

[391] صالح خرفي، المرجع السابق، ص:22.

الداخلية في القصيدة والمقطوعة وغيرها. فكان الشعر إذن وسيلة من وسائل التفريج عنهم، "والحقيقة أن الشعر ببساطته الأخاذة ورقـة معـناه، وبقدرته على الفعل في النفوس والتأثير في الضمائر والوجدان، لعب دورا مهما ومؤثرا، ليس في مواكبة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتطورها وحسب، وإنما في صنع الأحداث، وفي دفع عجلتها وإلهاب وقائعها، وشحن النفوس بالحماس والفعل في هذه الأحداث والانغمار المتحمس فيها..."[392]

إن الشاعر الشعبي في عرضه لموضوع المأساة، لا يكتفي بالمتفرج، بل هو يعطي رأيه موجها ومنبها، رافضا حياة الذل والهوان، داعيا إلى التغيير الثورة، متمردا على الواقع، يرجو حياة أفضل لكل أفراد مجتمعه.

يقـول الشـاعر الشعبي محمد بلخير شاعر مقاومة أولاد سيد الشيخ مثيرا القبيلة للانتقام لجدها الذي أهانته السلطات الفرنسية سنة 1881 بهدم قبته ما يلي:

مَن طْيـاحْ القبة ما بْقَى عـارْ   ولا بْقـى وَاحدْ في السَّادات مَحْرُومْ
أولاد رَحْل البيضَا سَبْـعينْ دُوارْ   ما اعْطاوْا عْلى بُوهُمْ ساعة ولا يُـومْ
لو الْقِيتْ رْفاقَة نْجيبْ عْلِيهْ مَشْوَارْ   ومَا كَانْ شي العَسْكرْ،غيرْ القُومْ في القُومْ
وارْفَاقَة عَنْدي زِيَّـاحْ شُطـَّارْ   والضـَّرْبَة بالطَّعْنَة والسـّكِينْ مَسْمُـومْ.[393]

فالشـاعر يوجه ويحرض، ويشارك في المعارك، وآنذاك يقوم بدورين في آن واحد، يحمل سـلاحين: سـلاح الكلمة وسـلاح اليد، وإذا ما وقع كانت الكارثة كبيرة وكان الجرح عميقا، يـقول الـدوق دورلـيان عن أحد شعراء بلدة حجوط غربي العاصمة: لقد كانت وفاة الشاعر بوثلجة، وهو

---

[392] الفرقاني لحبيب، الأدب والفنون الأمازيغية، مقال في أعمال الدورة الثالثة لجمعية الجامعة الصيفية بأكادير، منشورات عكاظ، من1 إلى 6 غشت 1988.

[393] عن مطبوعة صادرة عن مديرية الثقافة لولاية البيض "مهرجان محمد بلخير الشعبي"، جوان 1988.

أحد فرسان بني حجوط، "خسارة كبيرة بالنسبة إليهم. فقد كان بوثلجة يتجاوب مع ذلك الشعب الثائر الذي يستمد عزيمته من تضحيات أبنائه. كان بوثلجة أصدق تعبيرا من جميع الشعراء لأنه كان أكثر منهم إيمانا. وقد عبر في قصائده الرائعة عن الألم الذي يحز في نفسه، وعن الوطنية التي آمن بها إيمانا صادقا، ولذلك فإن الشبيبة العربية صارت تتناقل أشعاره..."[394]

لقد كان الشعر في طليعة المقاومة بالكلمة والقلم، لأن الشاعر هو ضمير الأمة، مع كلماته يتماهى أبناؤها، وفيها يرون أصدق التعبير عن طموحهم الشخصي ورؤاهم الجماعية، لأنه اكتسب على لسان الشاعر بعدا جديدا يتمثل في الصياغة الفنية من جهة، ومن جهة أخرى في الحقيقة التي يتجاوز بها نطاق الواقع إلى ما هو أبعد وأروع. إلا أن الشعر لا يتناول الحدث بوصفه مستقلا قائما بذاته، أو بوصفه منجزا، وإنما يتناوله بصفته حركة وسيرورة، أي بوصفه حدثا رمزا. فالقصيدة لا تكون حركية بموضوعها، بل بدلالاتها وخصوصياتها التعبيرية.

وقد تتعدد المواضيع داخل القصيدة الواحدة، إذ لا يُخضِع الشاعر الشعبي نفسه لأية خطة مسطرة، أو فكرة محددة، بل إن قصائده هي أقرب إلى الارتجال منها إلى النظم الجاهز. ورغم أنه كان يعتمد في كثير من الأحيان على تفرعات ثقافية محلية، لكنه رغم ذلك كان نواة أولى لا تني تتطور في اتجاه تعميمي شمولي. فهو يتبنى كلام القرية وجماهير الشعب بكل فئاته المقهورة السلبية، ويستعير أدوات عمل الناس ووسائل عيشهم.

ولذلك يمكننا القول إنه كان معبرا عن ثقافة وطنية أصيلة قائمة على نزوع اجتماعي متزايد نحو الوحدة الشعبية في إطار الوطن والمجتمع. لقد كان

---

[394] مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 88.

التواجد الاستعماري في كامل أنحاء الوطن عامل وحدة شعبية برزت في الإبداع الشعبي الذي واكب تحركات الجماهير هنا وهناك معبرا عن مآسيها وآلاماها وأمالها.

نماذج من البطولات الشعبية:

لـــقد خلقـــت فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر أبطالا رفضوا الظلم والاستغلال "وقاموا بسلسلة من الأعمال البطولية لفتت إليهم الأنظار، فناصرهم الشعب وشد أزرهم، وعلى مر الأيام خلق منهم أبـــطالا بـــارزين، بما نسج حولهم من أعـــمال خارقة، ووضعهم في إطار عجيب يمارسون فـــيه بطولاتهم."[395]

من هؤلاء الأبطال من قاد حركات شعبية مسلحة خلدها التاريخ الرسمي إلى جانب التاريخ الشعبي كالأمير عبد الأمير والشيخ بوزيان والمقراني وبومعزة و بوعمامة وغيرهم.

ومـــنهم مـــن غمرهم التاريخ الرسمي وانفردت الذاكرة الشعبية بذكرهم، وتداول الناس مغامراتهم الخاصة، وهم ممن رفض السيطرة الفرنسية الاستعمارية أو فر من التجنيد، قاوموا الاستعمار وأعوانه بإمكانياتهم المحدودة، ولا تخلوا من هؤلاء أية منطقة من مناطق الوطن.

النموذج الأول:

أما الطائفة الأولى فهم زعماء الكفاح المسلح في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، الذيـــن قـــاوموا التوسع الاستعماري، وقادوا الجماهير الشعبية سنين أو شهورا، ذاقوا فيها التشرد والبؤس، وصمدوا صمود الجبال إلى نهاية سني حياتهم أو إلى حين القبض عليهم. وقد شارك في ذلك مختلف أفراد المجتمع،

---

[395] عبد القادر خليفي، القصص الشعبي في منطقة عين الصفراء، رسالة ماجستير نوقشـــت بمعهد الثقافة الشعبية،1990/1991، ص:95.

فعبر الجميع بذلك "عن وطنيتهم بالمحاربة وحمل السلاح. وسلوكهم هذا لا يرجع إلى غريزة المحافظة على الذات فحسب ... بـــل يرجع كذلك إلى الروح الجماعية التي امتزجت فيها القومية والروحية والأخلاقية."[396]

إنها الروح التي تربط بعضهم ببعض، والتي من أجلها حاربوا للدفاع عن الأرض وعن التراب الوطني في آن واحد. وكان الأمير عبد القادر، الذي سيطر على حوالي ثلثي البلاد آنذاك، أبرز أولئك الأبطال، والذي كبد العدو أفدح الخسائر وفرض عليه تغيير تقنيات حربه.

وعـــندما أُنهكت قوى الشعب تأثر الأمير بذلك، و"بدأت قصة الأمير البطل، ذلك الرجل المطارَد، الذي عجزت السلطات عن القبض عليه، وأعجزَ البحثُ عنه جيشا يعد أقوى الجيوش في أوربا. كتب أحدهم للماريشال دي كاستيلان قائلا: "هل يشرفنا في شيء أن نرى جيشا، يتألف من تسعين ألف جندي، عاجزا عن القبض على مناضل يقود خمسمائة فارس؟"[397]

إن مثل هذه البطولة لجديرة بالإكبار والتقدير وبالبقاء والخلود في دنيا الناس. والأمير هو واحد من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وسجلوا بأعمالهم وفروسيتهم في ميادين النضال أبرز آيات الشهامة والفداء.

لقـــد انتقلت أخبار هؤلاء من مكان إلى آخر، يتلقفها الناس بكل رغبة وشوق، ونسجت حولهم الحكايات والقصائد والمقطوعات الشعرية، تروي بطولة الرجال في ميدان المعارك، فتُعلي من شأنهم وتبكي رحيلهم وهجرتهم للأوطان، وتحتج على أوضاع الناس المأساوية، وتشهّر بأعوان الاستعمار، وتتوق إلى استعادة المجد الغابر والحرية المسلوبة.

---

[396] مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص: 76.

[397] مصطفى الأشرف، المرجع نفسه، ص: 118.

من ذلك قول الشاعر بن صحراوي في الأمير عبد القادر:

ابن مُحي الدّين رَايَــسْ ذَاكْ الجيْش الزِّينْ
زَهوْ الدَّارَيــنْ واعْطَاهُــمْ رَبّ العَالَــمِينْ
فارسْ الاَعْرَابْ بَالــسَيف يْقَلــّبْ تقْلاَبْ
قَاطــعْ الاَرْقَاب لْقَــوْمْ النّصْــرانيــة.[398]

أما عن هجرته ومنفاه فيقول الشاعر الشعبي معبرا عن حبه ووفائه للأمير ما يلي:

رَكْبُوا فْلوكْ التعْوَامْ في بْــحُـــورْ الظــلاَمْ
راحُو لاَرْضْ الشامْ
قَادَرْ حاكَمْ الاَحكَامْ يرْجْعُــوا بالتّْــمَـــامْ
ذو الجلال والإكْــرامْ
تنْزَلْ مَنْزَلْ الاَكْرَامْ بَالطْــبَــلْ وَالعْــلامْ
تَخزِي مَنْهُمْ اللــّئَامْ يغّــرْقُوا في الهْمومْ.[399]

ومن ذلك قول الشاعر الشعبي محمد ليشاني عن حركة الشيخ بوزيان زعيم مقاومة الزعاطشة سنة 1849:

هذا الرومي جار عْلِينَا يــْـدوّرْ يَرْفَــدْ بــوزيــان
بــوزيان رَاهْ وَاعَــرْ ما هُو شــي مَهْمُول لَلْخزْيَانْ
عَنْدهْ ضَرْبْ في الشانَة واهْــلَهْ كامــلْ شَجْــعَــانْ
غِيرْ اللي رَاشقْ زْوِيجَة طبْنجَة بَالفَضّة والمْرْجــَانْ.[400]

---

[398] التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، ش و ن ت، الجزائر، 1983، ص:134.

[399] التلي بن الشيخ، المرجع نفسه، ص:153.

[400] جلول يلس والحفناوي، المرجع السابق، ص:17.

ويحذر الشاعر الشعبي المذكور الناس من الركون إلى العدو وخدمة أهدافه فيقول:

يا لأَسْلاَمْ خسَارَة عْليكُمْ اتْبْعُوا اوْلاَدْ جْوَانْ ؟
كُلْ وَاحَدْ يْقُولْ نَغْنَمْ والغْنِيمَة سَهْمْ القُومَانْ
يَلْعَنْ الدنْيَا الخَدّاعَة خَوّانَة لاَ تَعْطِي الاَمَانْ

وعن مقاومة محمد بوخنتاش في منطقة الحضنة والمسيلة سنة 1860 يقول أحد الشعراء المجهولين مايلي:

يا راعي المَلْحُومْ ريّضْ امْهَلْ لي وْعَوْدَكْ مَنْ الاَبْعَادْ جَا، عَرْقة يُقْطَرْ
تَعْلَمْني ما صارْ في الحَضْنِيَّة فيما بيْن الناصْرَة وَاوْلاَدْ اعْمُرْ

وعن مقاومة الشيخ بوعمامة سنة (1881)، نورد مقطوعات شعرية تتغنى بها النسوة في تجمعاتهن المختلفة بمنطقة القصور بالجنوب الغربي الجزائري تَذْكُرنَ بطولاته وانتصاراته، منها ما يلي:

الشيخ بوعمامة حَرَّك تَحْريكْتين طَيَّحْ مائتين
الشيخ بوعمامة حَرّكْ تَحْريكْتَيْن نَشْهُم كي الذّبّان
الشيخ بوعمامة ياهَرّاسْ القَرُونْ وْيَا دَمّارْ العَدْيَانْ

ومنها أيضا:

حَطْ الْخَزْنَة في بْلاَدَهْ وْجابْ القُرطاسْ يْجاهدْ بِهْ
خاذِي شَاوْها وْيَلْغَى يْعَيّطْ بَاجْهَادْ وَلْدْ بَنْ التاجْ

وفي قول شاعر مجهول:

أنا نَبْغِي نْسَالْكُمْ يا فُرْسَانْ كانْ رَاكُمْ زيَّارْ لَلشيخْ بوعمامة
راكَبْ سَرْتِي نْمثْلَهْ لَلسَّرْحَانْ غَيْ مْرَقّمْ مَهْدي لَلشيخ بوعمامة.[401]

[401] جمع ميداني من منطقة عين الصفراء والأبيض سيد الشيخ.

لقد زرع زعماء المقاومات الشعبية في الناس حب الوطن وجددوا فيهم الأمل المفقود، فلم يفقدوه، وردد الناس ذكرى الأبطال في حكاياهم وأشعارهم تسليًا بهم في انتظار عودة الحرية والسلم والطمأنينة.

النموذج الثاني:

أمـــا النموذج الثاني فيتمثل في نوع آخر من الرجال، هم أفراد وليسوا جماعة، لم يقودوا أحدا، ولكنهم فعلوا ما كان يتمنى فعله كل فرد في المجتمع، لقد عبروا عن تَوْقِهِم إلى الحرية، تلك الكلمة المحبوبة الغائبة، فناصرهم الجماهير الشعبية وجدانيا، بعد أن وجدت فيهم ضميرها الغائب.

لـــقد رفض هؤلاء أوضاع شعبهم الأليمة من فقر وخوف واضطهاد، فتمردوا واعتزلوا مجتمع الناس، واتجهوا نحو الجبال، وحملوا السلاح ضد العدو، الذي كانت لهم معه صولات وجولات، وارتبط كل بطل بجبل بعينه،[402] وأصبح البطل الإنسان والجبل الشيء رمزان للقوة والمَنَعَة وللرفض والإباء، مثلما كان دائما ملجأ للأحرار، ضد الغزو الأجنبي كالروماني والبيزنطي وغيرهما، وانتقل هذا الرمز إلى عهد الثورة التحريرية، حيث أصبح يقال لكل من التحق بالثورة أنه "طْلَعْ للجبَلْ".

وقـــد وقفت الجماهير الشعبية إلى جانب هؤلاء الفرسان تحميهم وتموهم، وتغالط السلطات الاستعمارية في عدم البوح بأماكن تواجدهم. هذه السلطات التي كانت تبذل المستحيل للقبض عليهم، من تجنيد لقواها الضخمة ومساعدة أعوانها المارقين عن أهداف الشعب، كما عرضت المكافآت المالية لكل من يدل

---

[402] سمّى الناس البطل محمد ولد علي، المتمرد على السلطات الفرنسية بمنطقة عين الصفراء 1881–1901، بـــ "سلطان الجبل"، عن: -De La Martiniére et la croix : Document pour servir à l'étude du nord ouest africain, gouvernement général de l'Algérie, A.jourdan, Alger1897 ;Tome :2, P:287.

على هؤلاء أو يأتيها بهم أحياء أو أمواتا. لذلك فإن أعمالهم بحد ذاتها "لم تكن هي التي تزعج السلطات الاستعمارية، بقدر الحماية التي كانوا يحظون بها من قبل المجموعات الفلاحية."[403]

لـــقد اتخذ وجودهم وأعمالهم حجما جديدا في مواجهة الدولة الاستعمارية، التي تَحدّوها ورفضوا عمليا شرعيتها، وساندتهم جماهير الشعب التي رأت في أعمالهم تأكيدا لرفضها المتشبث والعاجز، و"للتأكيد على ديمومتهم عبر تاريخ يواصل انحرافه، رغم تفتت بُناهم الأساسية".[404] لقد اعتبرتهم السلطات الاستعمارية خارجين عن القانون وقطاع طرق، ولكنهم في واقع الأمر، كانوا رجالا عبروا بطريقة مباشرة وعملية عن المجتمع الجزائري، الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار والقهر، إذ كانت أهدافهم المفضلة هي أعداء الشعب المباشرون، وكانت المبارزة بين السلطة الاستعمارية وفرسان القمم.

مـــن هؤلاء، البطل الشعبي بوزيان القلعي من منطقة معسكر (1863-1876) الذي التجأ إلى الجبال فرارا من الظلم الاستعماري بعد أن رفض دفع الضريبة الظالمة، وتعرض للضرب من قبل قائد القبيلة، ممثل السلطات الاستعمارية محليا. وأصبح خارجا عن القانون في العرف الاستعماري، فحولته مغامراته إلى بطل شعبي، وأصبح أحد "مقومي الأخطاء التي كانت تعاني منها المجتمعات الفلاحية."[405]

أورد الأستاذ عبد القادر جغلول قصيدة حول بوزيان القلعي جاءت بلغة فصيحة بعد ترجمتها من اللغة الفرنسية، وراوي القصيدة هو (س.م.هـــ، 70 سنة من منطقة بني شقران سنة1976)، والقصيدة تذكر بوزيان القلعي

---

[403] عبد القادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ص:177.
[404] عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص:176.
[405] نفسه، ص:177.

وتعلي من شأنه بعد أن تم القبض عليه من قبل السلطات الفرنسية، وهاهي بعض المقاطع:

مـــاذا فعل القلعي وماذا فعل السلطان؟

أتباعه هم رجاله الشرفاء والمتدينون وفرسان حقيقيون

لقد أصبح بن القلعي شهيرا في البلاد برمتها.

وتتحدث القصيدة عن قصة أسره وعن مرضه الذي استغله البعض للوشاية به، بعد أن التجأ إليهم، وذلك كالتالي:

بعد أن أحرقته الحمى وأضعفته

أحس أنه أصبح عاجزا

.. لم يكن لونه الشاحب جميلا

فنصب له الآخر فخا، إذ دل عليه قاتليه

الذين قال لهم الحقيقة كاملة

قال: الشخص الشهير عندي

ولن يتمكن من الفرار إلى أي مكان

فهو تعب منهك وأعضاؤه مزعزعة.

إلى أن يقول الشاعر:

وأتى الجنود يأخذون المواطن

كم هو حزين ومشؤوم ذلك اليوم

فالآلام التي عانى منها وتحملها

كان بإمكانها أن تدوخ أجمل الأسود

لم يتمكن من الانتصار عليها بمفرده

لو كان في حالته الطبيعية

لما تجرأ خصم على الاقتراب منه.

ويدعو الشاعر على صاحب المكيدة ويقول:

يا إلهي اهلك بن يوسف بالجوع والعطش

وبعد الرخاء اجعل منه متسولا.[406]

لقد ارتبط هؤلاء الشعراء بشعبهم ووطنهم وعقيدتهم فرصدوا تحركات الأبطال لأنهم تمردوا على السلطة الظالمة، وتغنى الناس ببطولاتهم. يذكر العربي دحو مجموعة منهم اشتهروا بمنطقة الأوراس قبل الثورة التحريرية كالسعيد بن زلماط أو مسعود وبن رحايل حسين وغيرهم، ويقول: "أما بن زلماط المدعو بن نجاعي السعيد (1917-1921) فقد خلده النص الشعبي فعلا، وأصبح هذا النص متوارثا بين الأجيال، حيت خصه المغني المحلي عيسى الجرموني بأغنية مسجلة في الأسطوانة ما تزال إلى اليوم تتردد على الألسنة والشفاه."[407]

وهاهو نموذج اخر من نماذج التمرد والتشرد، إنه سي مُحَنْدْ أومُحَنْدْ (1845-1906) الذي ولد في ريف منطقة القبائل، قُتل أبوه في مقاومة 1871، وتشتتت عائلته من آيت حمادوش، فأصبح شاعرا متشردا، ينتقل من مكان إلى آخر، ينشر كلماته هنا وهناك، قد صنع لنفسه شعبية واسعة، لأنه عبر عن التشرد الجماعي من خلال تشرده الشخصي، وبذلك التقى مصيره بالمصير الجماعي للشعب المقهور..

لقد أعقب مقاومة المقراني سنة 1871 عقاب رهيب للسكان، فقد "هدف القمع إلى إحداث تأثير إرهابي، من شأنه إخضاع الأهلين نهائيا، ولكنه هدف أيضا إلى توفير أراض وأموال للاستيطان."[408] فالغرامات المالية

---

[406] المرجع السابق ، 180و181.

[407] العربي دحو، المرجع السابق، ص: 28.

[408] شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ص: 28.

الباهضة ومصادرة الأملاك وتطبيق قانون المسؤولية الجماعية، ومعاقبة المقاومين الثائرين بالسجن والنفي، كل ذلك كانت له آثار وخيمة على الشعب الجزائري، وكان الدمار لمعظم القبائل.

يـــقول المؤرخ الفرنسي شار روبير أجيرون: "إن انتفاضة 1871 لم تكن مقدمة، لكنها الأصل والسبب لسياسة التسلط التي أعقبتها."[409]

لـــقد كان سي مُحَنْدْ أومُحَنْد ابنا لعائلة ميسورة، ولكنها تشردت بعد أن سُلبت منها أملاكها وحل محلها قوم آخرون، وها هو يحن إلى ماضيه فيقول:

وآسفاه أين الزمن الماضي؟
حيث كنت أنعم بالخيرات
مشهور بين القبائل.

ويعبر بكلامه عن حركة التفكيك التي أصيب بها المجتمع الجزائري اجتماعيا وثقافيا فيقول:

نحن في القرن الرابع عشر
وقد انتهى الثالث عشر
أصغ أيها الفكر النبيه وافهمني
إن الدخلاء ازدهروا، ويتكلمون عاليا
وضاع اسم الأسياد
اليوم ينصرفون إلى حب الصبيان
الناس بلا إيمان ولا قانون

وعن الغالب والمغلوب والاستنجاد بالصالحين يقول:

---

[409] أنظر: Charles Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et La France, P/57.

البلاد مقلوبة برمتها
يعيش فيها الأوغاد الأقوياء
أيها النساك هلموا إلى نجدتنا
نحن كلنا حيارى
إذا لم يسعفنا القديسون
العالم انفجر للجميع
هذه حقيقة ثابتة جيدا
لقد غير الرعاع سلوكهم
وكل الرجال ذوي الأصول
ضاعوا في الغابات
عراة دون لباس
هكذا أراد الله هذا العصر... [410]

وحدة المجتمع في وحدة الشعور:

لقد سجلت الكلمة الشفوية ونقلت كل كبيرة وصغيرة في دنيا الناس، وتولد عن كل حدث حكاية أو شكوى ينقلها الشعراء من مكان إلى آخر، تنقلها الركبان وتتلقفها الأذهان عن الوضع المأساوي الذي تعيشه الجماهير الشعبية من شرقها إلى غربها وتتفاعل معه.

بذل الاستعمار محاولات عديدة في أزمة مختلفة للاستقرار في هذه المنطقة، وحاول أن يوظف عصبيات متناظرة، وتعمد بوعي وإصرار القضاء على عناصر ثقافية تؤكد أصالتنا ومكانتنا من التاريخ والحضارة، لكن تلك

[410] عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص ص: 128-130-132.

المحاولات لم تنجح، وظلت جماهير الشعب متماسكة فيما بينها، تماسكا غريزيا أصيلا، يحرسها الضمير الشعبي الذي كان "يرفض أية محاولة للفصل أو التجزئة منذ القديم، وحاول أن ينظر باستمرار نظرته إلى وطن واحد يشترك في الهموم والمسؤولية كما يشترك في المصير والتبعية."[411]

لـــقد توحد الشعور الجمعي بتوحد الآلام والآمال، وارتبط أفراد المجتمع بعضه ببعض متحديا سياسة الاستعمار، الذي كان يعمل على كبت الحريات وتفريق الشمل وزرع الشقاق وإحياء النعرات.

وكانت القصائد -عندما تمدح أبطال الكفاح وتبكي رحيلهم وتستعرض المآسي والمظالم في انتظار بطل آت ينقذ المستضعفين- قد أدت دورا تعبويا ورعاية للقضية الوطنية بطريقة غير مباشرة لتقوية إيمان المترددين والسخرية من المتخاذلين.

وقد نبع الشعور الوطني من روح إسلامية أصيلة، واعتزاز كبير بحب الوطن، وامتزج ذلك في وحدة متكاملة، هي التي يؤمن بها الشاعر الشعبي، امتدادا لرسالة الإسلام التي حققها المسلمون الأوائل، مما يضفي عليها قدسية في سبيل الحرية والكرامة ويحفز الإنسان للإصرار على تحقيق النصر.

لقد خلقت القصيدة الشعبية جوا من الوحدة في أوساط الجماهير الشعبية، والتقت عواطف الناس في آمالهم وآلامهم من خلال ذلك التواصل، وقامت فنون القول الشعبية بذلك الدور أحسن قيام في غياب المؤسسات الوطنية الرسمية.

---

[411] فاروق خورشيد، الأدب الشعبي والوحدة للعربية، المجلة العربية للثقافة، العدد: 28، مارس 1995.

كـــانت البيئة المادية والمعنوية واحدة أو متشابهة إلى حد كبير، وكانت الإندماجات متصلة بين مختلف الجهات، فمن الطبيعي أن تظهر آثارها الموحدة أو المتشابهة في مختلف فنون القول الشعبية. وإذ أصبح الشعب وحدة متشابهة الحياة والوسائل والأهداف تدعمت وحدة الفكر والخيال في القطر كله.

وقد استغل مفجرو الثورة التحريرية 1954-1962 هذا الفن الأدبي الشفوي، فراحوا يوقظون الجماهير ويعبئونها من أجل اليوم الموعود. وبذلك أدت فنون القول الشعبية وفي مقدمتها القصيدة دورا رائدا في مجال الاستعداد للثورة التحريرية، وتوحيد الشعب تحت قيادة جبهة التحرير الوطني، لأن الانتماء انتماء وجدانيا، متأصلا في قلوب أبناء هذا الوطن الذين تضامنوا للدفاع عن وحدتهم وسلامة أراضيهم.

رابعا :مقاومة المقراني في الشعر الشعبي

شهد القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حركات مقاومة مسلحة لمواجهة الاستعمار الفرنسي وأساليبه التعسفية في التعامل مع الجزائريين أبناء البلاد الشرعيين، فقد اضطهدهم وحاربهم وعزلهم واستولى على ممتلكاتهم وداس على مقدساتهم، وجعل منهم طبقة تخدم الفرنسيين فحسب.

وقد صحب هذا النضال المسلح نضال آخر بالكلمة الشفوية المعبرة عن رفض الاستغلال والقهر والاحتقار. لقد لجأت الجماهير الشعبية إلى وجدانها تستنهضه وتستقي منه الصبر والاستمرارية. وجعلت من التغني ببطولات الأبطال وصولاتهم في ميادين القتال بَلسماً يُبقي على شخصيتها وهويتها المتأصلة. وكان الشعر الشعبي أحد أبرز مظاهر التعبير الشعبي لدى الجماهير المقهورة.

ظل الشعر الشعبي في المرحلة الاستعمارية الإذاعة الشعبية المتنقلة بين أفواه الجزائريين، يرصد كل كبيرة وصغيرة من حياة الناس، ذلك أن "الأدب الشعبي هو التعبير الصادق الناصع عن الحياة في بساطتها وتلقائيتها وعفويتها وواقعيتها، لذلك تراه يتجاوب مع الأحداث الكبرى في التاريخ فيسارع إلى تسجيلها، بل يبادر إلى تخليدها."[412]

لم يكتف الشاعر الشعبي بالبكاء على الأطلال والنوح على المآثر، ولكنه كان يزرع الأمل في النفوس. فهو عندما يستعيد ذكريات الأبطال إنما ليثير حماس الجماهير الشعبية لتعمل على منوالهم، فتهب لنصرة المظلوم واستعادة الحق

[412] عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2003، ص:81.

المهضوم، مما جعله يقوم بدور هام "في استمرار الوجود الاجتماعي والحضاري والثقافي للشعب الجزائري، وذلك بتمجيد البطولات والدفاع عن الإسلام وترسيخ العادات وتأريخ الحوادث وإثارة الحس الوطني والعزة القومية والدفاع عن الإسلام والوطن، وربط الشعب بمنابعه الثقافية والروحية في وجه حملات المحو الشامل ومحاولات الإدماج."[413]

كانت الفترة الاستعمارية 1830-1962 مرحلة ازدهرت فيها مختلف فنون القول الشعبية وبخاصة منها الشعر الشعبي، في الوقت الذي غابت فيه الثقافة الرسمية، لأن السلطات الفرنسية أغلقت المدارس وتابعت المعلمين، فاضطر بعض هؤلاء إلى الهجرة مشرقا أو مغربا؛ فلم يبق أمام جماهير الشعب الجزائري بعد غياب نخبها المتعلمة سوى الكلمة الشفوية المتحررة من كل رقابة، تنتقل من مكان إلى مكان، تعبر عما يكابده أفراد الشعب الجزائري من ظلم وقهر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي.

لقد تغنى الشعراء بأبطال الشعب الذين أبلوا البلاء الحسن في ميادين الجهاد، وحاولوا استعادة ذكراهم بواسطة الشعر الشعبي، فأبدع الشعراء قصائد عديدة عن مختلف هؤلاء الزعماء الذين قادوا الشعب زمنا أحس فيه الشعب آنذاك بأنه موجود وأن له الكلمة الفصل في كثير من الأحيان.

ومن هؤلاء الزعماء الذين خلدهم الشعر الشعبي، والفصيح أيضا، نجد الأمير عبد القادر وبومعزة وبوعمامة وبوزيان ولالة فاطمة نسومر وغيرهم.

وقد احتل المقراني -باعتباره مجاهداً في نظر الجماهير الشعبية- مكانة هامة في القصائد الشعرية، كغيره من أبطال المقاومة والفداء. فلم يشذ عن

---

413 عمار بلحسن، الأدب الشعبي، من مطبوعات مديرية الثقافة بولاية البيض السابقة الذكر، ص24.

القاعدة، وخلده الشعراء هو أيضا، وسنتناول قصيدتين في هذا المجال وردت إحداهما باللهجة القبائلية والأخرى بالعربية العامية.

أما القصيدة الأولى فهي لُمحَند موسى من آيت واقنون، يستعيد فيها الشاعر الشعبي ذكرى البطل المقراني ويبين بطولته فيقول:

الحاج محمد أيَث مقران	الحاج محمد المقراني
ذا قور قَرْ يَثرانْ	قمر بين النجوم
ثغابَذْ آسْبَع أرَمْلي	غبت يا أسد الرمال
يوسَد سو أمْ لْويزْ	يا صاحب أسنان الجوهر
يَرْفذ أُو طاغونْ	الحامل للبندقية
أفو عَوْذيوْ يِقسّالي...	على حصان يلعب
أيْراذ يَغلي ذي الخزْنة	سقط الأسد في الفخ
باشاغا أورْيبان	اختفى الباشاغا
أقَلاغ ذي لاخرَنْ زْمان	نحن في آخر الزمان
أرزَنْ آيث موقْرانْ	سقط آل المقراني
ثغْلِي ذرية نْ محمد عَلِي..	دُمرت سلالة محمد علي...
سْفعْ يَسّذَرْ إوَلْنِيسْ	أطرق الأسد برأسه
يغَلْفِيتْ يِفيسْ	أمام الضباع المنتصرة
ذَقْمِي إيَعْجْزاسْ لَكْلامْ	جَمُدت الكلمات في فمه
ذَنْفَخْ يَغْليذْ أفَلْخَلْقيسْ	انتشرت المقاومة في كل الجهات
أورْ نَفهِمْ لامْريسْ	لا أحد يستطيع القول
ثامورث أُوكْ مِي ذِمْحاقامْ	كيف انتفضت كل البلاد
سي بودواو أرْمي ذو ذْريسْ	من بودواو حتى أودريس
ذي أيث وَغليس	وحتى آيت وَغْليس وراء الجبال

سي برج بوعريريج آرْلْخْمامْ		من بوعريريج حتى ميتـــلي
يَسَرْسَغْ أُوكْ ذيسيقّسْ		حجــزت كــل أراضينـــا
يَرْنـــا لَخْمــوســيسْ		كجزء من المبلـــغ المفـــروض
يَقضَعْ ثاخْفيزَثْ إينَسْــلمْ..		أصبح المسلمون فقراء....[414]

من استعراض أبيات هذه القصيدة تتضح لنا عدة ملاحظات منها:

1-يتغنى الشاعر بالبطل فيصفه بالقمر الساطع بأنواره بين النجوم، يخترق حجب الليل فيضيء دروب الأرض ليهتدي به الساري ويتأسى به الساهر.

والبطل المقراني كان نجما ساطعا حين تزعم المقاومة الشعبية فأضاء ليل الاستعمار بشجاعته وبسيفه، بعد أن اخترق صفوف العدو مثبتا أن الشعب حي يرفض الضيم والمهانة ولا يبغي عن الحرية بديلا.

والمقراني أسد هذه التربة الطيبة التي تمد الناس بالحياة، غاب إلى الأبد وتركها بيد العدو المتسلط الظالم. لقد وقع الأسد في فخ المستعمر ولا مجال للحركة. ويميل الشاعر إلى وصف المقراني الرجل فيذكر صفاتٍ ومزايا فيه جميلة مثل: صاحب أسنان الجوهر والحامل للبندقية وهو على حصان يلعب. فالشاعر يصف البطل بصفة مجسدة بارزة، وأن النظر إليه محبب وليس منفرا(صاحب أسنان الجوهر).

وهذا ما نجده عند بطل جزائري آخر من زعماء المقاومة الشعبية، هو الشيخ بوعمامة صاحب مقاومة سنة 1881 بالمنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر؛ حيث يصفه الشاعر الشعبي بصفات جميلة فيقول:

راهْ دارْ الكابوسْ فوق الخيدوس		بوعْمامة وَلْدْ سِيدْ الشيخ

---

[414] أنظر: -Mouloud Mammeri, Poèmes Kabyles anciens. François Maspéro, Paris 1980. PP/441-447.

عينه كَحْـــلة بَالْهــوا يَرْفَـــدْها بوعمامة ولد سيد الشيخ
نـــتاعْ القادَة والخْـــدَمْ هْـــدِيَّة بوعمامة ولد سيد الشيخ.[415]

فالبطل ليس آلة تقتل الأعداء فقط ولكنه بشر من لحم ودم، له صفات وسلوك وهيئة وهيبة، إلا أنه في كل ذلك يحتل أعلى المراتب وأرقاها.

أما عبارة الحامل للبندقية- على حصان يلعب، فهي تلائم موقفين:
الموقف الأول والبطل في وضع حربي يقاتل الأعداء فيصول ويجول هنا وهناك يمنة ويسرة قدام ووراء ليقطع رقاب هؤلاء ببطولة وشجاعة، يلقنهم دروس النزال والفروسية.

والموقف الثاني وهو في وضع سلمي حين يشارك بحصانه في ألعاب الفروسية بين أقرانه في مناسبات الأفراح كالأعراس وإقامة المواسم، وهي عادة مغاربية تسمى "الفانطازيا" باللغة الأجنبية.

وكلا الموقفين فيه بروز للبطل لأنه في العلو والسمو، ولأن حمل البندقية وركوب الحصان بروز مادي ومعنوي في الوقت نفسه.

وهو عندما يركب الجواد إنما يركب رفيقا وفيا ومساعدا أمينا، لأن الخيل من أعز ما يملك البدو وسكان الأرياف، فهم يعتزون بامتلاكها وركوبها والمشاركة بها في ألعاب الفروسية أو مقارعة الأعداء. يقول حمدان خوجة عن ذلك في كتابه المرآة: "هؤلاء السكان يحبون الخيل حبا جنونيا ولا يفكرون إلا في مضاعفة أعدادها، وهم يفرقون بين أنواعها... ولكن أحسن الأنواع، أي الجياد، فإنها للسباق والحرب ولا تباع إلا نادرا."[416]

---

[415] أنظر: عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، ص: 650 من الملحق.

[416] حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، دار الكتاب العربي، بيروت 1982، ص: 72.

لقد كان الجزائريون فرسانا صناديد وهم على ظهور خيولهم، أكدها العدو قبل الصديق، وهاهو الجنرال بيجو يقول ما يلي: "إن العرب –يقصد الجزائريين- محاربون جميعا، ولا يمكن أن يوجد عربي واحد لا يتقن ركوب الجياد. وهم يمتلكون جميعهم الجياد والبنادق، وكلهم محاربون من الشيخ ذي الثمانين عاما حتى الفتى ذي الخمسة عشر عاما."[417]

وعندما يسقط البطل أو يغيب عن أتباعه بالموت أو الاعتقال أو الهجرة، يبكيه الناس فيعبر الشاعر عن ذلك في قصائده. وهكذا يأسف الشاعر الشعبي محند موسى على غياب البطل المقراني على إثر مقتله في ساحة الوغى، ويصل به الأمر إلى حالة من اليأس والقنوط فيَعتبر ذلك نهاية الزمان في قوله: "نحن في آخر الزمان، سقط آل المقراني." وذلك بعد أن انكسرت شوكة المقراني سنة 1871 ثم تبعه أخوه بومزراق فيما بعد، والذي كان قد خلفه، ولكنه لقِي المصير نفسه؛ حيث تم القبض عليه في السنة الموالية لاندلاع المقاومة، أي سنة 1872 من قبل السلطات الفرنسية.

لقد قاست الجماهير الشعبية الظلم والقهر بعد غياب بطلها فوجدت في أخبار انتصاراته تأمين لحاجاتها النفسية وتحقيق لرغباتها الفردية والجماعية في القوة والانتصار والتي غابت عنها منذ مدة.

ويُلحِق الشاعر بذلك قوله: "دُمِّرت سلالة محمد علي." ومحمد علي هو حاكم مصر بين سنة 1811 و1849،[418] والذي استطاع التحكم في هذا البلد بكل قوة أمام أطماع الدول الأوروبية آنذاك.

---

[417] فرحات عباس، الثورة الجزائرية أو ليل الاستعمار، ترجمة وليم خوري، دار الكتب الوطنية، دمشق 1964، ص: 60.

[418] جاء محمد علي إلى مصر حوالي سنة 1799 في عهد السلطان العثماني سليم الثالث، وكان محمد علي ضمن الجيش العثماني الذي ذهب لحرب الفرنسيين الذين غزوا البلاد المصرية سنة 1798 في عهد نابليون ، وقد تمكن الجيش العثماني من هزيمة الفرنسيين وأبلى

ولكن ما وجه الشبه بين المقراني زعيم حركة 1871 بالجزائر ومحمد عَلي حاكم مصر؟ لاشك أن الشاعر كان على علم بأحداث مصر عن طريق الحجاج والرحالة وغيرهم ممن يتجهون نحو المشرق ويعودون منه. وتشبيه الشاعر لآل المقراني بآل محمد عَلي يتوافق مع ما لحق بكل منهما من أذى، فآل المقراني سقطوا بأيدي الفرنسيين، ومحمد علي –بعد توسعاته في المشرق– أُرغم على توقيع معاهدة لندن سنة 1840 وفرمان 1841 اللتان تخدمان مصالح الدول الأوروبية على حساب مصر. مما أدى إلى الحد من التوسع المصري في بلاد الشام والجزيرة العربية وحصره في مصر، وقد أُجبر محمد علي على احترام الاتفاقيات المبرمة بين الدول الأوربية والدولة العثمانية وتطبيق بنودها. والمعروف أن الدولة العثمانية كانت في حالة كبيرة من الضعف والاستكانة في مواجهة أطماع الأوربيين الذين تمكنوا من الحصول على امتيازات واسعة في البلاد العثمانية الإسلامية.[419]

أما منطقة القبائل خاصة، والمناطق المناصرة لحركة المقراني عامة، فقد أُخْضِعت هي أيضا، بعد القضاء على المقاومة، لشروط وعقوبات كبيرة كانت كارثة على المنطقة وعلى مستقبل الجزائر. يقول المؤرخ الفرنسي المعاصر أجيرون في هذا الصدد: "إن انتفاضة 1871 لم تكن مقدّمة، لكنها الأصل

محمد علي البلاء الحسن في المعارك ضد الفرنسيين الذين غادروا البلاد سنة 1801، مما جعل الباب العالي يعينه واليا على مصر في أبريل سنة 1806، إلا أنه لم يتمكن من حكم البلاد كلها سوى سنة 1811 بعد قضائه على بقية المماليك الذين كانوا ما يزالون يحكمون مصر العليا، وقد قضى عليهم في شهر مارس من سنة 1811 على إثر مكيدة دبرها لهم.

[419] أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق 2003، ص:138.

والسبب لسياسة التسلط التي أعقبتها."[420] والشاعر نفسه يوضح ذلك في قوله:
حجزت أراضينا- كجزء من الضريبة المفروضة- أصبح الناس فقراء.

ويعود الشاعر الشعبي إلى الحديث عن المقاومة مذكرا بالتفاف الجزائريين حول هذه الحركة من بودواو إلى زاوية سي محمد أودريس ومن برج بوعريريج حتى عين الحمام (ميشلي)، ورغم أن الشاعر لم يُلِم في ذلك بكل الجهات التي وقفت مع المقراني إلا أن هدفه الأساسي هو تمجيد الحركة والتذكير بها من أجل الإبقاء على جذوة المقاومة والصمود.

وهاهي قصيدة ثانية قيلت في الفترة الزمنية نفسها للشاعر الشعبي الحاج رابح،[421] يذكر فيها معركة "سوق واديَاس" جاء فيها ما يلي:

أيْراث[422] مشهور يعنْمِس	أيراث اسمـــها مشهــــور
ثْخليفت ن سيدنا عمر	خليفة(أو ذرية) سيدنا عمر
ذي البارود اثْكَسـيس	خبـــراء فـــي البـــارود
أتْ لْمْكْواحَل نْ جوهر دار	وبنادق جوهر دار(بنادق دمشقية)
أرْوان الجّهاد الفرنســيس	جاهـــدوا الفرنســيين كثيرا
فْكانْ ذي الواد أشــوكارْ	رموهم في واد الصخور.[423]

أما القصيدة الثانية الواردة بالعامية العربية فهي لشاعر مجهول، يتذكر فيها تجنيد فرنسا للجزائريين في حربها ضد ألمانيا سنة 1870 وما كابده الشباب

[420] انظر: Charles robert agéron, les Algériens musulmans et la France , P/57.

[421] ولد الحاج رابح في قرية تاوريرت موسى أو اعمُر(بني دوالة) في نهاية القـــرن الثـــامن عشر أو مطلع القرن التاسع عشر.

[422] أيراث: جمعها آت إيراثن، هم سكان اتحادية أربعاء نات إيراثن(سابقا Fort national).

[423] انظر: Youcef nacib, Anthropologie de la poésie Kabyle, éditions andalouses, Alger 1993, P/267.

الجزائري من مآس في ميادين القتال، ولكن أبطال الجزائر ثاروا رافضين استمرارية الاستغلال، ويقول:

الغبـــريــــي وكّاد	يامُــــــر بالجِـــهاد
احْنا شرْفا واسْياد	وطنـــنا نُطَـــهروه
ما ينفعـــنا تَنْهادْ	مْـــعَ القوم الجُحّاد
خطفوا منا الاولاد	شعبـــنا شـــردوه
قال العزيز الحداد	يالكِـــرام الاَجـــواد
من الظلم والفساد	شعـــبنا ننقـــذوه
فرسان غزار شداد	في وجـــوه العنـــاد
نحّفروا له الالحاد	نخليـــوْا دار بوه.[424]

فالشاعر الشعبي يشير هنا أولا إلى تجنيد فرنسا للجزائريين في عساكرها المحاربة لألمانيا، واستغلالها لإمكانيات البلاد من أجل المصلحة العليا لفرنسا، وهو يقصد بذلك حرب السبعين(1870) التي انهزم فيها الفرنسيون في حربهم ضد ألمانيا مما أدى إلى تشريد أعداد هامة من سكان منطقتي الألزاس واللورين، الذين سيكونون وبالاً على الجزائريين؛ حيث هاجروا إلى الجزائر وسُلمت لهم الأراضي الزراعية التي انتزعت من أصحابها الجزائريين بتهمة المشاركة في مقاومة 1871.

أما الإشارة الثانية فهي قيام عزيز (ابن الشيخ الحداد زعيم الطريقة الرحمانية) بالمناداة بالجهاد، فالتفت حوله الجماهير من أتباع الطريقة للمشاركة مع المقراني في مقاومة 1871 ضد الاستعمار الفرنسي؛ وحيث تحولت مراكز زوايا الشيخ الحداد إلى "أماكن لتنظيم خلايا المجاهدين، وكانت هي الوسيلة التي

[424] جلول يلس والحفناوي أمقران، ص: 16.

تزرع الحماس في صفوف المواطنين وتناديهم إلى الجهاد المقدس بجانب الحاج المقراني."[425]

وبهذا يعيد علينا الشاعر ذلك التضامن الذي أبداه أتباع الطريقة الرحمانية مع حركة المقراني، التي كانت المقاومة الوحيدة التي تزعمها قائد لم يكن زعيما لطريقة صوفية مثل بقية المقاومات الجزائرية الأخرى؛ بل إنه برز من طبقة أرستقراطية كانت تتمتع بعدة امتيازات آنذاك؛ ولكنه استند في حركته تلك على الطريقة الرحمانية المتواجدة بالمنطقة نفسها، "فتحولت الحرب من طابعها الأرستقراطي إلى ثورة شعبية، وأصبح الإخوان الرحمانيون يجاهدون بعاطفة الدين لغرض الحصول عل الاستقلال السياسي بتأييد من كل القبائل كقاعدة شعبية."[426]

ويواصل الشاعر قصيدته بالانتقال إلى ذكر الزعيم العسكري لهذه المقاومة ويقول:

المُقـــراني بْسلاح	عَوَّل عْـــلى الكِفاح
قام ودارْ البَـــرّاح	يا أهْلي الموت خير
المقـــراني غَـــوّار	بْحال شَلَــة رْجال
لَعْساكَـــرْهُم دَمار	في الكَـــدْ شْـــحالْ
مَهّد معارك وطراد	الـــدم ثـــم دار واد
شعب كبير للميعاد	لأعْمارْها مْسَـــبْلَة.

يبدأ الشاعر هذا المقطع بنداء موجه إلى الجزائريين من أجل الالتحاق بالحركة المسلحة، ذلك النداء الذي وجهه المقراني سنة 1871 يدعو الناس إلى

[425] أسعد الخطيب، البطولة والفداء عند الصوفية –دراسة تاريخية– مطبعة الشام، 1995، ص: 187.

[426] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الأول، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996، ص: 249.

الجهاد ضد الفرنسيين من أجل استعادة الحرية المهدورة أو الاستشهاد في ساحات القتال: (المقراني بسلاح- عوّل على الكفاح- دار البراح- -الموت خير).

ثم يتعرض لبطولة المقراني ويصفه بالشجاعة والإقدام (المقراني غَوار- لعساكرهم دمار- في الكد شحال)، وهو ليس الوحيد في الميدان بل هناك رفقاؤه الآخرون الذين يقومون بالدور نفسه، ويتميزون هم أيضا بالإقدام (بحال شلة رجال- شعب كبير للميعاد- لأعمارها مْسَبْلَة).

والأصحاب هم العُدَّة والسند وقت الحاجة، بهم يُعز القائد أو يُذل، لذلك يعمل القائد على اختيار الرجال الأكفاء لمساعدته على تنفيذ خططه في مصاولة الأعداء. فالقوة كل القوة في استجادة القواد وانتخاب الأمراء وحاملي الألوية، وقد قيل: "أسد يقود ألف ذئب خير من ذئب يقود ألف أسد." كما قيل أيضا: "رجل بألف وألف كأف."

كان رفقاء البطل هنا أبطالاً لا يهابون النزال، حُماة مَناجيد، أحْلاسا للخيل وأعلاما للشجاعة، يجمعون إلى الفروسية والبطولة قلوبا مؤمنة إيمانا راسخا بعدالة قضيتهم وبفوز مسعاهم.

كان المجاهدون إلى جانب البطل المقراني يحاربون بأرواحهم وعواطفهم، يقهرون نفوسهم ويرغموها على الثبات والإقدام دون خوف، كما قال الشاعر الخارجي المقاتل قطري بن الفجاءة يخاطب نفسه المترددة:

أقول لها وقد طارت شَعاعا — من الأبطال ويْحَـــك لن تراعي
فإنـــك إن سألت بقاء يوم — على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبرا في مجال الموت صبرا — فما نـــيل الخـــلود بمســـتطاع.

وبطولة المقراني ورفقاؤه بارزة في ميادين القتال من كلمات وعبارات القصيدة نفسها (لعساكرهم دمار- مهّد معارك وطراد- الدم ثم دار واد.)

لقد بلغت البطولة درجة كبيرة من التضحية والفداء؛ إذ كان بعض المجاهدين الجزائريين يربطون بعضهم ببعض فإما الموت أو الحياة معا، وهي شجاعة ما بعدها شجاعة! أليست هي الشجاعة المتهورة! إن العقلانية المجردة كانت تخلي مكانها للعاطفة والعصبية في حياة الأبطال والفرسان، ولعلها كانت لونا من الرومنطيقية المتشكلة من الفوران والاندفاع إلى المفاخر عبر الجسارة المجنونة. من ذلك ما قام به المجاهدون في حركة محمد بوختناش في منطقة المسيلة والحضنة سنة 1860 بربط أرجلهم ببعضها البعض. وقد خلد الشاعر الشعبي هذه الظاهرة في البيت التالي:

خرجوا للجّهاد أولاد الرحابية وعقلوا رجليهم وراح رُخْس العمر.

أما القصيدة فتبدأ بالبيت التالي:

يا راعي الملجوم رَدْ امْهَل لِيّ وعودَكْ مَن الابْعادْ جَا عَرْقه يُقْطُرْ.[427]

وقد حدث ما يشبه هذا الفعل في مقاومة المقراني، حيث "هاجم المجاهدون حصن أربعاء نات إيراثن، وربطوا بعضهم البعض حتى لا يتأخروا وحتى يشاركوا بعضهم البعض في الاستشهاد، ولم يُخْفِ الفرنسيون إعجابهم بهذا النوع من المقاتلين، وذلك في تقاريرهم الرسمية إلى رؤسائهم."[428]

و قد وجدنا الكثير من الأمثلة المشابهة لهذه الظاهرة في حركة الشيخ بوعمامة مما سجلناه بأنفسنا مع رواة هم أبناء أو أحفاد رفقاء الشيخ.[429]

---

[427] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980، ص: 111.

[428] المهدي البوعبدلي، للرباط والفداء في وهران والقبائل المجاورة، مجلة الأصالة، العدد 13، مارس-أبريل 1973، ص: 36.

[429] عبد القادر خليفي، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، دار الغرب، وهران 2004، ص: 76.

هكذا كان أبطال المقاومة في كل مكان، رجالا صناديد لا ينتابهم خوف من الموت ولا يحسبون لها حسابا، لقد أدركوا بمعتقدهم أن الموت حتمي فتقبلوه، وهكذا خططوا لحياتهم على ضوء هذا التقبل، فالموت ينقلهم إلى حياة أفضل وأرحب، حياة النعيم في الجنان، من أجل هذا تهون الحياة الفانية.

إن ثقافة الشهادة هي السلاح الأعظم، كانت ولا تزال السلاح الأفعل لهزيمة العدو وصنع النصر للإنسان، وما ثورة أول نوفمبر 1954 ببعيدة عنا بشهدائها المليون ونصف المليون.

والخلاصة أن ما يميز القصيدتين الشعبيتين السابقتي الذكر هو العاطفة الوطنية الجياشة الطافحة والغيرة الدينية الوقادة.

أما الشعر فهو الوسيلة الهامة للتغني بالبطولة والشجاعة بوصف الأبطال في حومات الوغى وفروسيتهم في زحمات القتال وبلائهم ضد الأعداء؛ وبذلك كان الشعر مصاحِبا لقضايا الناس؛ فكل قصيدة مربوطة بحادث معين تبرزه وتخلده في دنيا الناس، وبذلك تم حفظ مآثر الماضي وربطها بالحاضر، فأصبح الشعر للأمة هو "سجل فخرها وعنوان بَأسها وأناشيد بطولتها."[430] وفي هذا المجال تغنى الشعراء الشعبيون بمقاومة المقراني وبقائدها الملهم.

لقد قام الشاعر الشعبي بدور المثقّف للمجتمع والمكوّن لشخصيته والزارع لبذور الأخوة والاستقامة بين أفراده، من أجل لَمِّ الشمل وتوجيه الجهود للدفاع عن الحوزة الترابية والمقومات الشخصية.

---

[430] زكي المحاسني، المرجع السابق، ص: 06.

خامسا :حركة الشيخ بوعمامة

فـــي لغـــة الآخـــــر

التعريف بالشيخ بوعمامة:

بوعمامة هو أحد شيوخ الطريقة الشيخية المتفرعة عن الطريقة الشاذلية، فتح زاوية شيخية في بلدة مغرار التحتانية بالجنوب الغربي الجزائري حوالي سنة 1875 بإشارة من شيخه محمد بن عبد الرحمن مقدم الطريقة آنذاك ببلدة بني ونيف، فعمل على تجديد الطريقة ونشرها بين السكان هناك، فأصبح مقصدا للعديد من الأتباع والراغبين في رؤيته والتبرك به وبدعواته. وفي سنة 1881 تزعم المقاومة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي. وبعد سنتين من حرب المواجهة اضطر الشيخ إلى الانسحاب من الميدان واتجه جنوبا بعيدا عن المناطق التي استولى عليها الفرنسيون، واستقر في بلدة أولاد عبو بدلدول ولاية أدرار حاليا. وتواصل الضغط عليه فاضطر إلى الهجرة ثانية واتجه إلى المغرب الأقصى الذي لم يكن الفرنسيون قد سيطروا عليه بعد، فمر ببلدة بني ونيف الجزائرية ففكيك المغربية، واستقر نهائيا في بلدة عيون سيدي ملوك غربي مدينة وجدة التي بقي بها إلى أن وافاه الأجل سنة 1908.

وبذلك جمع الشيخ بوعمامة بين زعامتين: زعامته الصوفية وتتمثل في إشرافه على الطريقة الشيخية بإحيائها ونشرها، وزعامته الحربية وتتمثل في إعلانه للجهاد ضد الفرنسيين سنة 1881 وقيادته للجماهير الشعبية. وقد سار العنصران جنبا إلى جنب وتشابكا في حمى الشيخ الوقور النشط.

أما نسبه فهو بوعمامة بن العربي بن الشيخ بن الحُرمة بن محمد بن إبراهيم بن التاج بن (عبد القادر بن محمد)، هذا الأخير هو المعروف بـــ "سيد الشيخ" مؤسس الطريقة الشيخية. وبذلك فهو ينتسب إلى العائلة الشيخية ذات

الشأن الكبير في المنطقة الجنوبية الغربية، لأنها من "المْرابْطِين" المحترمين من قبل السكان، لانتسابهم إلى جدهم الأعلى أبي بكر الصديق، وإلى سيد الشيخ -عبد القادر بن محمد- العالم والمؤسس للطريقة الشيخية والمتوفى سنة 1616م/1025هـ.

إن ما سنتعرض له في هذا المحور هو مكانة حركة الشيخ في الرواية التاريخية، ذلك أننا تمكنا حتى الآن من رصد روايتين تاريخيتين في هذا المجال، إحداهما من كاتب جزائري والأخرى من كاتبة فرنسية، وقد اشتركت الروايتان في اللغة المعبر بها، حيث كانت اللغة الفرنسية هي لغة الرواية في كلا العملين.

الحركة في الرواية التاريخية:

صدرت في التسعينيات من القرن العشرين، روايتان تاريخيتان، ورد فيهما ذكر لحركة الشيخ كعنصر من أحداث الرواية؛ حيث اتفقت الأحداث وتزامنت بين بطل الرواية وحركة الشيخ بطريقة أو بأخرى.

والروايتان هما: "أكتشف شعبي" لأرليت ويلتي دومون Arlette Welty Domon[431]

و"الحُلم والمُلك" لبن عمارة خليفة.[432] وتتفق الروايتان في أنهما كتبتا أصلا باللغة الفرنسية، وبينما طبعت الأولى باللغة نفسها في باريس سنة 1995، نجد الثانية ترجمت مباشرة إلى اللغة العربية وطبعت بها في الجزائر سنة 1999.

الرواية الأولى: "اكتشف شعبي" لأرليت ويلتي دومون.

---

[431] انظر: -Arlette Welty Domon : J'inventerai mon peuple, les éditions de paris, max choleil 1995.

[432] بن عمارة خليفة، الحلم والملك، رواية تاريخية، ترجمة محمد قندوسي، مطبعة دحلب، الجزائر 1999.

أ- **من هي الكاتبة:** أرليت ويلي دومون صحفية فرنسية بروتستانتية، ولدت بالجزائر العاصمة سنة 1929 من عائلة استوطنت بها منذ خمسة أجيال. تعمل محررة لصحيفة «Cimade information» وللمجلة البروتستانتية للدفاع عن حقوق الرجل، وهي أيضا مؤلفة لكتاب: . «Soleil de justice» الصادر سنة 1984

فهي إذن ذات منشإ جزائري، غادرت الوطن بعد استقلاله لانتمائها إلى العنصر الأوربي الذي عاد إلى وطنه الأصلي فرنسا. وهي تقيم حاليا في باريس كصحفية -كما ذكرنا سابقا- تحن كثيرا إلى الجزائر، وقد زارت بلدة عين الحجر- إحدى محطات أحداث الرواية- سنة 1987، لترى الفرق على أرض الواقع بين زمن أحداث الرواية وزمن كتابتها.

ب- **الكتاب:** يحتوي كتاب أرليت دومون على مائتين وواحد وعشرين صفحة(221) من الحجم العادي. بعد التقديم الذي كتبته خليدة مسعودي الجزائرية وملاحظة الناشر ماكس شلايل تبدأ الكاتبة مؤلفها بمقدمة، ثم تقسمه إلى أربعة أقسام معنوَنَة على الشكل التالي:

القسم الأول: "ذهبُ الهضاب العليا الرمادي"

L’or gris des hauts plateaux 1871-1878

ويتكون هذا القسم من خمسة أبواب فرعية.

القسم الثاني: "أطفال السو «Les enfants du Bazar.»

ويتكون هو أيضا من خمسة أبواب فرعية.

القسم الثالث: يحمل عنوان: "صقور القصور" « Les faucons des Ksour»

ويتكون من أربعة أبواب فرعية هو أيضا، وهو مخصص لحركة الشيخ بوعمامة.

القسم الرابع: ويحمل عنوان: "الفرنسيون الخليط" «Les français composé.» ويتكون من أربعة أبواب فرعية.

وأخيرا معجم الكلمات.

تدور أحداث الرواية حول شخصية البطل سليستان «Célestin Amadeuf» الذي يغادر مدينة باريس سنة 1871 مع عائلته على إثر أحداث دامية هناك، ويصل إلى مدينة وهران ليفتح محلا كبيرا للمواد الغذائية، ولكن إحدى صديقاته تنصحه بالانتقال إلى مدينة تلمسان (ديسمبر 1873) لإقامة مشروع مشترك لاستثمار الرخام مع أحد الأسبان. وفي شهر أبريل من سنة 1875 ينتقل سليستان إلى بلدة عين الحجر بالقرب من مدينة سعيدة، حيت يفتح دكانا كبيرا للمواد الغذائية، لخدمة عمال ورشات الحلفاء بالمنطقة، وعمال السكة الحديدية المتجهة نحو الجنوب.

وتنتقل بعد ذلك الكاتبة لتبين القلق الذي انتاب الفرنسيين على إثر استقرار قبيلة أولاد سيد التاج ببلدة مغرار التحتاني، وهم تحت قيادة شخص "خطير"، ظهر كمصلح ديني، هو الشيخ بوعمامة.[433]

---

[433] الواقع أن أولاد سيد التاج استقروا بالمنطقة حوالي القرن السابع عشر ميلادي (1032هـ). وهم فرع من أولاد سيد الشيخ، والتاج هو ابن عبد القادر بن محمد المعروف بـ"سيد الشيخ" مؤسس الطريقة الشيخية. أما الشيخ بوعمامة -أحد الخلف- فهو الذي استقر بمغرار التحتاني سنة 1975 قادما من بلدة فكيك المغربية ليؤسس زاوية شيخية هناك. و كان قد ولد حوالي سنة 1838.

وتتحدث الكاتبة عن تنقلات "مُقدَّمي"[434] الشيخ بين القبائل تحضيرا للمقاومة، وبخاصة مرزوق والطيب،[435] وعن قدوم أحد رجال الطوارق من الجنوب واتصاله بالشيخ بوعمامة، كمبعوث من قبل أهل تاديكالت وبدعم من أهل غرداية والأغواط والشعامبة. وقيام الباشاغا -محمد ولد القاضي- بإخطار السلطات الفرنسية بكل هذه التحركات المشبوهة، وذلك اعتمادا على ما قدمه جواسيسه الذين وضعهم لترصد أخبار الشيخ. وتتحدث بعد ذلك عن مقتل الضابط "وانبرنير" "Weinbrenner" الذي بعثته السلطات الفرنسية للقبض على "مقدمي" الشيخ المتواجدين عند قبيلة الجرامنة. ثم إرسال قوة عسكرية كبيرة تحت زعامة الضابط « Inocenti » يساعده أغوات سعيدة وفرندة وتيارت الذين هم تحت قيادة قدور ولد الصحراوي.

كما تذكر الكاتبة استعدادات الشيخ بوعمامة، ثم معركة تازينة التي كانت لصالح هذا الأخير، وعن مسيرته الناجحة نحو المنطقة التلية، رغم استنفار الفرنسيين لعدد كبير من قواتهم.

أما في بلدة عين الحجر، حيث يستقر سليستان -بطل الرواية- فقد أعطت السلطات الفرنسية لسكانها الأمر بإخلائها والاتجاه إلى مدينة سعيدة للابتعاد عن الخطر.

وقد هاجم المقاومون، فعلا، ورشة قطف الحلفاء بعين الحجر وحطموا معها متجر سليستان كغيره من المؤسسات الاستعمارية، وقاموا بأسر عدد من الإسبان العاملين في الورشة ثم انسحبوا نحو الجنوب.

---

[434] المقدم منصب ديني، يقوم صاحبه بمساعدة شيخ الطريقة الصوفية في مختلف المهام، ويكلف في الغالب بتمثيل الشيخ في بلدته أو في قبيلته.

[435] هما مرزوق السروري والطيب الجرماني، وهما من جملة مبعوثي الشيخ بوعمامة إلى مختلف القبائل الجزائرية، لحثها على الانضمام إلى حركته من أجل الجهاد والدفاع عن الوطن.

وبعد هدوء العاصفة يعود سليستان إلى بلدة عين الحجر فلا يجد شيئا من مؤسسته التجارية فينهار أمام حطام الحريق ويتيه، سيرا على الأقدام إلى أن ينقذه صديقه الطبيب.

وتتحدث الكاتبة عن الفرنسيين اللاجئين، الذين تم تكديسهم في مستشفيات ومدارس سعيدة (140 شخصا مقابل 60 سريرا)، في الوقت الذي توجد فيه مستشفيات وهران ومستغانم فارغة، لأن العسكريين رفضوا نقل هؤلاء الفارين إلى هناك.

وتتحدث أيضا عن قيام صحفيَّيْن إثنين من الإسبان بزيارة لبوعمامة وهو لاجئ في دلدول بالجنوب الجزائري، وقد استقبلهما خادمه "الدقلة" الذي أخذت له صورة وهما يظنانه الشيخ بوعمامة، وينشرانها في صحيفتهما الإسبانية في الشهر الموالي بمدينة أليكونت.[436]

الرواية الثانية: "الحلم والملك" لبن عمارة خليفة:

أ- من هو الكاتب؟ بن عمارة خليفة من مواليد 1947 بعين الصفراء ولاية النعامة، صاحب مطبعة ومكتبة محلية. له اهتمام وحماس كبير بتراث المنطقة الجنوبية الغربية وبتاريخها. أصدر روايتين باللغة الفرنسية لدى المؤسسة الوطنية للكتاب، وهما: "الانسلاخ" و"الكلمة المخنوقة". وهو الآن منكب على كتابة تاريخ أولاد سيد الشيخ، حسب تصريحه لنا بذلك.

أما المترجم قندوسي محمد فهو أستاذ وإطار في التعليم، متمرس في التربية والتعليم منذ عقود من السنين.

ب- الكتاب: يحتوي كتاب بن عمارة خليفة على 171 صفحة من الحجم الصغير، وينقسم إلى قسمين بدون عنوان مكتوب.

---

[436] أنظر صفحة: 190 من كتاب المؤلفة، وتوجد صورة هذا الخادم "الدقلة" مطبوعة في الكتاب المدرسي للسنة السادسة أساسي في محور المقاومة الشعبية، على أنه الشيخ بوعمامة.

تجري أحداث القسم الأول في فترة دخول الفرنسيين واحتلالهم لمدينة الجزائر العاصمة، ثم ظهور الأمير عبد القادر كزعيم للمقاومة وإجباره الفرنسيين على عقد الهدنة معه سنتي 1934 و1937.

ويتحدث الكاتب عن زيارة الأمير للمنطقة الجنوبية الغربية ولقائه مع بطل الرواية (محمد ولد علي) وهو لا يزال شابا، وعن خطاب الأمير أمام البدو الذين استقبلوه بحفاوة.

في هذا اللقاء يُعجب محمد ولد علي بالأمير، وبخطابه وببساطته وتواضعه. ويستعيد الكاتب ماضي الأمير حين قام بأداء مناسك الحج رفقة والده قُبيل مجيء الفرنسيين، وزيارته لبغداد التي رأى فيها حلما تنبأ فيه بالسلطة التي سيفقدها بعد مدة.

ويتوسع الكاتب في حديثه عن مقاومة الأمير حين كان في أوج قوته، ثم اضطراره إلى الاستسلام بعد الضغوط الفرنسية والمغربية، ونقله إلى فرنسا بدل المشرق العربي.

ويتحدث في القسم الثاني عن وصول أولى الحملات الفرنسية إلى المنطقة الجنوبية الغربية وإلى القصور بصفة أخص. كما يتعرض لبعض المقاومات الشعبية كمقاومة المقراني وأولاد سيد الشيخ.

ويتحدث الكاتب بإسهاب عن البطل محمد ولد علي المعتصم بجبل بني سمير غربي عين الصفراء واشتراكه في مقاومة 1881، ورفضه الانسحاب مع الشيخ بوعمامة إلى الجنوب الجزائري، وتمسكه بالبقاء في الجبل ليخوض معارك عديدة ضد القوات الفرنسية إلى أن يقتل والسلاح في يده.

وقد خصص الكاتب عشر صفحات لحركة الشيخ بوعمامة في هذا الجزء (من ص 133إلى143)، فتحدث عن ولادة زعيمها وعن نسبه وعن شهرة زاويته بين القبائل، وعن قيام أعوان الاستعمار بتحذير الفرنسيين من خطره، وعن مقتل الضابط وينبرنير واندلاع المقاومة،

وبخاصة معركة تازينة في 19 ماي 1881 ومسيرة الشيخ نحو الشمال. كما تحدث عن قيام القوات الفرنسية بتمشيط منطقة عين الصفراء، ووصولها إلى مغرار التحتاني وتفجيرها لزاوية الشيخ، ثم معركة فندي التي جرت بين القوات الفرنسية من جهة والشيخ بوعمامة من جهة أخرى.

وقد أشار الكاتب إلى استمرارية مقاومة الشيخ بوعمامة بعد ذلك، وإرساله الغارات بكل جرأة، وعن شخصه الذي بقي رمزا حيا للمقاومة يتمتع بشهرة وسمعة طيبتين.[437]

نقد وتعليق:

* إن الكتاب الأول "أكتشف شعبي" لأرليت دومون هو في مجمله حنين لماضي الكاتبة وماضي عائلتها التي عاشت أجيالا في البلاد الجزائرية، إنه إحياء لذكرى الأجداد واستعادة لمغامرة أناس كانوا يعتقدون أنهم سيعيشون في هذه البلاد إلى الأبد، مثلما فعل غيرهم من الأوربيين بالهجرة إلى العالم الجديد وإلى أستراليا وغيرها..

لقد أرادت الكاتبة أن تربط علاقة طيبة مع الجزائر، وما قيام خليدة مسعودي بالتقديم لكتابها إلا واحدا من أساليب التقرب من بعض الفئات الجزائرية التي تتفق معها في بعض الرؤى والأفكار. حيث تقول خليدة مسعودي ما يلي: "معسكري مثل أرليت هو الخاص بالعالمية اللامحدودة، الأقل تعاسة والأقل فقرا عوضا عن العالم المعاصر."

وتقول صاحبة التقديم دائما: "إن أرليت حزينة لتغربها باعتناق أفكار الغرب، وهي فقيرة لعدم قدرتها على النظر بعيدا، وعدم تمكنها من توسيع مداركها". وتضيف: "معسكرنا هو الكفاح من أجل التحرر من أية وصاية

[437] صفحة:143 من الكتاب.

كيفما كان مصدرها سواء من الشرق أو من الغرب. كفاحنا هو ولادة عسيرة ومؤلمة، ولكن الولادات لا تخيف الأطفال."[438]

وأرليت في تتبعها لحياة عائلتها وبخاصة لسليستان -بطل الرواية- لا تتحيز لجهة دون أخرى إلا نادرا. وهي تحاول أن تسرد الأحداث كما وقعت بالترتيب الزمني. و تحصي المآسي التي قاساها الجزائريون في مواجهة المستوطنين والعسكريين وبمساعدة أعوان الاستعمار.

وهي تفضح سياسة الشدة والتسلط كقانون الأهالي وبخاصة المسؤولية الجماعية، وهي تعتقد أن فرنسا أخطأت -بسبب سياستها الاستعمارية في الجزائر- في إمكانية خلق جماعة واحدة وشعب واحد متعدد الأعراق والأديان والثقافات.[439]

وهي عند حديثها عن حركة الشيخ بوعمامة تقف موقفا محايدا في أغلب فقرات القسم الثالث الذي خصصته لهذه الحركة، باستثناء موقفين: الموقف الأول عند ذكرها لشخص يدعى ميلود وهو أحد رجال الشيخ حين دخوله لمتجر سليستان وأخذه للمواد الغذائية دون دفع المقابل، بل كان حديثه مع سليستان ومساعده فظا وجريئا أدهش سليستان نفسه، وقوله له: "والآن، لا أستطيع دفع الثمن.. ليست لي نقودا" أما الموقف الثاني فيتمثل في قيام ميلود هذا باختطاف الفتاة "باكيتا"، إحدى عاملات متجر سليستان، والتي كانت ضمن الأسرى الأسبان، وقد تبعته وكأنها منومة ثم تزوجها مرغمة.[440]

بهذين الموقفين تريد أرليت أن تقول بطريقة غير مباشرة إن من عادات هذا الشعب استعمال العنف لتحقيق أغراضه، خاصة وأن الكتاب صدر في

---

[438] انظر صفحة 10 و11 من الكتاب.

[439] كلمة الناشر ماكس شلايل، صفحة:12.

[440] صفحة: 143 و144 من للكتاب.

التسعينيات وهي العشرية التي شهدت إهراقا لدماء الجزائريين من قبل بعضهم البعض.

* أما بخصوص الكتاب الثاني "الحلم والملك" لصاحبه بن عمارة خليفة والمترجم من قبل قندوسي محمد فهو كتاب جزائري، أي أنه كتب بأقلام جزائرية متمثلة في المؤلف والمترجم.

إن رغبة المؤلف هي إبراز بطولة الشعب الجزائري ورفضه للاستعمار وطلبه للحرية والإنعتاق، وذلك من خلال بطولات أفراده هنا وهناك، وهي إما بطولات فردية أو جماعية، ومحاولة ربطها ببعضها البعض لتكاملها بوحدة أهدافها وتشابه خصوصياتها. وهكذا ربط المؤلف بين أول حركة جزائرية مقاومة للاستعمار والمتمثلة في مقاومة الأمير عبد القادر في شمال البلاد، بمقاومة محمد ولد علي في جنوب غربي البلاد في أواخر القرن التاسع عشر.

وقد حاول المؤلف أن يربط الواقع بالأسطوري، فهناك الحلم أو الرؤيا التي تتنبأ بالمُلك والسلطان للأمير، حيث يرى هذا الأخير رؤيا وهو في بغداد رفقة والده في الأراضي المقدسة، وتُفسر تلك الرؤيا على أنها السلطة، ولكنها سلطة محدودة الزمان، ثم هناك زيارة الأمير للمنطقة الجنوبية الغربية وسقوط خاتمه وهو في ضيافة العمور – قبيلة البطل محمد ولد علي– ووقوعه في يد هذا الأخير، الذي سيصبح زعيما يقود قبيلته لمقاومة الاستعمار الفرنسي بعد حين. وقد حدث هذا في السنة نفسها التي توفق فيها الأمير عن مقاومة القوات الفرنسية.

أما من حيث المنهج فقد قسم المؤلف كتابه إلى قسمين، كما رأينا ذلك سابقا، خصص القسم الأول منهما لمقاومة الأمير عبد القادر، وفي القسم الثاني تحدث عن أولى عمليات احتلال المنطقة الجنوبية الغربية وظهور محمد ولد علي كبطل مقاوم إلى جانب الشيخ بوعمامة، ثم وحيدا في الميدان بعد ذلك.

ومما يلاحظ على الكاتب أنه لم يسم الجزائر بهذا الاسم طيلة صفحات الرواية، بل استعمل الاسم الذي أطلق على المنطقة قبل العهد العثماني وهو اسم: "المغرب الأوسط"، الذي ورد ذكره في عدة صفحات (19، 33، 35، 39، 49، 82، 94)، والكاتب يعني هنا فترة العثمانيين بالجزائر أحيانا والفترة الاستعمارية بعدها في أغلب الأحوال.

والمعروف أن العثمانيين هم الذين أطلقوا اسم "الجزائر" على كامل البلاد بعد توليهم الحكم فيها سنة 1518م بعد استيلائهم على ميناء جزائر بني مزغنة سنة 1516م، واستمر الفرنسيون في إطلاق هذا الاسم منذ دخولهم البلاد حتى خروجهم منها سنة 1962.

أما كلمة "الجزائر" فقد استعملها لتعني العاصمة فقط (صفحات 14، 16، 17، 21، 36، 49)، ومن الهفوات نجد مثلا أن الكاتب استغنى عن مقدمة الكتاب باستثناء اقتباس فقرة من كتاب "قوة العالم الموازي" لرعما باناخ (الصفحة الثالثة).

أما الترجمة فتكاد تكون موفقة لغة وأفكارا، فاللغة سليمة والأفكار واضحة، باستثناء بعض الهفوات، وهذا في غياب الكتابة الأصلية (باللغة الفرنسية) التي بقيت في المسودة.

ومن تلك الهفوات التي وقع فيها المترجم نجد عبارة: كان جالسا تحت "شجرة عجوز"، فكلمة عجوز لا تستعمل سوى للإنسان وللمرأة بالذات، والتي وردت في الصفحة الثالثة. وقد استعمل المترجم بعض الكلمات العامية، والعيب ليس في استعمال العامية وإنما العيب في ركاكة الجملة، مثل:

- يا سي محي الدين! استيقظت؟ معذرة هذا الرجل...
- ضيف الله، قاطعه الغريب، متوجها إلى شيخ الزاوية.

أو كلمة "فَلْقَه" العامية بسكون اللام في صفحتي (101 و139). وهو يقصد عرشا أو فرعا من فروع القبيلة.

أو "المْراكيب" في الصفحة(109) وهو يقصد الحيوانات المعدة للركوب.

ويبدأ المترجم العديد من الفقرات بجملة اسمية لاتباعه الترجمة الحرفية في بعض الأحيان. مثال ذلك:

"ضيف الله، قاطعه الغريب، متوجها إلى شيخ الزاوية." (ص:42).

أو "غاضبا، أمر الحاكم العام بانطلاق فصيلة جديدة." (ص:115).

أو "محيطة بالأطلس الصحراوي من الشمال الغربي، مرت فصيلة كولونيو." (ص:115).

أو "العربي وهو الابن الثاني لمحمد ولد علي كان مقاتلا شجاعا."(ص:08)

ومن الجمل التي اعتمد فيها على الترجمة الحرفية أيضا نجد ما يلي:

"مرت السنون... أُخذت الجزائر العاصمة، وتجمعت القبائل أعلن الجهاد."(ص:49).

أو "في انتظار القهوة كان بعض الضيوف يتململون في برانيسهم."(ص:19).

أو "بفتح تلمسان، كانوا قد وضعوا حدا لعهد بني عبد الواد."(ص:19).

هـــكذا أصبح التراث ميدانا خصبا للاقتباس والإثراء، ومصدرا للاستلهام والإبداع، وعادت أقلام المبدعين إلى الماضي تحييه وتجدده، تفتح صفحاته لتنطلق في رحاب الحاضر وآفاق المستقبل.

لـــقد تم اختيار البطل الشعبي كنموذج بارز في هذا التراث، لأن الأمة في حاجة دائمة إليه، حيث تتجلى في صورته ملامحها "وتتوقد في وهج عيونه

بوارق التطلع الحاد الذي يرسم أبعاد طموحها. وتزهو في اشراقات قدراته الفذة أعماق زهوها الأصيل وصفاء اندفاعها الموجه."[441]

ويفرض البطل نفسه على المجتمع سواء كان من الأصدقاء أو الأعداء، في الحاضر مثل الماضي، كما أن إنسانيته تفتح له أفاقا أوسع ومجالات أرحب من حدود الوطن وخصوصيات الأعراق، وتصبح انتصاراته هي انتصارات للإنسانية، وإخفاقاته انتكاسات لها أيضا، لأن المثل النبيلة لا تحدد بمكان ولا بزمان، وتفرض نفسها على بني البشر في أي مكان من وجه هذه البسيطة.

وإذا كانت الصحف الدولية قد كتبت عن حركة الشيخ بوعمامة في أوج نشاطها من فرنسية وإسبانية وانكليزية ومصرية وعثمانية،[442] فأحرى بهذه المجتمعات اليوم أن تستعيد ذكرى هذا البطل، وتوظف بطولته في إبداعات فنانيها وكتابات مؤرخيها، لأنه دخل التاريخ رغما عن خصومه، وتقاطعت أعماله بأحداث دولية عديدة، لأن البطل خالد في وجدان الجماهير، وهو رمز تتحقق في نهجه الرغبات وتتجسد في أعماله الآمال والقدرات الحقيقية في تمثل الطموح البشري.

---

[441] نوري حمودي القيسي: البطل في التراث، دار الشروق، بغداد، 1988، ص:04.

[442] منها جريدة "البرهان" المصرية، وجريدة "ترجماني حقيقات" العثمانية، وجريدة "البوكا" الإسبانية، وجريدة "التايمز" البريطانية، كما علقت إحدى الصحف الإيطالية على حالة الجيش الفرنسي آنذاك وفشله في السيطرة على الوضع،عن طريق رسم كاريكاتوري موجود في كتاب الجيلالي صاري: انتفاضة بوعمامة". أما الجرائد الفرنسية الصادرة في الجزائر وباريس فقد كانت حركة الشيخ بوعمامة هي حديث الساعة بالنسبة لها آنذاك.

سادسا :صورة الفرنسي في روايات
الشيخ بوعــــمامة

أصبحت حركة الشيخ بوعمامة الدينية (الطريقة الصوفية) والحربية (المقاومة المسلحة) نموذجا من نماذج الرفض الشعبي للاستعمار والاستغلال سجلها بعض العسكريين والمؤرخين قديما وحديثا، أجانب وجزائريين، كما مُثلت الحركة في فيلم تحت عنوان: "الشيخ بوعمامة"، كتب سيناريوه بوعلام بسايح وأخرجه بختي بن عودة[443] في الذكرى المئوية الأولى لاندلاع المقاومة سنة 1981، وقد لقي الفيلم نجاحا كبيرا في الجزائر وفي البلاد العربية أيضا، مثله في ذلك مثل فيلم عمر المختار الزعيم الليبي.

ويتداول الناس في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر روايات وقصائد شعرية تمجد بطولته وتذكر بشجاعته وتتعرض للعديد من صفاته

1-الروايات:

روايات الشيخ بوعمامة هذه، هي عبارة عن مادة خام لأطروحة دكتوراه ناقشناها بقسم اللغة العربية بجامعة وهران خلال السنة الجامعية 2001/2000، والعمل هذا هو عمل ميداني، اشتمل على عدد هام من الروايات المنثورة والمرويات المنظومة التي تم جمعها من المناطق التي كانت مسرحا للمقاومة الشعبية، والتي تجاوز عدد رواتها المائة راو، قام صاحبها بدراستها وتحليلها.

[443] بوعلام بسايح مجاهد شارك في الثورة التحريرية وتقلد عدة مناصب بعد الإستقلال كوزير وسفير وعضو في المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة وأخيرا كرئيس للمجلس الدستوري (2006). أما بختي بن عودة فهو أديب وناقد من الجزائر.

وهي عبارة عن أخبار رصدت حركة الشيخ بوعمامة، يحتفظ بها رواة مهرة في ميدان المأثورات الشعبية، تروى بين خلف الشيخ وخلف رجاله، يستعيدون بها ذكريات الماضي المجيد، والتي تنحصر دلالاتها في التعبير عن آلام وآمال الجماهير المقهورة.

وعملية جمع هذه الروايات هي إنقاذ لها من الضياع خوفا من وفاة حملتها من كبار السن، وهو عمل يكشف المجهول ويعاشر التاريخ من حيث هو حركة تحبل بالغامض أكثر من الجلي وبالتوقع أكثر من الاطمئنان الأكيد. وتشابه هذه الروايات ما تسطره الكتابات الرسمية لحياة الناس اليومية في كثير من عناصرها، إلا أنها تختلف عنها في بساطتها وعفويتها، لأنها صادرة عن حياة بسيطة قريبة الصلة بفطرة الله التي فطر الناس عليها.

2-صورة الفرنسي في هذه الروايات

بما أن الشيخ بوعمامة كان زعيم حركة مسلحة قاومت الفرنسيين سنين طوالا، فإن صورة الفرنسي التي تظهر في المرويات التي تم جمعها، شعرا كانت أم نثرا فلن تكون سوى قاتمة؛ لأن الفرنسي هو العدو الألد للشعب الجزائري، فقد كان المعتدي الذي يقتل ويشرد وينفي ويهدم ويدمر كل شيء. إنه المعتدي الكافر الظالم المغتصب. وتتقاطع حياة الشيخ في هذه الروايات الشعبية التي تم جمعها مع الفرنسيين من خلال عدة مواقف، منها:

أ-صورة الفرنسي الظالم:

تُظهر هذه الروايات الشعبية الفرنسي في صورة المدمر الذي يهدم ويستولي على كل شيء. يحتجز الدور وأملاك السكان الجزائريين ويعاملهم بكل قسوة وبطش.

ويتحدث آخر عن انتقام الفرنسيين من المدنيين العزل، بعد انهزامهم في معركة تازينة في 19 ماي 1881، فيذكر أنهم مروا في طريق عودتهم بعد المعركة ببلدة الشلالة، ففتشوا الدور وجمعوا عددا من شباب البلدة وأطلقوا عليهم النار أمام الجميع. ثم مروا ببلدة عسلة فدمروا ما وجدوه من مؤونة السكان، وكانت القبائل البدوية تخزن مئونتها في هذه البلدة، فأخرجوا تلك المؤونة وعاثوا فيها فسادا.[452]

فالظلم إذن كان من خصوصيات الفرنسيين في الجزائر، وبواسطته سيطروا بقوة الحديد والنار على الجزائر قاطبة.

ب- صورة الفرنسي المخادع:

يتميز الفرنسيون هنا بالمخادعين، حيث يحاولون جلب الناس إليهم بمختلف الطرق لدعم مساعيهم وأهدافهم في السيطرة على مقدرات البلاد. كان المسؤولون الفرنسيون يَعرِضون المال والجاه على مختلف الطوائف الشعبية من أجل خدمة مصالح الاستعمار والتجسس على الشيخ بوعمامة. من ذلك أن الفرنسيين اتصلوا بقياد قصر المْعيز والحَمام الفوقاني والتحتاني والعْبيدَات بفكيك ووجدوا منهم القبول والطاعة، بينما وجدوا الرفض من قبل قايد وسكان قصر زْناقَة. وقد وعد الفرنسيون المتعاونين معهم بمنصب القيادة على بلدتهم فكيك. وتذكر الرواية أسماء بعض الأشخاص الذين تعاونوا فعلا مع الفرنسيين مثل سيد الشيخ بن ابراهيم وبوشتة وغيرهما. والمعروف أن الشيخ كان يلتجئ من حين لآخر إلى هذه البلدة المغربية كُلما ألم به أمر من أمور الاستعمار الفرنسي، والتي كان له بها أهل وخلان وأتباع.[453]

---

[452] الراوي طيباوي الشيخ 69 سنة، من أولاد سيدي أحمد المجدوب، عسلة 1995.

[453] الراوي معاشو الطيب، 89 سنة، من العمور، بني ونيف، ماي 1995. شارك أبوه في الحركة وقد وُلد الراوي والشيخ في طريقه إلى الإستقرار بالمغرب الأقصى.

فالفرنسيون يحاولون استمالة الناس إلى جانبهم بمختلف طرق الإغراء والوعود ليَهْنَئوا بالبلاد ويحصلوا على أكبر قدر من المكاسب وبأقل التكاليف.

ومن المحاولات الفرنسية لمخادعة الشيخ بوعمامة ما يُرْوَى من أن ضابطا فرنسيا زاره في مقره، وبدأ يمدحه ويَذكر مكانته السامية بين الناس وبين الفرنسيين أنفسهم، الذين، كما ذَكَرَ له، يحترمون الرجل النزيه ويقدرونه أحسن التقدير، وأن "فْرَانْسا تَعْرَف الخْيامْ الكْبَارْ، وتبْغِي تَبْنيهُم ماشِي تْهَدَّمْهُم، وأَنْتَ خَيْمَة كْبِيرَة."[454] وقد طلب منه هذا الضابط الفرنسي، والذي تسميه الرواية بـ Lyautey الاستسلام لفرنسا عن طريق الصلح، مقابل تنصيبه حاكما على كل قبائل الصحراء، "وَيْن كانْ هذا بوبَرْنوسْ نَعْطوك تَحْكَم فيه." وتذكر الرواية أن الشيخ تفطن لمخادعتهم، ولذلك لم يكن ليقبل بما كانوا يعرضون عليه من منح ومناصب، لأنه كان يؤمن بمبدئه وهدفه الأسمى المتمثل في طردهم من البلاد. ولم يكن لتثنيه تلك العروض المادية التي كان يعتبرها، وهو الرجل الصوفي، مجرد وسخ الدنيا وحطامها، لأنه كان متجها بكليته إلى الخالق تاركا كل ما بأيدي الخلائق.[455]

وعرضوا عليه مرة أخرى، بعد أن رفض الاستسلام، أن يسمح لهم بتنصيب ابنه الطيب حاكما على العرب "من الشرق إلى الغرب." وأن يعطوه كل ما هو في حاجة إليه ويلبون كل رغباته.[456]

---

[454] رواية بن زيان عيسى، 69 سنة، من الزوّا، بلي ونيف 1995. جده محمد بن عبد الرحمان هو الذي تعلم لديه الشيخ بوعمامة في بني ونيف، وهو الذي كان قد أشار عليه بفتح زاوية في مغرار التحتاني.

[455] رواية بودواية الحبيب، 70 سنة، تاجي، عين الصفراء 1989.

[456] الراوي نفسه.

وكان الفرنسيون يجازون كل من يكون عونا لهم على عودة القبائل المهاجرة مع الشيخ إلى مواطنها في الأراضي التي يسيطرون عليها، من ذلك أنهم عينوا أحد أفراد قبيلة أولاد سيدي أحمد المجدوب (المدعو الميلود بن الطيب بن بوسماحة) في منصب القيادة، بعد أن اعتذر والده الكبير السن، والذي عادت إليه القبيلة واستقرت إلى جانبه، وتركت الشيخ مستقرا فـــي دلدول بالجنوب الجزائري.[457]

لقد جرب الفرنسيون مع الشيخ ما جربوه مع قدور بن حمزة، أحد قادة مقاومة سنة 1864 من عروض الجاه والمال، ولكنهم فشلوا في الحصول على مبتغاهم منه.

ج-صورة الفرنسي الكافر:

كان الأوربيون الصليبيون في صراع دائم مع القوى الإسلامية المتواجدة جنوبي البحر الأبيض المتوسط، وكانت الجزائر إحدى هذه القوى التي أَنْغَصَت نوم الأوربيين طيلة ثلاثة قرون من الحروب البحرية، لذلك حاول الأوربيون القضاء على هذه القوى بمختلف الوسائل السلمية منها والحربية (هجمات جماعية ومنفردة، إنذارات، لوائح مؤتمرات الخ..). وعندما ضعف حكام الجزائر استولى الفرنسيون على هذه البلاد، وبقيت صورة الصليبي الكافر المعتدي راسخة في الأذهان، فهو الرومي وهو النصراني.

وقد عمق من تلك الفجوة بين الجزائريين والمسيحيين ما كان يرتكبه الفرنسيون من أعمال إرهابية تجاه الوطن والدين، من خلال التضييق على حياة الناس المادية والروحية.

---

[457] رواية بوغوفالة عبد الجبار، 77 سنة، مجدوبي، عين الصفراء1995. لكن المجادبة هؤلاء كانوا من الذين ناصروا الشيخ منذ اندلاع مقاومته سنة 1881 حتى هجرته إلى دلدول سنة 1883.

وأمام هذه الأوضاع ولمواجهة الفرنسيين التجأ الناس إلى زعماء الطرق الصوفية المتواجدين آنذاك على الساحة، من أجل قيادهم في الجهاد؛ لأنهم يمثلون السلطة الدينية التي رأوا فيها المُعَبر الحقيقي عن رفضهم للعدوان الأجنبي من جهة والكافر من جهة أخرى.

وتتجلى صورة الفرنسي الكافر أكثر فيما يروى من أشعار شعبية موروثة عن عهد الشيخ بوعمامة عندما كانت حركته على أشدها بين سنتي 1881 و1908، من ذلك قول الشاعر الشعبي بن سليمان المذكور سابقا:

الكـــافَرْ لَلبْـــلادْ عَمَّـــدْ والسَّحيعْ مَن بْعِيدْ يَرْهَـــب

يَتْوَفَّى كَمْ مَـــن مُجاهَـــدْ مَذْكـــورْ الفـــارَسْ الْمْشَبَّبْ.

فالشاعر يشير إلى الفرنسي بـــ "الكافر" في قوله: "الكافر للبلاد عمد"، ويسمي الذي يحاربه بـــ "المجاهد" في قوله: "يتوفى كم من مجاهد"، والكلمتان مستمدتان من المصدر الإسلامي.

ويقول في مكان آخر عن مختلف الأجناس الغازية الكافرة:

جابْ لْنـــا خالْقـــي بْلِيَّـــة شَـــاوْ بْدَا فـــي الْمْدونْ عاشَرْ

بَقْنـــوسْ مْقَلْبَـــة سْمِيَّـــة تَسَمَّى بَاسْمْـــها الكافَـــرْ.[458]

لقد كشف العدو الكافر عورات الناس وتدخل في حياتهم، وهاهو الشاعر الشعبي يتحسر على بلاده الصحراء التي لم تنج منه:

حَسْراهْ عْلِيـــكْ يَالصَّحْرا مْنين كُنْتِ للمْـــــلاحْ هَمَّة

وَلْـــوا سُكانْها نْصَارَى عَرُّوها مَـــنْ سْناغْ حُرْمَـــة.

وقد قال الشاعر العاصمي مثل هذا عندما سقطت الجزائر العاصمة في أيدي الفرنسيين سنة 1830:

---

[458] الراوي هو معمري الصحراوي السابق الذكر.

يــا مَــنْ دْرَى يافُضَــلا حَسْــراه وينْ هِيَ مَزْغَنَّــةْ!
سُلْطانَــةْ المُــدونْ جُمْلَــةْ وَلاَّتْ غِيرْ في ايْدْ اعْدَانَــــا
وَلاَّتْ للنَّصارَى شِينِينْ الدِّينْ.[459]

لقد عَمَد الفرنسيون إلى غلق المدارس والمساجد ومتابعة المعلمين ورجال الطرق الصوفية بالعقاب والسجن والنفي، وبَنَوْا مدارس لتعليم اللغة الفرنسية ومؤسسات لنشر الدين المسيحي، وانطفأت الأنوار وعم الظلام من أقصى البلاد الإسلامية إلى أقصاها. يقول الشاعر الشعبي الشيخ ولد المجدوب في قصيدة يتحسر فيها على غياب الشيخ ويذكر أوضاع البلاد السيئة:[460]

مَن فاس لْسوسْ والدّْزايَرْ وَالعُرْبانْ مَــنْ بَغــداد الْيَــا لْبَرْقَــمْ
طْفَــتْ الانْــوار وْضَــوْ وْتِيقَــانْ وبَعْد الصَّحْو الحال دَرْكَمْ.

ويقول شاعر شعبي مجهول عن انتشار الصليبيين ومحاولة القضاء على الديانة الإسلامية ما يلي:

قــال يْجيكُمْ رَهِيــــبْ يْخَرَّبْكُمْ تَخْــريــــبْ
في قَــوْلَــهْ كَــذِيــبْ في الدِّيــــن يْــبَـــدَّلْ
مَــــنْ ذُرِّيةْ المَســيــــح اشْمَتْــهُــمْ شَمِيـــتَ
بالِيسْ المَنْتَلْ.[461]

إن الفرنسي الذي كان يهدف إلى القضاء على المقومات الشخصية للشعب الجزائري، يستحيل التعاون معه أو موالاته، بل يجب محاربته عن طريق الجهاد، هو ومن يتعاون معه من الجزائريين ، لذلك كان الشيخ يُغِيرُ على كــل

[459] عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي، ص: 394-395.
[460] رواية ابنه الصافي سليمان، 86 سنة، تاجي، عين الصفراء 1995.
[461] رواية بوشيخي الجيلالي، 58 سنة، بن باديس ولاية سيدي بلعباس 1995.

من يخضع للفرنسيين أو يمدهم بالعون، فيقتل أفراده ويغنم أمواله وممتلكاته. يقول أحد الرواة عن ذلك: "... بوعمامة اللي كانوا يَعْطوهْ عاهَدْ ويْدُورُوا لَفْرانْسَا كانْ يَحْرَقْ لِيهُمْ الزَرَعْ ويُكَتْلْ ليهُم الناس، هَذي كانَت حتّى في الثورة نْتاعْنا... هُما كانوا مْعَهْ ولكِنْ تْرَدْدُوا، دارَتْ مَنْهم فْرانْسا باشَواتْ، وَفْرانسا كانت تْدِيرْ هَذيكْ السياسَة..."[462]

وقد أطلق الناس على هؤلاء المتعاونين تسميات تحقيرية مختلفة، وبخاصة في عهد الشيخ بوعمامة، حيث كانوا ينعتوهم بـــ "المْزَانات"، والكلمة فصيحة، إذ أن معنى مَزَنَ من العدو: فر، وتمزَّن: مضى لوجهه وذهب. يَذكر أحد الرواة أن أفراد قبيلته "...جاوْا مْوَزْنين، يْقولْ لِيهُمْ مْزَاناتْ، خُدامْ المَسيحيين، مَحْسوبْ كِي اللّي يْقول لَهْ: رَانْدَه، وْوَلُوا مْوَزْنينْ."[463]

ويقول الشاعر الشعبي محمد بلخير شاعر أولاد سيد الشيخ في الفترة نفسها ما يلي:

اللي بْغَى الجَنة يْضادْ الكافِرينْ وَاللي بْغَـــى الهْنَا بْغَـــى التَّمْزانْ.

ويقول الشاعر الشعبي البشير الجريري في الموضوع نفسه ما يلي:

كانْ ماجاهَدْتُو تَسَّمُّوا مْزاناتْ والجْهاد حْلالْ اللي جاهْ في بْلادُه.

وقد سماهم محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه "تحفة الزائر" بـــ "القبائل المتنصرة" و"المرتدة". يقول عن العقوبات التي كان الأمير يفرضها على هؤلاء: "وقد كان الأمير يعاقب من يقع في أيدي ضباط الثغور من أشقياء المتنصرة كالدواير والزمالة والبرجية وغيرهم ممن يواصل العدو ويتسلل إلى مدنه بما اختلسه من المسلمين من عروض وماشية بما دون القتل، إلا من تحقق ضرره

[462] رواية رقيق حسن، 61 سنة، من أولاد سيد الشيخ، وهران 1995.

[463] رواية الشلالي العربي، 84 سنة، من أولاد سيدي أحمد المجدوب، عين الصفراء 1994. (ترك هؤلاء الشيخ في دلدول وعادوا إلى مضاربهم بشمالي الصحراء). والموزنين والمزانات هم الموالون للأعداء وعملاؤه.

للمسلمين فكان يأمر بقتله، ثم بدا له أن يستفتي المحققين من علماء مصر وفاس في شأنهم وشأن مانعي الزكاة والإعانة التي افترضها للقيام بأمر الجهاد وغير ذلك، مما اضطره الحال إلى السؤال عنه تأكيدا لحُجَّته وتوطيدا لِمحَجته..."[464]

وهو تشابه في كيفية معاملة العملاء لدى مختلف زعماء المقاومات المسلحة.

وهاهو شاعر شعبي آخر يُبْرِزُ رأيه في أعوان الفرنسيين "النصارى" ويدعو عليهم في إحدى قصائد مدحه لبوعمامة، فيقول:

مَن باعْ الأَسْـــلامْ لَلنَّصـــارَى   تَخْلَى دارَهْ، ما تُقعُدْ فيها قاعْ مارَه
يْموتْ حْرامْ كِـــي الفَـــارَه   ويَبْعَثْ مْـــعَ النـــصــــارَى.[465]

لقد كان الأوربي الصليبي عدوا كافرا دائما لتعديه على حرمة البلاد وعمله على إذلال المسلمين، وهاهو الشاعر الأخضر بن خلوف، مثلا، من القرن السادس عشر يسمي الأوربيين كفارا ونصارى وروماً في إحدى قصائده عن معركة مزغران سنة 1558م فيقول:

ياسايلني كـــيـــف ذا القـــصة   بيـــن النصراني وخيـــر الديـــن

إلى أن يقول:

ارْكَب فـــارس اســـبـــق ودَنا   بالتعريـــف يبـــشر السلطـــان
البـــارح يقـــول جات الـــروم   يـــا فـــرســـاني غاوْلـــوا انتما
بإذن الله الـــواحـــد القـــيـــوم   تَمْسَى بيت الكفر مهدومـــــة.

وبما أن الفرنسي هو عدو كافر وظالم طاغ، فإن قتله واجب ديني، ومَن قتله دخل الجنة، ويَرِد في هذا الشأن بعض المقاطع في الروايات الشعبية التي تُبَين رأي الشيخ بوعمامة في الفرنسيين.

---

[464] محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر،الجزء الأول، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903، ص: 206.

[465] رواية البشير عبد القادر، 63 سنة، من تيوت، المقابلة في مشرية 1997. والده هو الشاعر الشعبي معمر ولد سليمان قائل القصيدة. توفي سنة 1949 عن عمر يناهز السبعين سنة.

تذكر هذه الروايات أن ضابطا فرنسيا زار الشيخ في مستقره بالمغرب الأقصى، فلاحظ أن يده ترتجف، فاقترح عليه زيارة طبيب فرنسي من أجل الإستطباب، فرد عليه الشيخ بأن شفاءه يكون بقتل الفرنسيين، فقال له الضابط: إن الفرنسيين يحبونك لأنك رجل شهم شجاع وصريح صاحب مبدإ، فلماذا تكرهنا أنت؟ فقال الشيخ: بل أحبكم لأنكم السبب في دخولنا الجنة، فمن يقتلكم يدخل الجنة، ومن تقتلونه يدخل الجنة أيضا، فلماذا نكرهكم إذن؟[466]

ويقول المؤرخ الفرنسي شارل فيرو عن الفرد الجزائري من سكان الجنوب بأنه جندي وفارس بالطبع، يسرع إلى سلاحه عند سماعه لصوت البارود، ولا ينشغل بغير تفقد ذخيرته الحربية، "أما إلى أين يقاد، فهذا أمر لا يعنيه، فالمهم هو أن يعرف بأنه ينال الجنة إذا قاتله الكفار... (وأنه) يؤمن كثيرا بتاريخ مجده، وينقاد بسهولة إلى الدعوات الدينية."[467]

وكان الشيخ يرفض التعاون مع الفرنسيين أو عقد الصلح معهم مهما كان الأمر، لأنهم كفار غزاة لبلاد المسلمين. فقد رد على اقتراح عبد الملك بن الأمير عبد القادر بالتوقف عن معاداة قوتين كبيرتين هما قوة فرنسا والسلطات المغربية التي عقدت الصلح معها(اتفاقيتا 1901 و1902)، والذي زاره في زاويته سنة 1903، رد عليه بأنه لن يخضع للفرنسيين ولن يتصالح معهم، وذلك حسب أحد الرواة في قوله: "قال له أبداً، مايَمْكَنْش نَتفَقْ مْعَ الكفار وإلا نْديرْ

---

[466] رواية كل من: -بن زيان سعيد، من بني ونيف. -قدوري قدور، من عين الصفراء. -بوعمامة حمزة، من عين بني مطهر بالمغرب الأقصى -الزاوي بوعزة من أولاد ميمون بولاية تلمسان..

[467] محمد العربي الزبيري، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، ش و ن ت، الجزائر 1972، ص: 80.

شِي أخبارْ، غَيْرْ كونوا مَتْهَنْيِينْ."[468] وأضاف قائلا: "والله ما يَحْكَمْ فِيَّ لاَ رومِي وَلا... نْعِيشْ حُرْ ونْموتْ حُرْ، نْعِيشْ مَسْلَمْ ونْموتْ مَسْلَمْ." أي أن الشيخ كان يرى المصالحة مع الفرنسيين والانضواء تحت حكمهم هو خروج عن الإسلام، ولذلك سيبقى حرا من أية التزامات مع الفرنسيين الكفار إلى أن يلقى الله.

وهكذا مَثَّلَ الفرنسيون العدو الكافر الذي يحارب الدين ويستولي على رموزه ومقدساته، والذي يجب معاداته وعدم موالاته.

د-صورة الفرنسي الجبان:

يَقِل في هذه الروايات ذكر المعارك التي ينهزم فيها الشيخ ورجاله، بل إن جل المعارك يكون فيها هو المنتصر، فالفرنسيون يتشتت شملهم بمجرد رؤية الشيخ أو كلما ظهر لهم على صهوة جواده، فتعود فرقهم أدراجها منهزمة خائبة منكسرة، سواء دخلت المعركة أم لم تدخلها.

فقد اتفق الشيخ، ذات مرة، مع أحد الحكام الفرنسيين على اللقاء في مكان تحدده الرواية باسم: "رُصْفَة اليهودية"، على أن يصحب كل منهما عددا من الجنود لا يتعدى الخمسة عشر نفرا، وهذا ما حدث، إلا أن القائد الفرنسي وبعد أن وقف في أعلى المرتفع رأى كل تلك الأراضي بجانبه (من رُصْفَة اليهودية إلى لفكيك) عبارة عن جيوش جرارة، فما كان من الفرنسيين إلا أن شدوا على سنابك الخيل لا يلوون على شيء، "هْرَبْ راعَبْ مَرْعوبْ."[469] ويبدو أن الرواية استلهمت ذلك من الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

[468] رواية بوعمامة حمزة، 72 سنة، عين بني مطهر بالمغرب الأقصى، ماي 1999.

[469] رواية بودواية الحبيب المذكور سابقا.

"..سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان."[470]

ومن ذلك أيضا أن الفرنسيين عبئوا جيوشا ضخمة وصحبوا معهم آغوات جزائريين، قَدِم بعضهم من الصحراء وبعضهم من الغرب وآخر من التل، مثلما تذكر الرواية، ولكن الفرنسيين فوجئوا برؤية جواد أسود وقيل بل أدهم، فأصيبوا بالهلع بمجرد رؤية ذلك الجواد، "دَيَّرْهُمْ واحَدْ الرُّعْب ويْحُوا هارْبِينْ."[471]

وتذكر رواية أخرى أن الشيخ كان لا يعبأ بالقوات الفرنسية مهما كان عددها، إذ كان اعتماده على الله وعلى الكرامات التي كانت تظهر على يديه. من ذلك أن الفرنسيين هاجموا زاويته ذات مرة، وبدأت طلقات المدافع تصب حول الزاوية كالمطر، وأتته النساء تستنجدن به، وهو لا يعيرهن اهتماما، بل أخبرهن أنه لا خوف من أسلحة الفرنسيين بقوله: "أَوَدِّي بارُودْهُمْ راهْ ما يْضُرْ إلاَّ يْهَرْا". وبعد الانتهاء من شرب قهوته، خرج من خيمته وهو يحمل مسدسه، ثم أطلق طلقة واحدة في وجوههم، "وهِيَ تْجِي مْوَلْيَة-فْرانسا- تْعَفَّسْ في بَعْضها بَعْض، مْشاتْ هارْبَة." ليس هذا فقط، بل إن الشيخ عندما استعمل المنظار من بعيد رأى الفرنسيين فارين، وقد نزع كل عسكري منهم قبعته وانطلق هاربا لا يلوي على شيء، وهم يتنادون فيما بينهم هلعا: بوعمامة!! بوعمامةَ!![472]

كان الشيخ لا يهاب الفرنسيين، وكان حديثه معهم حديث الند للند، يقول عبد الوهاب بن منصور صاحب كتاب "أعلام المغرب العربي" عن ذلك

[470] سورة الأنفال، الآية: 12.

[471] الراوي بودواية الحبيب السابق الذكر.

[472] رواية حسني عبد القادر، 63 سنة، أولاد عبو ولاية أدرار، ديسمبر1995.

ما يلي: "وكان إذا طُلِبَ منه التفاوض مع ولاة فرنسا طلب منهم أن يقطعوا إليه نصف الطريق على أن يقطع هو نصفها الباقي، حرصا على قواعد البروتوكول المعمول بها بين النظراء والأنداد..."[473]

من ذلك أن أحد الضباط الفرنسيين زاره وهو بالمغرب الأقصى، فاستقبله الشيخ مثلما يَستقبل الضيوف، وعندما سَلَّم الضابط لم يرد عليه السلام بل دخل معه الحديث مباشرة. كما أن الراوي يشير إلى هذا الضابط الفرنسي بصيغة التصغير التي تدل على التحقير مثل قوله: قال له القبَيْطين ... والرُّوَيْمي... وقد وردت الكلمة الأخيرة مرتين في الرواية.[474]

وفي المعنى نفسه، أي استعمال صياغة التصغير بغرض التحقير وتصوير الفرنسي في صورة الدنيء المتخاذل، يقول الشاعر الشعبي المجهول، عن معركة تازينة التي انتصر فيها الشيخ، مايلي:

ياكْ تْواجْبــوا نْــهارْ الجَمْعَــة وْسِيدِي ضْحَــكْ وْجَا السَّرْ عْلِيهْ

وْطَيّحوا جْــوَيْفَــة لْجَــهَنَّـــمَ رَاها سابْقَة لَهْ في العَرْشْ العالي.[475]

فكلمة "جْوَيْفَة" هي تصغير للجيفة، وهي الصفة التي نَعَت بها الشاعر الفرنسيين الذين مآلهم جهنم، وذلك سابق في الأزل في علم الله، فالفرنسي الكافر الجبان مآله النار وبئس القرار.

أما عندما توفي الشيخ فإن الفرنسيين لم يصدقوا ذلك، وكَذَّبوا من قال بموته، بل إن الرواية تجعلهم يبحثون عنه. ويشير العديد من الرواة إلى أن الفرنسيين لم يستولوا على بلدة عيون سيدي ملوك إلا سنة 1910، أي بعد ثلاث سنوات من احتلالهم لمدينة وجدة، والتي كان الشيخ متواجدا بها قبيل

---

[473] عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط 1979، ص: 91.

[474] رواية حَسَني عبد القادر المذكور سابقا.

[475] رواية بوعامر ميمونة، لكثر من قرن، من أولاد سيد التاج، المقابلة في 1995.

وفاته، فقصدوا مقبرة سيدي ماخوخ وحفروا خندقا للوصول إلى قبر الشيخ كي يتأكدوا من وجود جثمانه، لكنهم لم يجدوه في القبر، فسألوا عنه فلم يجدوا جوابا وافيا، ويصل الأمر بأحد الرواة إلى أن يؤكد على أنه شاهد الخندق بعينيه عندما زار الزاوية في المغرب منذ عقود من السنين. وأن هؤلاء قد قاموا بالعمل نفسه في كل من مقبرة فكيك وبلدة سيدي ابراهيم ولم يجدوا شيئا هناك أيضا.[476]

لقد أراد الفرنسيون معرفة هذا الرجل الذي لم يستسلم لهم رغم المغريات التي وعدوه بها ورغم استسلام بني عمومته من زعماء أولاد سيد الشيخ الآخرين. يذكر أحد الرواة أن الفرنسيين أرادوا من ذلك البحث، معرفة مخ الرجل الذي استطاع الصمود طوال ثلاثة عقود من السنين.

إنها المخيلة الشعبية الخلاقة التي تحبذ التهويل، إن البطل الشعبي هنا يبقى بطلا حتى بعد وفاته، لأن الزمن الشعبي ممدود لا تحده حدود ولا توقفه حواجز. لقد قال الشيخ لبعض رجاله الذين طلبوا منه التوقف عن معاداة الفرنسيين، بأنهم إذا سمعوا البارود في قبره فليعلموا أنه في حرب مع الفرنسيين.[477]

لقد مثل الفرنسيون للشيخ العدو الأول والأخير طيلة كفاحه الطويل، لذلك استمر في معاداتهم طوال الفترة التي حاربهم خلالها، ولم يقبل الاستسلام لهم أو الاستقرار في الأراضي التي يسيطرون عليها، لأنهم العدو الكافر والظالم المعتدي.

---

[476] رواية قدوري قدور، 64 سنة، تاجي، تيوت ولاية النعامة، ماي 1995.

[477] رواية بوعمامة حمزة، السابق الذكر.

استنتاجات عامة

لقد استْمدت هذه الصور من المعتقد الشعبي من جهة، والإسلامي من جهة أخرى. فالفرنسي هو "الرومي" الذي يعني في معتقد سكان شمالي إفريقيا المحتل المعتدي، وقد تسربت هذه الصورة عبر الأجيال لتعبر عن المحتل الأوروبي القديم لهذه المنطقة، والمتمثل في الرومان والوندال والروم البيزنطيين منذ ما قبل الإسلام، والذين عاثوا في الأرض فسادا كمستعمِرين استغلوا ما فوق الأرض وما تحتها، ولم يعيروا السكان اهتماما، بل استغلوهم أشنع استغلال، وسموهم برابرة.

وعندما حل المحتل الفرنسي في العصر الحديث بالجزائر، لم يَحِد عن سيرة سابقيه الرومان، بل سار على دَرْبِهم، خاصة وأن الفرنسيين اعتبروا أنفسهم جاءوا لاستعادة مجد روما الغابر وإحياء المسيحية التي قضى عليها الإسلام في هذه الربوع. قال الكاردينال لافيجري سنة 1867 في خطاب تنصيبه أسقفا للجزائر ما يلي: "ما هو تاريخ شمالي إفريقيا؟ اسألوا عنه الآثار التي تملأ أرضكم تجدونها أثار ثلاث دول وأجناس، وهي بقايا حضارات ماجدة مختلفة."[478]

لقد عبر القسيس بوضوح عما كان يعنيه المستعمر فعلا، أي أن المستعمر جاء ليستعيد مواقع الرومان والوندال والبيزنطيين في هذه البلاد. لقد كان الصراع طويلا بين سكان هذه المنطقة وبين العساكر الأوربية الوافدة قديما وحديثا.

وفي العصور الحديثة تعرضت المنطقة لحرب صليبية مسعورة، فمنذ القضاء على غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس سنة 1492م أصيبت المنطقة بضربات يائسة وجهتها بَحْرية الدول الأوربية، إذ كانت المنطقة هدفا

---

[478] المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو 1973.

لسلسلة من الحملات العدوانية التي شنها الغرب الأوربي المسيحي تحت راية الصليب. وقد ترك هذا الصراع بين الغرب المسيحي والشرق المسلم أثرا سلبيا على شتى جوانب الحياة في المنطقة.

وكانت الجزائر من أكثر بلدان المنطقة استهدافا، لموقعها الإستراتيجي وإمكانياتها المادية، كما أنها كانت تشكل معقلا لرجال البحرية خلال العهد العثماني، الذي سبب للأوربيين الكثير من المآسي.

فعلاقة الجزائريين بالفرنسيين إذن هي علاقة تنافر وتباعد وعداء، فلا رابطة تربطهم ولا قاسم مشترك يجمعهم. إن الفرنسيين يمثلون الكفار، الذين يجب الحذر منهم وعدم موالاتهم أو الركون إليهم، بل وكما جاء في القرآن الكريم: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين منهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم."[479]

وقد خلّف الشيخ بوعمامة نفسُه قصائد صوفية تعبر عن مواجده، منها بعض الأدعية التي يدعو بها على الفرنسيين، كقوله:

رانِي داخَــــلْ حِـمـــاك   لا أســأل أحــداً سِــواكْ
عَجِّلْ لَلْعَــدُو بَالْــهَــلاكْ   يــا مَــنْ هُــوَ الله الله
سألــتك يــارَبُّ الأربــابْ   بُيوتْــهــم للخَــــرابْ
حــتــى يْصِيروا تُــرابْ   دَكًّا دَكــا يَــا اللــه.[480]

ويقول في بيت من قصيدة أخرى وفي المرجع نفسه مستجيراً بالإله متوسلا برسوله:

يا ربِّ يا رَحْمَن! أجِرْنا مِنَ الكُفْر   بْجاهْ رَسولَ الله يا عَظيمَ القَدْرْ.

[479] سورة الأنفال، الآية 60.

[480] بوعمامة بلحرمة، ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة، مذكرة ليسانس في الدراسات الإسلامية، جامعة محمد الأول بوجدة، 1989/1990، ص: 50.

هذه هي صورة الفرنسي في روايات الشيخ بوعمامة، والتي لا تختلف كثيرا عن الصورة العامة في الموروث الشعبي الجزائري، الذي يستلهم ذلك من ارتباطات دينية أو عَقَدِيَّة تمتد جذورها في أعماق التاريخ الشعبي المميز. إنها صورة لتراث "متأصل من جيل إلى جيل ومختزن في البنية الفكرية اللاشعورية من الوجود الحضاري للذاكرة الجماعية الشعبية..."[481]

فالجماعة تعبر عن ذاتها المميزة وتحاول أن تعطي الصورة المثلى للإطار العام الذي يتحرك فيه الفرد أو البطل، وذلك عن طريق الموروث الشعبي المعبر عن ثقافة المجتمع. وبما أن هذا الموروث الشعبي يتسم بالبساطة والعفوية فإنه لا يعير الأحداث التاريخية اهتماما دقيقا، بل هو يعكس رؤية الجماعة لتلك الأحداث دون اعتبار للزمان أو المكان أو الأفراد، أي أنها قراءة شعبية لأحداث التاريخ، وهي في الحقيقة "قراءة نفسية تعويضية لصالح الجماعة التي تصر على إثبات دورها في صياغة تاريخها."[482]

وتأتي هذه القراءة بواسطة الكلمة التي تسير بها الركبان وتنقلها الألسنة، "وهذه الكلمة لا تأتي من فراغ، وإنما هي تأتي محملة بكل التجارب السابقة التي مرت في استعمالاتها المتعددة، تأتي وقد حفلت بالرموز والإيحاءات والدلالات."[483] وهي تشير أحيانا إلى أشياء معروفة وتشير أحيانا أخرى إلى أشياء غير معروفة، استنتجها الضمير الإنساني.

لقد انهزم الشعب الجزائري أمام جحافل القوات الفرنسية، وكان ذلك صدمة مؤلمة عجز الناس عن تفسيرها، فعمد الوجدان الشعبي إلى التفسير

---

[481] محمد حسين دكروب، الأنثروبولوجية، الذاكرة والمُعاش، دار الحقيقة، بيروت 1991، ص: 28.

[482] قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، إين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998، ص: 42.

[483] فاروق خورشيد، الموروث الشعبي، دار الشروق، 1992، ص: 50.

والتعويض النفسي من خلال الأبطال ليطرح للناس ما تتقبله عواطفهم من تعويض، فيتغلب الخيال على الحقائق التاريخية."[484] لهذا فإن الخيال الشعبي ينتقم من هؤلاء الغزاة الذين سببوا له الآلام والمعاناة وألحقوا بالبلاد أضرارا فادحة، فيضعهم في مواقع ذميمة كالمخادعين والجبناء حينا والظلمة الكافرين حينا آخر، ويصرف عنهم كل الصفات الخلقية النبيلة.

ومن الطبيعي إذن أن يوصف الفرنسي بالكفر من منطلق عدائي، وهذا يعكس المشاعر التي خلّفها العدوان الفرنسي على البلاد، ومن غير المنطقي أن يقوم الناس للجهاد ضد غزاة من غير أن يعتبرهم كفارا.

لقد "كانت أحاديث البطولة التي تدور في كل مجلس أو تروى في كل خبر... تمثل الصورة الجليلة التي يَبقى الأبناء متعلقين بها ومشدودين إلى كل حالة من حالاتها، لأنها تبقى رفيعة في تصور الأجيال، مقروءة في أدبيات الأمة على المدى الزمني الطويل."[485]

إن الشعور بالكراهية والمرارة التي عَلِقَتْ بالوجدان الشعبي تجاه الفرنسيين من جراء الحروب الطويلة والمآسي المتتالية، وجدت متنفسا لها في الصفات التي ألصقت بالفرنسيين.

لقد استحق الفرنسيون عداء الجزائريين المسلمين عن جدارة بسبب فظاعتهم وعدوانهم على البلاد، وقد وجد هذا العداء وهذه الكراهية مجالا للتعبير والظهور في أنماط الإنتاج الأدبي الشفوي في الحكاية الشعبية وفي القصيدة والمقطوعة.

---

[484] المرجع نفسه، ص: 169.

[485] نوري حمودي القيسي، المرجع السابق، ص: 11.

سابعا :القوْل، المرأة والثورة التحريرية

اندلعت الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي في أول نوفمبر من سنة 1954 تحت قيادة جبهة التحرير الوطني، والتف الشعب الجزائري تحت لوائها. وصَدَقت بذلك مقولة البطل الشهيد العربي بن مهيدي، قائد الولاية الخامسة آنذاك، وهي: القوا بالثورة إلى الشارع فإن الشعب سيحتضنها. وتوحدت كلمة الشعب الجزائري من أقصى البلاد إلى أقصاها لأول مرة منذ دخول الفرنسيين أرض الجزائر.

وقامت جبهة التحرير الوطني بتعبئة الشعب الجزائري من أجل القضية الوطنية بواسطة مجاهديها ومحافظيها السياسيين وجريدتها "المجاهد" وإذاعتها التي كانت أحد ركائز ووسائل توصيل الخطاب الثوري للجماهير الشعبية بكل فئاتها.

وكان لفنون القول الشعبية دورها الفعال هي أيضا في هذه العملية النبيلة بواسطة الكلمة الشعبية البسيطة من أفواه مبدعين عصاميين، هم من أوساط الشعب المقهور، يتحدثون لغته اليومية ويعيشون مأساته كغيرهم. خرجوا عن الصمت المطبق إلى الكلمة المعبرة عن النفوس الجريحة، تبكي المأساة وتعمل على تضميد الجراح التي لم تندمل، وتفتح للشعب الأمل العريض من أجل غد أفضل ومستقبل واعد، "وتنظيم القصائد والأغنيات الشعبية ترددها الألسنة ويتغنى بها الأطفال في كل مكان، ترفع من معنويات المجاهدين ومعنويات الشعب، وتعوض الكثير من وسائل الإعلام وأجهزة الدعاية التي كان يستعملها

المستعمر، ولا تملك منها الثورة إلا أحاسيس وألحانا وكلمات مؤثرة تزيد الثورة كل يوم قوة على قوة."[486]

وكان فن "القول" أحد أبرز وسائل التعبئة والنضال لِرَصِّ الصفوف وتوحيد الكلمة.

فما هو القوْل؟

القول لغة هو الكلام والتلفظ والمخاطبة. والقَوَّال والقؤول هو الحسن القول والكثيره. والقوَّال في اصطلاح الزجالين من يقول الأزجال ارتجالا.[487]

وهكذا يقترب المعنى الفصيح من المعنى العامي المقصود؛ لأن القوال في هذا الأخير يعني الشاعر الشعبي الذي يقول الشعر طبعا. ويُنطق حرف القاف هنا مفخما فيما يشبه نطق المصريين لحرف الجيم.

ويَستخدِم أحد الشعراء المجهولين تسمية "القوْل" في الشعر الشعبي كما في البيتين التاليين:

باســـم الله بْدِيـــتْ القـــوْل   يا نـــاس صَلوا على الرسول
اللي مات للجنـــة والقصـــور   وسبعين من بَنات الحور."[488]

وتطلق تسميات أخرى على الشعر الشعبي لا مجال للتعرض لها الآن، لأن ما يهمنا هنا هو كل ما يرتبط بكلمة "القوْل" التي نود التعرض لها في هذا المقام. فبالإضافة إلى ماسبق قوله حول مصطلح "القول" نجد له تفسيراً آخر في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، وفي منطقة جبال القصور تحديدا. هذا التفسير يعني نوعا من الشعر الشعبي الذي كان يُغنى ولا يزال من قبل النساء في

---

[486] زهور ونيسي، المرأة والثورة، الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة المنعقد بعناية يومي 9 و10 جوي 1996. مطبوعات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص: 206.

[487] المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، الطبعة 26، بيروت، بدون تاريخ.

[488] التلي بن الشيخ، المرجع السابق، ص: 384.

الأفراح العائلية وخلال المواسم المحلية؛ إلا أنه أخذ مدلولا جديدا خلال الثورة التحريرية 1954-1962. إنه شعر شعبي وطني ثوري يدخل في إطار ما يُدعى بالأدب النضالي الذي واكب تاريخ الشعب الجزائري خلال المرحلة الاستعمارية 1830-1962، والذي كان من أهم أغراضه التعبئة الشعبية وربط الجماهير بأصولها والتعبير عن مأساتها بالكلمة الشعبية البسيطة.

ويتميز هذا "القول" بخصوصيات محددة، أهمها:

-أنه يغنَّى من قبل النساء جماعيا في جلسة ذات شكل دائري بمصاحبة آلة الدف التقليدية (البَنْدير)، ولا يلقى إلقاءً كما هو معروف عن بقية الأشعار الشعبية الأخرى.

-يُغَنَّى أيضا أثناء رقصة الصف التي تنقسم فيها الراقصات إلى صفين متقابلين، يتحركان نحو بعضهما ثم يبتعدان مسايرة للحن ولضربات البندير الذي تحمله بعضهن، كما يغنى في رقصة ثانية وهي الحيدوس.

-هو عبارة عن مقطوعات في مجمله، إلا أننا قد نجد أحيانا قصائد متوسطة الطول تدخل في هذا المجال.

-هو شعر جماعي مجهول المؤلف لأنه كثيرا ما يتم ارتجاله أثناء جلسة الغناء.

وقد قمنا بجمع بعض المقطوعات من هذا النوع الذي واكب الثورة التحريرية في المنطقة المذكورة آنفا، وسنتعرض إليه من خلال مواضيعه، أي أننا سنقوم بدراسته موضوعاتيا.

1-التغني ببطولة المجاهدين

البطل شخص برز من الأوساط الشعبية وحقق في حياته انتصارات حببته للجماهير الشعبية، التي تمثلته، بمرور الزمن، نوذجا أسقطت عليه أحلامها وآمالها، وخلقت حوله هالة من التبجيل والقدسية.

والبطل صاحب حق وصاحب رسالة واضحة، تدفعه مبادؤه للعمل وفق رؤية معينة للحياة، وهو شخصية إيجابية "تعيش القضايا وتؤمن بها حتى النخاع وتضحي بحياتها من أجل هذه القضايا رغم تعقد الواقع وضبابيته."[489]

والشعر هو الوسيلة الناجحة للتغني بالبطولة والشجاعة بوصف الأبطال في حومات الوغى وبلائهم ضد الأعداء. وهو "أغزر مادة أدبية وأتقنها فنا وأكثرها تأثيرا، لأن الشعر خير معبر عما يختلج في النفوس، والقصيدة هي اللون الأكثر ملاءمة والأسرع تجاوبا وانعكاسا والتصاقا بالحدث اليومي للثورة."[490]

وهاهو فن القول المتداول بين النساء يطرق هذا الميدان بكل قوة، فيمدح المجاهدين ويذم جيش الأعداء:

آ الزّعَمَـــا نُـــوَّارْ الجّبـــال وزيْشْ[491] فرانسا رَاهْ اذبال.

وتتحدث المرأة عن هزيمة العساكر الفرنسية وتشتت قبعاتهم في المعركة، وتحيي في المقابل جنود جيش التحرير الوطني الذين كان النصر حليفهم وتقول:

خَـــلاوْا الشابـــو يَتْرامَـــى بُوحُورْ عْلِيكـــم يَا الزّعَـــمَـــا.

وعن استعراض جيش التحرير وقوة أسلحته الحديثة التي تفتك بالأعداء:

أ زيش التحـــريـــر فايـــت مَنا المورْطـــي[492] والعْشـــاريات

راكوا تعـــايْرونا بالطـــنوكة[493] والمورطي راه عند الريّاس[494]

---

[489] عبد الحميد بورايو، منطق السرد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994، ص: 97.

[490] أنيسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1995، ص: 65.

[491] الزيش: هو الجيش وقد قلبت الشين زايا لتسهيل النطق بها.

[492] المورطي: Mortier كلمة فرنسية تعني سلاح الهاون.

[493] الطنوكة: جمع لكلمة طنك Tank وهي كلمة أجنبية تعني دبابة.

[494] الريّاس: تعني الرؤساء أو الزعماء.

رافدين القرطاس[495] في وَسْط المَا[496] أولاد الدزايَــر[497]° يا الزعما

تَسْتاهْلُوا تــرْقــدوا فــوق الريش يا الزعما أصحـاب الزيش.

وعن أماكن تواجد المجاهدين بالغابة وبنائهم لمراكز نظامية مجهزة تقول المرأة:

لا تْحسَادوا[498] الزعَما ساكنين الغابة آ دَايْرين بْسَاط[499] في راس الجبل

لا تْحسادوهُمْ دَايْــريــن قرابَــة[500] آ دايريــن بْسَــاطْ فــي الغــابة

الزعَــما بــاروذْهُــم نمــيــلي[501] في الجــبــال ومــا يَّتْسْــمَعْشِي

آ الرَّايَسْ ويــن خَليــت الرّعِيَّــة؟ خليتها في الجَبَل ايْدِيها عْلى الأقراص.

وفي التغني بما فعل المجاهدون من أعمال يُمْدحون من أجلها يَرِد ما يلي:

واه ما داروا أولاد سيد الحاج المجاهدين وَاهْ مَا دَارُوا

رَفْدُوا سْلاحْــهُم لبْســوا مِنيتير[502] واه ما داروا

سَمْحــوا في الدّرَارِي والــوالْديــن وَاهْ ما دَارُوا

أولادنــــا أولاد سْــبَــكْــتــور واه ما داروا

رَعْــدوا البيرُو جُــوجْ مَنْ النــاس واه ما داروا

حَــرْقوا الكَــارْ وزادوا مُـــولاهْ واه ما داروا

وصَيّدوا في الطيــارة كالبُرْطال[503] واه ما داروا واه ما داوا

---

495 القرطاس: كلمة تعني الذخيرة، أو هي الطلقات التي تخرج من فوهات الأسلحة.

496 يقصد بذلك القِربَة التي يوضع داخلها الماء لأنها سهلة الحمل على ظهر الشخص. وربما استعملت لإخفاء السلاح.

497 الدزاير: هي الكلمة العامية لاسم الجزائر.

498 لا تحسادوا: أي لا تظنوا.

499 بُسَط: Poste كلمة أجنبية تعني مركز.

500 قرابة: هي جمع لكلمة قربي Gourbi وهي كلمة فرنسية تعني كوخ.

501 نميلي: بمعنى جيد، وبارود نميلي: بارود من النوع الجيد.

502 مينيتيرْ: Militaire كلمة فرنسية تعني عسكرية.

503 البُرْطال: كلمة محلية تعني الطير.

ابراهيـــم وخيَّهْ بوشـــريـــط[504]　　واه ما داروا
تيْمُوا[505] ابَّاهُم زاروا ومْشـــــاوْا　　واه ما داروا
سيدي معمر في واده ماصر الخدمة　　واه ما داروا
العسكر ولا ليجـــو[506] دَايَرْ بنَـــا　　واه ما داروا
أولاد العلج كالنخالة والبَرَكة في أولاد الوطن　واه ما داروا واه ما دا روا
مَتوَسَّد السجْرَة يَسْحادْها[507] أمَّه　　واه ما داروا.

وتخاطب المرأة الغابة كي تخفي وتحمي المجاهدين بأوراقها وأغصانها وبنباتاتها المختلفة:

يالغابـــة نَـــوّرِي نَـــوْري[508]　　أنَوْري دَرّقي ذاك الشبـــاب
نَـــوْري يـــا الغابـــة نـــوري　　أنوري يا الغابـــة نـــــوري
الغابة حْنينة دَرّقتْ أولادنا
نوري يـــا الغابـــة نـــوري　　أنوري درقي ذاك الشبـــاب
نوري يـــا الغابـــة نـــوري　　أنوري درقي ذاك الشبـــاب
البُسْطْ والغنَّايَة[509] في رَاسْ الجّبل
نوري يـــا الغابـــة نـــوري　　أنوري درقي ذاك الشبـــاب
نوري يـــا الغابـــة نـــوري　　أنوري درقي ذاك الشبـــاب.

504 إبراهيم وبوشريط ومنصور وسي امحمد، هي أسماء لبعض المجاهدين في المنطقة الجنوبية الغربية.

505 تيْمْ: وتيموا بمعنى مَروا بالمكان.

506 لاليجو: La Légion كلمة فرنسية تعني نوعا من المجندين الأجانب مع القوات الفرنسية كمرتزقة. La Légion étrangère

507 يَسْحاد: بمعنى يظن.

508 للنوار: هو الورد والزهر، أي أزهري أيتها الغابة لإخفاء المجاهد عن العدو الفرنسي.

509 البُسط: Poste كلمة فرنسية تعني مركز. والغناية: هي الحاكي المستعمل آنذاك للغناء بواسطة الإسطوانات.

وتتحدى المرأة العدو للإقتراب من أماكن تواجد الثوار، لأن الاستعمار تعوَّد على صب جام غضبه على المدنيين بدل مقابلة جنود جيش التحرير في الجبال، وبخاصة جبل الأوراس الذي أصبح رمزا للثورة والصمود:

الروبْلانْ الصفرَا[510] إلَى فِيكْ النيفْ أحَوْمـــي عْلَى جبَل لُورِيسْ
الرومـــي يا زَرْق العـــيـــنــــيـــن قَبَّاضْ عُمْرك راهْ في الكيفان
رانـــا مـــا دَرْنـــاشْ بالطـــيـــارة هَا فـــرانـــســـا الغَـــدَّارَة.

وعن تضحية المجاهدين بالمال والولد في سبيل تحرير الوطن:

آ خَـــلاوْا المـــال مـــع الاولاد آ طلعوا للجّبـــل يجاهـــدوا.

وتشجع المرأة المجاهدين وتحرضهم على الصبر والثبات والتغلب على المحن والشدائد والإتكال على الله الذي لاشك أنه ناصرهم فتقول:

زيدوا يـــا أولاد الدْزَايَرْ زيـــدوا واللي دَارْها رَبي السَّاعْ تكون
آ الساكْنيـــن الجّبـــل بْـــلاَ مَـــا راها التـــقوى عَنـــدْ مُـــولانا.

وتدعو لهم بالنصر والنجاح:

عاوَنـــهم يـــا العْزيـــز رَبـــي راهم يْدَاقـــوا[511] في الجّبـــال
يْعـــاوَنـــكـــم يـــا المجاهديـــن اليا كنتـــو مـــــع خـــويـــا.

وعن إلقاء القبض على الزعماء الجزائريين الخمسة في 22 أكتوبر من سنة 1956 والقرصنة التي وقعوا فيها من قبل الطيران الفرنسي، وهم في اتجاههم نحو تونس قادمين من الرباط على متن الطائرة التي كان ربانها فرنسيا، وذلك في إطار التشاور وتوحيد الجهود بين الزعماء المغاربيين، جاء ما يلي:

كي شْيّتي هـــذا الأخبـــار فرانســـا قبضوا الزعـــمـــا.

---

[510] الروبلان الصفرا: نوع من الطائرات اشتهرت في فترة الثورة الحريرية بشدة القصف، كانت تتقدم القوات الفرنسية.

[511] يَدّاقوا: بمعنى يحاربون.

كما تعرضت هذه المقطوعات للمناطق المحرمة التي جعلها الاستعمار الفرنسي أراضٍ لا يسكنها أحد، منعا لاستعمالها من قبل ثوار جيش التحرير الوطني. فبعد اندلاع الثورة مباشرة تم تحديد مناطق سميت "غير آمنة" Zones d'insécurité يُنقل السكان منها إجباريا. وقد تحولت تسمية هذه المناطق إلى "مناطق محرمة" Zones interdites، أعطيت للسكان بعض الأيام وأحيانا بعض الساعات فقط لإخلاء المكان والإلتحاق بمساحة محددة. وأحيانا، ومن أجل الضرورة الأمنية، يحل الجيش الفرنسي فجأة ويحاصر القرية ويقوم هو بنقل سكانها نحو المركز المحدد القريب.

لقد أرادت السلطات الفرنسية من ذلك تطبيق طريقة ماو تسي تونغ القائلة: "يعيش الثائر بين السكان مثل السمكة في الماء، فإذا فقد الماء ماتت السمكة."[512] وكان الهدف من تجميع السكان هدف عسكري واحد هو تجويع "الفلاقة" وحرمانهم من كل اتصال بالسكان. "والتجمع هذا يعني في نظر العسكريين الفرنسيين عبارة عن آلة حرب تسمح بقطع جيش التحرير عن قواعده الشعبية والدعم اللوجيستيكي الضروري له (أغذية، تجنيد، أدِلاء، معلومات...).[513]

فـ "منذ 1956 أخذت فكرة التجمع طابع الخطة المنظمة المستمرة لإخلاء كل المناطق -المتعفنة- بالثوار، من السكان وجعلها مناطق محرمة يحرق فيها كل شيء تطبيقا لخطة الأرض المحروقة."[514] وقد شملت كل المناطق التي

---

[512] انظـر: Michel Cornaton, Les Camps de regroupement de la guerre d'Algérie. L'harmattan, Paris 1998. P/62.

[513] انظر: IBID. PP/62-63.

[514] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980، ص: 393.

تمتاز بتضاريسها الوعرة، ويصعب على الجيش الاستعماري مراقبتها والسيطرة عليها، ومنها المناطق الحدودية.

وهي مناطق واسعة من البلاد كان على السكان الجزائريين إفراغها حينا، لأن القوات الفرنسية ستضرب كل شيء يتحرك على وجه هذه الأراضي، مما أدى إلى تشريد السكان وانتقالهم إما إلى المحتشدات -التي أقامتها السلطات العسكرية الفرنسية- رغما عنهم، أو إلى البلدين الشقيقين المجاورين المغرب وتونس؛ مما سيؤدي إلى بروز ظاهرة الهجرة.[515] وتسمِّي الأغنية هذه الجهات بكلمة "حْدَادَة"، لأن المناطق الحدودية كانت إحدى أهم المناطق المحرمة، من حيث كان السلاح يتسرب. وقد أقامت السلطات العسكرية الفرنسية الأسلاك الشائكة المكهربة والملغمة على الحدود الشرقية والغربية، فيما دُعِيَ بخط شال وموريس، لمنع كل تسرب للأفراد أو الأسلحة أو غير ذلك مما يأتي من الخارج لدعم الثورة في الداخل.

وكانت بعثة جبهة التحرير الوطني في الخارج هي المكلفة بتوفير السلاح الذي كثيرا ماكان الفرنسيون يستولون عليه في عرض البحار أو قرب الموانيء التي كان يُنتظر رُسُوٌّ السفن بها. ورغم كل هذا استطاع جيش التحرير الوطني استغلال هذه المناطق والمرور منها متحديا القوات الفرنسية.

وبما أن منطقة عين الصفراء هي منطقة حدودية مع المغرب الأقصى، فقد ركزت الأغنية على هذا النوع من المناطق المحرمة التي استغلها جيش التحرير، وأصبح يتنقل عبرها بكل حرية:

---

[515] أنظر:
Mohamed Teguia, IBID, P/359 et suite.

الْيَا قلتو عين الصفـــرا خْـــدَادَة والزعـــما حَوْســـوها بَنهار
يا الرِّياس اللي ماتـــوا في الخْدَادَة وينْ كُنتو يا زيش التحريـــر؟

وتدعو المرأةُ الجنديَّ للرفق بأخيه المجند حديثا، وتدعوا الجميع إلى التضامن والتعاون لتحقيق الهدف المشترك وهو تحرير الوطن وتقول:

آ الجندي حـــاوَلْ عْلـــى خيَّك الصحرا بْعيدة والســـلاح ثقيل
آ دَاوِي يا سِيدْ الطبيب وْحَاوَل الجنـــدي ما مْوَالَفْ بَجْـــراح.

أما التغني بشخصياتٍ بأسمائها فتَرِد العديد منها ضمن المقطوعات التي تم جمعها ميدانيا. فعن جمال عبد الناصر زعيم ثورة 23 يوليو 1952 المصرية، التي أطاحت بنظام الخديوي الملكي، والتي كانت عاصمته القاهرة مقرا لمكتب المغرب العربي الذي أسسته الحركات التحررية المغاربية في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، وكانت بعثة حركة الإنتصار للحريات الديموقراطية الجزائرية أحد هذه الحركات التحررية. هذه البعثة التي أصبحت ممثلة لجبهة التحرير الوطني منذ اندلاع الثورة سنة 1954، كما أصبح صوت الجزائر مدويا من إذاعة القاهرة للتعريف بالقضية الجزائرية وبث الوعي في الأوساط الشعبية المختلفة.

من ذلك يَرِدُ ما يلي:

شكون حَلْ الفتحة نتاع البابور جمـــال عبد الناصر المذكـــور.

لاشك أن صاحبة البيت الشعري كانت على علم بالأحداث؛ فـــ "الفتحة نتاع البابور" هي قناة السويس التي أممتها الثورة المصرية سنة 1956، والتي أعقبها العدوان الثلاثي على مصر في السنة نفسها بمشاركة فرنسا التي كانت تهدف إلى الانتقام من هذا البلد الذي كان يؤيد الثورة الجزائرية ويدعمها في كل الميادين، وبخاصة منذ المؤتمر الأفرو-أسيوي المنعقد بباندونغ سنة 1955 الذي حضره وفد ملاحظ عن جبهة التحرير الوطني، والذي أوصى

بعرض القضية الجزائرية على الأمم المتحدة، وكانت مصر الثورة وبعض البلدان الأخرى ممن طالب بإدراج هذه القضية في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر من سنة 1955.

ومن القصائد التي تتغنى بأبطال الثورة نجد هذه التي تخاطب "سِّي امْحَمد":

كِيفْ نْدير لك يا سِّي امْحَمَّدْ   كيف ندير لك لَجِيب[516] جات
الشِّيْ والمطلوع في رَاسْ الجّبل.
كيف ندير لك ياسـي امحمد   كيف ندير لـك لجيب جـات
توَكّى على الدومَة طيَّحْ ليتنه.[517]
كيف ندير لك يا سي امحمد   كيف ندير لـك لجيب جـات
لجيب دخلت للدوار خلعَت[518] الصغار.
كيف ندير لك يا سي امحمد   كيف ندير لـك لجيب جـات
لجيب تجري والرزايَز[519] طايْرَة.
كيف ندير لك يا سي امحمد   كيف ندير لـك لجيب جـات
امَّيْمْته تبكي وخَيْته تشتكي.
كيف ندير لك يا سي امحمد   كيف ندير لـك لجيب جـات.

[516] لجيب: Jeep نوع من السيارات السريعة التي كان الجيش الفرنسي يستعملها لمختلف مصالحه وفي ملاحقة أفراد الشعب الجزائري، لأنها الأقدر على ذلك لسرعتها وصلابة هيكلها، وسهولة سيرها في كل أنواع الطرقات.

[517] ليتنه: Lieutenant مرتبة عسكرية هي ملازم أول.

[518] خلعَت: بمعنى أزعجت.

[519] الرزايْز: ومفردها رزَّة، وهي العمامة على الرأس. والرزايز طايْرَة: بمعنى سقوطها من على رؤوس الرجال بسبب مطاردتهم من قبل الجنود الفرنسيين.

وهاهي قصيدة أخرى عن بطل آخر من أبطال الثورة التحريرية هو "منصور" جاء فيها ما يلي:

شوفوا لِيشـــارْ[520]. كِي جَـــارْ منين جَا للحَوْض مُولاهْ كِي حَارْ[521]. واذبَالْ

وقال منين ناخُض[522] بالعَسْكر وعَندي غيْر العسكر واليهود ما فيهم فَتنة.[523]

طاحوا عليهم بَنْهَارْ زَيْش الغُـــزار رايَسْهم منصور في الدزايَـــرْ مشهـــور

ما يخاف لا مَنْ طيارة ولا من كُور[524]. مْحَرَبْهُم حَرْب التمْلاس ما ينقبضوش باليد.

وعن البطل "عبد الوهاب" يرد ما يلي:

من الـــدزايَر حتى لَـــهْـــنايَه[525] انْ شا الله تـــبـــقى لاولاد الشهدا

يا خوتي راني مذلول بين مَشتى وخْريف قدْمـــوا خـــويـــا للسيـــلـــون[526]

يا بن الخنزير لا تزيَّرْ عْلِيـــهْ الكُورْدَة[527] ايْديه مْخَنثين ما مْوَالفش بَتمَرْميد[528]

يالكافر سامحنـــي ننـــظر ونـــشـــوف في الليل مسلسل راسه مكشـــوف

لالّة سَكْسْيـــون[529] مْسَنّـــدْ عَـــطـــشان

---

[520] ليشار: Char كلمة فرنسية تعني مَرْكبة قتال.

[521] حار: بمعنى احتار.

[522] ناخُضْ: بمعنى أتخذ طريقا. أو أين أسير؟

[523] فتنة: تعني هنا شجاعة.

[524] الكور: يعني قذائف المدافع.

[525] هْنَايَه: بمعنى هنا.

[526] السيلون: Cellule كلمة فرنسية بمعنى الزنزانة.

[527] الكورْدَة: Corde هي الحبل.

[528] التمَرْميدْ: هو الغبن.

[529] سكسيون: Section كلمة فرنسية تعني فصيلة من الجيش.

قال ما طقناش نضربوا من صَهْد الحُمَّان

يا النو[530] هَـــوْدي ربي للصحـــرا شحال عـــطشت فيها جـــنـــود

يا لالّة واش ادّانـــي لجـــبـــل العمور هـــذا طـــالـــع هـــذا عـــيـــان

يا لالة راه ســـيفـــط عـــبد الوهاب شكـــون عـــنا جـــا مخـــلـــص

يا لالة راه سيفط عـــبـــد الـــوهاب وقال غير كلمة وصلت الزيـــــش

حتـــى القـــافـــلـــة سَرْكْلـــوها[531] قالـــوا كتـــلوها هَـــذو فلاقة[532]

حتى الدقيق كْفوهْ[533] والسكر زيادة

لاكيس جنـــدي ورافـــد بندقية وأنت تقـــول هـــذا فلـــوس

تحت الطابلـــة وعينـــه تخـــزر[534] ويقول هذا ادّوهْ هذا شـــدوه

كتلـــونا بَزْفـــوف والطـــيـــارة والصانفيل تّدّي الأخبـــار[535]

زيش التحرير دَارْ خَصْلات كْبَارْ وزاد لقـــلـــبي نْـــزَاهـــــة

زيش التحرير راهْ غادي يَشرَعْ وأنـــت تعـــاونه يا رحمـــان.

لقد أبرزت هذه المقطوعات الشعرية بطولة المجاهدين الذين أدركوا أن الموت حتمي فتقبلوه، وهكذا خططوا لحياتهم على ضوء هذا التقبل. ولم تنف البطولات الفردية التي كانت في كثير من الأحيان نموذجا يقتدى به، فمجدت هؤلاء وخلدت أسماءهم. لقد دافع الثوار المجاهدون عن قيم ومباديء آمنوا بها فخاطروا بمصالحهم وبحياتهم باسم معتقداتهم؛ فتقبلوا الموت؛ لأن الموت في هذه

---

[530] النّوْ: هي المطر.

[531] سَرْكَلْ: Cercler كلمة فرنسية بمعنى حاصر.

[532] فلاقة: Fellaga كلمة أطلقها الفرنسيون على الثوار التونسيين والجزائريين.

[533] كفاه وكفاوَه: تعني أحرق الشيء.

[534] تخزر: بمعنى ترى.

[535] زف وزفوف: بمعنى الضجيج. أي أقلقنا ضجيج الطائرات. والصانفيل: Sans fil كلمة فرنسية بمعنى الهاتف اللاسلكي آنذاك.

الحالة يعتبر بمثابة حياة. يمكن أن يكون موتا للفرد ولكنه حياة بالنسبة لتلك القيم والمعتقدات أو التصورات أو المعايير.

ومن الدلالة الأكثر بلاغة أولئك المجهولون من الشهداء الأبطال الذين قوّضوا هدوء العدو وغطرسته. إنهم المجهولون بالأسماء في مختلف مقاومات الشعب الجزائري، حيث ارتقت بهم الشهادة إلى نكران الذات وارتفعت بهم إلى السماء فحاكوا الملائكة طهرا وروحانية وتصوفا.[536]

ولكن المرأة التي أوردت هذه المقطوعات لم تَفْصِل كل هذا عن واقع الناس، أي أنها لم تسبح في عالم الخيال والأحلام، بل كانت أقرب إلى الواقع، فهي عندما تتغنى ببطولة المجاهدين لم تنس ذكر الأعمال العدوانية للأعداء عن طريق المداهمات وإقامة المعتقلات والمحتشدات واستعمال أحدث الوسائل لترهيب السكان، وأظهرت في المقابل نكرانها لهذه الأعمال الإرهابية والمشينة.

2–تحدي المرأة ورغبتها في الجهاد

عاشت المرأة جنبا إلى جنب مع شقيقها الرجل تدعم الثورة بالنفس والمال والولد، فكانت المجاهدة في ميادين القتال والفدائية في المدينة، وكانت الممرضة التي تسهر على راحة الجرحى والمصابين، وكانت الإدارية والمعلمة والمحافظة السياسية، وكانت تطهو الطعام للمجاهد يأكل في بيتها أو يحمل معه مؤونته على ظهره يقتات منها بين الحين والآخر من الأنواع الغير القابلة للتعفن مثل "المَعَكْرَة" أو "الطمينة" المصنوعة من دقيق القمح والسمن والتمر، وهي أكلة دسمة تحتوي على مقويات هامة وتستعمل لوقت طويل جدا.

"كانت المرأة في بلادنا وما زالت قلعة الصمود والمقاومة، عماد الأسرة وخزان الوطنية، حافظت على الإنتماء الحضاري للأمة عقيدة وسلوكا، وبَلّغت

---

[536] عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي، ص: 313.

ذلك الإنتماء للأبناء والأحفاد عن طريق التربية بواسطة الأحاجي والأساطير الملحمية والقصص الشعبية عن بطولات الأجداد للإبقاء على جذوة المقاومة. في أحضانها نشأ وترعرع الأبطال من الشهداء والمجاهدين أبطال الحرية والمدافعون عن الكرامة والهوية.."[537]

ودخلت الميدان بنفسها فساهمت بكل طاقاتها في خدمة الثورة على مختلف مستوياتها وطبقاتها الإجتماعية، وتحملت الصعاب في كل مكان كمحاربة أو مسبلة أو سجينة معتقلة، يقول عنها شاعر الثورة مفدي زكريا:

وجلـــجل صوت نشيد اللـــواء   فتعنـــو الرؤوس له خاشـــعـــة
وبِنْت الجزائر تتلو نشيد العَذارَى   فتصـــغي الدنا راكـــعـــة.[538]

وهاهي تتحدى ضغوطات الاستعمار وترفض السير في مخططاته، ومنها التصويت على دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة في 28 سبتمبر 1958 الذي قدمه الجنرال ديغول للفرنسيين والجزائريين على السواء،[539] باعتبار الجزائر جزء من الجمهورية الفرنسية، وذلك رغم ما سيجر عليها هذا الرفض من تسلط وانتقام من قبل السلطات الاستعمارية، وتقول:

جَرّوني عْلَى السّدّرْ والقنـــدول   ما نفوطيش مْعَ ديغـــول.[540]

وتطالب في الوقت نفسه بحقها في الكفاح والجهاد لتثبت أنها أهل لكثير من الأعمال التي يمكن أن تسند إليها، لا فرق بينها وبين أخيها الرجل:

---

[537] أبو طارق محمد العربي، المرأة الجزائرية مَشتلة الثورة وحاضنة الوَطنية، الملتقى الوطني حول كفاح المرأة الجزائرية، عنابة 9 و10 جوي 1996، مطبوعات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص: 105.

[538] مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، بدون تأريخ.

[539] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996، ص: 281.

[540] السدر والقندول: نوعان من النباتات الطبيعية الشوكية. والفوط Vote ونفوطي كلمة فرنسية تعني الإنتخاب والتصويت.

آ الطـــالع للــجّبــل اعْلمْـــي خويا غْلاه تدَسْــهــا مَنِّـــي
هاتْ لِي كابوس[541]، بَاشْ نجَاهَدْ ونمْشي مْعَكــم يــا الزعَمَــا
يا الوَاغَـــشْ دِيرُوني فرْمْلِيَّة[542] و بَاهْ نْدَاوي المُجــاهـــدين.

وعن غياب المجاهد عن أمه وزوجته وأخته، والحزن عليه وعلى الوطن نجد ما يلي:

خوَيْرَة تبْكي تشيَّبْ الأعْـــراش حّمو الجُندي مــا يْرَاقَبْهَاش[543]،
ما نْمشطْ مـــا نْديـــرْ الحَـــنَّـــة وغِيـــرْ إلى جـــانـــي وَلـــدْ امَّ

أو:

ما نفرَحْ ما نـــديـــر الحَـــنـــة غير إلـــى جـــانـــي وْليـــدْ امَّ
آ الدَّارَق شَقْ الجـــبل تْعَالـــى أمَّـــك راهـــا سَـــارَتْ حـــالة
آ الدارق شق الجبـــل تعالـــى غُزَيْلـــك راهـــا فـــي هَانَـــة[544]
لا تبـــكِ لا تَنـــوِّ عـــقـــلك إلى مـــات خيَّـــك راه في الجنة
آ نَحْزن عْليك بالعشـــاريـــة هَـــوْدي مُـــولاكْ مَنْ رَاسْ الجّبَلْ.

وتتحرش المرأة بزعماء فرنسا الاستعمارية وتهجوهم شر هجاء وتنعتهم بنعوت هزلية وتقول:

يا ديغول ما زّينتَـــهْ بْهَمَّـــة نِيفَهْ طويل مْليحْ للتسَّة.

أو:

آ ديغول ماهُوشْ نتاعْ الهَمَّة نيفَهْ طْويلْ مْلِيحْ للشَمَّة.[545]

---

[541] كابوس: هو المسدس.
[542] فرْملّية: Infirmière كلمة فرنسية تعني ممرضة.

[543] حمو: اسم لأحد جنود جيش التحرير الذي تغيب عن أمه خيرة أو خويرة أو أم الخير.
[544] الهنَا هنا لا تعني الهناء بحسب اللغة الفصحى، بل تعني عكس ذلك حسب ما هو معروف في المنطقة. إنه يعني: القنوط واليأس والحزن..

وديغول هو الرئيس الفرنسي الذي جيء به سنة 1958 لينقذ الدولة الفرنسية الاستعمارية من غضبة الشعب الجزائري، فاتبع وسائل متعددة من أجل الحفاظ على هذه البلاد، لكن الشعب على لسان المرأة: البنت والأخت والأم، يَرُد بكل قوة رافضا التصويت على مخططات الجنرال (ما نْفوطِيشْ مْعَ دِيغُولْ)، وهي تدعوه إلى ترك الجزائر لأهلها والإهتمام ببلده، وتبين فشل سياسته مسبقا عن طريق الإستهزاء به (ديغول ماهوش نتاع الهمة- نيفه طويل مليح للشمة) أي أن سياسته ستؤول إلى الفشل لا محالة. مما جعل الرئيس الفرنسي هذا! يقتنع، بعد تردد، بوجوب الإنسحاب وترك البلاد لأهلها، ويسمح لهم بالتصويت وتقرير مصيرهم بأنفسهم، حيث خاطب الشعب الفرنسي في 14 جوان سنة 1960 بقوله: "ما مصير الجزائر؟ إنه لم يدر بخلدي قط أنني سأتمكن، بين لحظة وأخرى، أن أحل هذه المعضلة الماثلة منذ مئة وثلاثين عاما.. إن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم هو الحل الوحيد الممكن لمأساة معقدة ومؤلمة."[546]

3- وعن الخونة أعوان الاستعمار

إذا كانت الأنفة والعزة ومختلف أنواع الفضائل من سمات الرجال الغيورين على وطنهم وأهاليهم، فإن الضعف والإستكانة والغدر بالأهل من

---

[545] أورد الباحث محمد زكور من جامعة عنابة بعض المقاطع من هذا النوع الشعبي، من منطقة الأوراس، حول ديغول في مداخلة له تحت عنوان: "تمظهرات الآخر في القصيدة الثورية الشعبية بمنطقة الأوراس، دراسة لنماذج بالعربية والأمازيغية." بالملتقى الدولي السابع "الجزائر في نصف قرن: 1954-1962، الأعمال التاريخية والفلسفية." المنعقد بجامعة منتوري بقسنطينة أيام: 6-7-8 ديسمبر 2004، وهي كالتالي:

يا ديغول الطماع، والجزايَرْ العْزيزَة هَـزْ أوْلادَكْ وزِيـدْ الفَـلِـيـزَة

وفي نص آخر للباحث من المداخلة نفسها نجد:

يا ديغول بْلادَكْ بْلادَكْ، والجَزايَرْ ماهِيشْ لِيكْ بَنْ بْلَة(بن بولعيد) والفلاقة نَحّاوْها لِيكْ.

[546] مذكرات ديغول: الأمل 1958-1962"، ص: 99 و100.

سمات رجال آخرين اختاروا لأنفسهم طريقا سهلا في الحياة، وسَلّموا ضمائرهم لغيرهم خدمة لَمصالحَ آنيةٍ ومَكاسب فانية.

ويعد هذا السلوك ظاهرة شاذة، ساعد على بروزها المغريات المادية. أما أسباب الخيانة فتعود إما إلى ضعف الوازع الأخلاقي في نفوس هؤلاء أو إلى أطماعهم السياسية وخوفهم الدائم من العدو، أو إلى فقرهم وسوء حالتهم المعيشية، مما أجبر بعضهم على التجند في صفوف العدو (القوْمِية- الحَرْكَة- السبَايَسْ- المَخزَن- العَسْكَر). وهناك طائفة من السكان كانت تستغل الشعب في الماضي، ورأت في المحتل الجديد فرصة لتحافظ على امتيازاتها. وكانت تترفع بنفسها أن تكون في مستوى الشعب الفقير -وهو يمثل غالبية السكان- والذي كان خادما لها. "وتحت ظلام الخزي والعار مثلت بعض الأدوار المخجلة، لكنها لم تفلت حتى هي نفسها من ضربات الاستعمار."[547] وقد سمى محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه "تحفة الزائر"، هذه الطائفة من الجزائريين بـ "القبائل المتنصرة والمرتدة".[548] ألم يقم أحد هؤلاء بإرشاد الفرنسيين إلى عاصمة الأمير "الزمالة" في شهر ماي من سنة 1843! كان من نتائج ذلك تنفيذ الفرنسيين لمذبحة شنيعة ضد ساكنيها وحراسها، على حين غفلة وفي غياب الأمير، كما كان من نتائجها القضاء على مكتبة الأمير الثمينة مما جعله يحزن عليها حزنا عظيما.

فلم تكن المرأة الجزائرية ببعيدة عن أحداث البلاد، وهاهي تفضح هؤلاء "البيّاعَة" و"المْرَانْدِينْ" و"بيّاعِينْ دِينهُمْ" وتقول:

---

[547] محمد قنانش، الحركة الإستقلالية في الجزائر بين الحربين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص: 263.

[548] محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار_الجزائر، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903، ص: 263.

البَيَّـــاعَة شْحـــال يْـــدوروا   ويْوَصْلوا الأخبار لَلْبيرُو[549]

أو:

كي ندير لك يا حْبيي لَجيب جات   وجـــابها بَيـــّاعْ دِينـــه

كي ندير لك يا حبيي لجيب جات   وجـــابْهـــا مُراندي.[550]

لقد تمكنت السلطات الفرنسية أحيانا كثيرة من تمزيق القيادات الجزائرية، "غير أنها لم تتمكن من تمزيق الشعب الجزائري، ونجحت في تكوين فئة من العملاء، غير أنها لم تتمكن من تحطيم ما يملكه الشعب من أنفة وكبرياء."[551]

4- مرحلة الإستقلال والفرحة التي عمت الأرجاء:

دامت الثورة التحريرية سبع سنوات ونصف ذاق فيها الشعب الجزائري مختلف أنواع المحن، فلم يكن من المنطق أن يعبر الناس عن أفراحهم آنذاك أو أن يحتفلوا بأعيادهم، ولهذا أصدرت جبهة التحرير الوطني قائدة الجماهير الجزائرية أوامرها للشعب كي يمتنع عن إقامة كثير من مظاهر الأفراح التي تعَوَّد على إقامتها مثل مناسبات الأعراس وذبح الأضاحي وغير ذلك من المظاهر والوسائل الدالة على الفرح والسرور، ودعوة للإقتصاد في الإمكانيات. وقد عبرت المرأة آنذاك عن حزنها وامتناعها عن التعبير عن أي فرح كان:

ما نَفرَحْ ما ندِيرْ الحَنة   غِيرْ إلى جاني وْلِيدْ أمَّ.

ولكن هاهو الاستقلال قد بان وظهر، فالتفرَحْ جميلة ولتعلن عن ذلك على الملإ. وجميلة (بوحيرد- بوباشا- بوعزة)[552] هي رمز الإباء والتضحية

---

[549] البيرو: Bureau كلمة فرنسية تعني مكتب، ويقصد بها 2^{em} Bureau وهي السلطة الاستعمارية العسكرية التي كانت تتابع السكان خلال الثورة وتعاقبهم أشد العقاب إذا ما ثبت تورطهم فيها أو لمجرد الشك في ذلك.

[550] مْرَاندي: Rendu كلمة فرنسية يقصد بها الخاضع لسلطة العدو. Se rendre

[551] بسام العسلي، المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي، دار النفائس، بيروت 1983، ص: 170.

والفداء، و"قصة جميلة بوحيرد... نموذج لبطولة المرأة الجزائرية وصمودها الشامخ شموخ جبال الجزائر، بل تحولت أيضا إلى محرك قوي للعديد من الأفلام الأدبية والسياسية في العالم... تبرهن على عدالة قضية هذا الشعب."[553]

ولتضع الحناء في يديها بعد سنين من الكفاح، فقد زال الكَدَر وانمحى ليل الاستعمار بلا رجعة، ولتهنإ البلاد بأبنائها، وليقيموا دولتهم ويؤسسوا لمستقبلهم آمنين مطمئنين:

سبـع سنـين مادارو الحـنة	ومـا صبـروا بنـات الوطن!
جميلة ديـري الحَـنَّة لِيـدِيكْ	لانْجيـرِي[554] ادَّى الحُـرِّيَّـة
لانجيـري يا عـز البَـلـدان	الاستقـلال ادَّاوْهـا بـارود
يا الـبْـنات يا الوَطـنـيَّات	فرْشـوا للزَّيْش وِيـنْ يَّاتْ
فـرانـسـا قلـعـي لبْلادَك	والـدْزايَـرْ عَمْـرَتْ البْـلادْ
يا خَـيْري أنا بْسـيدي رَبِّي	القونْصُو وَلَّـى عْروبيـة[555]
هَرْسوا البْوَارَا وبْناوْا الحْكومَة[556]	أوْلاد الـدْزايَـر الأحْـرار
طالعة للبيرو ورَاسِـي عَـرْيان	مَتحَزْمَـة بَالْوَاغش الوَطـن[557]
هَذِي غـلى أوْلاد الـدْزايَـرْ	يَالْمْشَعْـلـيـن النـيـرانْ
ا ريَّضْ يا مُولْ الكَارْ ريَّـضْ	الزعَمَـا فـي الحْدادَة يَرْجوكْ.

---

[552] إبراهيم لونيسي، نساء جزائريات تحت التعذيب: الجميلات الثلاث_نموذجا،حولية المؤرخ، الجزائر، العدد 2002/2.

[553] نفسه.

[554] لانجيري: L'Algérie تعني الجزائر.

[555] القونصو: يعني به الفرنسي. وعروبية: يعني الجزائري، أي أن الحكم انتقل من الفرنسي (القونصو) إلى الجزائري (عروبية).

[556] أي أن الجزائريين قضوا على الإدارة الاستعمارية (البْوَارَا) وحلوا محلها إدارة وطنية (حكومة).

[557] أي أنا ذاهبة إلى الإدارة الجزائرية والحكم الجزائري دون خوف -مثلما كنا سابقا- وأنا في كامل الحرية (راسي عريان: تعبير مجازي).

وقد واصلت المرأة إبداعاتها الجماعية هذه معبرة عن كل ما يختلج في وجدانها من مطامح وآمال وآلام، مسجِّلةً الأحداث بطريقتها، وها هي تتابع أحداث ما بعد الإستقلال، من ذلك مقتل محمد خميستي وزير الخارجية في أول حكومة للجزائر المستقلة في عهد الرئيس أحمد بن بلة، وتقول:

بَـــن بَلة ويـــن كَانوا عينيك خمِيـــسْتِي ضَـــرْبوهْ بين إيْدِيــكْ.

والمعروف أن محمد خميستي (1930-1963) تم اغتياله يوم 11-4-1963 عند خروجه من إحدى جلسات الجمعية الوطنية وهو رفقة زوجته العضو في المجلس نفسه.[558]

الخصوصيات الفنية

إن ما يلاحَظ فنيا على هذه الأبيات والمقطوعات الشعرية الشعبية أنها قريبة الصلة من الحديث اليومي المحلي السائر بين الناس، لأنها صادرة عن أشخاص من جمهور الشعب، وأنها لا تخضع للأوزان الشعرية المعهودة، بل هي أقرب في كثير من الأحيان إلى النثر. وقد حاولَتِ المرأة المبدعة أن تقدم هذه الأبيات بقافية محددة حتى تكون هناك متعة موسيقية، تعبيرا عن الإنفعالات النفسية تعبيرا مُوَقَّعا، يصل إلى أذن السامع رنانا خفيفا منتظما. وتتميز بعض الأبيات المقفاة بتشابه في قافية شطري البيت الواحد مثل:

أ الزعَمَا نُوَّارْ الجّبالْ وزيْشْ فرَانسا رَاهْ اذبَالْ

أو:

شْكونْ حَلْ الفتْحَة نتاعْ البَابورْ جَمَالْ عَبْد الناصَرْ المَذكُورْ.

---

[558] أنظر:

Achour Cheurfi, La classe politique Algérienne de 1900 à nos jours, Dictionnaire Biographique, Casbah éditions, Alger 2001, PP/224-225.

ويلاحَظ أيضا أن هناك كلمات أجنبية ذات أصل فرنسي وردت في النصوص، تأثرت بها اللغة اليومية للحماهير الشعبية نتيجة الإحتكاك الطويل مع الفرنسيين وارتباط المصالح، وقد وردت هذه الكلمات أكثر في أسماء الآلات والأجهزة المختلفة التي لم تجد لها المرأة العامية نظيرا لها في لغتها اليومية (البِيرُو- المورْطِي- الطنك- البُسط- فرْمْلِية-الصانفيل- الكارْ..الخ).

لقد أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة العلم والقوة والحضارة، وأصبحت العربية مغلوبة على أمرها في عقر دارها، و"المغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شِعاره وزيه ونِحلته وسائر أحواله وعوائده."[559]

وقد وردت أوصاف وأسماء مختلفة للفرنسيين المستعمرين منها: الكافر- ابن الخنزير - أولاد العلج- القونصو - لاليجو- ديغول- فرانسا.

كما استعملت مصطلحات مرتبطة بالثورة والحرب منها مثلا: الجبال- الأوراس- السلاح- الحْدادة- الجّراح- الزعما- النيران- الوطن- المجاهدين- الغابة- العشارية- زيش التحرير-الاقراص- القرطاس...الخ.

ومن الكلمات والتعابير ذات المعتقد الديني نجد: المجاهد- سيدي ربي- الجنة- إن شا الله- عاونهم يا العزيز ربي- اللي دارها ربي الساع تكون- التقوى عند مولانا.

ومن الكلمات والتعابير المحلية الخاصة بالمنطقة التي تدل على الحياة البدوية في الجنوب الجزائري نجد: الصحرا- عين الصفرا- الشيْ(الشواء)- الدوّارْ- صَهْدْ الحُمان- جبل العمور- القافلة..الخ.

---

[559] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت 2003، ص: 111.

أما الكلمات الدالة على جنود جيش التحرير الوطني فنجد ما يلي: الزعما- الرايَسْ والرِّياسْ- الجُندي والجنود- الزيْشْ وزَيْش التحرير- أصحاب الزيش- أولاد الدزايَرْ- أولاد الوَطَنْ- زيش الغُزار- ذاك الشباب- الوَاغَشْ- المجاهدين- أولادنا- اوْليد أمّْ- خويا.

وبعد تِعْداد الكلمات المكررة أكثر، توصلنا إلى أن الكلمات الدالة على الجندي الجزائري المحارب هي الأكثر ورودا من غيرها رغم اختلاف التسميات. وهذا يؤكد القصد الأساسي من هذه النصوص وهو التغني بالبطل بذكر خصاله والإشادة بها لاستنهاض الهمم والتنفيس عن الخلجات، وقد ارتكزت الابداعات الشعبية في رسم البطل على مرتكزات دينية واجتماعية، استمدت قوتها من ذلك الصراع القائم بين المستعمر الغازي للبلاد منذ القدم والقوَى المحلية المدافعة عن النفس وعن خصوصية هذه الأمة؛ لذا قُدمت عناصر البطولة على أنها نابعة من التراث ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب ومن معطيات العصر في إطار الحرب والسلم.

والخلاصة أن المرأة الجزائرية شاركت في أحداث البلاد بكل ما لديها من جهد بدني ومعنوي وبالكلمة الشفوية تتغنى بها لتثير حماس المجاهدين والمجاهدات وتدفع بعجلة الثورة إلى الأمام بصمود وجرأة، مما يزيد الثوار إصرارا وعنادا أكثر. وكانت تقدم المثال بشجاعتها وتضحياتها في سبيل الحرية، فكان منها المجاهدة والشهيدة مثل: حسيبة بن بوعلي ووريدة مداد ومليحة حميدو وغيرهن كثيرات من المجهولات في السهول والجبال وفي التلال والصحاري.

فالمرأة بمشاركتها المباشرة في الثورة وبدعمها وتشجيعها للآخرين بواسطة المساعدات المتعددة وبزغرودتها في حالة النصر والإستشهاد على حد سواء وبأناشيدها، لم تقم سوى بواجبها تجاه الوطن الذي كان ولا يزال في حاجة إلى تعاون كل أبنائه.

الخاتـــمة

نستنتج مما سبق أن التاريخ تاريخان، تاريخ رسمي تسطره الأنامل فتحمله الصخور والجلود وبعض النباتات والأوراق، وتاريخ شعبي تحمله الأدمغة وتختزنه الذاكرة وتحافظ عليه على مر الأزمنة والعصور. فيُعرف الأول منهما بقراءته مباشرة من مصادره الأصلية، بينما يعرف الثاني عن طريق الألسنة التي تنقله من فرد إلى فرد ومن زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر أيضا، يعبر به الوجدان الشعبي عما يحسه من ألم أو أمل تجاه الأحداث التي يمر بها، وبذلك تسجل الثقافة الشعبية أحيانا دقائق من التاريخ يغفل عنها التاريخ الرسمي .

لم نكتب عن تاريخ الجزائر كرونولوجيا بكل حيثياته وجزئياته، ولكننا مررنا على بعض المحطات من ذلك التاريخ لنغرف من هنا وهناك باقات من الأزهار أو نماذج من أحداث زاهرة أو أوضاع بائسة.

وتاريخ الجزائر كغيره مسجل في الوثائق الرسمية وفي الذاكرة الجماعية على مر العصور، وقد عبرت مواضيعنا في هذا الكتاب عن جزء من أوضاع الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين.

فبينما عبرت المقاومة الرسمية عن أوضاع محددة وقضايا بارزة حدثت فعلا، عبرت المقاومة الثقافة الشعبية عن الأحاسيس والوجدان وعن التاريخ الشعبي الجزائري في تلك المرحلة، لم تعبر هذه الثقافة بطريقة سلبية بل كانت مهمتها أساسا تمجيد الماضي التليد والحفاظ عليه في وجه محتل غاصب هدفه تحطيم خصوصية الشعب وأعرافه.

وقد اشترك العاملان في موضوعهما، وهو الحركات الجزائرية الشعبية المناوئة للاستعمار في الفتر ة المذكورة، والتي تواصلت طيلة العهد الاستعماري دون كلل.

لقد أدت تلك المرحلة إلى بروز رجال صناديد عقدوا العزم على النضال من أجل وطنهم ورفع التحدي أمام قوى الظلم والطغيان، ولم يثنهم عن ذلك تفوق العدو ولا مناوراته أو إغراءاته.

إن الأزمة تلِدُ الهِمَّة، ولا ينفرج الأمر إلا إذا ضاق، ولكن هذا لن يتأتى إلا بتضحيات الرجال وصمود الأبطال. والشدائد هي المحك الحقيقي لظهور المواطن الصالح والكشف في الوقت نفسه، عن أشباه الرجال ولا رجال.

إن بطولة الشعب الجزائري واستماتته في سبيل الحياة الحرة الكريمة التي عشقها أسلافه لتتجدد هي الأخرى، على مر العصور، في نفوس الشعب الجزائري الذي احتشد ضمن حركات منظمة حينا وفرديا حينا آخر، ليرفع عنه عار الإحتلال ويفرض على الغاصبين الإعتراف بحريته واستقلاله.

المصادر والمراجع

المذكرات

-أحمد توفيق المدني، حياة كفاح-مذكرات- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1976.

-محمد بن الحسن الحجوي، انتحار المغرب بيد ثواره، مذكرات مخطوطة بالخزانة الوطنية للوثائق بالرباط. تحت رقم: ح/123.

-محمد خير الدين، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، بدون تاريخ.

-مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني ومحفوظ سماتي ومحمد الصالح الجوف، شركة دار الأمة، الجزائر 1998.

Archives

-Archive de la wilaya d'oran, N/4476. I/ 4

المراجع باللغة العربية

-أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنة للكتاب، الجزائر 1988.

-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983.

-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1998.

-أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
-أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
- أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991.
-أحمد طربين، تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق 2003.
-أسعد الخطيب، البطولة والفداء عند الصوفية، دراسات تاريخية، مطبعة الشام 1995.
-إسماعيل بن عودة المزاري(الآغا)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، الجزء الثاني، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.
-إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
-إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والإستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
-إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي، تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1985.
-إيريك موريز، مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب أكرم ديري والمقدم هيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979.
-أنيسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995.

-بسام العسلي، المقاومة الجزائرية للإحتلال الفرنسي، دار النفائس، بيروت 1983.
-بسام العسلي، خير الدين بربروس، دار النفائس، بيروت 1983.
-بن عمارة خليفة، الحُلم والمُلك، رواية تاريخية، ترجمة محمد قندوسي، مطبعة دحلب، الجزائر 1999.
-بن يوسف بن خدة، إتفاقيات إيفيان، تعريب لحسن زغدار ومحل العين جبائلي، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر 1987.
-التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1962)، ش و ن ت، الجزائر 1983.
-حلول يلس الحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، ش و ن ت، الجزائر 1975.
-جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1994.
-جيمز فيرجريف، الجغرافيا والسيادة العالمية، ترجمة علي رفاعة الأنصاري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1956.
-حليمي عبد القادر، جغرافية الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر 1968.
-حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، ترجمة محمد العربي الزبيري، دار الكتاب العربي، بيروت 1982.
-حميد عبد القادر، فرحات عباس رجل الجمهورية، دار المعرفة، الجزائر 2001.
-رشيد الناظوري، المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت 1981.
-رشيد الناظوي، مدخل في التطور التاريخي للفكر الديني جنوب غرب وشمال إفريقيا، دار النهضة العربية، بيروت 1969.

-زاهر رياض، استعمار إفريقيا، المكتبة العربية، القاهرة 1956.
-الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، ش و ن ت، الجزائر 1982.
-زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف بمصر 1961.
-سعد دحلب، المهمة منجزة، منشورات دحلب، الجزائر 1986.
-شارل ديغول، مذكرات الأمل 1958-1962، ترجمة سموحي فوق العادة، منشورات عويدات، بيروت 1971.
-شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.
-شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر 1982.
-صالح بن عبد الله الألغي، المدرسةالأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1998.
-صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، ش و ن ت، الجزائر، ب ت.
-صلاح العقاد، المغرب العربي، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر 1962.
-عبد الحميد بورايو، منطق السرد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994.
-عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
-عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت 1980.
-عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ابن حزم، بيروت 2003.
-عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1992.

-عبد الله شريط ومحمد الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
-عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2003.
-عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت 1984.
-عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة 1983.
-عبد القادر خليفي، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، دار الغرب، وهران 2004.
-عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط 1979.
-عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الإقتصادي والإجتماعي 1830-1960، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت 1983.
-العربي دحو، بعض النماذج الوطنية في الشعر الأوراسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.
-العربي هلالي، فجيج، تاريخ وثائق ومعالم، طبع على نفقة المؤلف بالمطابع المغربية والدولية، طنجة 1981.
-علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1991.
-علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية، دار الطليعة، بيروت 1982.
-علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت 1982.

-عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، دار البعث، قسنطينة 1991.
-فاروق إسماعيل، الأنثروبولوجية الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1984.
-فاروق خورشيد، الموروث الشعبي، دار الشروق، 1992.
-فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، ش و ن ت، الجزائر 1980.
-فرحات عباس، الثورة الجزائرية أو ليل الاستعمار، ترجمة ولين خوري، دار الكتب الوطنية، دمشق 1964.
-قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، إين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، القاهرة 1998.
-كيلوم ليجوم، الجامعة الإفريقية، ترجمة أحمد محمود سليمان، الدار المصرية، القاهرة 1966.
-محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978.
- محمد العربي الزبيري، مقاومة الجنوب الجزائري للإحتلال الفرنسي،، ش و ن ت، الجزائر 1972.
-محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، سيرته السيفية، المطبعة التجارية، الإسكندرية 1903.
-محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1989.
-محمد حسين دكروب، الأنثروبولوجيا: الذاكرة والمعاش، دار الحقيقة، بيروت 1991.

-محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1990.
-محمد عيد، المستوى اللغوي، دار الثقافة، القاهرة 1981.
-محمد قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف بمصر 1968.
-محمد قنانش، الحركة الإستقلالية في الجزائر بن الحربين العالميتين، ش و ن ت، الجزائر 1982.
-مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
-مصطفى طلاس وبسام العسلي، الثورة الجزائرية، دار الشورى، بيروت 1982.
-نوري حمودي القيسي، البطل في التراث، دار الشروق، بغداد 1988.
-يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
-يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة 1980.
-يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996.
-يونس البحري، دماء في المغرب العربي، دار النشر للجامعيين، بيروت.

المراجع باللغة الفرنسية

-Arlette welty domon, J'inventerai mon peuple, les édition de Paris, max choleil 1995.

-Achour cheurfi, la classe Algériènne de 1900 à nos jours, dictionnaire biographique, casbah édition Alger 2001.

-Ahmed sékoutouré, L'OUA doit assurer ses résponsabilités historiques, imprimerie nationale, Conakry, juin 1976.

-Alistar horne, Histoire de la guerre d'Algérie, édition albin michel, Paris 1991.

-Bézy le citoyen, Insurrection du sud oranais, publié par le citoyen bézy, Oran collet 1884.

-Brino étienne, Abdelkader, hachette 1994.

-Charles robert agéron, Les Algériens musulmans et la France, Presses universitaire de France, Paris 1968.

-De lamartinière et lacroix, Document pour servir à l'étude du nord ouest africain, gouvernement général de l'Algérie, A. Jourdan, Alger 1897.

-Djeghloul Abdelkader, Elements d'histoire culturelle algérienne, ENAL, Alger 1984.

-Encarta 2005.

-Faure-Biguet G. et Delphin M. G., Les séances d'el-aouali, textes Arabes en dialecte maghrébin, journal asiatique, onzième série, tome/2, juin 1913. et tome/3, janvier-fevrier 1914.

-Graule E. Insurrection de Bouamama, henri charles lavauzelle, édition militaire, Paris 1905.

-Jean charles humbert, La découverte du sahara, L. harmatan 1996.

-Jean morin, De gaulle et L' Algérie (mon témoignage 1960-962).

-Kiva P. En Algérie(souvenirs), henri charles lavauzelle, éditions militaire, Paris 1894.

-Michel comaton, les camps de regroupemenh de la guerre d'Algérie, l'harmattan Paris 1998.

-Mohamed Guentari, Organisation politico-administrative et militaire de la révolution de 1954 à 1962, V/2, OPU, Alger 1994.

-Mohammed harbi, Une vie debout, casbah éditions , Alger 2001.

-Mohamed teguia, L'Algérie en guerre, OPU, Alger san date.

-Mouloud mammeri, Poèmes kabyles anciens, françois maspéro, Paris 1980.

-Olivier long, Le dossier secret des accords d'evian, OPU, Alger 1989.

-Raymond Vanfrey, Préhistoire de l'Afrique, Tome/1, Le maghreb, imprimerie officielle de la Tunisie, Tunis, sans date.

-Rédha malek, L'Algérie à Evian, éditions dahleb, Alger 1995.

-René Pinon, L'empire de la méditerranée, Perrin et Ci , librairie éditeurs, Paris 1912.

-Slimane chikh, L'Algerie en armes, OPU, Alger 1981.

-Youcef nacib, Anthropologie de la poésie kabyle, éditions andalouses, Alger 1993.

-Yves courrière, la guerre d'Algérie, librairie arthème fayard 1968.

-Yvonne turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, ENAL, Alger 1971.

المقالات والمحاضرات

-إبراهيم لونيسي، نساء جزائريات تحت التعذيب: الجميلات الثلاث نموذجا، حولية المؤرخ، العدد الثاني، 2002.

-أبو طارق محمد العربي، المرأة الجزائرية مشتلة الثورة وحاضنة الوطنية، الملتقى الوطني حول كفاح المرأة الجزائرية، عنابة يومي 9 و10 جوي 1996، مطبوعات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر ب.ت.

-أحمد طربين، أصداء التضامن في المجلس النيابي السوري مع الثورة الجزائرية 1954-1962، الملتقى الدولي-الجزائري: 24-28 نوفمبر 1984.

-بوعلام بسايح، الأمير خالد حفيد عبد القادر، مجلة الثقافة، العدد 97، يناير-فبراير 1987.

-بوعلام بسايح، الثقافة الإفريقية: طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة، العدد 96، نوفمبر-ديسمبر 1986.

-رابح لونيسي، فرانز فانون والبحث عن الخلاص النفسي في الثورة الجزائرية، مجلة عصور، مخبر مصادر وتراجم، جامعة وهران، العدد الأول، جوان 2002.

--زكي مبارك، المجاهد بوعمامة من خلال بعض المصادر التاريخية المغربية المعاصرة، مجلة الثقافة، العدد 82، سبتمبر-أكتوبر 1984.

-زكي محمد إسماعيل، الثقافة والشخصية العربية، دراسات في المجتمع العربي، اتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة، شركة شقير وعكشة، عَمان الأردن 1985.

-زهور ونيسي، المرأة والثورة، الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة الجزائرية، عنابة يومي 9 و10 جوي 1996، مطبوعات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطني وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ب. ت.

-عبد الحميد بن باديس، العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية والآحاديث النبوية، رواية وتعليق تلميذه محمد الصالح رمضان، منشورات المجلس الاسلامي الأعلى، الجزائر 1424هـ.
-عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي والمسألة الوطنية، مجلة التبيين، العدد الأول، 1990.
-عبد الرحمان عمراني، التسليح أثناء الثورة، منشورات وزارة المجاهدين، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2001.
-عبد الله حامد حمد، فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية، مجلة عالم الفكر، العدد:3، يناير-مارس 2000.
-عمار بلحسن، الأدب الشعبي، مطبوعة مصلحة الثقافة لولاية البيض بمناسبة "مهرجان محمد بلخير للأدب الشعبي" سنة 1988.
-عمار بوحوش، خصائص الثورة الجزائرية مقارنة بالثورات الأخرى في القرن العشرين، أعمال الملتقى الدولي- الجزائري، 24-28 نوفمبر 1984.
-الفرقاني لحبيب، الأدب والفنون الأمازيغية، أعمال الدورة الثالثة لجمعية الجامعة الصيفية بأكادير، منشورات عكاظ، من 1 إلى 6 غشت 1988.
-محمد العربي ولد خليفة، إشعاع الثورة وأبعادها الجيو سياسية، سلسلة الندوات، الدبلوماسية الجزائرية 830-1962، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 1998.
-محمد العربي ولد خليفة، واقع الحركة الثقافية، محاضرة في الملتقى الرابع للفكر الإسلامي، سبتمبر 1980.
-محمد قنطاري، الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجهة الغربية، مجلة الذاكرة، العدد الثالث، خريف 1995.

-محمد أمطاط، الملك محمد الخامس ودعم حرب التحرير الجزائرية 1956-1961، مجلة المناهل، العددان 78/77، فبراير 2006.
-المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو 1973.
-المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء في وهران والقبائل المجاورة، مجلة الأصالة، العدد 13، مارس-أبريل 1973.
-يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة الثقافة، العدد 63، ماي-جوان 1981.

المقالات باللغة الفرنسية

-Desparmet J. Les chansons de geste de 1830 à 1914 dans la mitidja, revue africaine, imprimerie la typo et jules carbonet, Alger 1939.

–Henri carnoy, L'Islam mœurs et coutumes, revue de l' Islam 1897.

-Louis rinn, Nos frontières sahariennes, revue africaine, N/30 de 1886.

-Palaska, Les oulad Belhorma, bulletin trimestrielle de la sociéte de géographie et d'archéologie d'Alger 1906.

-Mercière E. La vérité sur les ksour de l'Algérie, revue de l' Islam, oct 1900.

-Trumelet C. notes pour servir à l'histoire de l'insirrection dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869. revue africaine N/23, de 1879, OPU, Alger 1985.

-Wachi P. Notes et souvenirs pour servir à l'histoire de la province d'Oran, l'insurrection de Bouamama 1881-1882. revue tunisienne 1901 et 1902.

الأطروحات والرسائل الجامعية

-بوعمامة بلحرمة، ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة، مذكرة ليسسانس في الدراسات الإسلامية، جامعة محمد الأول بوجدة 1990/1989.

-عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، أطروحة دكتوراه دولة، كلية الآداب اللغات والفنون، 2001/2000.

الدوريات

-البصائر، العدد 10، من السلسلة الثانية، 13 أكتوبر 1947.

-مجلة الشهاب، الجزء السابع، المجلد الثالث عشر.

-مجلة أمال، عدد خاص بالأمير عبد القادر، جويلية 1970

الصحف باللغة الفرنسية

-Elmoudjahid/ - N/22 du 16 avril 1958.

N/23 du 5 mai 1958.

N/28 du 22 aout 1958.

N/54 du 5 mai 1960

N/ 118 du 2 avril 1962.

مراجع أخرى

-المنتقى الرشيد من جيد النشيد، إصدار جماعة من الأساتذة، مطبعة بن خلدون تلمسان، جوي 1963.

-سياسة فرنسا لفصل الصحراء الجزائرية، تقديم وحدة البحث للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، سلسلة

الملتقيات، عدد خاص عن فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، الجزائر 1998.
-المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ب ت.

المصادر والمراجع الشفوية:

-أم الخير سعداوي، 73 سنة، عين الصفراء 1985.
-بلحرمة عبد القادر، المدعو "عثمان"، 62 سنة، مجاهد وضابط متقاعد من الجيش الوطني الشعبي، المقابلة بوهران في 12-9-1999. ت 2005.
-بن زيان سعيد بن محمد، 67 سنة، تاجر، بني ونيف 1995.
-بن زيان عيسى، 69 سنة، إمام متقاعد، بني ونيف 1995.
-بودواية الحبيب، 70 سنة، تاجي، موال سابق، عين الصفراء 1989.
-بوشيخي الجيلالي، 58 سنة، بن باديس ولاية سيدي بلعباس 1995.
-بوعامر ميمونة، أكثر من قرن، تاجية، عين الصفراء 1995.
-بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم، 72 سنة، شيخ طريقة، عين بني مطهر 1999.
-بوغوفالة عبد الجبار، 77 سنة، مجدوبي، عين الصفراء 1995.
-جباري ميلود بن محمد، 68 سنة، متقاعد، عسكري منتدب سياسيا من 1956 إلى 1962 مع قيادة المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة، المقابلة بعين الصفراء في 2003/9/4.
-حسني عبد القادر، 63 سنة، بلدة أولاد عبو بدلدول ولاية أدرار 1994.

-دالي يحي حورية المعروفة بـــ "ربيعة"، زوجة المجاهد مختاري، 64 سنة، مراقبة في النظام السياسي بوجدة أثناء الثورة، المقابلة في متحف المجاهد بوهران 5 جوي 2003.

-رقيق حسن، 61 سنة، زاوي-بوشيخي، وهران 1995.

-الزاوي بوعزة، 84 سنة، من أولا سيدي بن عيسى من الزّوَا، المقابلة في بن باديس بولاية سيدي بلعباس في 26-7-1995.

-زياد امحمد بن البشير، 80 سنة، متقاعد محافظ عسكري وسياسي 1958 بمنطقة تيقري بالمغرب الأقصى، المقابلة في المشرية في 2003/9/2.

-الشلالي العربي، 84 سن، مجدوبي، عين الصفراء 1994.

-خليفي محمد، 63 سنة، مجاهد ضابط بالجيش الوطني الشعبي، المقابلة بعين الصفراء في 8-3-1999.

-خليفي العربي، مجاهد، صف ضابط في الجيش الوطني الشعبي، توفي سنة 2002 عن عمر يناهز 80 سنة.

-صافي سليمان، 86 سنة، عين الصفراء 1995.

-عبد الحق بلحسين، 62 سنة، من أولاد جرير، المقابلة ببشار سنة 1995.

-عقبي عبد الغني المدعو "عمار"، مجاهد وال ووزير سابق، المقابلة بوهران في 15-3-1999.

-فاطمَة سعداوي، 88 سنة، وهران 2004.

- فاطمة طيبي، 25 سنة، معلمة بعين الصفراء 1987، (جامعة) من لدن الراويات: فاطنة 60 سنة. -عابْدة 56 سنة. -عربية 70 سنة. -حادّة 70 سنة. -الجراحية 46 سنة. -يَمنة 40 سنة. - مربحة 44 سنة

-قدوري قدور، 64 سنة، تاجي، عين الصفراء 1995.

-مختار فيلالي، مجاهد وأستاذ جامعي ورئيس جمعية التاريخ لمنطقة الأوراس، تصريح في ندوة يوم النصر في 19 مارس 2003 بجامعة وهران.

-معمري الصحراوي، 84 سنة، من أولاد سيد التاج، المقابلة بعين الصفراء سنة 1988.

-معمري عائشة بنت أحمد، 92 سنة، عين الصفراء 1995.

-يعقوبي لخضر المدعو "جمال"، 70 سنة، مجاهد ضابط متقاعد من الجيش الوطني الشعبي، المقابلة بوهران في 12-3-1999.

الفهرس العام

المقدمة...05

الفصل الأول: مقاومة وجهاد مستمرين 09

أولا :الأمير عبد القادر من خلال كتاب الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي 14

ثانيا :مقاومة الشيخ بوعمامة في الكتابات الجزائرية خلال العهد الاستعماري 31

ثالثا :الشيخ بوعمامة من خلال بعض الكتابات الأجنبية 44

رابعا :عين صالح ومقاومتها للاستعمار..63

خامسا :الأمير خالد بطل الجزائر...79

سادسا :الدور النضالي للحركة الإصلاحية...91

سابعا :الثورة الجزائرية وبعدها الإفريقي...104

ثامنا :سياسة ديغول الجزائرية من خلال مذكراته 128

تاسعا :قراءة في كتاب "الثورة الجزائرية" لمصطفى طلاس وبسام العس..........................157

عاشرا :طرق التموين بالسلاح خلال الثورة التحريرية في المنطقة الجنوبية

الغربية...176

حادي عشر :يوميات طفل مهاجر...197

ثاني عشر :قضية الصحراء في إتفاقيات إيفيان........ 233

الفصل الثاني: المقاومة الثقافية الشعبية........ 249

أولا :المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي........ 252

ثانيا :دور الطرق الصوفية في المحافظة على الهوية الوطنية........ 262

ثالثا :الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري........ 275

رابعا :مقاومة المقراني في الشعر الشعبي........ 292

خامسا :حركة الشيخ بوعمامة في لغة الآخر........ 305

سادسا :صورة الفرنسي في روايات الشيخ بوعمامة........ 318

سابعا :القول، المرأة والثورة التحريرية........ 338

الخـــاتـــمـــة........ 363

المصادر والمراجع........ 365

الفهـــــرس العام........ 383

Achevé d'imprimer sur les presses de

l'OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES

1, Place Centrale - Ben-Aknoun - ALGER